القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية

الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩٠٤ - ١٩١٧



تحرير وتقديم: سليم تماري وعصام نصار

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

تعالج هذه اليوميات حقبة حرجة من حداثة القدس هي فترة نهاية الحكم العثماني. وتشمل ملاحظات المؤلف عن الحياة اليومية في القدس وضواحيها من احتفالات دينية وعلمانية واحداث مثيرة مثل دخول الكهرباء والسيارة والفونوغراف والسينماتوغراف الى المدينة واستقبال اهالي البقعة لاول طائرة عثمانية تحط في المدينة.. كذلك الامر فالمذكرات توثق لحياة المؤلف كضابط في الجيش العثماني وخدمته في البحر الميت وعلاقته بشخصيات بارزة من المدينة. مثل حسين الحسيني. كما نسيج الحياة في حارة السعدية والمصرارة. يشمل الكتاب عشرات الصور التاريخية من المجموعة الجوهرية وملاحق مهمة توثق النظام الاجتماعي والاقتصادي في القدس في هذه الفترة المهمة.

يحوي الكتاب اسطوانة موسيقية مدمجة تحوي قطعا موسيقية من الفترة العثمانية من أداء واصف جوهرية.

INSTITUTE FOR PALESTINE STUDIE
Anis Nsouli Street, Verdun
P.O.Box: 11-7164
Postal Code: 11072230
Beirut - Lebanon
Tel. 804959. Fax: 814193
Tel. & Fax: 868387
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة عربية مستقلة تأسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ــ الصهيوني. وليس للمؤسسة أي ارتباط حكومي أو تنظيمي، وهي هيئة لا تتوخى الربح التجاري.

وتعبِّر دراسات المؤسسة عن آراء مؤلفيها، وهي لا تعكس بالضرورة رأي المؤسسة أو جهة نظرها.

شارع أنيس النصولي ــ متفرع من شارع فردان
ص.ب: ٧١٦٤ - ١١
الرمز البريدي: ١١٠٧٢٢٣٠
بيروت ــ لبنان
هاتف: ٨٠٤٩٥٩. ٨٠٤٩٥٩، فاكس: ٨١٤١٩٣
هاتف/ فاكس: ٨٦٨٣٨٧
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

تم إصدار هذه الطبعة بتبرع من **مؤسسة هينرخ بل مكتب الشرق الأوسط العربي**. الآراء الواردة هنا تعبر عن رأي الكاتب وبالتالي لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤسسة.

This book has been published with a generous donation from the **Heinrich Boell Foundation's Arab Middle East Office.** The views expressed herein are those of the author and can therefore in no way be taken to reflect the opinion of the Foundation.

القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية:

الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية،

١٩٠٤ - ١٩١٧

القدس العثمانية

القدس العثمانية

في المذكرات الجوهرية

Al-Quds al-'uthmānīyah fī al-mudhakkarāt al-jawharīyah: al-kitāb al-awwal min mudhakkarāt al-mūsīqī
Wāṣif Jawharīyah, 1904-1917
Taḥrīr wa-taqdīm: Salīm Tamārī wa-'Iṣām Naṣṣār

Ottoman Jerusalem in the Jawharieh Memoirs: Volume One of the Memoirs of the Musician
Wasif Jawharieh, 1904-1917
Edited by: Salim Tamari & Issam Nassar

ISBN 9953-9020-2-X

الطبعة الثانية

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣

صدرت الطبعة الأولى عن:

مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٣

القدس العثمانية

في المذكرات الجوهرية

الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩٠٤ - ١٩١٧

تحرير وتقديم سليم تماري و عصام نصار

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

المحتويات

شكر

تتقدم مؤسسة الدراسات المقدسية بشكر خاص للسيد جورج جوهرية والسيدة آية شاكر، ابني المرحوم واصف جوهرية على مساندتهما ومساعدتهما في إصدار هذا الكتاب، ولمكتبة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت وطاقمها، وخصوصاً أمينة المكتبة الآنسة منى نصولي، الذين قاموا بحفظ المخطوطة والصور ولم يتوانوا عن تقديم المساعدة والمعلومات كلما اقتضى الأمر.

ويعود الفضل في إحياء الاهتمام بهذه المذكرات إلى السيدة أمال نشاشيبي من القدس. ونتوجه بالشكر الجزيل أيضاً إلى السيدة هدى الإمام (جامعة القدس)، وإلى الحاج أحمد عبد الرحيم أحمد منى (حارة السعدية)، وإلى المختار متري الطبة (صاحب مقهى المختار في باب الخليل)، على المساهمة في البحث عن بيت جوهرية في حارة السعدية. وكل الامتنان للزميلين سعيد وعصام مراد (فرقة صابرين) لتنظيف وتنقية الشريط المغناطيسي القديم لتسجيلات واصف جوهرية ونقلها إلى الأسطوانة المدمّجة المرفقة بهذا الكتاب.

الحياة اليومية كمصدر لدراسة التاريخ: مشروع الجوهرية كوثيقة تاريخية

عصام نصّار

جرت العادة لدى المؤرخين التقليديين أن يعتبروا مذكرات القادة (السياسيين أو العسكريين أو الملوك والرؤساء)، أو الشخصيات المرموقة، مصادر أولية في دراسة التاريخ كونها تشكل سيراً ذاتية. فالسيرة بكونها نمطاً معاصراً للكتابة تضع شخصية المؤلف في مركز الحدث كلاعب رئيسي، وتعطينا كقراء صورة من الداخل للأحداث وصناعتها من قبل صاحب السيرة الذاتية. وإذا كانت السيرة أو السيرة الذاتية نمطاً من الكتابة مقصوراً على أصحاب النفوذ والسلطة فإنها بذلك لم تشكل نمط كتابة يستخدمه أفراد من عامة الشعب. الفئة الأخيرة هذه كتبت ما يعتبره المؤرخون مذكرات ذاتية أو شخصية لا نفع لها إلاّ في إطار التواريخ العائلية أو المهنية التي تتعلق بمهنة كاتب المذكرات. مثال ذلك أن تؤخذ بعين الاعتبار مذكرات موسيقار في كتابة تاريخ الموسيقى، ومذكرات طبيب في كتابة تاريخ مهنة الطب. لا يعني هذا أن المذكرات نمط كتابي خاص بالعامة في مقابل السيرة التي ترتبط بالخاصة. لا بل إن المذكرات شكلت، على الأقل منذ القرن التاسع عشر، نمط كتابة يمارسه الجميع بغض النظر عن مواقعهم السياسية والاجتماعية. أمّا الفارق الرئيسي ما بين نمطي الكتابة فيكمن في كون المذكرات، بعكس السير، تعتبر تأريخاً ذاتياً يكتب لا بالضرورة بغرض النشر أو على الأقل ليس للنشر في زمن حياة مؤلفه. فالمذكرات تعكس رؤى شخصية، وتتعامل مع أسرار هي غالباً ليست للنشر، وتكتب بغرض المتعة الذاتية من دون أخذ القارئ في الاعتبار بالضرورة. وعلى الرغم من أن المذكرات الشخصية غالباً ما تشكل نوعاً من محاولات تحسين صورة الذات فإنها أساساً تكتب بشكل انتقائي ولأسباب شخصية لا عامة. وهي بالتالي تخرج عن كونها دراسة تاريخية أو سجلاً تاريخياً متكاملاً كونها تعكس وجهة نظر كاتبها أساساً وفي أمور مختلفة ومتغيرة لا متكررة (على غرار التكرار المعهود في وثائق المحاكم مثلاً)، وذلك بعكس مذكرات القادة أو سيرهم التي يكتبها مؤرخوهم، والتي قلما تتشكل من أحداث كتبت عشوائياً لأسباب ذاتية أو مزاجية. وما يزيد العملية تعقيداً أن مذكرات القادة يمكن معاينتها عبر مقارنتها بأحداث ومصادر معروفة مثل وثائق حكومية، وتواريخ مكتوبة، وما إلى ذلك. أمّا المذكرات الشخصية فغالباً ما يصعب مقارنة المعلومات الخاصة بها، والتي تتعلق بما شاهد الكاتب أو بما شارك فيه.

مذكرات واصف جوهرية، وهي أساساً مذكرات شخصية لمواطن مقدسي عادي لم يتمتع بصلاحيات سياسية كتلك التي يتمتع بها الرؤساء والقادة لتشكل مذكراته سيرة ذاتية، لا تعتبر من وجهة نظر المؤرخ التقليدي مصدراً أساسياً لدراسة التاريخ. لكن المذكرات الجوهرية تشكل مثالاً مهماً يثبت خطأ وجهة النظر التقليدية التي تضع المذكرات الشخصية للحياة اليومية لأبناء الفئات الشعبية في درجة أقل أهمية من السير الذاتية للنخب.

مذكرات واصف جوهرية تشكل دليلاً على أن المذكرات الشخصية من الممكن أن تكون أدلة ومصادر لدراسة الحياة الاجتماعية في زمان ومكان كتابتها. ولأن واصف جوهرية كاتب بارع وملاحظ دقيق، ولكون الأحداث التي يصفها ويدونها تدور في مدينة القدس في مرحلة طواها النسيان ولم يكتب عنها الكثير، أو أن ما كتب عنها يتعلق فقط بالأحداث السياسية الجسيمة لا بأحوال عامة الناس في إبان المراحل المؤرخ لها، تشكل مذكراته وثيقة مهمة من دون أدنى شك. ومما يزيد في أهمية الوثيقة الجوهرية هذه كونها تصف الحياة في المدينة في مرحلة غالباً ما يكتب تاريخها بطريقة انتقائية يقصد منها إلغاء ومحو ذاكرة المشهد القدسي الاجتماعي لتلك الفترة، وتهميش دور أبناء وسكان المدينة الأصليين، أمثال واصف جوهرية، في صنع تاريخ المدينة. أمّا أهمية المذكرات، من ناحية كونها تشكل دليلاً وثائقياً على طبيعة الأحداث السياسية المهمة التي كانت تجري

آنذاك، فهي وإن كانت بلا شك كذلك لكنها ليست محط اهتمامنا الرئيسي إذا ما أخذناها بمعزل عن مشروع واصف جوهرية الشامل. وهذا ما سنأتي إلى ذكره لاحقاً.

تقع قيمة الوثيقة الجوهرية في كون كاتبها شاهداً على عصره أكثر منه مشاركاً فاعلاً في أحداثه. وكون المذكرات تدون لأحداث خاصة أحياناً، تتعلق بعائلة الكاتب أو بأصدقائه أو بمعارفه الآخرين، لا يقلل أهميتها شيئاً. فواصف يصف عبر شبكة علاقاته هذه عملية دخول مظاهر الحداثة إلى المدينة، مثل وصفه دخول الكهرباء، ودخول السيارة الأولى. وكذلك هو يؤرخ لتبعات دخول أدوات وأجهزة حديثة، مثل بابور البريموس أو الغرامافون، واصفاً لقارئه الطريقة التي غير استعمال هذه الأدوات والابتكارات حياة الناس والمجتمع القدسي في ذلك الحين. زد على ذلك أن واصف جوهرية بصفته موسيقياً مقدسياً يقدم لنا صورة حية للأجواء الموسيقية والفنية في القدس في زمنه، مؤرخاً لمن كان ذا شأن آنذاك في الحقل الموسيقي. وهو أيضاً يعطينا صورة مختلفة عما نعرفه اليوم لنوعية العلاقات ما بين أبناء مختلف الأديان والطوائف في المدينة. كما تزودنا المذكرات عدة صور تصف أفراح المقدسيين وعادات لهوهم عبر وصف أجواء المقاهي والسهرات الليلية، وفي الوقت ذاته تصف لنا أتراح الناس والتقاليد المرتبطة بالوفاة، وخصوصاً في الأجزاء التي يصف واصف وفاة أبيه، أو وفاة رئيس البلدية سليم الحسيني. كذلك الأمر فإن المذكرات تصف لنا أيضاً علاقة أبناء القدس بالمسؤولين المحليين والعثمانيين، وعلاقة السلطات المحلية ــ ممثلة بالبلدية ــ بالسلطة المركزية. أمّا على المستوى الأعم والأكبر، فواصف يعطينا وصفاً لأوضاع الجيش العثماني في إبان الحرب العالمية الأولى، ولاحقاً الإدارة البريطانية في فلسطين، راسماً صوراً تفصيلية لتنقلاته مع أبيه، ومن ثم وحده، بين المدن والقرى المتعددة من خلال علاقته بعائلته وبالعائلة الحسينية في القدس. والمذكرات أيضاً تصف لنا علاقات عائلة واصف المسيحية المقدسية التي تتفاعل مع المشهد الإسلامي كجزء منه، وبالتالي فهي تصف نوعية العلاقات ما بين أبناء القدس المسلمين والمسيحيين واليهود. واصف جوهرية ينقل لنا صورة في هذا الإطار لم نعهد رؤيتها منذ فترة طويلة عن الانفتاح الديني في المدينة. وبالتالي فإن مذكراته تشكل من دون أدنى شك، مصدراً مهماً في دراسة تاريخ مدينة القدس الاجتماعي، في مرحلة الانتداب البريطاني ونهاية الحكم العثماني.

إن ما يجمع كل هذه الموضوعات معاً ويجعلها وحدة واحدة في نص مذكرات المؤلف هو، تحديداً، أنها أحداث ووقائع مقدسية. وهنا، في رأيي، تكمن أهمية المذكرات الرئيسية. فهي تشكل، أولاً وقبل كل شيء، سرداً لحياة القدس؛ ذلك بكونها مذكرات مكان أكثر من كونها مذكرات شخص. وهذا النوع من الكتابة، بحسب ما يشير دي سورتو، "يحوي في داخله جهداً يحول الأمكنة إلى فضاءات، كما يحول الفضاء الاجتماعي إلى مكان".[1] فالقصص التي يرويها واصف تخلق القدس وتصبح جزءاً من المدينة كمكان تماماً، كما تصبح القدس جزءاً من الفضاء الذي يشكل الرواية فتغدو المواقع مرتبطة بأشخاص وأحداث تماماً كما تغدو الأحداث جزءاً من معرفة المدينة ذاتها (الأمثلة لهذا كثيرة في النص، منها مثلاً وصفه لحارة السعدية في القدس ولبيت جوهرية فيها). وهنا تكمن أهمية مشروع الجوهرية الشامل والذي يحوي، إلى جانب المذكرات، مخطوطة نادرة تتضمن الأغاني التي عرفها واصف وغناها خلال حياته (وهي في حيازة أبنائه) وتسجيلاً قصيراً لنماذج من هذه الأغاني تركها خصيصاً لأحد أحفاده. لكن الجزء المهم من مشروعه يبقى، من دون شك، الألبومات السبعة المصورة التي تركها لنا مع مخطوطة مذكراته، مرفقاً بها مخطوطات توضيحية عن الصور واحدة فواحدة. هذه الألبومات، التي أودعها المؤلف مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت مع مخطوطة مذكراته، على ما يبدو من النص، قد افترض مؤلفنا أنها ستنشر سوية مع مخطوطته ذات يوم؛ فهو أحياناً يشير إليها في النص ذاته مسمياً إياها بالمجموعة الجوهرية.

1 Michel de Certeau, *The Practice of Everyday Life* (Berkeley: University of California Press, 1988), 118.



الحاج سليم الحسيني.



خليل جوهرية.



جمال باشا وقادة عسكريون أتراك.

الصور أعلاه من المجموعة الجوهرية

الصور التي تشكل الألبومات تدلنا على أن مشروع واصف جوهرية أكبر كثيراً من مجرد مشروع مذكرات توثيق لأحداث عائلية أو محلية معينة. فالصور المكونة للمجموعة ليست صوراً شخصية بقدر ما هي صور سياسية عامة واجتماعية توثيقية ترينا حياة فلسطين ومجتمعها في إبان مراحل الأحداث السياسية الكبيرة التي عصفت بها منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى النكبة. الصور الشخصية في الألبومات، سواء كانت للأصدقاء أو للأقارب، أو حتى لواصف نفسه، قليلة الوجود. ما يرد في هذا الكتاب من صور شخصية لواصف أو لأفراد عائلته، حصلنا عليه مباشرة من العائلة، ولم يكن ضمن مجموعة الألبومات الجوهرية التي أعدها واصف بنفسه. فهذه الصور كانت جزءاً مما تركه لابنه وبناته الذين زودونا بها مشكورين. وقد ارتأينا وضعها ضمن المذكرات كونها ترينا بعض المشار إليهم في المذكرات، بمن فيهم واصف نفسه، بالطريقة التي ارتأى أن يظهر نفسه لعائلته ولأصدقائه. فالصور التي أضفناها هي صور بورتريه، أي صور أخذت في الإستوديو أو خارجه، لكن المصور أجلس الأشخاص المراد تصويرهم بأوضاع معينة ليظهرهم بشكل محدد يتناسب مع الطريقة التي يرغبون في الظهور بها أمام الآخرين. أي أن الصور المضافة ترينا واصف وعائلته وأصدقاءه كأشخاص واثقين بأنفسهم وفخورين بما هم عليه.

الإشكالية التي علينا التعامل معها هنا ترتبط بالسؤال التالي: لماذا اختار واصف ألاّ تكون هذه الصور الخاصة ضمن إطار المجموعة الفوتوغرافية المصاحبة للمذكرات على الرغم من أنها أحياناً تصور أحداثاً وأشخاصاً ذكرت بالتفصيل في المذكرات؟ ولماذا اختار واصف أن يكون الجزء المصور من مذكراته خالياً تقريباً من التفصيلات الخاصة على الرغم من أن المذكرات ذاتها ملآنة بمثل هذه التفصيلات؟

هل من الممكن أن يكون واصف نظر إلى الألبومات المصورة على أنها الجزء من المجموعة الجوهرية المرتبط بالتاريخ الرسمي الذي غالباً ما أبقاه واصف خارج إطار المذكرات؟ طبعاً من الصعب أن نجيب عن هذا السؤال بطريقة قاطعة. لكننا نعتقد جازمين، استناداً إلى الألبومات ذاتها، أن واصف على ما يبدو فكر في أن الصور في الألبومات تشكل الخلفية الضرورية التي من خلالها يمكن فهم الأحداث الخاصة والعامة التي أدرجها في مذكراته. فمثلاً في أحد ألبوماته المصورة نجد أن واصف وضع صوراً لكل رؤساء بلدية القدس منذ تأسيسها، بما في ذلك صور أولئك الذين لم يعرفهم، على الرغم من أن هذه المادة لا تشكل جزءاً من المذكرات. ما يذكر في المذكرات عن رؤساء البلدية يتعلق فقط بفترة رئاسة صديق والده حسين الحسيني، أو بالفترة التي عمل فيها واصف في البلدية في بداية مرحلة الانتداب. وإن كانت البلدية ورؤساؤها قد شكلت جزءاً من اهتمام واصف، كما يتضح من المذكرات، فماذا عن وضعه لصور جميع متصرفي القدس العثمانيين منذ تأسيس المتصرفية حتى نهاية الحكم العثماني سنة ١٩١٧ (ألبوم ١، صفحة ٢).

في أجزاء أخرى نجد أن المؤلف يضع صوراً لجمال باشا، القائد العسكري التركي، ولغيره من القادة العسكريين العثمانيين في إبان الحرب، أو صوراً للبحرية العثمانية في البحر الميت حيث خدم واصف خلال الحرب. في هذا الإطار فقط نجد صوراً عائلية في المجموعة: فنرى صور أخيه خليل في الزي العسكري العثماني. لكننا لا نرى الأخ في أي أجواء عائلية. فالصورة هنا بمثابة دليل على مشاركة آل جوهرية في صنع تاريخ المرحلة. وفي هذا الإطار، فإن إضافة صورة عائلية اعتُبرت مبرراً على ما يبدو، كونها تشكل استثناء موضوعاً ضمن إطار تاريخي مناسب.

صورة لواصف جوهرية وعائلته سنة ١٩٤٥ في القدس في النيكوفرية. المصور غير معروف، وقد حصلنا على الصورة من آية جوهرية شاكر. نرى واصف وأخاه خليل وبجانبه يسرى ابنة واصف واقفين في الوسط تماماً، بينما يجلس أخوهم فخري في المقدمة إلى يمين الصورة حاملاً طفلاً. الطفل الجالس في منتصف الصورة هو جورج جوهرية، ابن واصف، وبجانبه (إلى يساره) تجلس أخته الصغرى آية.

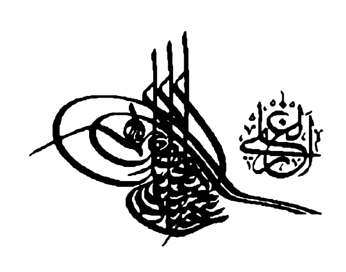


مما يؤكد اعتقادنا هذا كون واصف يفتتح الكتاب الأول (فهرست الألبوم ١) بالجملة التالية:

أزين هذا الألبوم الذي يحتوي على مجموعة تاريخية قيمة من شخصيات واحداث مدينة القدس أبان الحكم العثماني بصورتين على صفحة الغلاف الأولى: رمز الدولة العثمانية [. . .] صاحب الجلالة السلطان عبد العزيز احد ملوك الدولة العثمانية وقد خلفه بهذا المنصب العالي أخيه السلطان عبد الحميد. وصورة لنجل عطوفاء [كذا] رؤوف باشا متصرف القدس.

التقديم هذا، إضافة إلى طرافته الناجمة عن كونه كتب في الغالب بعد نحو خمسين عاماً على نهاية الدولة العثمانية، يعطي القارئ الانطباع بأن واصف يكتب وفي ذهنه تأريخ لمرحلة حية كما لو كان طلب منه ذلك السلطان ذاته، أو متصرف القدس. وإن كانت طرافة البداية هذه تتماشى تماماً مع أسلوب واصف في كتابة المذكرات ذاتها، فإن عناوين فهارس الصور التي تركها مع الألبومات تشير إلى طبيعتها بشكل واضح. الألبوم الأول سمّاه "القدس في العهد العثماني لغاية ٨ كانون الأول ١٩١٧"، وبقية الألبومات اعتبرها أجزاء مما سمّاه "تاريخ فلسطين المصور في العهد البريطاني منذ ٩ كانون الأول ١٩١٧".





رسم وختم السلطان عبد الحميد الثاني. المصدر: *فلسطين في طوابع البريد ١٨٦٥ - ١٩٨١* (بيروت: دار الفتى العربي، والقاهرة: الورشة التجريبية العربية لكتب الأطفال، ١٩٨١).

أمّا محتويات الألبومات من الصور الفوتوغرافية فهي تشمل نوعاً من البانوراما البشرية التي تصف حال القدس وسكانها في زمن حياة المؤلف. فنحن نرى صوراً لرؤساء الطوائف الدينية، وصوراً أخرى لمتقلدي المناصب (مثل القوّاس، أو حراس كنيسة القيامة، أو افراد من الدَرك)، وصوراً لزيارات قام بها رسميون أوروبيون أو مسلمون للقدس. كل هذا موثق في الألبومات ومصنف زمنياً. فواصف افترض، على ما يبدو، أن مُشاهد الصور سيرى الألبومات كاملة وبالترتيب الذي اختاره واصف ليستحضر أو ليشكل صورة لتاريخ القدس عامة، ولتاريخ فلسطين خاصة. وكأن واصف أراد بذلك أن تكون الصور الفوتوغرافية المرجع التاريخي العام، الذي من دونه لا يمكن فهم التفصيلات اليومية الواردة في المذكرات.

وبالتالي فإن الصور الفوتوغرافية تضيف جانباً مهماً إلى النص ذاته كونها تشكل التاريخ العام. وبهذا يكون واصف من أوائل المؤرخين الذين استندوا إلى الصورة أكثر من الوثيقة لسرد التاريخ الفلسطيني. إن وصفنا الصور بهذا الإطار يحتم علينا البدء بالصور إذاً قبل الخوض في النص. وهذا أمر إذا ما فعلناه سنجد أن النص أيضاً يأخذ أبعاداً جديدة مرتبطة بالصور. إذ سيصبح النص مرآة لما في الصور، ويتحول بذلك إلى نص عام تاريخي لا إلى نص خاص عائلي؛ بمعنى أن النص سيصبح نصاً شاهداً على عصر ومراقباً للأحداث أكثر كثيراً من كونه نصاً شخصياً عن مشاركة مؤلفه في الأحداث. فحديث واصف عن قصصه ومغامراته الشخصية في المذكرات وضع دوماً في إطار أكبر جداً من إطار عالمه الخاص، ويقدم لنا صورة عامة لحياة والده، ومن خلاله لحياة بعض أعيان القدس (الحسيني). وبهذا المعنى فإن البعد الشخصي والعائلي يخدمه ككاتب للانتقال إلى الفضاء الاجتماعي العام. وهو بذلك لم يكتب مذكرات شخصية وإنما كتب شهادات حية عن حياة مجتمعه وسياسته مستخدماً علاقاته الشخصية كمحطات ليس إلاّ. وهذا الانطباع تثبته الصور الفوتوغرافية وترتيبها في الألبومات. فواصف لم يكن مصوراً، ولم يأخذ الصور الفوتوغرافية شخصياً، وإنما جمعها من عدة مصادر وبعناية فائقة موثقاً إياها كما لو كان يوثق لمشروع كبير جداً مثل تاريخ القدس في تلك الفترة.

لدر الإشارة هنا إلى الجهد الهائل الذي بذله واصف جوهرية في تزويدنا أسماء كل الأشخاص المصورين. فهذا
لجهد إذا ما وضع في الإطار التاريخي الخاص به يزيد في اطلاعنا على طبيعة المرحلة التاريخية ويعطيها وجهها
إنساني. كذلك الأمر فإنه يقف في مواجهة التيار الشائع في كتابة تاريخ فلسطين والقائم على تجاهل الوجود
فلسطيني، على الأقل بالمعنى الاجتماعي والإنساني، وفي الوقت ذاته التركيز على حضور "الآخر". على
بيل المثال: الصورة الشهيرة لاستسلام مدينة القدس للجيش البريطاني، التي نجدها في عدد كثير من الكتب
تاريخية عن فلسطين، ظهرت في ألبوم جوهرية مذيلة بأسماء كل المشاركين العرب فيها (وهم الأغلبية) في
وقت الذي تظهر هذه الصورة في الكتب الأخرى (مثل كتاب بارثا فستر ***Our Jerusalem***) مع وضع
عماء المشاركين الإنكليز (وهم اثنان فقط)، وأحياناً اسم رئيس بلدية القدس أيضاً.[1]

بعاً هنالك نواقص لا بد من أن تبرز في إطار مشروع كبير كهذا. فيا ليت واصف ترك لنا معلومات أكثر
ن الصور، مثل من صوّرها، وتاريخ تصويرها، وكيف حصل هو شخصياً عليها، إلخ، لَكُنا ــ ربما ــ وضعنا
ضاً إلى جانب كل ما تعطينا إياه المذكرات تاريخاً آخر يتعلق بتاريخ التصوير الفوتوغرافي في القدس. لكن
اصف لم يعر ذلك أي أهمية كون ما شغل باله المشروع الأهم الذي يستند إلى استعمال الصورة كوثيقة
ريخية تتعلق بتاريخ المدينة آنذاك. وهو محق في ذلك؛ فالصور التي جمعها تقف بذاتها كتاريخ متكامل تقريباً
مدينة آنذاك. والمذكرات في الجانب الآخر أيضاً تقف بذاتها كمصدر مهم لدراسة الحياة الاجتماعية في
قدس. والصور والمذكرات معاً تعطينا صورة أكبر ومهمة جداً للحياة الاجتماعية والسياسية، العامة
الخاصة، الكبيرة والصغيرة، التي سادت في فلسطين آنذاك. وهو بذلك يقدم لنا عملاً يستحق التقدير
عظيم، ويشكل مساهمة قد تكون أهم كثيراً مما قدمه الساسة في مذكراتهم عن تلك المرحلة، أمثال عبد الله
ئد الجيش العربي خلال معركة القدس، أو أنور نسيبة الذي ترك مذكرات تتعلق أيضاً بالمعركة ذاتها،
غيرهما ممن كتبوا عن مراحل أخرى، أو عن تجارب محددة. لكن الذين كتبوا كواصف نصاً عن الحياة اليومية
ناس العاديين وعلاقتهم بالأحداث التي عايشوها هم قلة بصورة عامة. واصف جوهرية يعطينا الكثير من
انطباعات الشخصية عن الأحداث، وخصوصاً عبر ترتيب الصور واختيار ما يتم تمثيله بها. لكنه اختار أن
هل قارئه يستمتع وينتقل معنوياً وبالخيال إلى القدس كما عرفها واصف آنذاك، وذلك من خلال وصفه
دقيق لمختلف المواقع، وللأشخاص المشار إليهم، ومن خلال سرده البارع لتفصيلات الحدث.

[1] أنظر:

Bertha Spafford Vester, *Our Jerusalem: An American Family in the Holy City 1881-1949* (Jerusalem: The American Colony and Ariel Publishing House, 1988), 274.

الحرس الإيطالي على باب كنيسة القيامة سنة ١٩١٨ (من المجموعة الجوهرية).

صورة لقوّاس في القدس (من المجموعة الجوهرية).



المذكرات الجوهرية كمرآة لحداثة القدس العثمانية

سليم تماري

تظهر القدس العثمانية في معظم الكتابات التاريخية المعاصرة كمدينة إقليمية في أطراف الدولة العثمانية تتميز بنسيج اجتماعي طائفي ومتقوقع. ويصر كثير من هؤلاء المؤلفين على مطابقة الوعي القومي والإثني بحدود الانقسامات الطائفية التي كانت ترسم معالم المجموعات السكانية داخل البلدة القديمة.[1]

ويرافق هذا التقسيم الإثني ــ الطائفي عادة تقسيم تجمعات المدينة داخل السور في أحياء المسلمين والنصارى والأرمن واليهود. في هذه الرؤية الضيقة نرى أربع حارات منغلقة تعزز حدودها آليات التضامن الطائفي والتخصص المهني، والمدارس والتكايا، والطقوس والاحتفالات الدينية، وفوق ذلك كله تحريم التزاوج والتصاهر خارج الدين والطائفة. وفي هذا المنظار فإن التعايش والحراك الاجتماعي المحدود بين هذه الطوائف بقيا محصورين في آليات السوق (التجارة) والتزاور الاجتماعي الشكلي حتى انتهاء الحقبة العثمانية.

وتبدو حداثة المدينة من هذا المنظار كنتيجة لانهيار النظام العثماني أمام الثالوث الغربي: التغلغل الاقتصادي الأوروبي، والهجرة الصهيونية، ومشاريع التحديث الإداري التي أدخلتها سلطات الانتداب البريطانية.

تقع أهمية مذكرات واصف جوهرية في أنها تصور حياة يومية جماعية للقدس تبلورت في هذا النموذج التقليدي للمدينة، وتسلط الأضواء على رؤية مغايرة بديلة. هذه الرؤية تتمحور حول مظاهر الحداثة المرتكزة على ديناميات داخلية في المدينة العثمانية في بلاد الشام. كما أن جوهرية يصور لنا وتيرة اجتماعية عاصرها شخصياً داخل أسوار المدينة، تتسم بالحراك الاجتماعي والتداخل والتفاعل بين أفراد وعائلات مختلف الطوائف، لا تنعكس في كتابات معظم المؤرخين للمدينة. بل على العكس فهو يورد القصة تلو الأخرى (راجع مثلاً رواية فصل الزوار المسلمين عن المسيحيين من قبل الشرطة البريطانية عند مدخل الحرم) التي تظهر ــ من دون قصد من الكاتب ــ أن نظام الأحياء الطائفية ــ كتقسيم إداري ــ هو في الواقع من نتائج سياسات الانتداب البريطاني على فلسطين، ولا يرجع إلى تقسيمات "عضوية" من الفترة العثمانية كما هو شائع.

إن استعمال تعبير "الهجين" في وصف المشهد الثقافي لمدينة القدس خلال فترة الحرب العظمى الأولى يحمل في طياته عدة مشكلات. فالاستعمال الحالي للهجينية السائد في العلوم الاجتماعية المعاصرة يشير تحديداً إلى انتشار الهويات ذات الإثنية المتعددة القاطنة في الحيز الحضري نفسه، وإلى تبلور تعابير ثقافية مركبة في نمط الحياة واللباس والطبخ والاستعمالات اللغوية. وهي، في الأساس، هجانة ثقافية نشاهدها اليوم في المدن الكبرى في الدول الصناعية وما بعد الصناعية التي اجتاحتها هجرات جماعية واسعة من العالم الثالث، الأمر الذي نجم عنه تبلور هويات ثقافية ثنائية.

أمّا في القدس العثمانية قبل الحرب العظمى فنرى ــ في الرؤية الجوهرية لها ــ أنها تشكل وعياً طائفياً محلياً، في صراع أحياناً وفي تآلف أحياناً أخرى مع التيار العروبي القومي، ومع النهضة الوطنية الفلسطينية في مجابهة الحركة الصهيونية.

[1] ظهرت هذه المقدمة في صيغة سابقة في *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد ٤٤، خريف ٢٠٠٠، صفحة ٦٩ – ٩٦.

ساهمت المذكرات الجوهرية بطريقتها الخاصة، في رأيي، في إعادة النظر في هذا الخطاب السائد عن الهوية الفلسطينية في مجالين: الأول يتعلق بالافتراضات في شأن طبيعة الهوية الذاتية للمقدسيين بشكل خاص، وللفلسطينيين والشوام بشكل عام، في هذه الفترة الانتقالية المهمة؛ والثاني يتعلق بتحديد علاقة الوجدان الديني الشعبي بتبلور وتكوين الهوية الوطنية التي تتجاوز النطاق المحلي.

ومع أن المجتمع المقدسي كان يتسم بهوية دينية قوية الملامح إلاّ إن حدود التجمعات السكانية لم تأخذ شكلاً طائفياً بالدرجة الأولى، ولا طابعاً إثنياً (ربما باستثناء التجمع الأرمني في منطقة البطركية الأرمنية)، وإنما أخذت طابع "المحلة" ــ كما كانت تعرف الأحياء الأهلية في الفترة العثمانية. وتمت إعادة صوغ وحدة المحلة في فترة الانتداب البريطاني لمصلحة نظام الحارات الرباعي ــ الذي ارتكز الآن على قاعدة دينية طائفية وتفرعاتها المذهبية الأصغر.

فحارة النصارى أصبحت مكونة من دير الروم وتوابعه، ومن تجمعات السريان والأقباط واللاتين، إلخ. وفي الشمال الشرقي من المدينة داخل السور تم إطلاق اسم حارة المسلمين على المحلات (جمع محلة) التي سادت فيها أغلبية إسلامية، وهو مفهوم انتدابي مستحدث بدأ بتكريس التقسيمات الطائفية في مواجهة تبلور الوجدان القومي فوق ــ الديني.

لكن التحدي الوطني ــ القومي كان أحد الأطر التي بدأت بإضعاف الوجدان الطائفي. ونراها هنا تقوم في مقابل علاقات المحسوبية والحماية والتكافل بين عائلات أشراف القدس وحلفائهم من الفئات المهنية والصناع والمستخدمين، كما هو الحال ــ في هذه المذكرات ــ في علاقة آل الحسيني بعائلة جوهرية. وهي علاقة استمرت من جيل إلى جيل.

تمتد مذكرات جوهرية الكاملة أربعة وستين عاماً (١٩٠٤ – ١٩٦٨) من تاريخ القدس الحديث العاصف، وتغطي أربعة أنظمة حكم وخمس حروب. والأهم أنها تشكل معلماً لانتقال المجتمع الفلسطيني إلى الحداثة، ولخروج سكان المدينة المسوَّرة إلى خارج تخوم انغلاقها.



واصف جوهرية ووالده.

كان والده، جريس (جرجس)، مختار الطائفة الأرثوذكسية الشرقية في البلدة القديمة (١٨٨٤)، وعضواً في مجلس بلدية القدس، برئاسة سليم الحسيني ثم فيضي العلمي. وكونه تدرَّب محامياً، فقد ألمّ بالقانون الشرعي الإسلامي وأتقن عدة لغات، بما فيها اليونانية والتركية والعربية. وقد عمل فترة قصيرة مخمِّن ضرائب حكومياً، إلاّ إنه تحول لاحقاً إلى العمل الخاص، فأصبح ملتزم حرير ناجحاً في العيزرية، ومالكاً لمقهى عام على نهر الجريشة. كذلك كان صانع أيقونات ماهراً، وموسيقياً هاوياً، الأمر الذي يفسر تشجيعه لواصف على تعلم عزف العود منذ شبابه المبكر.

أمّا والدة واصف، هيلانة بركات، فتحدرت من عائلة أرثوذكسية بارزة كانت تقطن فيما أصبح يعرف لاحقاً باسم حارة النصارى. وبما أن جريس، والد واصف، عاش في حوش عائلة بركات السكني قبل انتقاله إلى حارة السعدية، فقد أصبح صديقاً لوالد هيلانة. وعندما توفي هذا الأخير في سن مبكرة، تولى الشاب جوهرية العناية بولدَيْ بركات، وتزوج هيلانة التي كانت تصغره كثيراً، عندما أصبحت بالغة.

أين نضع آل جوهرية في السلم الاجتماعي لمدينة القدس في نهاية القرن التاسع عشر؟ إن المعطيات التي يقدمها المؤلف مربكة إلى حد ما. فمن جهة، كان الوالد والجدّ، كما يبدو، يحتلان مناصب عامة مهمة في كل من

الخدمة المدنية العثمانية ومؤسسات المدينة. وكما ورد سابقاً، كان جريس عضواً بارزاً في الطائفة المسيحية الأرثوذكسية ومندوباً إلى مجلس المدينة أيضاً. لكن بقية العائلة مرت، كما يبدو، بعدد من المهن الأكثر تواضعاً من جهة أُخرى. ففي مرحلة ما يشير إلى جدِّه أنه حذّاء أو دبّاغ. وأخوه الأكبر خليل تلقّن مهنة النجارة كمتدرب قبل أن يجند في الجيش العثماني. وواصف نفسه عمل في عدد من الوظائف غير النظامية، بما فيها، لفترة قصيرة، مساعد حلاق قبل أن يتحول إلى عازف عود ومغنٍّ متجول في الأعراس. وليس واضحاً ما إذا كان يتلقى أجراً على ذلك، إلاّ إن مرتبه الأساسي كان مبدئياً من عمله في الخدمة المدنية، العثمانية والبريطانية. والأكيد أن العائلة لم تكن سعيدة بمهنته كموسيقي، وأرادت منه أن يستقر في وظيفة محترمة أكثر. ولاحقاً، تحسنت أوضاع العائلة المالية كثيراً، عندما أصبح الأب محامياً بارزاً. وكان خليل يملك مقهى ناجحاً بالقرب من باب الخليل، وأمّا واصف فالتحق بالخدمة الحكومية. ويمكننا القول، بشيء من الثقة، إن أبناء العائلة كانوا يتحركون في ذلك المجال غير المستقر بين العمل الحرفي والمراتب الوسيطة في الوظائف الحكومية. ويتضح من الوصف المفصّل للمراسم التي رافقت جنازة الأب جريس أن العائلة حققت مكانة اجتماعية متقدمة في البلدة القديمة قبل الحرب العظمى. وفي أية حال، كان أفراد العائلة يعتبرون أنفسهم من أبناء المدينة الأصليين، واتخذوا موقفاً استعلائياً، وإنْ يكن أبدياً، تجاه الفلاحين من أبناء القرى المجاورة، الذين أصبحت للوالد والابن معاملات واسعة النطاق معهم.

إلاّ إنه لا يمكن فهم موقع آل جوهرية في فلسطين، ما قبل الانتداب، من دون معاينة العلاقة الوطيدة التي كانت تربطهم بعائلة الحسيني المقدسية، التي كان أفرادها أصحاب أملاك إقطاعيين وأشرافاً من الحلقة الداخلية لأعيان المدينة. وكان جريس أمضى جزءاً من مسيرته المهنية الأولى مشرفاً على أطيان آل الحسيني في قرى غربي القدس، وخصوصاً في قرية دير عمرو. وكان حسين أفندي، رئيس بلدية القدس لاحقاً، "تبنّى" واصف بعد موت أبيه. وقد وظّفه حسين أفندي في عدد من الوظائف في المدينة، وضمن له معاملة جيدة في الجيش العثماني. وكانت العائلة على علاقة حميمة بأولياء نعمتها إلى حدّ أن عُهد إلى واصف بالعناية بخليلة حسين أفندي، برسفون، عندما أصابها المرض.

إن الصورة التي يرسمها واصف للحياة اليومية في محلة السعدية (الواقعة بين باب الساهرة وطريق الآلام)، خلال العقد الأول من القرن الماضي، تشكل إحدى أكثر الوثائق قيمة عن الحياة الفلسطينية المدنية، على الإطلاق. والوصف يوفر مصدراً أولياً من الدرجة الأولى بالنسبة إلى المؤرخ الاجتماعي والباحث الإثنوغرافي. والتحولات التي أدت إلى برجزة أنساق الحياة العائلية مصنفة زمنياً، وموصوفة بالتفصيل الدقيق.

وتعزّز رؤية جوهرية الذهنية لتقسيمات أحياء القدس، وكذلك تحديد التخوم بين الجماعات السكانية التي كانت قائمة في شبابه، اعتقادنا أن تقسيم المدينة إلى أربعة أحياء طائفية لم يكن يتوافق مع العرف السائد في زمنه وإنما كان تطوراً لاحقاً. وقد وضع البريطانيون الحدود الجديدة لأغراض المحافظة على التقسيمات بين سكان المدينة على أساس إيجاد توازن طائفي حديث بين المجموعات الطائفية والإثنية الأربع. وكان أساس هذا التوازن الحفاظ على الوضع القائم في إدارة الأماكن المقدسة، التي جرى التفاهم بشأنها في أواخر العهد العثماني، وجرى تفصيلها وتدوينها في بداية حكم الانتداب على المدينة.

واليوميات تتحدى ضمناً هذا المفهوم المبسط لتركيب الأحياء، القائم على تنظيم العلاقة بين المقدسيين على أساس بيئتهم الدينية والإثنية. وفي تصوير واصف للحياة اليومية في أزقة البلدة القديمة، يسترعي انتباهنا ضعف ذلك المفهوم على صعيدين: واحد يوحي بأنه لم يكن هناك تطابق واضح بين الأحياء والديانة؛ فنحن

نرى اختلاطاً كبيراً بين الجماعات الدينية في كل حي. وعلى الصعيد الآخر، فإن الوحدة الانتمائية الأساسية في البلدة القديمة كانت المحلة، شبكة الأحياء ذات التخوم الاجتماعية، التي أبدى الناس داخلها درجة عالية من التضامن بين الجماعة السكانية. وقد تم التعبير عن مثل هذا التماسك بالزيارات الدورية والمشاركة في الطقوس، بما فيها الأعراس والجنائز، كما بالمشاركة النشيطة في الأعياد الدينية. وهذا التضامن يضعف ثبات النظام الطائفي الموروث من حقب ما قبل الحداثة.

لكن الحدود الطائفية كانت تتزعزع أيضاً جراء نهوض الحركة الوطنية في فلسطين: بدايةً في سياق الحركة الدستورية العثمانية في نهاية القرن، وخصوصاً بعد انقلاب سنة ١٩٠٨، الذي تلقى الكثير من الدعم في دوائر المثقفين في القدس، ولاحقاً في الاتجاهات المناهضة للأتراك في إطار الحركة القومية لسورية الكبرى. ويمكن التقاط هذه التحولات في هذه المذكرات مصادفة وبصورة انتقائية. فجوهرية ــ الذي لم ينخرط في أي حركة سياسية، لكنه كان عثمانياً وطنياً ثم لاحقاً فلسطينياً وطنياً ــ كان يؤمن بوضوح بأن التحرك نحو الحداثة (بما فيها التزام مبدأ الوطنية العثمانية) مرتبط بالحراك السكني إلى خارج المدينة من جانب الطبقات الوسطى الصاعدة.[١] وكان أبناء الأعيان أسسوا قاعدة سكنية جديدة في الشيخ جراح إلى الشمال من المدينة، وفي منطقة الوعرية إلى الجنوب منها، منذ أواسط القرن التاسع عشر.[٢] وفي أوساط السكان اليهود كانت حركة مماثلة حدثت من خلال بناء الأحياء الجديدة في مثا شعاريم ويمين موشيه، مؤذنة بافتراق وحدة الحال (الانتماء الوطني) بين العربي الفلسطيني الحديث وبين الوعي الطائفي اليهودي، حتى قبل ترسّخ الصهيونية في أوساط سكان المدينة اليهود.[٣]

وعلاقة جوهرية بالطائفة اليهودية في القدس هي أكثر تعقيداً. فروايته لا شك مُلونة بذكريات ارتدادية متأثرة بالصدامات الطائفية في العشرينات وثورة ١٩٣٦ مع الحركة الصهيونية، وبمنظور تستدعيه أحداث نكبة ١٩٤٨. لكنه يعي أيضاً فترة مختلفة، إذ إنه في سن المراهقة كان يشارك في أحداث عيد البوريم (التي يصفها بتفصيل كثير، بما في ذلك الألبسة والأقنعة التي كان يرتديها هو وأخوه خليل)، وفي النزهات العائلية في فصل الربيع إلى مقام شمعون الصديق في وادي الجوز. كذلك يذكر عدداً من العائلات السفارادية التي كانت عائلته على علاقات حميمة بها، منها: إليشار، وحزان، وعينتبي، ومابي (من الخليل)، ونافون. وقد أقام واصف عدة حفلات موسيقية مع عدد من الموسيقيين اليهود،[٤] بمن فيهم شحاده، عازف العود الخاص في فرقة بديعة مصابني. كما يذكر الدور البارز الذي أدته فرق من يهود حلب، عرفوا باسم الدلاّتية، والذين أقاموا بالقدس. وكان هؤلاء موسيقيي تخت (كورس) من السفاراديم أدوا موسيقى أندلسية في أعراس عرب القدس.[٥] وقبل بداية الانتداب كان واصف يعزف في عدد من التجمعات السكانية اليهودية المحيطة بالقدس.[٦] وفي إحدى هذه الوقائع كان يرافق على العود مجموعة كورس أشكنازية في بيت الخواجة سلمون الخياط [هكذا] في مونتفيوري (المعروفة أيضاً باسم يمين موشيه)، مؤدّياً ما يبدو أنه موسيقى شرقية. وكان أداء هذه المجموعة الهزلي للقطعة العربية المشهورة في حينه (ناعم ناعم هالريحان) مشوّهاً إلى حد أن واصف افترض أنها كانت "قصيدة شعبية أشكنازية جديدة." وقد أصبح تقليده الساخر، للصيغة الأشكنازية هذه الأغنية، اسكتشاً يؤديه في حفلات ليلية لاحقة بطلب من الجمهور. ويضيف بحزن: "كان هذا قبل إعلان وعد بلفور سيئ الصيت".[٧]

١ على الرغم من أن واصف كان في رعاية آل الحسيني بصورة واضحة، فإنه لا يشير إلى تعاطفه مع الحزب العربي الفلسطيني الذي تزعموه في وقت لاحق. وعندما تولى وليّ أمره حسين الحسيني ألحق واصف نفسه براغب النشاشيبي، خصم الحاج أمين، من دون أن يعتبر نفسه منتمياً إلى حزب الدفاع. وهذه التقلبات في موقف جوهرية يجب ألاّ تفهم أنها مواقف انتهازية، وخصوصاً أن العائلتين كانتا تنظران إليه على أنه فنان وموسيقي، ولم تتوقعا منه أية مواقف سياسية. في المقابل، كتب إليّ جورج جوهرية، من أثينا، أن واصف كان مؤيداً متحمساً للحاج أمين، وكذلك للقائد عبد القادر الحسيني. وفيما بعد، أصبح واصف ناصرياً. كما كان على علاقة جيدة بكل من فخري وراغب النشاشيبي ــ مع أنه كان ينتقد سياستهما المؤيدة للإنكليز بشدة. (رسالة من أثينا بتاريخ ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠).

٢ روشيل ديفيس، "القدس العثمانية: نمو المدينة خارج الأسوار" في *القدس ١٩٤٨: الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨*. تحرير سليم تماري (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، والقدس: بديل، ٢٠٠٣)، صفحة ١٥ ــ ٤١.

٣ أنظر:

Yehoshua Ben-Arieh, *Jerusalem in the 19th Century: Emergence of the New City* (Jerusalem: Yad Izhak Ben-Zvi, 1986), pp. 152-172.

٤ أنظر صفحة ٧٤.

٥ أنظر صفحة ١٤٩.

٦ أنظر صفحة ٣٢٨ في المخطوطة الجوهرية.

٧ أنظر صفحة ٣٢٧ وما يليها في المخطوطة الجوهرية.

تنامي المدينة الحديثة

توفر يوميات جوهرية للمؤرخ الاجتماعي سجلاً معاصراً فيما يتعلق بتنامي المدينة خارج أسوارها أيضاً. ومع أن أحياء الشيخ جراح ويمين موشيه والوعرية كانت أنشئت قبل زمانه، فإن واصف يروي قصة تنامي حي المصرارة وحي المسكوبية على امتداد طريق يافا في صباه، ثم أعقبهما حيا الطالبية والقطمون في الثلاثينات من القرن العشرين. وكان شاهداً على تدشين الطريق الجديدة التي تصل البلدة القديمة بالمصرارة، برعاية رئيس البلدية فيضي العلمي سنة ١٩٠٦. وشهد هذا التوسع ــ وآخر مثله سبقه في البقعة ــ انتقال مئات العائلات (كثير منها مذكور بالاسم هنا) إلى مبان حديثة من القرميد والأسمنت المسلّح بقضبان الحديد. واستمر سكان جميع هذه المساكن الجديدة في بناء أحواض تتغذى بمياه الأمطار في أفنيتها، لقضاء حاجاتهم اليومية في فترات صيف القدس الطويلة والجافة. وإلى هذه الأحياء أدخلت أيضاً وسائل الحداثة: الكهرباء ــ أولاً في مجمّع نوتردام قبالة البوابة الجديدة تماماً، والسيارة على طريق يافا، والسينما، وفوق ذلك جميعاً الفونوغراف الذي أدخل جوهرية إلى عالم سلامة حجازي وسيد درويش.

وتخصّص المذكرات فصلاً طويلاً للموسيقى والحياة الفنية في القدس خلال العهد العثماني. وهي تشمل قائمة طويلة من صانعي الأعواد، وعازفي العود، والراقصات، والمغنين والمغنيات. وكثيرون من هؤلاء أدوا أدوارهم كفرق عائلية في أعراس محلية، ولاحقاً ــ خلال فترة الانتداب ــ في المقاهي والكباريهات خارج المدينة المسوَّرة. وتزودنا ملاحظات جوهرية، بالإضافة إلى شروحاته عن أنماط التقاليد الموسيقية التي كانت رائجة في فلسطين في بداية القرن، مصدراً أصيلاً وفريداً عن تحديث الموسيقى العربية في بلاد الشام، وعن تأثير محدثين كبار، مثل الشيخ يوسف المنيلاوي وسيد درويش، في عواصم الأقاليم الشامية كالقدس.[1] وفي مفكرته الموسيقية، التي كتبت قبل نهاية الحرب، ابتكر أسلوباً لكتابة العلامات الموسيقية، يحول نظام نغمة الربع العربي ــ العثماني الخاص بالعود إلى نظام النوتة الموسيقية الغربية.[2]

ترعرع واصف في بيت كان أبناؤه إمّا موسيقيين هواة، وإمّا عازفي عود، وإمّا مستمعين من الطراز الراقي ("فقط أخي خليل لم يكن قادراً على تمييز النغم الجيد من السيئ"). وتعامل أبوه جريس مع التجاويد القرآنية على أنها شكل من الموسيقى، وعلّم أبناءه التمييز بين صوت المؤذن الجيد والصوت الرديء. وفي إحدى سنوات ما قبل الحرب، قاد جريس وفداً من حارة السعدية إلى دائرة الأوقاف للمطالبة بتبديل المؤذن المحلي، الذي كان لا يطيق صوته. وعندما اعترض الموظف المسؤول على جراءة أبي خليل المسيحي التابعية المطالب بإبعاد المؤذن، رد عليه بقصيدة مفعمة بالتورية:

سمعــــت مؤذنـــا يـــؤذي بصـــوت	لســـــامعه وقـــــد أذن الآذانـــــا
فقلــــت وقــــد أذت مــــنه أذنـــي	آذان تقصــــــد أنـــــت أم أذانـــــا؟

وعندما نُمي إليه أن المؤذن كان يتيماً فقيراً، وعليه أن يعيل عائلة كبيرة، اقترح جوهرية الأكبر أن يُنقل إلى الجامع القريب من منطقة سعد وسعيد، حيث كان عدد أقل من الناس يقطنون، وبالتالي يتحملون أذى صوته.[3] وقد راقت في النهاية هذه الفكرة لدائرة الأوقاف، واستبدلت الشيخ إكراماً لجوهرية.

١ واصف جوهرية ["الدفتر الموسيقي"]، من دون عنوان، من دون تاريخ، وهو غير منشور، ٥٧٦ صفحة. ومن الواضح أن هذا المخطوط المكتوب باليد، والمهدى إلى السلطان العثماني، والذي يحمل التوقيع "واصف جوهرية.. القدس الشريف"، كتب في العهد العثماني، وهو مقسّم إلى خمسة فصول: ١) موشحات وأناشيد؛ ٢) مذاهب وأدوار؛ ٣) "أغاني حب"؛ ٤) قصائد ومقطوعات رباعية؛ ٥) طقاطيق وأغاني.

٢ المصدر نفسه، "تركيب النوتة الإفرنجية على أوتار العود"، صفحة ٩ ــ ١٠.

٣ أنظر صفحة ١٥٦.

كان واصف، كمؤرخ وموسيقي عصامي ثقف نفسه بنفسه، يمتلك ذاكرة فوتوغرافية مكنته من تذكر الأحداث، لا الدرامية منها فحسب (دخول جمال باشا، ولاحقاً اللورد اللنبي، إلى القدس)، بل أيضاً نقل نشوة التفصيلات المثيرة للحياة اليومية. ومن خلال مرافقته لوالده ــ المحامي المدرَّب الذي عمل مديراً لأطيان سليم أفندي الحسيني الريفية في قرية دير عمرو ومحيطها ــ استطاع أن يلاحظ، بصورة مباشرة، الروابط القائمة بين أرستقراطية القدس الإقطاعية وبين الفلاحين سكان القرى المحيطة. وعندما كبر واصف في كنف والده، استطاع أن يصوغ لنفسه شهرة محلية بصفته عازف عود وملحناً من الدرجة الأولى. وبينما كان يؤدي موسيقاه في قصور أعيان القدس، سجّل ــ بكثير من الظرف والسخرية ــ النسيج الاجتماعي لحياة فقراء المدينة وأغنيائها.

والنتيجة هي صورة حميمة لحداثة القدس العثمانية في اللحظة نفسها التي كانت الصهيونية على وشك الصدام بالحركة الوطنية الفلسطينية الناشئة. يروي جوهرية قصة دخول الفونوغراف والسينما إلى مقاهي المدينة سنة ١٩١٠، والدهشة التي استولت عليه عندما رأى الصور المتحركة أول مرة في المسكوبية ("وكان رسم الدخول بشلكاً عثمانياً، يدفع عند المدخل"). وفي سنة ١٩١٢، رأى أول مرة عربة من دون حصان ("سيارة فورد" يسوقها السيد فيستر من الكولونية الأميركية) في منتزه البلدية بالقرب من شارع يافا. وفي صيف سنة ١٩١٤، ركب حماراً مع والده إلى البقعة في ضاحية القدس الجنوبية، ليشاهد هبوط طائرة عسكرية عثمانية فيقول: "كانت المدينة مقفرة من سكانها في يوم الصيف الحار ذاك. وجمع البائعون المتجوّلون ثروة من بيع الماء". ولسوء الحظ، تحطمت الطائرة في سمخ (طبرية)، وقتل طياراها التركيان، الضابطان نوري وإسماعيل. وقد ألّف واصف مرثية خاصة على شرفهما، غُنّيت ــ كما يدّعي ــ في أنحاء البلد كافة. وفي خريف تلك السنة، استطاع أن يكون حاضراً في جنوب القدس ليشاهد هبوط أول طائرة في البقعة الفوقا، يقودها ضابطان، ألماني وتركي.

وواصف الذي كان منخرطاً بعمق في شؤون الطائفة الأرثوذكسية العربية، يبدي مع ذلك تعلقاً فريداً بالثقافة الإسلامية لمدينته. وترغمنا رؤياه على إعادة النظر في المعرفة العقلانية بشأن بنية القدس الطائفية والمذهبية في العصر العثماني المتأخر. وعلى سبيل المثال، قصص لا حصر لها ــ الكثير منها فضائحي وهزلي ــ ترسم صورة حية لتعايش عميق الجذور بين عائلات مسيحية ويهودية في قلب ما أصبح يعرف بالحي الإسلامي. ولم يكن ذلك تجاوراً متسامحاً لأقليات ذمّية تتمتع بالحماية، وإنما كان انخراطاً إيجابياً في شؤون الجيرة، كانت تشكل دياناتها اعتباراً ثانوياً بالنسبة إلى تراثها المدني الأوسع. كذلك ما من شك في أن عائلة جوهرية على الرغم من وعيها العميق بتراثها الأرثوذكسي، كانت أيضاً ذات انتماء عميق إلى الثقافة الإسلامية. وقد جعل جريس أبناءه يقرأون القرآن ويحفظونه في سن مبكرة. وعندما مات في أيلول/سبتمبر ١٩١٤، رثاه خليل السكاكيني ("بموت جوهرية انتهى عصر الظرف")، وتبعه الشيخ علي الريماوي ــ صديقه الحميم: "لم أصدق أن روح الجوهرية تبقى في [مقبرة] صهيون. بل تنتقل في هذه الليلة إلى [مقبرة] مأمن الله"!! ومثل هذا الموقف يتجاوز بمسافة كبيرة أنماط التعايش العادية التي كانت رائجة في ذلك العصر. ويلاحظ واصف كيف أن عوانس من الطائفة الأرثوذكسية بدأن يتمتمن: "يوه.. يبقى هيك؟.. صاير مسلم.. يا أختي من كثر ما يعاشر المسلمين!! إلاّ.. وهكذا انكسفت والديّ وحاولت أن تدافع عنه."



صورة لخليل السكاكيني في بداية القرن العشرين. المصور: خليل رعد. من أرشيف عائلة السكاكيني.

وكما هي الحال في كتابات خليل السكاكيني المتمردة على الدين في عهد الانتداب (وخصوصاً في "كذا أنا يا دنيا")، فكثير من نوادر جوهرية يتحدى المحرمات الاجتماعية والدينية بشكل لا نستطيع تصوره في أجواء التفكير السائدة اليوم. والقليل منها يمكن نشره في الوقت الحاضر، إمّا لأنه قد يستدعي دعاوى التشهير، وإمّا لأنه يتبنى موقفاً قد يفسر (خطأً) بأنه مثير للمشاعر الدينية.

مع ذلك نستطيع أن نتابع التحولات الاجتماعية الجذرية التي اجتاحت القدس في الروايات التي تفصل عالم الأب عن عالم الابن في الجيلين من عائلة جوهرية. ويكتسب ذلك أهمية خاصة عندما نصغي إلى وصف الأب لجغرافية القدس خارج بوابات المدينة:

حدثني والدي فقال: عندما كنت صغيراً، ربما في سنة ١٨٤٥، أذكر أن لا بناء كان خارج السور سوى بعض القليل جداً أذكر منه قصر أبو الهوى الخليلي طريق القدس — بيت لحم، قصر الحديدية بجوار محطة السكة الحديدية وملك البطريركية الأرثوذكسية، قصر بن يمين طريق القدس — بيت لحم بما فيه دير وكنيسة مار الياس، قصر العماوي مقابل جامع الشيخ جراح، بناء في كرم رصاصي موقع متحف القدس الآن.[1] ثم جامع الشيخ بدر طريق القدس — يافا، عكاشة جامع أيضاً محلة عكاشة وبعض الأبنية الرخيصة المتفرقة.

ثم يضيف، نقلاً عن الأب، في مكان آخر:

عندما كنت ربما في الثالثة عشر من عمري سنة ١٨٥٠ لم يكن سيارة تجر بواسطة الحيوانات مطلقاً ولم نعرف (العجل) بل كان السفر بواسطة ركوب الحيوانات من الخيل والبغال والحمير والجمال فقط وإني أذكر أول من جاء بما كانوا يسمونه (طنبر) وهو عربة قائمة على عجلتين وتجر بواسطة بغل (فرنسا) وكانت هذه العربة تنقل القرميد القديم الصنع لكنيسة فرنسا في قرية أبو غوش فكنت وكثيراً من أولاد جيلي نسير خلف هذه العربة من باب الخليل إلى أن نصل قريباً من لفتا نتأمل في العجل الذي بواسطته تدور وتسير بسرعة ثم نرجع وكلنا إعجاب لهذا الابتكار الغريب..

ثم نتعرف على مدى انغلاق المدينة قبل جيل واحد من نشأة واصف:

عندما كنت صبياً ربما في سنة ١٨٤٥ كانت أبواب المدينة تغلق من قبل الدولة عند الغروب يومياً وذلك خوفاً من هجوم البدو ودخول المدينة ليلا.. وعندما كنت أتأخر مع بعض رفقائي من الأولاد قليلا عن الغروب ونحن نلعب خارج السور فنجد أن الأبواب مغلقة كنت أتسلق والأولاد من جهة خارج باب العامود من ثغرة وعرة حتى نصل إلى سوار المدينة وننزل من جهة عمارة الجبشه الآن.

كيف حصل واصف على هذه الذكريات من والده؟ هل كانت مبنية على يوميات سابقة كان يحتفظ بها جريس الأكبر، أم أنه استعاد بكل بساطة حديثه من الذاكرة؟[2] لم أستطع معرفة الإجابة عن هذا السؤال. ومهما يكن، فإننا أمام روايتين مختصرتين من جيلين، جرى تركيبهما الواحدة بموازاة الأخرى، يوميات داخل يوميات تقودنا بمهارة الراوي من عهد التنظيمات في منتصف القرن التاسع عشر إلى بداية الحرب العالمية الأولى. وتكشف في الحصيلة عن مدينة على حافة تحول كبير من تخوم الطائفة المذهبية المنغلقة نسبياً داخل بوابات المدينة، إلى الانطلاق المفاجئ نحو المجال المفتوح، عندما بدأت عشرات العائلات من البلدة القديمة بغزو ضواحي المدينة الجديدة، الغربية والشمالية، في المصرارة والمسكوبية ومنا شعاريم والبقعة (كانت الطالبية

١ لعله يشير إلى موقع المتحف الفلسطيني في باب الساهرة، الذي أصبح متحف روكفلر بعد الاحتلال الإسرائيلي سنة ١٩٦٧.

٢ لقد زودني السيد جورج جوهرية نسخة عن مذكرات كان جدّه جريس يحتفظ بها، وفيها دوّن أحداثاً من القرن التاسع عشر. إلاّ إن هذه المخطوطة هي في الأساس سجلّ عائلي، سجّل فيه الولادات، والزيجات، والتعميدات، والوفيات، ولا يحتوي تقريباً على ملاحظات اجتماعية من النمط الذي يعزوه واصف إليه هنا.

والقطمون لا تزالان في مرحلة نمو جنينية). إن وتيرة هذا التوسع وطبيعته تنعكسان في تطور شخصية واصف بالذات، بينما هو على وشك الدخول في سن البلوغ المبكّر.

سنوات التشرد

على غرار ما كانت عليه عادة سكان البلدة القديمة، أرسل واصف للتدرّب في عدد من المهن في صباه. وقد أكملت هذه الواجبات تدريسه الرسمي، وكثيراً ما طالت مهنته الموسيقية المتطوّرة. في صيف سنة ١٩٠٧، وهو في التاسعة من عمره، أرسله والده للتدرب في دكان الحلاقة التابع لمتيا الحلاق (أبو عبد الله). وفي ذلك الوقت كان يداوم في المدرسة الابتدائية اللوثرية في الدبّاغة. وكان الحلاق في القدس العثمانية متعدد الوظائف. فقد كان طبيباً يداوي بالأعشاب، ومعلماً في المعالجة بالعلق لفصد الدم وكاسات الهواء لتخفيف الاحتقان. وبصورة عامة، كان يؤدي مهمة طبيب العائلة المحلي. ويمكن أن يكون جوهرية الأب أراد لأحد أبنائه أن يكتسب مهنة كهذه. وقد تعلم واصف أساليب هرُب خلاّقة في هذه الفترة. فكثيراً ما كان يهرب من دكان سيده للاستماع إلى حسين النشاشيبي يعزف العود في صالون حلاق آخر (الخاص بأبي مانويل)، كانت عائلة النشاشيبي تملك دكانه. وفي هذه الفترة، بدأ عزف العود يستحوذ على واصف، وراح يعدّ الأيام ليصبح هو نفسه عازفاً. وتحتل مهنته الموسيقية جزءاً كبيراً من اليوميات. ومن حسن حظنا أننا حصلنا على مفكرته الموسيقية التي بدأ يسجّلها قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة، والتي استطاعت العائلة أن تستعيدها من مخبئها في بيت العائلة، في شارع بوتا، في القدس الغربية، بعد حرب ١٩٦٧. وتعكس المفكرة اهتمامات واصف بالموسيقى العربية، من الموشحات الأندلسية والحلبية الكلاسيكية، إلى موسيقى الكورس (التي كان يؤديها في الأعراس والاحتفالات العائلية)، وإلى أغاني الحب، وإلى الألحان الشعرية الكلاسيكية، وأخيراً الطقاطيق وأغاني العشق. ولأن واصف لم يكن متعلماً في بداية حياته الموسيقية قراءة النوتة، فقد اخترع أسلوبه الخاص. كذلك كتب فصلاً عن تكييف العود وفق نظام النوتة الموسيقية الغربية.[1]

كان بيت جوهرية المحيط المثالي لمواهبه الموسيقية المتفتحة. فأفراد العائلة جميعاً ـــ باستثناء خليل (الذي لم يكن لديه أذن موسيقية) ـــ إمّا كانوا يعزفون، وإمّا يغنون، وإمّا يستمتعون بالموسيقى الجيدة. وكان أبوه أحد المقدسيين القلّة ممن اقتنوا فونوغراف "ماسترز فويس". وكان لدى آل جوهرية عدد من التسجيلات المبكرة لمغنين مصريين بارزين، مثل الشيخ المنيلاوي وسلامة حجازي. وكان الوالد يشجع أبناءه على الغناء المرافق لهذه التسجيلات. وكان قاسياً بصورة خاصة على واصف عندما يخطئ. كذلك كان جريس جوهرية حريصاً على استضافة مغنين وموسيقيين بارزين يزورون القدس. وكان أحد هؤلاء عازف العود المصري قفطنجي، الذي أمضى أسبوعاً مع آل جوهرية، ومنه تعلم واصف عدداً من الألحان التي استخدمها في الغناء في ليالي الصيف على السطح، وأكثر من ذلك في "بيت الخلاء".[2]

يرجع واصف بداية مهنته الموسيقية إلى "سنة العواصف الثلجية السبع"، وهو نمط مألوف لحساب الأحداث في تلك الأيام، لا يزال منتشراً في الأوساط الشعبية، والتي يقدّر لاحقاً أنها كانت سنة ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٧. وكان ابن تسعة أعوام، في عيد القديس ديمتري، عندما كانت عائلة جوهرية تحتفل بعيد ميلاد سميِّه، جارهم وصديقهم متري عبد الله مني. في تلك السنة كان أخوه خليل يتدرب على مهنة النجارة، وقد صنع له دفه الأول. لقد حركت رغبة الابن عاطفة أبيه إلى حد السماح له بمرافقة عدد من أصحاب الأداء المعروفين جيداً في محلة السعدية ليتعلّم الفن على أيديهم. وقد شمل هؤلاء حنا فاشه، الذي كان يصنع آلاته الخاصة، وصبري عبد ربّه، الذي باعه عوده الأول في مقابل ٤ مجيديات (٨٠ قرشاً عثمانياً).[3] وكان واصف عندها ابن أحد عشر عاماً؛ وقد وفّر ٢٠ قرشاً من عمله واقترض الباقي من صديق أبيه حسين الحسيني.[4] ولقد تأثر جريس

١ أنظر: "الدفتر الموسيقي"، مصدر سبق ذكره، صفحة ٩.

٢ أنظر صفحة ١٨.

٣ من أجل تقدير ثمن عود واصف الأول، نلاحظ أن ثمن رطل اللحم (٣ كغ)، في ذلك الوقت، كان ٧,٥ قروش. ويعادل المبلغ الذي دفع للعود ثمن ٣٢ كغ من اللحم، أي ٣٢٠ دولاراً بالنسبة إلى أسعار القدس في وقتنا هذا (سنة ٢٠٠٠)، وهو مبلغ كبير لعائلة متواضعة الحال في ذلك الوقت. أنظر: المخطوطة، "قائمة بأسعار الحاجات الأساسية في القدس العثمانية: ١٩٠٠ – ١٩١٤"، صفحة ١٠١.

٤ أنظر صفحة ٩٦.

بدأب واصف إلى حد أنه استأجر أحد أشهر معلمي العود، عبد الحميد قطينة، لتلقينه. وكان واصف يتلقى دروساً من قطينة مرتين في الأسبوع. وفي المقابل، كرّم والده قطينة بوجبات خاصة: مزّة وعرق، كان يعدّها ويقدّمها جريس بنفسه.

وعلى عكس الانطباع الذي يعطيه واصف عن شخصيته المتمردة، فقد حصل على درجة كبيرة من التدريس الرسمي. وينعكس هذا في لغته المصقولة وخياله الشعري الغني. وكان خطه الجميل استثنائياً، وقد حافظ على مستواه حتى سنه المتقدمة. وتكثر الإشارات في مذكراته إلى مصادر متعددة من الشعر الكلاسيكي، إضافة إلى الشخصيات الأدبية المعاصرة، بمن فيها السكاكيني، وأحمد شوقي، وخليل جبران. إحدى مقولاته المحببة جاءت من جبران الذي يقتبس بمناسبة طرده من المدرسة الابتدائية: "قالوا لي: من علمك حرفاً كنت له عبداً، لذلك بقيت جاهلاً حراً."[1]

[1] أنظر صفحة ٢١.

تلقى كل من واصف وأخيه توفيق تدريسه الأول في مدرسة الدبّاغة التي كانت تديرها الكنيسة اللوثرية بالقرب من كنيسة القيامة. وهناك تعلم قواعد اللغة العربية، والإملاء، والقراءة، والحساب. وتعلم اللغة الألمانية أيضاً والكثير من التلاوات من الكتاب المقدس. وكان زيّه المدرسي هو القمباز وحذاء شامي من جلد أحمر يعرف باسم "البلاغات"، اشتراه والده بسبعة قروش من سوق العطارين.[2] وفي سنة ١٩٠٩، (عندما كان ابن اثني عشر عاماً)، أخرج واصف وتوفيق من الدبّاغة، بعد أن ضربهما معلم الحساب بوحشية لأنهما هزئا به. ورافق واصف والده في عمله مشرفاً على أملاك الحسيني عدة أعوام، بينما كان يؤدي أحياناً كمغن (ولاحقاً كعازف عود) في الحيّ.

[2] أنظر صفحة ٢١.

وعندما أسس خليل السكاكيني مدرسته التقدمية "الدستورية الوطنية" في المصرارة، تدخل والده لدى رئيس البلدية للسماح بقبوله تلميذاً خارجياً. وقد اكتسب السكاكيني شهرة واسعة من خلال تطبيق أساليب راديكالية في التربية في مدرسته، حيث حظر العقاب البدني والامتحانات الكتابية بصورة صارمة. وإضافة إلى قواعد اللغة المتقدمة والأدب والحساب، فقد اشتمل المنهاج على اللغات الإنكليزية والفرنسية والتركية. وكان السكاكيني رائداً في إدخال نظامين انفردت بهما مدرسته في حينه: التربية البدنية، والدراسات القرآنية للمسيحيين.

وكان السكاكيني نفسه من عشاق الموسيقى، وكان له هوى خاص بالعود والكمان. وقد شاهد بعض طلاب مدرسة الدستورية واصف يؤدي في الأعراس المحلية، وسخروا منه لكونه "مغني شوارع وأجيراً". ودافع السكاكيني عنه وجمع الطلاب للاستمتاع بموسيقاه. وعلى الرغم من حب واصف للدستورية ولأجوائها الليبرالية فقد اضطر، في النهاية، إلى تركها نتيجة إصرار وليّ أمره، حسين الحسيني، والالتحاق بمدرسة المطران (سانت جورج) في الشيخ جراح "... من أجل اكتساب المعرفة باللغة الإنكليزية وبناء أساس صلب لمستقبلي".[3] وقد بقي هناك عامين دراسيين (١٩١٢/١٩١٣ و١٩١٣/ ١٩١٤)، إلى أن أغلقت المدرسة في بداية الحرب. وكان واصف أنهى الصف الرابع الثانوي (عامه الدراسي العاشر)، ومعه أنهى دراسته الرسمية من دون الحصول على شهادة المدرسة الثانوية. وفي مدرسة المطران، تفوق واصف في التمثيل في مسرحيات المدرسة، حيث استطاع تطوير مواهبه الموسيقية. ومن أقرانه في الصف: صليبا الجوزي، الكاتب المسرحي المشهور وأخو بندلي، المؤرخ الماركسي الذي هاجر إلى الاتحاد السوفياتي، وشكري الحرامي، المربي المعروف ومؤسس كلية الأمة.

[3] المصدر نفسه، صفحة ١٤٥ – ١٤٦.

بعد انتهاء واصف من دراسته الرسمية استطاع متابعة تثقيفه الموسيقي برفقة أشهر عازفي العود والملحنين المقدسيين. وقد شمل هؤلاء: محمد السياسي، وحماده العفيفي (الذي علّمه فنّ الموشحات في العرف التركي)، وعبد الحميد قطينة، الذي كان ملقنه الأول. لكنه لم ينضج موسيقياً إلى أن التقى المعلم الكبير في عزف العود، عمر البطش. ففي ربيع سنة ١٩١٥، بعد وفاة والده، كان واصف يحضر حفلاً برفقة حسين أفندي وعدد من الضباط الأتراك في بيت الحاج خليل النشاشيبي. وكانت مجموعة من فرقة الجيش العسكرية، تُعرف باسم مجموعة إزمير، تؤدي موشحات أندلسية. وقد سُحر واصف بعزف عازف عود شاب، يرتدي بزة عسكرية، تعرف إليه باسم عمر البطش. وطوال فترة الحرب، أصبح عمر رفيقه الدائم. وألح واصف على حسين أفندي، الذي كان الآن وليّ أمره الرسمي، بأن يستأجر خدمات عمر ليعطيه أربعة دروس في العود أسبوعياً، في مقر فرقة الجيش في المسكوبية.


صديق واصف، جوهرية عازف الكمان سامي الشوا. من مجموعة عائلة المؤلف. المصور غير معروف.

تعلم واصف من عمر قراءة العلامات الموسيقية، كما وسّع ذخيرته الموسيقية كثيراً في الموسيقى العربية الكلاسيكية. وبدأ عمر، من جانبه، يأخذ واصف ليغني معه ويرافقه على العود في الأدوار التي يؤديها. لكنه، فوق كل شيء، علّمه كيف يكون ناقداً ومميِّزاً في تقويم ما يسمع. وعلّمه بصورة خاصة كيف يؤدي الموشحات الكلاسيكية.[1] ويشير واصف إليه، على امتداد مذكراته، بصفته "معلمي" و"أستاذي". ويخبرنا واصف عن حادثة برفقة عمر، عندما أُلقي القبض على الأخير وهو يغني مع مجموعة مختلطة في بيت أبراهام الكرجي في باب السلسلة بالبلدة القديمة. ولأن عمر كان يعزف لجمهوره المتحمس وهو في بزة عسكرية، وفي وضح النهار، فقد اقتادته الشرطة "بتهمة السلوك الداعر والمخمور بينما هو في الخدمة [العسكرية]". وعندما ذهب واصف في اليوم التالي ليحاول إطلاقه، وجد أن الجنود المداومين في مهماتهم كانوا جلدوه وضربوه. وقد أرسل عمر رسالة مع واصف إلى قائد السجن، الذي كان تلميذاً سابقاً له في حلب، وأحد المستمعين المعجبين به، يطلب مساعدته. وعن طريق الخطأ، ناوله واصف صفحة موسيقى عليها الأغنية القصيرة "طيري طيري يا حمامة". ولأن قائد السجن ظن أن عمر كان بذلك يهزأ به، فقد أمر بضربه عشرين جلدة أُخرى، حتى بدأ ينزف دماً. أخيراً، اعترف واصف بخطئه، وأُطلق عمر، وقبّله القائد وطلب السماح من معلمه السابق. وليعوضه عن الجلد، راح هو بنفسه يرافق واصف وعمر البطش في طلعاتهما الموسيقية، ويحميهما بذلك من سطوة الشرطة، ويشبع رغباته في الوقت نفسه.[2]

1 "كان أستاذي عمر يعتبر معاماً كبيراً في أداء الموشح، وهو نوع منقرض تقريباً اليوم في العالم العربي، ربما باستثناء حلب. واعتاد أن يحدثني عن أستاذه، علي درويش، الذي كان خبيراً عالمياً بهذا النمط الموسيقي." أنظر: المخطوطة، صفحة ٢٢١ – ٢٢٣.

2 المصدر نفسه، صفحة ٢٢٣.

كان واصف يرى نفسه موسيقياً وعازف عود فوق كل اعتبار آخر خلال الفترة العثمانية وما بعدها. وعندما بحث عن وظيفة في إدارات حكومية وبلدية متعددة، كان ذلك للحصول على ما يقيم به أود الحياة فقط، والانصراف إلى ما كان يستحوذ على مشاعره: العود ورفقة العمر الذين شاركوه في هذه الرؤيا.

وكانت "وظيفته" بأجر الأولى كاتباً في بلدية القدس، مسؤولاً عن تسجيل التبرعات العينية للمجهود الحربي العثماني وتصنيفها. وقد أوجد حسين أفندي الحسيني هذه الوظيفة لواصف بعد موت والده، في محاولة لتلطيف الأوضاع المادية لعائلة جوهرية. وفي نهاية الحرب وبداية الاحتلال العسكري البريطاني، استأنف واصف عمله في البلدية بعد فترة قصيرة من الخدمة في البحرية العثمانية (أنظر أدناه)، وكان الآن ترقّع إلى كاتب محكمة في وزارة العدل، يعمل بإشراف القاضي علي بك جار الله في المسكوبية. وكان موظفو الحكومة لا يزالون يتلقون رواتبهم بالليرات التركية الورقية المتضخمة (والتي لا قيمة لها عملياً)، لكن سرعان ما استبدلت بالجنيهات المصرية المصكوكة بالحجر، والتي كانت أفضل للاستعمال. وكان كل من واصف وخليل يعطي أمه راتبه.[3] ومع وفاة حسين بك ("والدي الثاني")، استقال واصف من وظيفته في المحكمة المركزية وذهب ليساعد أرملة حسين (أم سليم) في إدارة أطيان آل الحسيني في قرية دير عمرو.

3 المصدر نفسه، صفحة ٢٩٨.

خلف راغب بك النشاشيبي حسين أفندي في رئاسة البلدية (بعد نوبة وجيزة لإسماعيل الحسيني). وكان راغب عازف عود هاوياً وشخصية بارزة في المجتمع. وقد استأجر واصف ليعطيه، هو وصديقته أم منصور، دروساً في العود والغناء. ولمكافأته، تدخل كي يُدرَج اسم واصف في جدول مرتبات مكتب الضرائب، بمرتب شهري قدره ٢٠ جنيهاً مصرياً. وفي نهاية كل شهر، كان واصف يذهب إلى دائرة الريجي لقبض راتبه، من دون أية مهمات أُخرى مترتبة عليه. وهكذا بدأ سلسلة من الوظائف القائمة على الرعاية. فروابطه الخاصة بآل الحسيني (ولاحقاً بآل النشاشيبي، الذين تقلدوا مكاناً بارزاً بقدوم الحكم البريطاني)، ساعدته على الاستمرار في مهنته كموسيقي، بينما كان يحافظ على دخل ثابت من الخزينة العامة.

وهكذا يبدو أن نظام الالتزام والتضمين الذي كان سائداً في النمط الزراعي هيمن أيضاً على التوظيف الحكومي. وكانت الفترة العثمانية تقترب من نهايتها. وفيها دخل واصف سن البلوغ، لكنه لم يبلغ رشده إن جاز التعبير. لقد غلب عليه ما سمّاه "فترة الفوضى التامة في حياتي". وفي الأساس كان يعيش كصعلوك؛ ينام طوال النهار، ويحتفل طوال الليل. "كنت أذهب إلى البيت فقط لتغيير ثيابي، وأنام في بيت مختلف كل يوم. وكان جسدي منهكاً تماماً من الشرب وحياة الليل. ففي لحظة أنا في محلة باب حطّة... في الصباح أتنزه مع أبناء عائلات الأعيان المقدسية، وفي اليوم التالي أقيم حفلات ماجنة مع الصعاليك والأشاوس في أزقة البلدة القديمة. وكان مصدر رزقي الوحيد هو راتبي من دائرة الريجي، الذي رتّبه راغب بك". وعندما كانت أمه تتذمر من عودته إلى البيت متأخراً في الليل، كان يرد بالقول المأثور: "من طلب العلا سهر الليالي".

مقهى جوهرية

يدخلنا جوهرية إلى وسط اجتماعي مقدسي غني، في فترة ما بعد الحرب وفي العشرينات، والذي يمكن وصفه أيضاً بأنه مجتمع طرب ومتعة؛ حفلات ليلية من تجمعات الندماء والرقص والتدخين... تتكرر على امتداد المخطوطة. وقد قدّمت العائلة مساهمة كبيرة لهذا الوسط الفني الاحتفائي من خلال افتتاح مقهى جوهرية سنة ١٩١٨، بالقرب من المجمّع الروسي عند المدخل الجنوبي لطريق يافا. وقد جلب خليل، شقيق واصف، إلى هذا المقهى ـــ البار مهارات كان اكتسبها في بيروت في أثناء خدمته في الجيش العثماني. وقد شملت هذه تقديم وجبة "مزة" خاصة مع طلبات العرق والماء المثلج، الأمر الذي كان تجديداً في القدس، وأصبح ممكناً مع إدخال مولدات الطاقة الكهربائية. وخلال أشهر على افتتاح المقهى، أصبح نقطة جذب رئيسية للباحثين عن الطرب في أنحاء المدينة كافة. واشتهر باستقدام أفضل المغنين إلى البلد، بمن فيهم الشيخ أحمد طريفي، ومحمد العاشق، وزكي أفندي مراد، وبديعة مصابني. وتعود علاقة واصف ببديعة مصابني، وزوجها نجيب الريحاني، إلى هذه الفترة. وكانت مصابني تزور يافا في زيارات فنية من حين إلى آخر في أثناء الصيف، في طريقها من القاهرة إلى بيروت، وأحياناً قد تصل إلى القدس. بدايةً، التقاها واصف في صيف سنة ١٩٢٠ (صفحة ٣٦١)، عندما كانت تؤدي دورها الفني على مسرح/ومقهى المعارف خارج بوابة الخليل مباشرة. وهو يسجل عدداً من مقطوعاتها الغنائية/الراقصة التي كانت تؤدّيها بلباس شفاف. كما أدت عدداً من أغاني سيد درويش ـــ التي كانت لها شعبية كبيرة ـــ وخصوصاً سخريتها الاجتماعية بالأغنياء "الحق عل الأغنيا". وكان أحد المقاطع الشعرية الذي غالباً ما يلهب جمهور مستمعيها الذي يطالب بإعادته هو:

إمتى بقى نشوف قرش الشرقي   يفضل ببلده ولا يطلعشي

ولاحقاً، كان واصف يلتقي بديعة بصورة شخصية في حفلات حميمة في قصور أعيان القدس، مثل فخري النشاشيبي، ومصطفى الجشه، أو في فندق سانت جون الذي كان يملكه حماه. وفي إحدى المناسبات، رافق واصف بديعة على عوده في حفلة امتدت طوال الليل، ابتدأت في مقهى جوهرية، واستمرت في بيت والده ـــ وهي ليلة احتفظ بسجل فوتوغرافي لها لولعه بها. وكانت بديعة واحدة من عدة فنانين مصريين ولبنانيين ممن أقام واصف علاقات بهم، بمن فيهم سلامة حجازي، وداود حسني، والشيخ يوسف المنيلاوي. وقد أصبح كثيرون من هؤلاء المغنين يتمتعون بشعبية في فلسطين مع استيراد الآلات الموسيقية الجديدة: بدايةً، آلة التسجيل الشمعي الأسطوانية، ومن ثم الفراموفون المسيّر يدوياً، الذي يوضع عليه الأسطوانات البلاستيكية ذات الـ ٧٨ دورة في الدقيقة، والتي يشير إليها باسم فونوغرافات إديسون. وعند بداية الحرب العالمية الأولى،كان في القدس عشر آلات كهذه فقط، ثمن كل واحدة منها نحو ٢٥ جنيهاً فرنسياً ـــ وهي ثروة صغيرة في تلك الأيام، الأمر الذي يجعل الحصول عليها مقصوراً على عدد قليل من المقتدرين.[1] وخلال الحرب، بدأ عدد من مقاهي القدس يجذب الزبائن عبر شراء فونوغرافات وعزف قطع مختارة بحسب الطلب.

١ يجري المؤلف حساباً بأن هذا هو المعدل السنوي لراتب قاض للفترة نفسها.

وُهب واصف صوتاً رائعاً جعله مطلوباً كثيراً للأداء في الأعراس، حتى وهـــو في سن المراهقة. لكن حبه الأبدي كان للعود، الذي بحلول سنة ١٩١٨ كان أتقنه إلى الحد الذي جعله أكثر العازفين المنشودين في فلسطين، أو هكذا يدّعي. وكان يعزف العود لأبناء نخبة المدينة أساساً ـــ وعادة في بيوت خاصة يحتفظون بها لصديقاتهم. وقد احتفظ عدد من أبناء العائلات الأرستقراطية المقدسية ـــ بمن فيهم آل الحسيني والنشاشيبي ـــ بشقق خاصة لصديقاتهم في ضواحي المدينة الجديدة، وكثيرات منهن يونانيات وأرمنيات ويهوديات. وتشير مذكرات جوهرية إلى كثير من وقائع المناسبات الاحتفالية التي أمضاها بصحبة أبناء النخب الاجتماعية وصديقاتهم، برفقة مطربين مسلمين ومسيحيين ويهود.

هناك سمة أُخرى للحياة الثقافية في القدس العثمانية يرد ذكرها هنا وهي "الأوضة" ـــ الشبيهة بشقة العازب في فرنسا. وكان من عادة الرجال العزاب من أبناء الطبقة الغنية في البلدة القديمة أن يستأجروا شقة مفروشة ذات غرفة واحدة، حيث كانوا يمضون مساءهم يلعبون الورق ويدخنون ويشربون، وفي ليالي الشتاء الطويلة، يحيون جلسات عود. ويسجّل جوهرية عدداً من "الأوض" المعروفة جيداً في البلدة القديمة والشيخ جراح، حيث كان يؤدي موسيقاه. ولعدة أعوام، كان هو نفسه يحمل مفتاح "أوضة" حسين هاشم الواقعة خلف مقبرة ماميلا، حيث كان يعزف لسيدات روسيات ويونانيات برفقة راغب بك النشاشيبي (رئيس بلدية القدس لاحقاً) وإسماعيل الحسيني.

إن هذه الوقائع تضطرنا إلى إعادة النظر في صورة القدس في بداية القرن، التي كثيراً ما توسم ـــ زيفاً ـــ بأنها مدينة متجهمة ومحافظة وكئيبة من جانب الزوار والمحليين، على حد سواء (ويقتطف إدوارد سعيد عن أبيه، مستذكراً حياته المبكرة في المدينة، قوله "إن الشيء الوحيد الذي قاله عنها إنها ذكرته بالموت").[2] كيف نعلّل هذا التناقض في صورة القدس؟ علينا أن نتذكر أن القدس كانت مدينة دينية، لكن ليست مدينة مغالية في تديّنها؛ الأمر الذي يعني أن موقعها الديني ولّد عدداً كثيراً من الصناعات والخدمات التي أقيمت لخدمة قطاع ضخم من الحجاج الزائرين، لكن سكانها الأصليين لم يكونوا بالضرورة أكثر تديناً من مراكز مدينية في المناطق الجبلية. فعلى سبيل المثال، كان لكل من نابلس والخليل والناصرة سمعة دينية أكثر تزمتاً من القدس.

٢ أنظر:

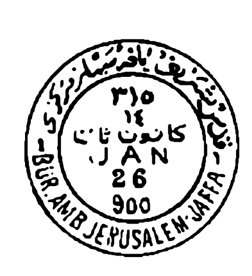
Edward Said, *Out of Place: A Memoir* (New York, 1999), p. 6.

لكنني أعتقد أن التفسير الأقرب لهذه الليبرالية الاجتماعية يكمن في مكان آخر. فرواية جوهرية تأتي من فترة سابقة في تاريخ المدينة، عندما كانت الفوارق الطبقية والامتيازات الإقطاعية تخلق مناخاً معيناً، تشعر الطبقة

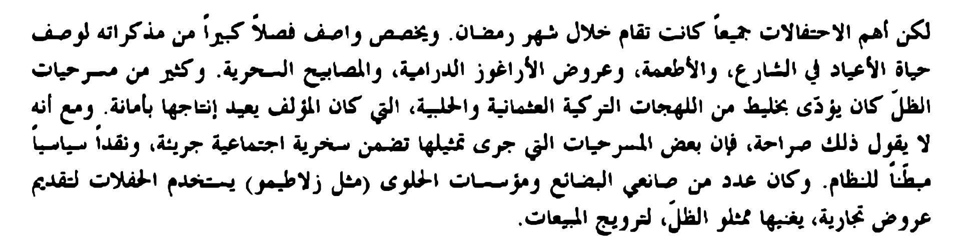
العليا فيه بأنها معصومة في أنماط سلوكها عن الضوابط الاجتماعية لجمهور العامة. وفي كثير من الأحيان، كان أبناء هذه النخبة يتباهون بهذا السلوك مثلما كان الحال مع الشرب في العلن، والعلاقات بين الجنسين من دون خوف من عقاب. ومصدر آخر من الحماية لمجالات الحرية الاجتماعية هذه هو أن القدس كانت لا تزال مدينة مغلقة إلى حد ما، ويظهر فيها تدفق محدود من القرى المحيطة، أو من جبل الخليل، من الفلاحين المهاجرين الذين أوجدوا لاحقاً أجواء محافظة أصبحت المدينة معروفة من خلالها.

تعددية الطقوس الدينية

تدعو مذكرات جوهرية القارئ إلى المشاركة في عالم من التسامح الديني والتعدد الثقافي اللذين يصعب استشفافهما في الأجواء السائدة اليوم من الانعزالية الإثنية والأصولية الدينية. لقد كانت فترة ما قبل القومية التي غمرت فيها الهوية الدينية "الآخر" في أعيادها وطقوسها. ويروي جوهرية عن فترة عيد الفصح كمناسبة للاحتفالات الإسلامية — المسيحية — اليهودية. وهو يفصل في وصف مواكب "أحد الشعانين" (التي كانت تتقدم من المسجد الإبراهيمي في الخليل إلى القدس). وعيد النبي موسى يُستحضر هنا أنه احتفال شعبي إسلامي، يندمج في عيد الفصح الأرثوذكسي الشرقي. وأناشيد "سبت النور" (في ذكرى قيامة المسيح) التي تعتبر أهم احتفال شعبي مسيحي في فلسطين — منسقة بصورة وثيقة مع الأعياد الشعبية الإسلامية. وكان الشبان المسلمون والمسيحيون يحتفلون بعيد "بوريم" [المساخر] في الأحياء اليهودية. ويصف واصف بدقة الأزياء التي ارتدوها في هذه المناسبة. ومرتان في السنة، شاركت عائلات مسلمة ومسيحية، بمن فيها عائلة جوهرية، في الاحتفالات اليهودية على ضريح شمعون الصديق في الشيخ جراح (والمناسبة معروفة باسم "شطحة اليهودية")، حيث كان "حاييم، عازف العود، وزكي، ضارب الدف، يغنيان بمرافقة ألحان أندلسية".



ختم البريد العثماني. المصدر: *فلسطين في طوابع البريد ١٨٦٥ – ١٩٨١* (بيروت: دار الفتى العربي، والقاهرة: الورشة التجريبية العربية لكتب الأطفال، ١٩٨١).



لكن أهم الاحتفالات جميعاً كانت تقام خلال شهر رمضان. ويخصص واصف فصلاً كبيراً من مذكراته لوصف حياة الأعياد في الشارع، والأطعمة، وعروض الأراغوز الدرامية، والمصابيح السحرية. وكثير من مسرحيات الظلّ كان يؤدّى بخليط من اللهجات التركية العثمانية والحلبية، التي كان المؤلف يعيد إنتاجها بأمانة. ومع أنه لا يقول ذلك صراحة، فإن بعض المسرحيات التي جرى تمثيلها تضمن سخرية اجتماعية جريئة، ونقداً سياسياً مبطّناً للنظام. وكان عدد من صانعي البضائع ومؤسسات الحلوى (مثل زلاطيمو) يستخدم الحفلات لتقديم عروض تجارية، يغنيها ممثلو الظلّ، لترويج المبيعات.

كذلك كانت المدينة تحتفل بمناسبات موسمية لا صلة لها بالأعياد الدينية. ويحدد واصف مناسبتين "علمانيتين": شطحات الصيف إلى سعد وسعيد، وزيارات الربيع لبئر أيوب. وأصبح موقع سعد وسعيد، في الفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، المكان المختار للعائلات المسيحية والمسلمة للنزهة في أوقات بعد الظهر من الصيف الحار. وقد شجعهم على ذلك بصورة خاصة تنامي القصور الجديدة حول المصرارة ومنطقة الشيخ جراح. وفي هذه الطلعات، كانت كميات كثيرة من الشراب والأكل تُستهلك، وكانت تستمر، عادة، إلى ساعات المساء المتأخرة، عندما كان على المستمتعين أن يعودوا قبل إغلاق بوابات المدينة. وفي الربيع كانت هذه الطلعات تتوجه إلى بئر أيوب، عند ينابيع سلوان التحتا، حيث كانت عائلات القدس تجد مخرجاً من شتاء البلدة القديمة القاسي.

ومع تطبيق شروط وعد بلفور خلال الانتداب البريطاني، وصلت هذه الفترة من التسامح الديني إلى نهايتها. فالحركة الوطنية الفلسطينية، على الرغم من كونها في جوهرها حركة علمانية، بدأت باكتساب حماسة دينية. والسلطة الكولونيالية الجديدة بدأت تفسر الأنظمة، بشأن السيطرة الدينية وحق الوصول، بمصطلحات

الانعزالية المذهبية. ومُنع المسيحيون من دخول الأمكنة المقدسة الإسلامية، والمسلمون من دخول الكنائس المسيحية والأديرة، بمرسوم عسكري. وكانت العادة في تلك الأيام بالنسبة إلى الشباب المقدسي ـــ من جميع الأديان ـــ الخروج إلى النزهة في المروج الخضر داخل منطقة الحرم. ومع دخول الانتداب أصبحت المنطقة محظورة. ويصف واصف مغامرة قام بها في يوم ربيعي في نيسان/أبريل ١٩١٩، في أيام الحكومة العسكرية البريطانية الأولى، عندما تظاهر بأنه "مسلم" (أو مسلمان بلغة الهنود) أمام حراس منطقة الحرم الهنود، بينما منع رفيقه محمد مرزوقة، ذو العينين الزرقاوين، من الدخول، لأن واصف "أوضح لهم" أنه يهودي.

الخدمة في البحرية العثمانية في البحر الميت

أنهى نشوب الحرب العالمية الأولى خمسة قرون من الحكم العثماني للقدس وفلسطين. وفي أعوام الحرب، مرّ واصف بأشد فترات حياته درامية: موت والده؛ بلوغه سن الرشد؛ انتقاله إلى أريحا؛ تجنيده في البحرية العثمانية ـــ في البحر الميت!

شهدت الحرب تجنيد الآلاف من شباب القدس في الجيش العثماني، بمن فيهم كثيرون من الرجال المسيحيين المقدسيين. فمع إدخال إصلاحات التنظيمات سنة ١٨٣٩، وخصوصاً بعد إصدار "قانون الولايات" سنة ١٨٦٤، لم يعد أبناء الأقليات الدينية معفين من الخدمة. وشهد واصف كثيرين من أبناء عائلته القريبين، وأغلبية معارفه، يرسلون إلى الجبهة السورية. وضم هؤلاء أخاه الأصغر توفيق، الذي نقل إلى دمشق بعد فترة قصيرة من العزف في الفرقة العسكرية التركية في القدس، حيث أصيب بجروح بليغة في المعركة، وأخاه الأكبر خليل، الذي خدم في بيروت. ومع اشتداد تطويق الحلفاء للجيش العثماني، انقلبت قيادته العامة، بإمرة جمال باشا، ضد القوميين العرب في سورية الكبرى. وكان خليل نفسه شاهداً على شنق عشرات الوطنيين العرب علناً في [ما سمّيَ لاحقاً] ساحة الشهداء في بيروت.

أمّا بالنسبة إلى واصف، فالحرب كانت تعني أريحا، والبحر الميت، وازدهاره المهني الموسيقي. وفي سنة ١٩١٧، تسلّم مهمته الأساسية الأولى، عاملاً لدى وليّه، حسين بك الحسيني، في إدارة تجارة الحبوب الخاصة به بين فلسطين والأردن، والذي كان العثمانيون أعفوه تواً من عمله رئيساً لبلدية القدس، وذلك لمصلحة ضابط تركي (ورأى واصف في هذه الخطوة بداية تتريك نظام الإدارة العثماني). وفي غياب معبر للبضائع على نهر الأردن، كانت التجارة تمر عبر البحر الميت بمراكب يملكها آل الحسيني. ومع بداية الحرب، وضعت البحرية العثمانية يدها على هذا الخط الاستراتيجي، وجرى تجنيد واصف في البحرية وهو في السابعة عشرة من عمره (مع أنه يجب أن يكون الآن ابن ٢٠ عاماً ـــ ويبدو أنه يخصم ثلاثة أعوام من عمره لأسباب غير موضّحة). وقد أمضى واصف، خلافاً لأخيه، ونظراً إلى مهاراته الموسيقية، أغلبية أعوام الحرب يمتّع ضباط البحرية الأتراك وعشيقاتهم.[1] وسريعاً ما أنشئ ميناء على الشاطئ الغربي للبحيرة، وأُعطي جوهرية وظيفة قنطارجي، نائب الضابط المسؤول عن وزن القمح المستورد، الذي كان يُشترى من القبائل البدوية في منطقة الكرك ويشحن عبر البحر إلى الجانب الفلسطيني. وقد أمضى واصف ما تبقى من أعوام الحرب "عسكري حبوب" في النهار، و"ضابط عود" في الليل، كما يسمي نفسه ـــ إلى أن أعفي من مهماته بعد هزيمة العثمانيين على أيدي الحلفاء.

لقد كانت تجارة الحبوب شريان الحياة للجيش العثماني، ومصدر ثراء بالنسبة إلى آل الحسيني. ولضمان تزويد ثابت من شرق الأردن، ولتعزيز جبهة فلسطين ضد قيادة الحلفاء في مصر، بنى العثمانيون ميناء على الضفة الغربية للبحر الميت. وكان وليّ آل جوهرية حسين بك، وكذلك واصف نفسه، منخرطَيْن مباشرة في بناء الميناء. وتضمنت العملية تجنيد عشرات الملاحين العرب من يافا، الذين حملوا معهم تقاليدهم البحرية وجلبوا

[1] المخطوطة، صفحة ٢٤١ وما يليها.

عائلاتهم إلى أريحا، كما نقلوا براً عدة سفن شراعية ومراكب من البحر الأبيض المتوسط. وقد أوجد حضور الملاحين جواً ساحلياً مبهجاً من الشرب والغناء والمرح (بما في ذلك حفلات الحشيش الليلية)، أقام أود جوهرية خلال أعوام الحرب.[1] وبسبب قرب واصف من آل الحسيني، وربما بسبب مصادفة تعينه في حامية أريحا البحرية، كان شاهد عيان على زيارات قام بها أنور وجمال باشا لفلسطين في سنة ١٩١٦. وهو يذكر أيضاً حادثة هزلية، إذ حاول تقديم التبغ إلى جمال باشا، الذي لم يكن يدخّن، ونال توبيخاً عسكرياً على سلوكه الأرعن. إلاّ إن موقفه من قائد النظام العثماني الجديد ملتبس. ففي أحداث سنة ١٩١٦، يصف الحماسة والمودّة اللتين أبداهما السكان الفلسطينيون المحليون في أريحا والقدس تجاه جمال باشا وغيره من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي (صفحة ٢٥٥). ولاحقاً، يصف قسوة القادة العثمانيين في محاولتهم سحق الحركة الوطنية. ولا شك في أن هذا التناقض الظاهر عكس الغموض تجاه العثمانيين، الذي ساد فلسطين خلال الحرب، والموقف المتردد تجاه المستقبل، وهو غموض يصادفه المرء بصورة أكثر بلاغة في مذكرات أخرى، موازية لمذكرات جوهرية، هي مذكرات خليل السكاكيني.[2]

تنعكس تناقضات هوية القدس العثمانية في تأسيس جمعية الهلال الأحمر سنة ١٩١٥، التي قامت في الظاهر لكسب التأييد الشعبي في فلسطين لمصلحة القوات العسكرية العثمانية ضد الحلفاء.[3] وعلى الرغم من إشارات واصف الكثيرة إلى وحشية جمال باشا والثلاثي، فإنه كان مؤيداً نشيطاً للجمعية، وعمل سكرتيراً لأحد أعضائها القياديين، حماده العفيفي (صفحة ٢٢٥). وكانت الجمعية، التي تمركزت بصورة بارزة في المجمّع الروسي المعروف بالمسكوبية، برئاسة حسين أفندي، الذي كان أُجبر في حينه على التخلي عن موقعه رئيساً للبلدية، كما ضمت بين مؤسسيها عدداً من المواطنين البارزين، المسيحيين واليهود، منهم: إبراهيم (أبراهام) عينتبي؛ يتسحاق إليشار؛ سليم خوري؛ وديع كتّانه؛ وضابطين قياديين من الجيش العثماني. واستطاعت جمعية الهلال الأحمر من خلال حفلاتها الموسيقية العامة، وعبر الالتماسات المباشرة، أن تجمع مبالغ كثيرة لمصلحة المجهود الحربي ضد العدو البريطاني والفرنسي. لكن جوهرية يرى أن الجمعية كانت ترمي أيضاً إلى إقامة جسر بين مصالح الطائفة اليهودية في فلسطين وبين الحكومة العثمانية، قبل ظهور الصهيونية قوة فاعلة. وكان دور كل من إبراهيم عينتبي، مدير شبكة مدارس الأليانس الإسرائيلية في القدس، والآنسة لانداو، التي توصف بأنها "حلقة الوصل بين الطائفة اليهودية في القدس والقيادة العسكرية العثمانية"، محورياً في توطيد هذه الروابط. ومن أجل هذا الهدف جنّدا عدداً كثيراً من النساء المقدسيات الشابات، اللواتي ارتدين بزات عسكرية عثمانية احتفالية، تحمل شارات جمعية الهلال الأحمر، والتمسن هبات عينية ونقدية للجيش. ويحدد واصف هوية عدد من هؤلاء "السيدات الحسناوات"، اللواتي طوّرن علاقات حميمة بأصحاب السلطة العثمانية العليا: الآنسة تينباوم ("إحدى أجمل النساء اليهوديات في فلسطين"، صفحة ٢٢٦) التي أصبحت خليلة جمال باشا، قائد الجيش الرابع (وبعد الحرب تزوجت أبكاروس، مدّعي عام القدس الشهير)؛ الآنسة سيما المغربية، التي أصبحت خليلة سعد الله بك، قائد حامية القدس؛ الآنسة كوب، التي أصبحت خليلة مجيد بك، متصرف (حاكم) المدينة.

ولعله بسبب انخراط واصف شخصياً في هذه الأحداث، فهو يبالغ في كل من أهمية المجهود الحربي ومداه في منطقة القدس. ويظهر ذلك بصورة خاصة في إشاراته إلى أحداث أريحا والبحر الميت. فعلى سبيل المثال، يشير إلى عملية بناء ميناء لا مرفأ على البحر الميت ويدعوه "مخفراً أمامياً عسكرياً عظيماً"، كما يشير إلى مشاهد الانسحاب العثماني ودخول البريطانيين فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي. إلاّ إنه يكشف، من خلال روايته الأدبية والممتعة جداً للأحداث، التحولات الجذرية التي كانت تحيق بالمجتمع الفلسطيني والشامي في تلك

[1] عن حفلات الكيف، يحرص واصف على إخبار القارئ بأنه شارك في تناول المادة لتعزيز تجربته ومعرفته فقط ولم يكن مدمناً عليها إطلاقاً (صفحة ٢٣١).

[2] أنظر: خليل السكاكيني، *كذا أنا يا دنيا* (القدس: المطبعة التجارية، ١٩٥٥).

[3] فيما يتعلق بمناقشة الولاءات التنافسية، أنظر:

Rashid Khalidi, "Competing and Overlapping Loyalties in Ottoman Jerusalem," in *Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness* (New York: Columbia University Press, 1997), pp. 63-88; James Gelvin, Divided Loyalties: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire (Berkeley: University of California Press, 1998), pp. 141-195.

وبالنسبة إلى المنظور التنقيحي، أنظر:

Hasan Kayali, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918* (Berkeley: University of California Press, 1997), pp. 81-115.

الفترة: بروز قومية عربية علمانية؛ فصل الهوية الوطنية الفلسطينية عن سياقها الشامي؛ تعزيز دور مدينة القدس كعاصمة للبلاد.

المذكرات الجوهرية في الميزان

توفر المذكرات الجوهرية مادة دسمة للباحث التاريخي في عدة مجالات من أهمها: تبلور تراث موسيقي شعبي إقليمي يربط بين بلاد الشام ومصر، من خلال تطور تكنولوجيا الإنتاج الموسيقي السماعية (الأسطوانة الشمعية واللدنة، الغرامافون والمذياع)، ومن خلال تكثيف التواصل بين المغنين والتخوت الشرقية القادمين من مصر إلى الشام، والهجرة المعاكسة، وظهور المنابر المناسبة لهذه الحفلات الموسيقية — ومن أهمها الكباريهات والمقاهي، حيث يحتل المقهى نصيب الأسد في وصف جوهرية لأماكن الأداء الموسيقي لفنه وجمهوره.



جنود عثمانيون في فلسطين في إبان الحرب العظمى الأولى. الصورة من المجموعة الجوهرية. المصور غير معروف.

وفي وصف جوهرية للحياة اليومية التي عاصرها نكتشف، أو بالأحرى نعيد اكتشاف مجتمع متغير لم يعد معنا، لكنه يسلط الأضواء على تبلور حداثة المدينة الفلسطينية، وانعتاق القدس من حاراتها المحصورة داخل السور إلى رحاب الضواحي الجديدة غربي البلدة القديمة وشماليها.

وفي هذا الخطاب نكتشف أيضاً — وهنا تقع أصالة كتابات جوهرية — أن الحياة الاجتماعية داخل السور لم تكن مكبوتة ولا متقوقعة كما هو سائد. فالعلاقات الجوارية هناك تمكنت من تجاوز الحدود الطائفية والإثنية وبشكل حميمي غير متوقع كما سيتضح من وصف الروابط التكافلية بين عائلة جوهرية وآل الحسيني. ومع أن هذه العلاقة بدأت كعلاقة محسوبية في العهد العثماني إلاّ إنها نمت واتخذت أشكال صداقات وروابط شخصية في الفترة الانتدابية بعد انهيار النظام الالتزامي القديم.

الأهم من ذلك أن هذه المذكرات تتحدى النظرة التقليدية إلى مجتمع القدس بوصفه مجتمعاً محافظاً منغلقاً يعتاش من الأوقاف الدينية واقتصاد الحجيج. ونجد في جوهرية وجهين لهذا التحدي:

الأول في وصفه مظاهر الدين الشعبي الذي يجمع بين الطابع الاحتفائي للمواسم والأولياء والمزارات، والذي يدمج الموسيقى الشعبية مع الطقوس الدينية الأزلية لأتباع الديانات الثلاث مع بقايا التراث الديني المخضرم والسابق للتوحيد (ربما تراث يبوسي كنعاني). وتتجلى في هذه المواسم مشاركة أهل الطائفة باحتفالات الآخر كما نرى في مواسم النبي روبين والنبي موسى وعيد الخضر (مار جريس)، حيث يشترك المسلم والمسيحي واليهودي في إحياء الذاكرة الجماعية الشعبية.

ونراه أيضاً في بروز ثقافة علمانية جديدة لدى أبناء فلسطين من الطبقات الوسطى أبدع جوهرية في الاحتفال بها والمشاركة في صنعها، وهي ثقافة المسارح والمقاهي والأمسيات الغنائية — خاض المؤلف غمارها بداية في فرقة الجيش العثماني في القدس، ثم انتقل إلى أدائها في موسيقى الأفراح والاحتفالات الخاصة، ثم شارك في موسيقى المسارح العامة والمقاهي الجماهيرية.

إن المقابلة بين هذين المظهرين للحداثة ونتائجهما لافت للنظر. فالتوليفة الدينية للدين الشعبي (مثلاً في احتفالات النبي موسى والنبي روبين الشعبية) تبلورت في اتجاه قومي في الصراع الدامي بين النزعة القومية العربية في العشرينات والثلاثينات وبين الحركة الصهيونية. من ناحية أخرى فإن الثقافة العلمانية الشعبية امتدت وتجذرت في الأربعينات، واكتسبت زخماً عندما أصبحت الجسر الواصل بين ثقافة فلسطين المدينية وثقافة الموسيقى والمسرح والسينما في العالم العربي.

ملاحظات بشأن تحرير مخطوطة الجوهرية

تتألف المخطوطة من ثلاثة مجلدات كتبها المؤلف بخط يده ثم أعاد تنقيحها في بيروت قبل وفاته. ومن الواضح أن المؤلف استعان في كتابتها بأوراقه القديمة، بما فيها مذكرات دوّنها والده في القرن التاسع عشر. والنص، بالضرورة، يعكس نمط الكتابة الذي ساد في فترات متفاوتة من حياة المؤلف في النصف الأول من القرن العشرين، كما يعكس أسلوب كتابة كانت سائدة آنذاك مباشرة ومقتصدة تتراوح ما بين العامية والفصحى. وقد ارتأينا ألاّ نتدخل في لغة الكاتب إلاّ في حالات محددة فرضتها ضرورات التحرير. وقمنا أيضاً بحذف أجزاء قليلة من المخطوطة يمكن حصرها بالتالي: أ. تكرار سها عنه الكاتب؛ ب. مداخلات سياسية منقولة عن جرائد ومجلات معاصرة؛ ج. ملاحظات خاصة تتعلق بعائلة المؤلف (معظمها من المجلد الثاني)؛ د. وفي حالات نادرة تم حذف أسماء بعض الشخصيات أو ترميزها، وذلك لما للأحداث التي نقلت عنها من أثر في أحياء معاصرين.

إضافة إلى ذلك تم نقل بعض النصوص من المتن إلى ملاحق في نهاية الكتاب. كما تم نقل بعض الأجزاء إلى الأمام للمحافظة على التسلسل الزمني، وخصوصاً تلك التي تتعلق بطفولة الكاتب وتاريخ عائلته. في جميع حالات الحذف والنقل وضعنا قوسين مركنين [ ] لتنبيه القارئ إلى أن هنالك مادة محذوفة أو منقولة.

وقد راعينا إدخال علامات التنقيط والفواصل وعلامات الاقتباس، وتقطيع بيوت الشعر في الحالات التي سها عنها المؤلف — وهي كثيرة — لتسهيل قراءة النص. كما أضفنا ملاحظات تفسيرية في هامش الكتاب، ولتمييزها من ملاحظات المؤلف وضعنا اسم المؤلف بجانب هوامشه. أمّا هوامش المحررين فتظهر من دون توقيع. كذلك فإن التعليقات بين الأقواس المركنة مثل [كذا] و[ناقص في الأصل] إلخ. هي من وضع المحررين، إلاّ إذا تمت الإشارة عدا ذلك فهي في هذه الحال من وضع المؤلف.

المحرران

المذكرات الجوهرية

الكتاب الأول

إني لست بذلك الأديب الفاضل أو الكاتب الماهر أو المؤرخ الشهير
أو الرحّال القدير الذي يحسن نشر علمه وأدبه وإرشاده على العالمين ، فكل ما هنالك
إنني موظف بسيط أغلقت أبواب المدارس في وجهي في الحرب العظمى الأولى عندما كنت على وشك
إنجاز دراستي الثانوية ولم يساعدني الحظ على ترك بلادي فلسطين طيلة حياتي ، ولكنها
طرأت على ظروف ومفاجئات وحوادث مختلفة منها الطريفة وذلك في العهدين العثماني
والبريطاني جعلتني أفكر في تدوين البعض منها مقتصرًا على سببين أظن أنهما ساعداني على حدوث
مثل هذه المفاجئات والظروف التي سأدونها في كتابي هذا :-

١.- العلاقة الأخوية المتينة بين المرحوم والدي والأسرة الحسينية بالقدس والتي ربطتني بأحد وجهاء
هذه الأسرة الكريمة ألا وهو المغفور له حسين هاشم الحسيني ابن المغفور له الحاج سليم الحسيني ، تلك
الشخصية الفذة فكنت فخورًا بمرافقته في رحلاته وجولاته منذ نشأتي فوقفت على عادات أهالي القرى
وموسيقاها في قضاء القدس ومن ثم في أريحا والبحر الميت والكرك وذلك قبل وإبان الحرب العظمى
وذلك لميولي الفطرية للفنون وأهمها الموسيقى العربية ذلك الفن الرفيع الذي احتاز القسط
الأكبر من حياتي فقد تمتعت بحضور مجالس أنس وليالي سمر مع شخصيات عالمية ولربما فيها أمثال مصريين
وعرب وحكام وأدباء وفنانين من مواطنين وغرباء في العهدين العثماني والبريطاني ليتيسر لغيري
الوصول الى مثل هذه المجالس وقد أصبح لي معارف كثيرة لا تحصى من الأسر الراقية والعائلات
ومن مختلف الطبقات والأجناس والأديان اكتشفت بواسطتها على كثير من حوادث خفية يصعب
لغيري الحصول عليها والوصول إليها .

٢.- عملي بوظيفتي في حكومة الانتداب البريطاني بكبير مالي في القدس للضرائب ورئيس لجنة تخمين أملاك
المدينة ، ذلك العمل الذي يقضي أن أدخل بيوت العائلات للسكن والمتاجر والمعاهد والأديرة
وغيرها من الأملاك وأختلط بأهلها وأصحابها وسكانها مما ولا شك قد زاد في معلوماتي العامة
في الحياة فشجعني على جمع واقتناء التحف الشرقية النادرة على اختلاف أنواعها فكانت هوايتي هذه
بالنسبة الى حبي للفنون أساسًا وموفقية كبرى لوجود المجموعة الجوهرية التي سيجيء الحديث عنها مطولًا
في صفحات هذا الكتاب .

لهذه الأسباب التي ساعدتني بأن أقدم على تدوين أفضل ما حدث لي مشاهدة وسمعًا
وقد شجعني على ذلك أخي وصديقي الأستاذ محي الدين مكي فوافق على تسميته " الذكريات الجوهرية "
وجعلته تقدمة مني الى ولدي :-



واصف مع أبيه وحصانه الخشبي في حوالي عام ١٩٠٣/١٩٠٤ المصور غير معروف. لم تدخل هذه الصورة ضمن المجموعة الجوهرية بل حصلنا عليها من ابنة المؤلف آية شاكر.

إني لست بذلك الأديب الفاضل أو الكاتب الماهر أو المؤرخ الشهير أو الرحال القدير الذي يحسن نشر علمه وأدبه وإرشاده على العالمين، فكلما هنالك أني موظف بسيط أغلقت أبواب المدارس في وجهي في الحرب العظمى الأولى عندما كنت على وشك إنجاز دراستي الثانوية ولم يساعدني الحظ على ترك بلادي فلسطين طيلة حياتي،[1] ولكنها طرأت علي ظروف ومفاجئات وحوادث مختلفة منها الطريفة وذلك في العهدين العثماني والبريطاني جعلتني أفكر في تدوين البعض منها معتمدا على سببين أظن أنهما المساعدين على حدوث مثل هذه المفاجئات والظروف التي سأدونها في كتابي هذا .

١ . العلاقة الأخوية المتينة بين المرحوم والدي والأسرة الحسينية بالقدس والتي ربطتني بأحد وجهاء هذه الأسرة الكريمة ألا وهو المغفور له حسين هاشم الحسيني ابن المغفور له الحاج سليم الحسيني ، تلك الشخصية الفذة فكنت فخورا بمرافقته في رحلاته وجلساته منذ نشأتي فوقفت على عادات أهالي القرى وموسيقاها في قضاء القدس ومن ثم في أريحا والبحر الميت والكرك وذلك قبل وإبان الحرب العظمى .

ونظرا لميولي الفطرية للفنون وأهمها الموسيقى العربية ذلك الفن الرفيع الذي اجتاز القسط الأكبر من حياتي فقد تمتعت بحضور مجالس أنس وليالي سمر مع شخصيات عظيمة ولها قيمتها أمثال متصرفين وقواد وحكام وأدباء وفنانين من مواطنين وغرباء في العهدين العثماني والبريطاني ليتعذر لغيري الوصول إلى مثل هذه المجالس وقد أصبح لي معارف كثيرة لا تحصى من الأسر الراقية والعائلات ومن مختلف الطبقات والأجناس والأديان اكتشفت بواسطتها على كثير من حوادث خفية يصعب لغيري الحصول عليها والوصول إليها .

٢ . عملي بوظيفتي في حكومة الانتداب البريطاني كمدير مال في القدس للضرائب ورئيس لجنة تخمين أملاك المدينة ذلك العمل الذي يقضي أن أدخل بيوت العائلات للسكن والمتاجر والمعاهد والأديرة وغيرها من الأملاك وأحتك بأهلها وأصحابها وسكانها مما ولا شك قد زاد في معلوماتي العامة في الحياة فشجعني على جمع واقتناء التحف الشرقية النادرة على اختلاف أنواعها فكانت وظيفتي هذه بالنسبة إلى حبي للفنون أساسا وموفقيه كبرى لوجود المجموعة الجوهرية التي يجيء البحث عنها مطولا في صفحات هذا الكتاب .

نعم هذه الأسباب التي ساعدتني بأن أقدم على تدوين أفضل ما حدث لي مشاهدة وسمعا وقد شجعني على ذلك أخي وصديقي الأستاذ محي الدين مكي فوافق على تسميته "الذكريات الجوهرية" وجعلته تقدمة مني إلى ولدي جرجس :
فهو ولا شك رجائي الوحيد فيكون له هذا السجل بخط يدي بمثابة مفتاحا رئيسياً ، فإذا ما أحسن استعماله يمكنه فتح كل باب من الأبواب المدونة فيه ومنه يطلع بصورة واضحة على مجمل حياة والده وعائلته والأصدقاء فيذكر السلف وزمانه وأعماله وحوادثه الطريفة وعاداته خصوصا في بيت المقدس مدينة العائلة الجوهرية العزيزة .

[1] "ترك فلسطين طيلة حياتي": من الواضح أن هذه المقدمة كتبت قبل النكبة حين اضطر الكاتب إلى اللجوء إلى لبنان.

حداثتي ١٩٠٤ " تقريبا لغاية " الحرب العظمى الأولى ١٩١٤

لا يمكنني طبعا ذكر شيء وأنا في الدرجة الثانية من طفولتي أكثر منذ وقوفي حذاء مائدة الطعام فكنت بالكاد أرى وصا الفاكهة التي كان يجلبها والدي ويطرحها على تلك المائدة وعلوها ربما ٨٠ سنتمتر . وبعد هذه الفترة صرت أذكر تدريجيا أشياء أخرى فعرفت بأن مولدي كان في ذات الدار المعروفة بدار الجوهرية في محلة السعدية بالقدس .

ثم بموجب سجل العائلة المكتوب بخط والدي والمحفوظ لدي تحققت بأن والدي تزوج في ١٨٨٤ فأنجب من والدتي هيلانة ابنة أنضوني بركات ثلاث بنات وأربعة صبيان نبدئ بعفيفة وشفيقة وجوليا ثم الصبيان خليل وتوفيق وواصف صاحب هذا الكتاب وأخيرا فخري .

كان مولدي صباح الأربعاء الواقع كانون ثاني ١٨٩٧ شرقي أي ١٤ منه غربي ، وهو عيد رأس السنة للمسيحيين الشرقيين عندما كان والدي يبّل صينية الكنافة كما هي العادة المتبعة عند الروم الأرثوذكس ليومنا هذا . أما اسمي فقد عرفت بأن والدي أسماني واصف تيمنا بصديقه الحميم واصف بك العظم من دمشق - سوريا عندما كان رئيسا لمحكمة جزاء القدس وإني أحتفظ برسم جميل مقدم لوالدي وحفظته في المجموعة الجوهرية التي سيجيء البحث عنها مفصلا فيما بعد من هذا الكتاب .

تزوجت أختي عفيفة من قسطندي عبد النور البغل وأنجبت وداد ونهيل وفائز ونبيهة وتزوجت شفيقة من جورج قسطندي أدرنلي وأنجبت ألين وقسطندي وندى وإيليا وعيسى وحكمت ونعيم وتزوجت جوليا من طناس يانكو السنونو ورحلت إلى أميركا وأنجبت حنا ووليم وجنيت ومادلين وروث وماجريت وكان زواجهن قبل الحرب العالمية الكبرى .

وكان عمّادي على يد العرّاب وليم أسعد الخياط من مدينة يافا كونشلير [أي قنصل] حكومة بريطانيا والعرابة الآنسة نسطاس إبنة سمعان عبده [كانا الأشابين لي ولجميع أخواني وأخواتي رحمهما الله] .

حدثني والدي بأنه لا يستطيع بأن يعرف أكثر من اسم جده سليمان جوهرية فكان وحيدا في العائلة يسكن الدار الواقعة في محلة باب العامود من الجهة الشرقية لوابور طحين صلاح طريق الواد تحت القنطرة وأمام درج عمارة أوقاف اليهود ودفن بصهيون بالمقدس.[1] كما أن والده خليل جوهرية كان وحيدا أيضا وسكن الدار بجانب زاوية ومأذنة المولوية بالقدس (حيث ولد والدي جرجس فيها) وقد دفن والده خليل المذكور في صهيون أيضا . وعند وفاة والده خليل المذكور في صهيون أيضا . وعند وفاة والده خليل كان والدي جرجس قاصرا فقد ذكر بأنه كان يلعب الكلول مع الأولاد عندما مرت عنه جنازة والده وقد تزوجت أخواته .[2]

١ والمقصود هنا مقبرة صهيون للروم الأرثوذكس الواقعة على جبل صهيون بمحاذاة السور الجنوبي الغربي للبلدة القديمه

٢ الكلول هي كرات صغيرة من البلور يلعب بها الاطفال.

وصف كامل لدار الجوهرية في محلة السعدية[1]

تقع دار الجوهرية في حارة السعدية بالقدس والتي فيها ولدت أنا وجميع إخواني بجوار مقام الشيخ ريحان على هضبة مرتفعة نكتشف منها مدينة القدس بكاملها، فعندما تجيئها من جهة باب العامود عليك أن تصعد مارا عن قنطرة المملوك، وإذا جئتها من محلة الواد عليك أن تصعد من عقبة الأصيلة، كما وإذا جئتها من الروضة عليك أن تصعد عقبة مدرسة راهبات صهيون للفرنسيين مارا عن الشيخ ريحان. وهي مؤلفة من أربعة طوابق ويختص والدي بالطابق الثالث والرابع منها. فالطابق الثالث يشمل على معزل وكأنه بناء حديث كما نظمه والدي. فعندما تصعد حول ٤٥ درجة تدخل المدخل الرئيسي المتجهة لجهة الجنوب فتجد صندوقا خشب وقزاز [أي الزجاج] يمنع دخول الهواء المزعج خصوصا في فصل الشتاء إلى الدار وتدخل في إيوان فسيح أنيق صحي محاط بخزائن خشبية ملاحقة الحائط ومعدة للثياب وأواني البيت النحاسية والبلور والكتب وخزانة خاصة للأراكيل ومعدات القهوة وتجد مائدة الطعام في الوسط نأكل عليها في فصل الصيف فقط. في هذا الايوان تجد ثلاثة أبواب الأول يدخلك إلى قاعة فسيحة صغيرة محاطة بأنواع شتى من الزهور البيتية مزروعة في أحواض مغطاة بالزلف البحري [أي الاصداف] شغل والدي وتحت قنطرة، هذه القاعة عريشة لزهور الياسمين والحلزون وهي مشرفة على الجهة القبلية فعندما كان والدي يجلس على الأريكة الخشبية المقامة في صدرها يبهرك منظر القدس القديمة خصوصا في الليل عندما تكون البيوت مضيئة وهو يشرب الأركيلة ولهذه القاعة شباك كبير يطل منها إلى الإيوان في منتهى الروعة والذوق.

أما الباب الثاني فيدخلك إلى قاعة الإستقبال البديعة وفيها مقاعد طبيعية من الحجر فالكبيرة في صدر القاعة والصغيرة تطل من كشك ذو شباكين على الجهة القبلية أيضا، وفي صدر هذه القاعة باب صغير يدخلك إلى غرفة نوم والدي غرفة جميلة مقامة على قنطرة عالية جدا تطل على الشارع العام من شباكها الشمالي وفيها تخت أي سرير بناموسية أنيقة وفي الزاوية مكتبة وبجانبها خزانة في الحائط أيضا للثياب، وفي وسطها جهة معدة لتضييف الحلوى وصينية الطلي كما كانت العادة في تلك الأوقات، ثم خزنة حديدية لونها أبيض مغروسة في الحائط يحتفظ والدي بمفاتيحها لنفسه.

أما الباب الثالث فيدخلك إلى غرفة كبيرة معدة لنوم والدتي وجميع الأولاد من إناث وذكور بما فيهم أنا، فكنا بعدما نسهر قليلا نفرش الفرشات من الركسة إلى أرض هذه الغرفة الواحدة بجانب الأخرى فننام بعدما نسبل الناموسية الكبيرة المعلقة في أربعة حلقات الغرفة في الزوايا حول هذه الفراش خوفا من قرص الناموس والذباب. وإني أذكر هذه الليالي الجميلة والنوم اللذيذ الطبيعي دائما أبدا وأترحم على تلك الأيام بكل حسرة. فإذا أراد والدي شيء يقرع الجرس الصغير الذي كان بجانب سريره فتحضر إما والدتي أو أخواتي لخدمته عند اللزوم. وفي صباح كل يوم وخصوصا في أيام الشتاء تأخذ والدتي القهوة فتشربها في غرفة والدي معه ونحن بدورنا نأخذ له الأركيلة ومنقل النار ونقدمها له وهو

[1] حارة السعدية هي أحد الأحياء في البلدة القديمة في القدس وتقع في الجزء الشمالي الشرقي للمدينة المحاذي للسور الشمالي والقرب من باب الساهره. يعتقد بعض الدارسين أن هذا الحي يعود للعصر الفرنجي (الصليبي) وبه قد شيد الصليبين كنيسة تعرف بإسم القديسه آغنس وبعد ذلك عرف الحي بإسم حارة بني سعد.



صورة حديثة للمنزل والذي يسيطر عليه المستوطنين اليهود اليوم. وقد أضيف طابق آخر.

تصوير هدى الامام، نيسان ٢٠٠٣

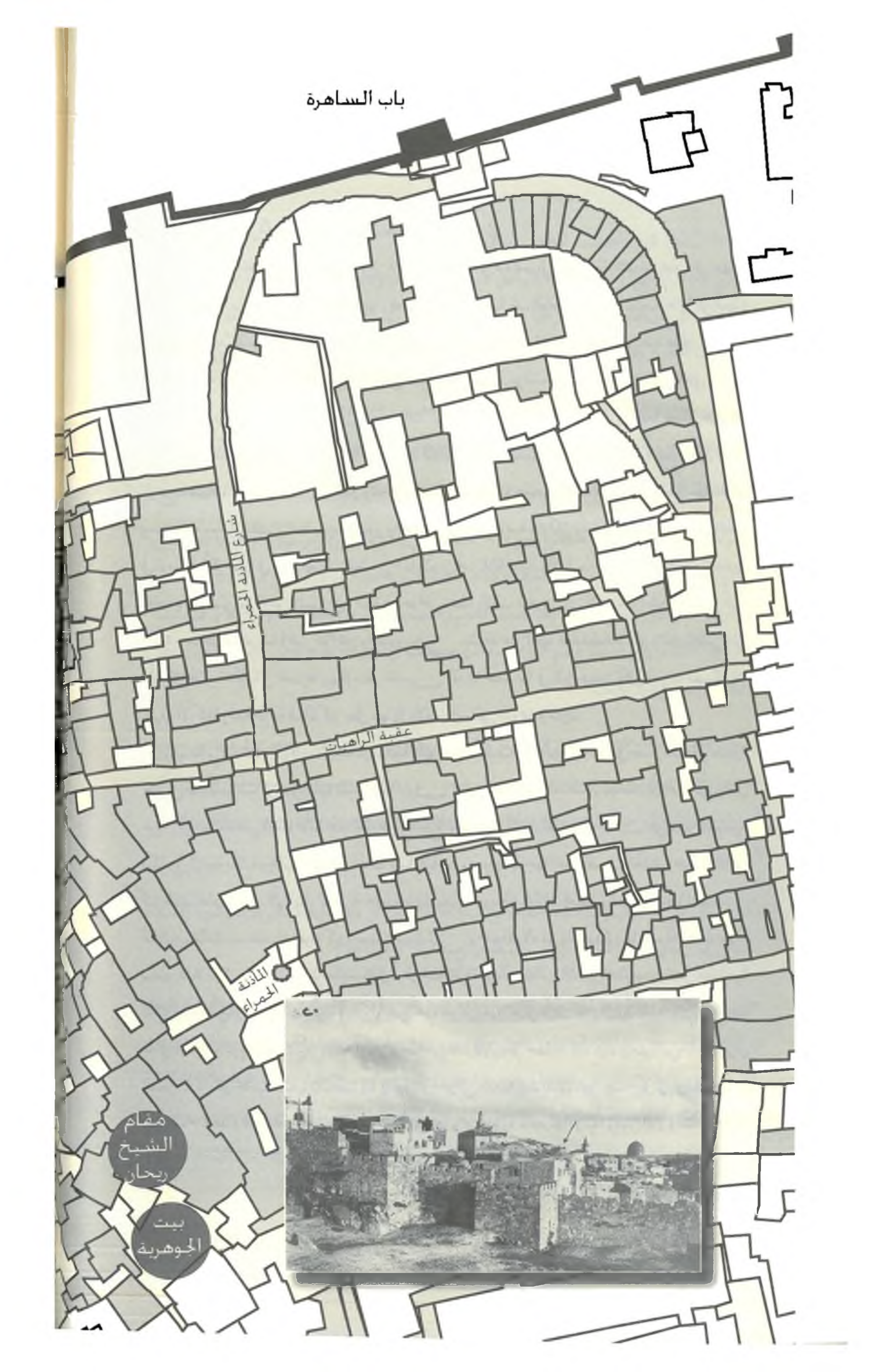


خارطة محلة السعدية

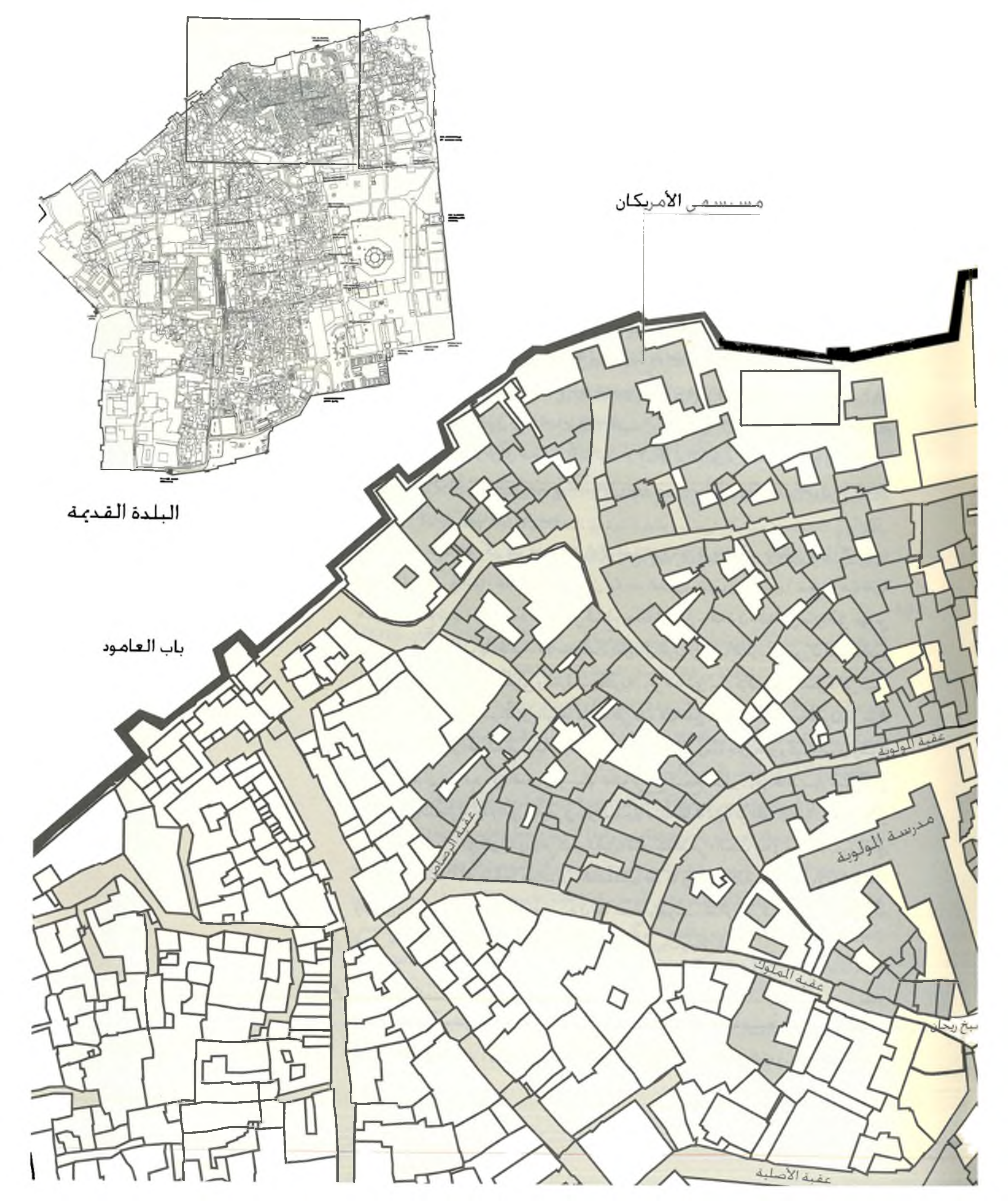
© رواق، مركز المعمار الشعبي

تنفيذ: مهند حديد و بهاء الجعبة

صورة للبلدة القديمة في القدس من الجانب الشمالي ويشير السهم الذي وضعه واصف جوهرية إلى موقع بيت الجوهرية في حارة السعدية.



باب الساهرة
شارع المأذنة الحمراء
عقبة الراهبات
المأذنة الحمراء
مقام الشيخ ريحان
بيت الجوهرية


الأمريكان
البلدة القديمة
باب العامود
عقبة المولوية
مدرسة المولوية
عقبة الرصاص
عقبة الملوك
عقبة الأصلية

ملقى على سريره من شدة البرد ، أما في الصيف فيشـرب الأركيلة عادة عند الصباح والمساء في القاعة المعدة للزهور والذي كان يسميها " البلكون" ويتمتع بمناظر مدينة القدس المقدسة من هذه الشرفة أو من كشك الصالون الداخلي .

ثم من الإيوان تدخل مباشرة إلى المطبخ والمنافع الداخلية [أي المراحيض] ثم تصعد بمصعد خشبي إحدى عشر درجة إلى غرفة سقفها (طيوان) بكرميد معدة للمؤونة فتجد فيها صندوق الطحين وأجرار المؤونة من حمص وفصوليا وعدس وبرغل وأرز وكسكسون وشعيرية وفريكة ثم الزيوت بأنواعها ثم كبيس الزيتون والمخلل والجبنة [وغيرها] ، وتجد بزاوية من هذه الغرفة الخشبية دسكة وعليها خزانة خاصة لآلات عدة النجارة الكثيرة ليقوم والدي بعمل ما يلزم للبيت وكنا نحن نساعده دائما في جلب العدة من الغرفة إلى الدار ونناوله المسامير ثم نرجع كل شيء لمحله والويل ثم الويل لمن يترك شيء منها أو من أي صنف من أثاث البيت أو الأراكيل أو الأباريق أو المقصات ولم يضعه في محله الخاص فكان يقول لنا رحمه الله "ولك إذا ما جئت في نصف الليل وبدون ضو أحب أن أجد ملقط النار معلق في هذا المسمار داخل خزانة الأراكيل" ويدلنا عليه بكل حدة .

ويوجد في هذه الغرفة قفص كبير لطير الحمام له شباك إلى الجهة الشرقية من الغرفة للشمس فكان عندنا أكثر من ٤٠ زوج من الحمام يطير في أجواء محلة السعدية ويرجع إلى بيته عند العلف وشرب الماء . وأخيرا تصعد من هذه الغرفة ٨ درجات وتفتح الباب الخشبي فتجد نفسك على السطح وكأنك بدون مبالغة فوق مأذنة أو في طائرة فكل جهة من سطح دار الجوهرية لها ميزتها الخاصة ، فإذا ما تطلعت بنظرك إلى الغرب ترى باب العامود والسور ثم المدينة الجديدة وحي المصرارة إلى مستشفى الطلياني وعمارة المسكوبية ، ومن قبله ترى بيوت فوقها بعضها البعض داخل السور لحارة النصارى لغاية دير الفرنسيسكان والساعة ثم قلعة النبي داود لغاية جبل المكبر ،[1] ومن جهة الشرق يطل نظرك إلى منظر جميل ألا وهو الحرم الشريف وقبة الصخرة وصحن الحرم السماوي وبعده جبل الطور وكنيسة الروس وبصورة بسيطة يمكنك أن تعد جميع مآذن القدس وجراسياتها العالية من السطح المذكور . وهو محاط بسور خشبي جميل وكثيرا من المرات نعمل إشارة لوالدي منه وهو في دائرة السرايا آنذاك المقابلة لدارنا من الجهة الجنوبية . والجدير بالذكر في هذا الصدد بصفة والدي كان المسؤول عن المنتزه البلدي بالقدس كما سيجيء البحث عنه في هذا الكتاب ويوجد في هذا المنتزه (المنشية) غرفة لحفظ معدات الزينة العائدة للبلدية فقد كنا في كثير من المناسبات نجيء بالأعلام العثمانية وفوانيس الزينة والفتيش ونعمل زينة خاصة من فوق هذا السطح ونضرب القماش على قبسية خاصة ليلا حتى أنه يدهش أهل القدس بالنظر لموقع دارنا المرتفع وعلى مرأى من أغلب بيوت وأماكن المدينة .

[1] جبل المكبر: التلة التي بني عليها لاحقا مقر حكومة الإنتداب

بحث عن حياة والدي ووالدتي

علمت أن جدتي أم والدي كانت من عائلة الصوابيني من العائلات المعروفة لطائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس وهي إبنة المرحوم الصوابيني . وكثيرا من المرات كان والدي يطلعني عن قبر جده من والدته في وسط مقبرة صهيون

مصنوعا من القيشاني في اللميع ولونه من البلاط الصيني البني القائم لم يزل إلى يومنا هذا وهو القبر الوحيد من هذا النوع النادر شغل الروس قديما . وإني أذكر جيدا سكن بنايوت الصوابيني في الزقاق الواقع شمالي سور المسكوبيه بجوار عمارة ملكة الحبش الآن وقد استعملت الدار مؤخرا لجمعية البروتستانت العرب القسيس فرهود وقربان . وكان بنايوت الصوابيني رجل وقور عاهل عائلة الصوابيني وعمره مائة سنة ونيف فأذكره جيدا عندما كنت أزوره برفقة والدي في الدار المنوه عنها أعلاه . والجدير بالذكر أنني أحتفظ بصورة تاريخية تحتوي على بنايوت الصوابيني ، جورج ديب ، يعقوب عنصرة ، جرجس جوهرية والدي ، ثيودر يانكو ثيودري ، يعقوب السونو وبينهم برنس روسي وهذه الصورة كانت بمناسبة أول اللباس الإفرنجي (البنطلون) لهؤلاء الشخصيات ما عدا بنايوت الصوابيني الذي كان يلبس الشروال وهذه الصورة ضمن المجموعة الجوهرية بالقدس.[1]

وقد عرفني والدي بأنه عمد أولاد الصوابيني وأصبح شبينهم وكانوا ساكنين يافا وزرتهم برفقة الوالد مرة وأنا في الصغر . وأذكر أن في القاعة ساعة ضمن كرنيش أشبه (بطابلو) كبيرة فيها الشلالات والأشجار والدور والدمى تمثل على ما أعتقد المزرعة وعندما تدق الساعة يتحرك كل عضو من هذه الأشياء بطريقة نادرة .

[1] لم نتمكن من إضافة الصورة المذكورة للكتاب.

الوالدة

أما والدة صاحب هذا الكتاب وزوجة المرحوم جرجس جوهرية فهي إبنة أنضوني بركات من عائلات طائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس . ووالدتها من عائلة البرامكي المعروفة بالقدس إبنة المرحوم [ناقص في الاصل] البرامكي وقد عرفت خالها كان يدعى متري البرامكي . وأذكر أخيها نخلة بركات وقد توفي في دارنا في حي السعدية بعدما فقد زوجته إنسطاس إبنة حنا الأجرب وبوفاة خالي نخلة بركات الذي مات بدون خلف إنقرضت ويا للأسف هذه العائلة من طائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس كما تبين سابقاً .

وإني أذكر للقارئ بأن والدي جرجس جوهرية كان ساكنا في ذات الدار سكن المرحوم أنضوني بركات في محلة الساحة حارة النصارى بالقدس وقد ولدت والدتي هيلانة وتوفي والدها الأمر الذي جعل والدي أن يعيل هذه العائلة فقام بتربيتها وأخيها نخلة وعندما بلغت سن الرشد شاء القدر فتزوج منها وكان عمره حول الأربعين سنة . ولما كان خالي نخلة بركات قوي البنية وصلب الرأي إضطر والدي فأدخله سلك (الخيالة) فأصبح خيالا ماهرا في العهد العثماني وأخيرا مات في مرض الأزما [أي الربو] بالقدس ، ثم كانت مرغو إبنة البرامكي وأرملة إبراهيم اللنجي (عائلة اللنجي إنقرضت أيضا) كانت تزورنا في البيت كثيرا ولها مع الوالد حوادث طريفة منها : (وإن مرغو هذه كانت خالة والدتي بالفعل)

أبي يحفظ القرآن

عندما تعلم بأن جدي خليل جوهرية توفي عندما كان والدي جرجس يلعب الكلول[1] تعرّف بأنه كان قاصرا فتعلم اللغة العربية ثم التركية ثم اليونانية لوحده وبدون مدرسة وأخيرا تعلم القانون وأصبح محاميا معروفا في المحاكم الشرعية ومحاميا في المحاكم المدنية عند فتوحها بالقدس زمن واصف بك العظم من دمشق رئيس محكمة الجزاء. وقد سافر إلى إستانبول في ذلك الزمن مرتين عرفني الرحلة الثانية كانت بوظيفة خاصة للبطريرك ذميانوس وكان معه المرحوم يعقوب سعيد وأخته أم جورج أدرنلي وكانت رحلته الأولى للتجارة في الكارب.

كان حافظا القرآن ويحسن قراءته حتى أنه كان يصحح خطأي عندما كنت أراجع درسي في القرآن في البيت وأنا تلميذ في المدرسة الدستورية فإذا ما قرأت السورة قراءة غير صحيحة فكان يردني من غرفة الصالون غيبا فأرجع عن خطأي وهكذا كان شريكا في المحاماة مع داود أفندي الراغب ثم مع فرنسيس البينا، ثم مع بشارة طاسو في يافا وكان هذا يزورنا وينام في بيتنا عند زيارته القدس. وإني لم أزل أحتفظ ببعض الوكالات بإسمه ومن ضمنها وكالة من عائلة سرسق في لبنان كما وإني أحتفظ بأوراقه بخط يده التي لها علاقة بالمحاماة وإني أؤكد للقارئ بأن خطه أفضل من خطي أنا صاحب هذا الكتاب وأن إسمه مدونا لمحامي معروف بالقدس في مجلة خاصة كانت تصدر شهريا في الإستانة رسميا. وأن وكالة سرسق وتيان في لبنان بإسم والدي مؤرخة.

وظائف الوالد

تعين مختارا لطائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس سنة ١٨٨٤ ولم أزل أحتفظ بختم المختار بإسمه. وقد كان عضوا في مجلس إدارة القدس بواسطة الحاج سليم الحسيني وقد حصل على بدلة شرف من الإستانة لم أزل أحتفظ فيها وبسيفها ضمن المجموعة الجوهرية (عن طائفة الروم وكان متيا سروفيم عن طائفة اللاتين). ثم كان عضوا في البلدية زمن الحاج سليم الحسيني رئيس البلدية وزمن سعيد أفندي الحسيني وزمن فيض أفندي العلمي.

تعين مفتشا لتعداد الحيوانات في قضاء القدس عندما نظم هذا التعداد في الحكومة لأول مرة في البلاد ثم تعين مرارا مخمنا للإنشاءات نيابة عن الأهالي في لجنة تخمين الويركو والأعشار. وكان يضمن الأعشار من الحكومة مرات عديدة في قرى القضاء بالشراكة مع المرحوم جرجس كتن.

أشغاله الحرة

له ولع خاص في الزراعة ولذلك سلمت إليه المنشية "المنتزه البلدي" من دائرة البلدية لمدة لا تقل عن العشرين سنة فكان المؤسس لهذا المنتزه يتصرف به وبشؤونه وإدارته بدون أي رقيب.

[1] كرات زجاجية يلعب بها الأطفال كما ورد سابقاً.

زرع شجر التوت واشتغل في دودة القز للحرير وكان ورق التوت غذاء الدود وكان يعمل هذا العمل في البيت فنشاهده عندما يكون بزرا ثم دودا ثم فراشا ثم يحيك الحرير على نفسه ويصبح شرانق ضمن بيارة جورج الحمص الواقعة في قرية العيزرية لمدة تسع سنوات إستفاد منها حتى أنه أذكر زرع البريقة غذاء العصافير فكنا نبيعها بواسطة الحاج إدريس المغربي باب العامود بأسعار قيمة. ضمن نهر جريشة بيارة خاصة لمدة ست سنين عندما كان شابا وشغل مقهى جميلا على المياه هناك وله حادث طريف أكتب عنه في صفحة أخرى من هذا الكتاب وفي هذا الموضوع.

ميوله الخاصة

كان فنانا يحب الإستماع إلى الموسيقى الراقيه ويقدر الجيد منها كل التقدير وقد عرفني نخلة كتن بأنه كان (أبي والدي) يعزف العود وقد حضره مرة يعزف على العود في خيمة والده في شطحة سيدتنا مريم أما أنا فإنني أجهل ذلك إنما إعترف بأنه كان يعرف أصول الغناء ويشجعني على تعلم العزف والغناء الصحيح ولم أشاهده مرة يعزف العود في حياتي وربما كان ذلك في صباه والله أعلم.

كان يحب الرسم ويجيده وكان في حضورنا بدار السعدية يصور بالطريقة المعروفة بواسطة صفار البيضه ثم بالزيت. وله أربع أيقونات في كنيسة مار يوحنا حارة النصارى. وقد قدم صورة كبيرة دهان زيت طولها مترين بعرض ماية وأربعين سنتمتر (الآزمة الحميدية) كانت معلقة فوق مدخل السراي داخل السور ما بين غرفتي الجندرمة آنذاك. ثم قدم من صنع يديه أيضا صورة مصغرة عنها إلى سعيد أفندي الحسيني عندما كان رئيسا لبلدية القدس.

وعندما جاء حصان إصطناعي من صنع بريطانيا هدية من المرحوم وليم خياط كشلير حكومة بريطانيا بالقدس (شبين العائلة) أعاد الرسم على هذا الحصان فعمله ما يمثل الزيبرا وقدمه هدية إلى فيض أفندي العلمي رئيس بلدية القدس لولده موسى، وأني لم أزل أحتفظ بصورة فوتوغراف كبيرة الحجم (أنا والحصان بجانب والدي) ليومنا هذا كان هاوي الصيد حتى حدثنا مرة بأنه إصطاد نسرا كبيرا في بارودة الصيد نمرة ١٢ وعندما إقتنع بأن النسر قد فارق الحياة جاء يحرك رأسه بالبارودة وما كان من النسر إلا أن طبق منقاره على بوز البارودة فطبقها أي طبق الماسورة على بعضها البعض فتأمل.

كان يجيد الركوب على الخيل في شبوبته أما على أيامنا عندما كان يزيد عن الستين فقد كان يركب الحمار مفضلا اللون الأبيض وكان حماره مشهورا لما كان والدي يدخل عليه من الأناقة كان يجيد حفظ الشعر والقصائد والحكم وكان دائما يتلاعب مع المرحوم الشيخ علي الريماوي بما هو معروف ب سوق عكاظ وقد حضرناه مرارا في بيتنا وأيضا مع المرحوم الشيخ طاهر أبوالسعود، ثم كان يجيد التفهم بواسطة أصابع الأيدي وكان يلعب هذه بصورة تدهش الحضور مع المرحوم حسن الأزهري من أهالي القدس، وقد تعلمت منه هذا الفن الجميل وسأبين الرموز بالتفصيل في صفحة خاصة من هذا الكتاب للذكرى خوفا من فقدانها.

كان يميل لحفظ كل شيء نادر من تحف وغيره فقد كان عندنا في البيت جلدين من جلود الأفعى البوا من إفريقيا والجدير بالذكر أن واحدة تحتفظ بالرأس الذي يحتوي على صفين من الأسنان في سقف حلق الأفعى محفوظة عندي في المجموعة الجوهرية تدهش كل من نظرها وهي بالفعل نادرة.
وكان عنده قليلا جدا من الصيني (أواني لحفظ الحلوى) ثم بعض المخطوطات النادرة ومجموعة قيمة من الطوابع النادرة القديمة وكان أثاثه متواضعا ولكن نادر الوجود بالنسبة إلى باقي أثاث الأصدقاء في ذلك الزمن. وكان يحتفظ بصندوق نادر الوجود معه لجهاز الوالدة من خشب الجوز التركي المزركش بالنحاس وله قفلا بجرس عجيب. ثم منقلا أصفر اللون من النحاس الإستانبولي وصموار للشاي روسي قد أخذتهم وحفظتهم ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى ومع الأسف الشديد قد إستعار مني فخري النشاشيبي صندوق الوالدة هذا، في ليلة أتى ليطلعه على أصدقاء أجانب في بيته وشاء القدر أن يتوفى فخري وتوفى الصندوق ولم ترده زوجته لي سامحها الله.

حياتنا ومنهاج معيشتنا في الدار

كان والدي يحب الترتيب والنظام وله ميول نادرة في الفنون واجتماعي كبير فقد علمنا وشجعنا على السير في الطرق الفضيلة فمثلا بعد زواج أخواتي عفيفة وشفيقة وجوليا أصدر إراداته السنية في البيت طبعا بأن من الواجب علي وعلى إخواني خليل وتوفيق وفخري بأن نقوم بمساعدة الوالدة في كل ما يتطلبه البيت من تنظيم وتعزيل وتكنيس وقش ومسح وفرش وفرك نحاس (ومناقلة المياه من الطابق السفلي من الدار حول ٤٥ درجة فنحمل تلك المياه إلى الدار)، حتى الطبيخ نطبخه، الأمر الذي كان يلفت أنظار الجيران ويحسدونا على هذا الترتيب الذي كان يضاهي أعمال النساء والله يشهد. وهكذا كان يضرب في أولاد الجوهرية المثل بشؤون المنزل على اختلاف أنواعه. كما كما قلت سابقا نأكل في فصل الصيف حول المائدة (الطاولة)، ونجلس طبعا على الكراسي وكل واحد يسكب في صحنه (الزينكو المدهون)[1] الخاص كما هي الحالة في يومنا هذا وقد أبطلنا تناول الطعام بواسطة الملاعق الخشبية التي كانت تستعمل عادة عند الناس والتي كانت تورد إلى بلادنا من بر الأناضول واليونان واستبدلناها بملاعق نحاسية تبيض من وقت إلى آخر، كذلك أبطلنا شرب الماء من الطاسة الوحيدة التي كانت مربوطة على زير الماء للجميع واستبدلناها بكاس بلوري لكل واحد منا عند الطعام، كذلك وحبا بترقية الحياة إشترى والدي لكل منا سرير حديدي وأبطلنا والحمد لله النوم على الأرض وذلك منذ سنة ١٩٠٦ وهكذا وبلمح البصر كما نضب الفراش ولا داعي للتعب ورفع الفراش يوميا.

كان يركب والدي حمارا أبيضا وله إسطبلين الأول خارج الدار وبابه على الطريق الرئيسية والثاني داخل مدخل الدار في الطابق السفلي (الدهليز) وبزاويته يحفظ الفحم والحطب لأيام الشتاء. فكنا أنا وأخواتي نقوم في عملية إطعام وإسقاء الحمار يوميا ونعتني بنظافته ونحل عنه السرج عندما يحضر والدي ونغربل له الشعير ونمزجه مع التبن إلى ما هنالك من

[1] صحن من معدني الزينك مطلي بالزجاج ومشوي بفرن خاص.

سياسة وسوس الدواب حسب ارشادات الوالد ، وكان والحق يقال يخيل لمن يرى ذلك الإسطبل يظن بأنه آخور فرس أصيلة فكل شيء مرتب وموضوع في محله ولا يمكن لأحدنا التهاون بأي نقص وإلا كان الغضب والضرب أحيانا . كما في فصل الشتاء ولأجل راحة الوالد الذي يكون متكئا على فراشه العربي وعليه العباة أو الفروة في إحدى زوايا بيت النوم العائد لنا يشرب الأركيلة والقهوة وعند المساء يمزمز [أي يرتشف بلذة] على كاس عرق وحوله المازة الشهية نحضر ما يسمونها (السفرة) وهي طاولة مستديرة تعلو عن الأرض حول ثلاثين سنتمتر ونضعها أمامه مباشرة وننقل من المطبخ الصحون والملاعق والطبيخ من الوالدة ونجلس جميعنا حوله هذه المائدة المستديرة ونتناول طعام الغذاء أو العشاء ثم الحلوى وبعدها نعيد حالا كل شيء إلى محله نحن الأربعة أولاد تحت مراقبة الوالد وتحت إشراف الوالدة في كل فرح وسرور .

والجدير بالذكر أن والدي كان رحمه الله له ميل خاص للنكتة فلا يترك الفرصة ينكت مع كل منا ضمن الحدود بصورة أدبية لا يستطيع أحد منا أن يستعمل ألفاظ بذيئة كما أنه كان يظهر إعجابه لمن يجيد النكتة فينا ويحاول تصليح الغلط وتعليمنا أن نتفهم المعنى الصحيح للنكتة . وهكذا كنا دائما في وقت الفراغ وبعدها يذهب كل منا إلى عمله إن كان في الشغل الخارجي أو العلم في المدارس . وأما الوالدة فكانت رحمها الله أمية لا تقرأ و لا تكتب وهكذا كان الوالد يداعبها في نكاته ودهائه وكأنها واحدة من أولاده وعند الأعياد تسبقنا فتقبل يديه معايدة عليه ثم نقبل بدورنا نحن يديه ويديها .

عندما كان أحدنا يعذب الوالدة ولا يطيع أوامرها أو يعمل شيء مخالف للحق سواء كان مع بعضنا أو مع الجيران أو الأصدقاء فكلمة واحدة تنطق بها وهي "بتشوف لأبوك" فبالحال نقف ونطيع الأمر خوفا من أن تشكي الفاعل لوالده لأنه كان قاسي وشديد العقاب ولكن بالحق والعدل وكثيرا ما يستعمل ديباجة أو يحكي قصة توافق لذلك العمل حتى يستطيع الفاعل على أخذ المغزى ويتجنب العمل السيء ثاني مرة وبدون ضرب فمثلا كان أخي توفيق جريء بالإيجابات وكان ذكي جدا ويدوي يعمل ويصلح ما رغبت من الساعات والماكنات من مختلف الصناعات ولكن كما قيل "كثير الكارات قليل البارات" فلم يفلح في عمل واحد وكانت حياته وأقولها صراحة بدون إنتاج فعلي بالنسبة لمعلوماته فقد عمل ذات يوم نموذجا من الكرتون يمثل به عمارة كانت اليهود أقامتها خارج باب الخليل لبيع منتوجات مدرسة الأليانس بالقدس ، وبالحق إن توفيق أتقن هذا النموذج وعرضه في إيوان الدار وقد صادف بعد خلاصه قد حضر والدي من السرايا فتأمل في النموذج متسائلا من عمله؟ قال توفيق "أنا يابا" . فصمت والدي قليلا ثم قال "ولك يا توفيق وبعدين معاك؟ أنا لم أغلط في حياتي إلا لكوني سميتك توفيق" فقال توفيق وماذا كان يجب أن تدعوني؟ قال والدي "تلفيق" ثم استطرد قائلا "إسمع كان واحد مكث في بيته ثلاث سنوات ، ثم قابل الملك وقال له بأنه اخترع شيئا عجيبا . فسر الملك وسأله ما هو ذلك الإختراع؟ فقال الرجل آمرلي يامولاي بلوح من الخشب . فجيء له بلوح من الخشب فأوقفه

على مرأى من الملك وحاشيته في القصر الملكي، ثم مد يده إلى جيبه فأخرج علبة صغيرة وفيها إبر للخياطة، فأخذ الإبرة الأولى وضربها بيده فدخل رأسها في لوح الخشب، ثم أخرج الإبرة الثانية وضربها بيده فدخل رأسها في هرم الإبرة الأولى، ثم أخرج الإبرة الثالثة وضربها بيده فدخل رأسها في خرم الإبرة الثانية وهكذا إلى أربعين إبرة فعندها أمر الملك بجلده أربعين جلدة ودفع له أربعين دينارا وأصرفه قائلا له "يا هذا صرفت من عمرك ثلاث سنوات وعملت شيئا لا فائدة منه للدولة ولا لأحد" وهذا أنت يا توفيق فبالله عليك ماذا تربح من هذا النموذج. صحيح جميل ولكن لا فائدة منه فقد أدخلتك المدرسة فلم تفلح، ثم توصلت لمدرسة ليلية في يافا فتركت وهربت ورجعت القدس، ثم نجار عند صهرك فتركته، ثم ميكانيكي كذلك الأمر، وأخيرا رسام عند المعلم المشهور آرام الأرمني فلم تطيعه فتركك، وهكذا انكسف توفيق بعد سماعه لهذه الحكم ولكن بلا جد.

يادست مع الوالد

لعبت أنا ووالدي لعبة "اليادست" وهي لعبة يونانية مشهورة بواسطة عظمة الدجاجة، فمضت مدة طويلة تعذر لأحد منا أن يتغلب على الآخر. فعندما صادف مرة وهو جالسا على فرشة الأرض ينتظر طعام الغذاء ونحن ننقل الصحون من المطبخ لتناوله وإياه حول المائدة المستديرة على الأرض، وكان الطعام في ذلك اليوم (مجدرة ولبن)[1] وقد صادف أنني جئت بصحن نحاسي وفيه اللبن البارد وعندما وصلت باب الغرفة ركضت بسرعة قائلا يابا يابا يابا سخن، فظن أنني حاملا صحنا فيه طعام ساخن فرفع قامته رحمه الله بسرعة وتناوله مني ذلك الصحن شفقة بي، ولا تسأل عندما إتضح بأنه صحن لبن وقلت له بسرعة يا دست وغلبته. ورغما عن غلبه سر مني وضحك وقال "المهم في النكتة بأن الصحن لبن بارد يا بارد".

١ المجدرة هي أكلة شعبية فلسطينية تمزج العدس والأرز أو البرغل سوية وتقدم بالعادة مع اللبن البارد.

سلاح خليل

لم يكن أخي فنانا بالغناء أو عزف الآلات فعندما كنت أنا وإخواني توفيق وفخري جادين في حفلة ما موسيقية سأله صديق "وأنت يا خليل ماذا تدق؟ فأجاب أنا أدق كبة"[2]. على كل فكل واحد من البشر له هواية خاصة فكانت هواية أخي خليل الأسلحة. ففي ذات يوم جمع خليل البنادق والسيوف والخناجر والمسدسات وكانت كثيرة في بيتنا زمن الوالد، وعلقها على علم عثماني في أعلى الإيوان وكنت أنا وأخي توفيق نساعده في ذلك إلى أن انتهى من عملها وكانت والحق يقال منظمة على أحسن ما يرام. فعندما دخل والدي عند الظهيرة رأى ذلك المشهد وسأل من عمل هذا فجاء توفيق وقال عملها خليل يابا فالتفت والدي إلى خليل قائلا "مليح جدا بس ولك خلي لنا على الأقل سكينة واحدة، فلو جاء الحرامي ماذا نقول له انتظر لعندما نجيب السلم وننزل لك قطعة من أعلى الإيوان لنقاتلك بها"،

٢ الكبة: وجبة شهيرة في شرق المتوسط من البرغل واللحم. دق الكبة: فرم وإعداد الكبة.

وهات يا ضحك والكل منا انزوى في محل بعيدا عن الوالد وغضبه وتهكمه رحمه الله فكان سريع النكتة وفي محلها تماما يقولها مناسبة للمقام وفيها كل العبر .

وصف دار الجوهرية ولمحة وجيزة عن حياة ساكنيه من الجيران

إنك تدخل لدار الجوهرية من دهليز طويل مبلط ومظلم حتى في النهار لعدم وجود منفذ له سوى المدخل الرئيسي وعندما تصعد إلى الطابق الثاني حول عشرين إلى خمس وعشرين درجة تجد على يمينك غرفة واسعة سكن أنضوني المنى ووالدته وأخواته تستعمل صالون وغرفة نوم وقد خصص لها غرفة واسعة معتمة وفيها بئر ماء لجميع السكان في الطابق الأول "الأرضي" للأكل والطبخ . ثم غرفة واسعة بجانب غرفة أنضوني في الطابق الثاني لسليم ثم غرفة فاشة . وعائلته الكبيرة تستعمل أيضا صالون وغرفة نوم ، وقد خصص لها غرفة مظلمة أيضا في الطابق الأول للأكل والطبخ ثم غرفة واسعة بجانب غرفة سليم فاشة في الطابق الثاني لسكن متري المنى "الكبير" وعائلته تستعمل أيضا صالون وغرفة نوم ، وقد خصص لها غرفة واسعة مظلمة في الطابق الأول للأكل والطبخ وفيها بئر ماء لجميع السكان . وبجانب هذه الغرفة العلوية غرفة صغيرة يسمونها "تقيسة" بنيت حديثا لسكن نور شقيقة متري العذراء ، بنيت عندما تزوج متري .

ثم عائلة أبو شحادة ملوك نفس الطريقة ويوجد لها بئر ماء في الغرفة السفلية لجميع السكان ثم عائلة قسطندي فاشة وأيضا عائلة يعقوب فاشة وأخيرا غرفة صغيرة لوالدتهم العجوز أم سليم . وان جميع هذه الغرف أمامها ساحة سماوية "الحظير" تستعمل عادة لنشر الغسيل ثم بئر ماء منعزل في قاعة الدار للغسيل . أما مدخل الدار الرئيسي فيوجد فيه بئر ماء كبير للشرب والجدير بالذكر أن بيوت الخلاء لهذه العائلات وعلى الطراز القديم الوحشي "مزلقان" موضوع عند دخولك من هذا الدهليز فكثير من الأوقات تكون رائحته كريهة وهاذين البيتين للراحة معدة لجميع سكان الدار الساكنين في الطابق الأول والثاني فتصور كيف كانت هذه الحياة . أما والدي فقد اختص بمنافع حديثة في الطابق الثالث .

وبعد ما ترك سليم فاشة سكنه حل محله قسطندي عطا كتاب كونه متزوج جميلة أخت أنضوني المنى وكان سكير من الدرجة الأولى يعربد عادة عند صفو الليالي ويعكر صفو الجيران وله قصص كثيرة وكان لا يعي دائما ويتصور القتل بالسكين لزوجته وأولاده الصغار فكنا والحالة هذه نتدخل ونحمي عائلته وأولاده .

كانت دار الجوهرية شبيهة بدير وليس بدار لأنها كانت فسيحة الساحات السماوية[1] لكل من الطابق الأول والثاني منها وهكذا فإذا ما دخلتها خصوصا في نهار الأحد فإنك تجد هذه العائلات وأقرباءها من رجال وسيدات وأواني وأولاد منهم من يلعب الطاولة والورق ، والآخر يغني ويعزف الآلات من أصدقائه وهذا يشرب الأركيلة أو يحكي القصص والنوادر والآنسات منهم من نصب الأرجوحة في حديد الساحات يتأرجحن فيها في وسط قاع الدار السفلي ، وهكذا

١ الساحات السماوية : غير المسقوفة.

يتخيل للزائر الغريب عن هذا المجتمع بأنه في قاعة نادي أو معهد أو معرض وكنا نحن وإخواني نتصدر عند الإحتفالات المناسبة بينهم، لا فرق بين جار وآخر وكان الجميع عائلة واحدة لأن الصداقة والوفاء كانا في ذلك الزمن بالعفة والطهر فيالها من حياة جميلة.

شحادة ملوك وعائلته

كانت عائلة ملوك مؤلفة من الأب "أبو شحادة" سمّان في محلة باب العامود وكانت زوجته أم شحادة من عائلة قمر "الكرنونو" وكان أخيها يصلح البنادق في سوق خان الزيت. وكان لأبي شحادة إبنة اسمها عزيزة عرجاء، وأمها مريضة العيون (عمصة) وكان لهم ولدا اسمه شحادة وهو لم يزل حي يرزق ويشتغل مصور فوتوغراف، فكان مدللا من أبويه بصورة لا توصف لأن والدته فقدت أولادا كثيرين من قبله. وهكذا تربى شحادة تربية جعلته يكون شبيها بالبنات. يخاف من كل شيء مدلع وقد عودته أمه أن تقف له في الدهليز عند غروب الشمس خوفا من أن يطلع له الرصد، كما كانوا يظنون لأن الدهليز كان مظلم ومعتم، وقد كبر شحادة واعتاد على هذه التربية. ففي ذات يوم وقفت أم شحادة في الدهليز تنتظر قدومه فتأخر شحادة قليلا حتى عيل صبرها ودخلت بيت الخلاء تقضي حاجتها وإذ فتح باب الدار فظنت بأن شحادة حضر وصرخت بصوتها من داخل بيت الخلاء شحادة!! أجاب الشخص (ايه والله شحادة) سكتت أم شحاده لأنها تأكدت بأن الصوت هو غير صوت ولدها. ولكن هذا الشخص أبى أن يترك الدهليز فحمل عصاه وجرها على حيطان الدهليز في الظلام وهو يقول "واحد قال شحادة أين هذا" واحد قال شحادة أين هذا ولا تسأل عن حالة أم شحادة التي تأكدت بأن هذا الشخص هو الرصد بعينه. وعندما لم يجد الشخص أحدا في الدهليز لعن الشيطان وصعد إلى الطابق الثالث وقص ما حدث له في الدهليز لوالدي، وكان هذا الشخص هو المرحوم الشيخ شحاده الدجاني يلبس العمة البيضاء ويضمن أعشار القرى بواسطة والدي. فعندها أدرك والدي صحة الحادث وقال ربما كان هذا الصوت صوت أم شحادة التي تنتظر ولدها في مثل هذه الساعة ونزلوا بالفعل إلى الدهليز وإذا بأم شحادة مغمى عليها في بيت الخلاء فجاءت السيدات من الجيران وأسعفوها.

عزيزة أين يفسخ العتال[1].

كبر شحادة واشتغل وفي سن العشرين ذهب إلى افريقيا وتغيب عن عائلته المسكينة مدة لا تقل عن السنتين لم يكتب طيلة مدة غيابه تحرير ما. وكنا نعطف على والدته وأخته اللذين كانوا ليس لهم شغل سوى البكاء والعويل على شحادة الذي كان موضوع بحثهم في الليل والنهار خصوصا لعدم حصولهم على أي خبر منه حتى اقتنعنا بأن شحادة أصبح في خبر كان.

[1] العتال: أي الحمال "ويفسخ" كلمة عامية يبدو أنها في هذا السياق ينزل حمولته

وفي ظهيرة ذات يوم من أيام تموز عندما كانت هذه العائلة البائسة تتناول طعام الغذاء في الغرفة السفلى وفيها بئر الماء، وإذ دخل شحادة وورائه العتّال يحمل ما جلبه شحادة من افريقيا، وقال بأعلى صوته (عزيزة عزيزة وين يفسخ العتّال؟) فعندما سمعوا صوت ولدهم جن جنونهم من الفرح وكان وكأنه قادما من محلة باب العامود في غرض ما ولم يسلم أو يقبل أيادي والديه ويعرفهم بقدومه قبل كل شيء، حسب عادة المسافرين والغياب. قام كل منهم من على الأرض متسائلين شحادة شحادة وهو يجيب نعم شحادة ولكن أين يفسخ العتّال؟ وهكذا أشبعوه من القبل وبدأوا بالزغاريت، وأصبح حادث رجوع شحادة لدى كل منا حادث فريد خالد.

صداقتنا المتينة مع الجيران

كانت حياتنا مع الجيران مرحة وبدون كلفة وكنا نعامل بعضنا معاملة الأخ فمثلا من عمل شيء بالفرن مثل لحم وعجين أو مردد أو صينية سانخ أو حلوى وجب عليه أن يبعث قليلا منها إلى الجيران لأجل أن يذوقوا تلك الأكلة من الرائحة، وعندما يكون فرح خطوبة أو عرس جميع الجيران تكون مجتمعة وكأنها عائلة واحدة في الطهي والأكل والشرب حتى و السكر، فكان سليم فاشة مشهورا في لعبة ما يسمونها "الصينية" وهي لعبة والحق يقال بأنها جميلة. ثم الأعياد الرسمية وما كان أكثرها في تلك الدار، نبدأ بعيد مار[1] يعقوب (يعقوب فاشة) ،في ٢٣ تشرين الأول من السنة فتجتمع أفراد كل عائلة من العائلات وتفش الدار بأكملها الدهليز والدرج المؤدي إلى الساحات السماوية وإلى قاع الدار ثم الدرج لبيت والدي في الطابق الثالث. ويعاد تنظيف الدار، وفي ٣ تشرين ثاني من السنة بمناسبة عيد مار جرجس وهو عيد المرحوم والدي جرجس جوهرية، ثم ميخائيل فاشة، في ٨ تشرين ثاني وأخيرا، عيد القديس ديمتري وهو عيد متري عبد الله المنى وهنا في هذا العيد ترى الدار ترقص فرحا لأن اقرباء متري المذكور كثيرة جدا والحمد لله، فهناك عائلة عنصرة وعلوشية وجوزي وتيودوسي ومنصور و فتالة وخنوف وشبر وزخريا وقرط وحرامي ونظرا لأن متري وحيد في العائلة فكانوا يعملوا له "السماط" إما لبنية أو عدس مع الرقاق فكانت جميع هذه العائلات تتناول الغذاء في الدار فهناك منظر جميل وكنت أنا وإخواني وبعض الأولاد نحمل بعض الصحون من السماط وتأخذها إلى حبس الدم لإطعام المحبسين والمحبوسين هناك كما كانت العادة في ذلك الزمن. كانت الرجال تغني طيلة النهار وإلى منتصف الليل وكانت فرقة موسيقية من هواة الفنانين في ذلك الوقت وهم أقرباء وأصدقاء جارنا متري المنى "مؤلفة من متري قسطندي المنى، وصاحبه قسطندي الصوص" وكان كل منهم له صوت جميل وعال وحنون، ثم متري الزائر يعزف على الفلوت ثم عيسى الصوص ضارب الدربكة أو النقارة وبالحق كانت فرقة هواة جميلة أكتسبت منها أساس الغناء كما سيجيء البحث عن هذا الموضوع في حينه من هذا الكتاب. وكانت السيدات تزغرت [تزغرد] وكان العيد لا يقل عن حفلة عرس والله يشهد، وهكذا كانت الدار تحتوي على جميع أصناف اللهو والطرب شريطة أن كل واحد من

[1] مار: أي قديس وجرت العادة لدى المسحيين أن يسموا أبنائهم الذين يولدون في أيام الأعياد نسبة إلى القديس صاحب العيد.

الحضور يحافظ على التقاليد العربية ولا تجد من يخرج عن دائرة الشرف والكمال رغما عن خليط الرجال والنساء من كبار وصغار ونحن أي أنا وإخواني وأخواتي ضمن هذه المجموعة.

هذا من جهة داخل الدار فلا تعجب إذا عرفتك بأن الجيران المسلمين بجوار دار الجوهرية كانوا رجالا ونساء يشاركونا الأفراح والأتراح حتى في ليالي الحرومة "الكارنفال" وهي ليالي أول صيام عيد الكبير كما نلبس سيدات ورجال مع بعض وكل واحد منا يخفي وجهه بالوجه وندخل في هذه الأزياء ونرقص وندبك وكل واحد يمثل الدور الذي لبس ذلك الزي لتمثيله فمثلا، تكون العروس أخي خليل ويكون عريسها فتاة من بيت الداودي أو السمان أو الصالحاني وهكذا. وإنما كما قلت سابقا كان الشرف والأخوة شعارنا والحمد لله. وأما جيران دار الجوهرية فهم عائلة عبد القواس الداودي وعائلة مصطفى الصالحاني وعائلة السمان ومصطفى الجبشة والأنصاري، ثم على بعد قليلا عبد ربه، عمر درويش الشيخ محمد صالح، عاطف درويش وغيرهم.

مدرسة الدباغة للألمان

تلقيت أنا وأخي توفيق العلوم الإبتدائية من حياتنا في مدرسة الألمان المعروفة بمدرسة الدباغة بجانب كنيسة الألمان أيضا داخل السور بالقدس.[1] كانت مدرسة عليها الإقبال خصوصا من أبناء طائفة الروم العرب[2] بالقدس وكان لها معلمين ومعلمتين: الأول وهو المعلم جرجس منصور طشطو من بيرزيت رجل كبير في السن والثاني المعلم بشارة قسطندي من قرية الطيبة. أما المعلمات فالمعلمة ثروت للكبار والمعلمة (وقد لاحظ التلاميذ غراميات المعلم بشارة مع المعلمة ثروت وتبين أن المعلم تزوج ثروت وترك القدس إلى يافا) جوليا أبو رقبة من طائفة الروم بالقدس وهي مختصة بنظافة المدرسة ومسؤولة عن الأطفال كما تعلم اللغة العربية وقليلا من اللغة الألمانية وكان أهم الدروس حفظ الآيات من كتاب المقدس نبدأ من الرب إلهنا رب واحد، وهكذا مئات من الآيات ثم التراتيل المعروفة حسب خطة طائفة البروتستانت فالمعلم يعزف لنا على الأرغن الصغير ومرات على الكمان ونحن نرتل:

"رن صوت في الأعالي يا ترى ماذا الخبر - نزرع صباحا كلمة الألطاف - هذا هو اليوم السعيد" وهكذا وقد كنت أنا من الأوائل في هذا الباب ومفضل عن باقي التلاميذ عند المعلم. أما زملائي فإني أذكر منهم الإخوان:

عيسى القسيسية وأخيه نصري، باسيل الشبر، حنا وبشارة وعطا الله فريج وإخوانهم، نخلة زخريا، سعيد عويس، الياس القردعجي وأخيه يعقوب، قسطندي الشامية وإخوانه وأولاد عمه، عوض بدور، ابراهيم الحويط الياس واستاوري زيادة، وأمين وفريد شغري، وشكري مزهر، وبشارة الصائغ، وكنا في ذلك الزمن نلبس القنباز وغالبا البلغات الحمراء من سوق العطارين أي كندرة شغل الشام نشتريها ب ٧ غروش ولم يكن أحد يلبس البنطلون سوى المعلمين. بقيت في هذه المدرسة لغاية ١٩٠٩.

[1] وهي كنيسة الفادي اللوثرية الواقعة في منطقة الدباغة بجانب سوق أفتيموس قرب كنيسة القيامة داخل البلدة القديمة وق بنيت في منتصف القرن التاسع عشر.

[2] المقصود المسيحيون العرب من الطائفة الأرثوذكسية.

أنا أسود

كان المعلم يصف الأولاد في صباح كل إثنين وأربعاء ليكشف على النظافة وقد لاحظ مرة أن رقبتي وسخة ولم أغسلها وهكذا صفعني على رقبتي من الخلف وكان شديدا لأنه المعلم بشارة ولم يكن المعلم جريس المرحوم فتألمت جدا من عظم الضربة وبدأت أبكي وأقول :

لا يا معلمي أنا أسمر أنا أسمر فتبسم وتركني.

سبب تركنا مدرسة الدباغة

كان أخي خليل يشتغل في تجارة العربيات عند متري أبو شنب وإخوانه في دكان واقعة في شارع يافا خارج السور بالقدس وذلك أثناء عملنا أنا وتوفيق في مدرسة الدباغة. وكان والدي مسؤولا عن المنتزه البلدي (المنشية) كما سيجيء البحث عن هذا الموضوع في حينه من هذا الكتاب. وكنا أنا وأخي توفيق ليس لنا موضوع حديث في البيت لوالدي ووالدتي وأخي خليل ليليا إلا ما يحدث معنا في مدرسة الدباغة وكنا نكره المعلم بشارة وكذلك كان مكروها من كل التلاميذ نظرا لقسوته وبطشه وضربه القاسي للأولاد وبدون سبب معقول حتى أصبح لأخي خليل فكرة وافية عن قسوة المعلم بشارة. ولما كان أخي خليل مشهورا بالرجولية لدى جميع أولاد جيله مر صدفة المعلم بشارة في شارع يافا وعن دكان تجارة متري أبو شنب عندما كنت أنا وأخي توفيق نلعب في ذات الدكان. رغبنا بأن خليل يعرف صورة المعلم بشارة فقلنا له "خليل هذا هو المعلم بشارة أنظر أنظر" ولكن أتدري ما كانت النتيجة؟ ترك خليل شغله ولحق المعلم بشارة يصفق له بيديه ويصيح بأعلى صوته: هيا معلم بشارة معلم بشارة !

التفت المعلم بشارة إلى خلفه ونظر بعينه فوجد توفيق وواصف وكان لا يعرف أخي خليل. عندما لاحظنا بأن المعلم بشارة شاهدنا قلنا واأسفاه علينا !! ماذا يحدث لنا غدا معه يا الله!! ما هذا يا خليل؟ تركنا خليل وذهبنا واشتكينا أمرنا إلى الوالد الذي كان يجلس في المنشية مع أصدقائه على الأركيلة وبصفته كان محاميا، قال لنا "لا تخافوا عندما يسألكم قولوا له أن أخي كان ينادي على عمي بشارة وليس المعلم بشارة!!" قلنا يابا لا يعطينا فرصة للمناقشة وأنت لا تعرف هذا المعلم. قال ولا يهمكم وهكذا ثاني يوم ذهبنا إلى المدرسة مرغمين.

دخل غرفة الصف المعلم بشارة الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم لإعطاء الصف درس حساب ساعة من الزمن وطرق باب الغرفة بقوة فائقة وذلك من شدة غضبه فقلت أنا في نفسي الله يستر!! وقف والشرار يقدح من عينيه وصاح مؤشرا إلي بإصبع يده الأيمن "جوهرية صغير". حضرت فوقفت أمامه فما كان منه إلا أن صفعني صفعة على وجهي كدت أن أرى نجوم الظهر كما يقولون ومن قوة هذه الضربة رماني إلى الأرغن ثم رجع جسمي من الأرغن إلى البنك [أي المقعد] الأول من التلاميذ وسقطت على الأرض فشخيت تحتي وأنا ماسك رأسي بيدي وأصيح بأعلى صوتي يا يابا يا يابا، وهكذا تركني واشتغل بأخي توفيق مدة ساعة من الزمن، توفيق يهرب منه من بنك إلى آخر

والمعلم الملعون يلحقه ويضربه بالخيزرانة ثم بين البنوك وبين التلاميذ وتوفيق ينهزم منه بسرعة فائقة إلى أن دخل المعلم جريس والمعلمة وانتهى الوقت. أما أنا فكانت عيوني على الباب أفكر ياهل ترى هل بإمكاني فتح السقاطة؟ وأتمكن من الهرب؟

بالإختصار رجعنا إلى البيت وعرفنا والدي بكل ما حدث فتدخل والدي رسميا بالأمر وكان يود رفع دعوى جزائية عليه فجاء واعتذر بحضور المعلم جريس وبعض أناس آخرين. وأخيرا ذهبنا لبضعة أيام وتركنا المدرسة فانتقلت بواسطة السيد حسين هاشم الحسيني إلى مدرسة خليل السكاكيني كما سيجيء البحث عن هذا الموضوع في حينه من هذا الكتاب. وهكذا كان الظلم والإستبداد في العلم في ذلك الزمن فرحم الله جبران خليل جبران إذ قال :

قالوا لي:

من علمك حرفا كنت له عبدا لذلك بقيت جاهلا حرا

ميلي الفطري للغناء منذ حداثتي

كانت هوايتي منذ نشأتي الغناء فكنت أغني ما كنت أسمعه في بيتنا ومن الجيران وكان الفضل الأكبر لتشجيعي هو والدي رحمه الله لأنه كان محبا للفنون الجميلة كما سأذكر عنه في حينه من هذا الكتاب. فما كان أحد فناني الأقطار العربية يزور القدس إلا تعارف من الوالد وقضى الليالي معاه وكان أول من اقتنى آلة العود في بيته ونزل العواد الشهير المعروف بالقفطانجي المصري ضيفا عنده لمدة. كنت أغني وأنا على السطح وكثيرا في بيت الخلاء [أي المرحاض] ومع أولاد الجيران الأغاني مثل ع "الروزنة كل الهوى فيها" و "ع الهاني."

ع الهاني الهاني بالله ارحموا حالي، فأجد إقبالا من المعارف والجيران الذين وافقوا على نعومة صوتي وحنوه وكنت أسمع بشغف زائد عندما تكون سهرة عند الجيران وأخيرا أذكر أن في مساء عيد والدي أي عيد القديس جورجيوس، في ٣ تشرين ثاني من السنة وربما كان عمري لم يتجاوز الست سنوات جاءت فرقة أولاد أبو السباع المشهورة آنذاك بالقدس ومعها العواد المشهور أبو خليل (وكان ساكنا مقابل دار الجوهرية المذكورة وكنت أنا وإخوتي نستمع إلى عزف عوده من شباك الدار) فعزف أبو خليل العود بمصاحبة القانونجي عبد الله أبو السباع الموجود حاليا ومطربا في يافا[١] وكان ضابط الإيقاع عمر أبو السباع (والجدير بالذكر أن عمر هذا كان يلبس جاكيت الريدنكوت المعطى له ربما من أحد أعيان القدس فوق القنباز) فتشوقت جدا للعزف في تلك السهرة ولأجل الصدف كان والدي قد عمل غطاء لخزانة الفحم في المطبخ تشبه القانون لأجل أن تكون تحت الدرج المؤدي إلى غرفة الخزين فذهبت حالا وأحضرت هذه اللوحة ووضعتها على ركبتي أمام فرقة أولاد أبو السباع الأمر الذي لفت أنظارهم بوجه خاص وبعد أن تحدثوا مع والدي طلب والدي مني أن أغني وهكذا غنيت ع الروزنه وهم يعزفون ذات الأغنية على آلاتهم وأظهروا

١ "حاليا في يافا" - يلاحظ القارئ أن زمن الكتابة غير مذكور. يبدو أن هذا القسم من المذكرات كتب في الأربعينات (المحرر)

إعجابهم لصوتي وسلمني القانون فنقرت عليه قليلا وكدت أطير من الفرح ! ! زاد شوقي إلى الغناء وقلت في نفسي متى أقدر أن أعزف آلة مثل هؤلاء الناس ياترى؟

ثم كان فونوغراف عند والدي من جنس [نوع] His Master's Voice وكان أول الإختراع. فالبوري يرتفع على خشب طويل وله مفصلات بصورة غير عملية ثم الكيوانات[1] كانت مسجلة على وجه واحد فقط كان مقدم كهدية من الراهب حنانيا إلى أخي خليل فكنا عندما نضع كيوان الشيخ سلامة حجازي "سلام على حسن يد الموت لم تكن" رواية روميو وجوليت) فقد حفظت هذا التسجيل حتى أصبحت أتقنه بدرجة وكنت عندما لم أحسن إيداء نغمة ما فيها يجي والدي ويفرك لي أذني ثم يعيد غناء الأسطوانة حتى أضبط تلك الحركة تماما آه. ولكثرة حبه لفن الموسيقى والغناء كان يمنعني من حفظ قطع غناء رخيصة من الفونوغراف وكان يحاول جلب قصيدة مثلا للشيخ يوسف المنيلاوي "ضيعت عهد فتى لعهدك حافظ" وعلى شاكلتها من موسيقيين لهم مكانتهم في هذا الفن الجميل وكان يراقب اللغة والمعنى في غنائي وإني أذكر بأنني كنت أغني مرة "جددي يا نفسي حظك" وقد سمعتها من متري قسطندي المنى مرة وفيها بيت (من يلومني في غرامي غدرة جهل الغرام أنا والله سقامي أصله هذا الغزال) بالضبط كما كنت سمعتها، وإذ ترك والدي شغله في قاعة الصالون وكان يكتب مسائل حكومية مع الشيخ سليم المملوك وخرج إلى الإيوان وصاح في وجهي "قائلا :أنا لا أريدك أن تغني شيء بذيء كهذا ولن أسمح لك بذلك، وكأنك عامل وليس إبن مدرسة متعلم" . قلت ماذا قال ما هذا غزلان وأرانب؟ يجب أن تقول أصله هذا (الملام) لأن قافية الأغنية بحرف الميم وليس حرف (ل) أي غرام. وثق بأنني لن أنسى هذه الوصية وصرت أجرب دائما على إتباع اللغة الصحيحة ولو كانت الأغنية طقطوقة.

أولى أدواتي الموسيقية

أصبح عندي رأس مال لا بأس فيه من المحفوظات الغنائية ولكن كنت أشعر دائما بحبي العميق للعزف على أي آلة موسيقية أستعين بها في غنائي وقد صادف أن والدي اشترى (علبة تنك لبودرة صباغ البيض في عيد الفصح المجيد) وبعد استعمالهم الصبغة أخذت العلبة وكانت مربعة مستطيلة مفتوحة من أعلاها بفتحة مربعة مساحتها تبلغ ١٨×١١ سنتمتر تقريبا . فوضعت فيها من الفتحة العلوية خشبة طويلة وخرقت الطرف المقابل لتلك الفتحة حتى خرجت تلك العصا . ثم ضربت مسامير ثلاثة في قاعة العصا من تحت العلبة وثلاثة مسامير في طرفها الأول من أعلاها وربطت في هذه المسامير أوتارا وشددتها بدون دوزان طبعا واستعملت ريشة الحمام بالعزف مقلدا بهذا العملية العزف على العود . وكنت أعزف عليها لوحدي ومع أولاد الجيران ولم أتمكن من نطق ما أغنيه عليها، وعليه كنت أغني بدونها ثم أرجع وأعزف الأوتار الغير منسجمة بعد الغناء معجب في نفسي وكان عمري على ما أذكر [ما بين السادسة والثامنة].

١ الكيوانات: المقصود بها الإسطوانات.

وكنت لعظم حبي لهذا الفن كنت أحرم نفسي من شراء الحلوى الملبس والشوكولاتة بقطعة النقود المعروفة بـ (المتليك)[1] من ذلك الوقت الذي كنت آخذهما من والدي مع إخواني كنت أشتري وترا من بائع يهودي كان في محلة باب البازار بجوار مدرسة الدباغة وأشد هذا الوتر عندما يغيب المعلم عن الصف كنت أشده على صندوق الدسك المعد للتلميذ في المدرسة فأسمع صوتا جميلا عندما أنقر عليه في الإصبع وتطرب زملائي له وعندما أرجع إلى البيت كنت أشده على مائدة الطعام في إيوان الدار فتغضب الوالدة لذلك لضربي المسمار الصغير في إحدى زوايا الطاولة وهكذا كنت أقضي أطول أوقاتي وفراغي بالغناء والموسيقى.

علاقة والدي بالأسرة الحسينية الكريمة بالقدس

كان والدي صديقا محبوبا للمغفور له الحاج سليم أفندي الحسيني (والد موسى كاظم باشا[2] وأخيه حسين هاشم الحسيني). قد وصل الحاج سليم الحسيني إلى مركز عال في البلاد فكانت الحكومة العثمانية تحسب له ألف حساب لمواقفه الوطنية وحب الأهلين وخصوصا الفلاحين لشخصه الكريم. كان رحمه الله عضوا في مجلس الإدارة بالقدس ورئيسا لبلدية القدس مدة طويلة تقارب الإثنين والعشرين سنة وقد أفاد المدينة فالمجاري العمومية داخل السور ذلك العمل الصحي الفريد كانت بواسطته ثم بلاط شوارع القدس القديمة (بلاط الريم) كان من فكره وعمله فأصبحت المدينة نموذجا بالنظافة والجمال والروعة خصوصا لمن كان يزور آثاراتها المقدسة من الأجانب في ذلك الزمن. كان رحمه الله مشهورا بالسياسة كريم النفس صادق القول عادل في أحكامه متواضع حتى امتلك قلوب الناس وعلى الأخص الفلاح فكان له ديوانا خاصا في بيته في محلة الشيخ جراح يزوره المظلوم من الفلاحين ليأمن له ظلامته من عدوه وكان أي الفلاح بفضل حكمه واللجوء إليه عن دار الحكم والعدل في الدولة. ولما كان والدي محاميا ومتضلع بالقانون كان اليد اليمنى للحاج سليم في ديوانه وفي رحلاته في قرى قضاء القدس وأملاكه منها بيت سوسين وبيت جيز ودير الهواء وغيرها فأصبح الحاج سندا منيعا لوالدي معينه عضوا في مجلس الإدارة بالقدس عن الملة الأرثوذكسية وتوصل مع الباب العالي بالإستانة وبواسطة شكري بك الحسيني لدى الصدر الأعظم في ذلك الوقت فحصل له أي لوالدي على بدلة شرف لعلمه وأمانته وإني لم أزل أحتفظ بهذه البدلة الرسمية وسيفها [ضمن المجموعة الجوهرية][3] ويوجد له رسما جميلا في تلك البدلة أيضا. وزاد على ذلك فقد كان والدي عضو البلدية المرافق للحاج سليم طيلة أيامه في الرياسة. وعندما ارتسم غبطة البطريرك الروم الأرثوذكس كيريوس كيريوس ذميانوس عينه في البطريركية براتب شهري فكان عضوا للمحكمة الكنسية فيها والمهم من هذا التعيين ولعظم ثقته بالجوهرية وثقة البطريرك ذميانوس أصبح والدي همزة الوصل ما بين البطريركية وحكومة القدس في ذلك الزمن فعندما تكون الأعياد يزور أعيان القدس ومعه المطران والترجمان الأول للبطريرك ليأدوا مراسيم المعايدة نيابة عن البطريرك في البيوت ويسلموا المخصصات من الذهب الرنان ضمن شاورية حرير صافي بيضاء لكل موظف كبير وتكون هذه المخصصات من البطريرك بالنسبة لمقامه وقوة مركزه

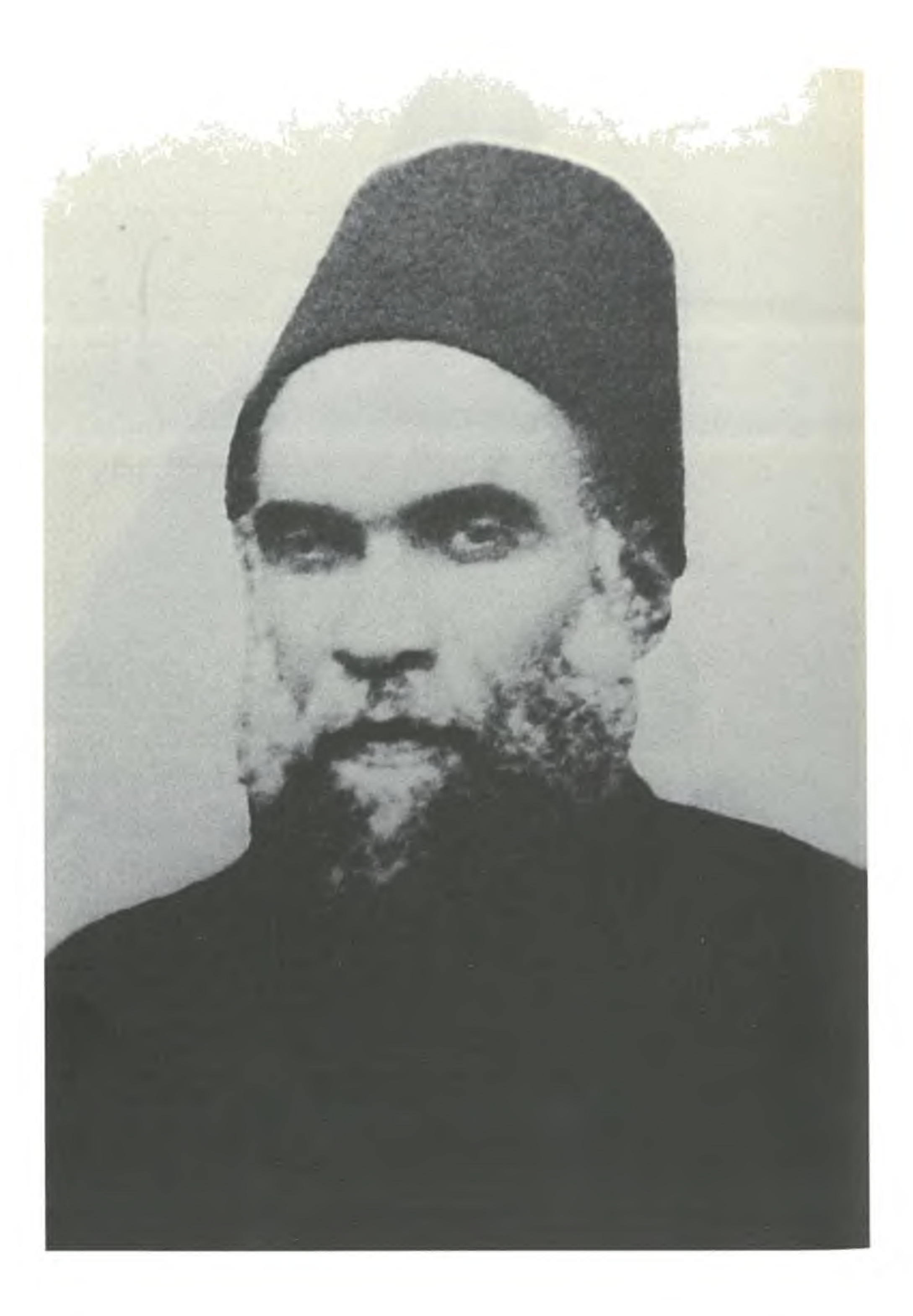
١ أصغر قطعة نقدية عثمانية – مقابلة "للتعريفة" في عهد الإنتداب.

٢ موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا ما بين ١٩٢٢ و ١٩٣٤.

٣ المجموعة الجوهرية التي سيأتي وصفها لاحقا هي مجموعة التحف والآلات الموسيقية والصور الفوتوغرافية التي جمعها المؤلف في بيته الجديد في الطالبية خارج أسوار القدس، والتي فقد القسم الأكبر منها في نكبة ١٩٤٨.

صورة الحاج سليم أفندي الحسيني رئيس بلدية القدس وقد وضعها المؤلف ضمن مجموعته الفوتوغرافية (الألبوم الأول).

المصور غير معروف.



جرجس جوهرية في لباسه الرسمي وقد وصف واصف الصورة كالتالي " المرحوم القانوني الأستاذ جرجس خليل جوهرية وقد ضمها إلى ألبوماته المصورة تحت بند رجالات البطريركية الأرثوذكسية وذلك في الألبوم رقم خمسة.

في البلاد وبهذه الطريقة وغيرها كانت البطريركية الأرثوذكسية بالقدس متمتعة بكسب عطف الحكومة بأسرها بل أقولها صراحة بأن البطريركية كانت حكومة ضمن حكومة، ولها الخيار بعمل ما تشاء فزاد نفوذها وزادت في شراء الأراضي من أهلها المدنيين والفلاحين على السواء وابتدأت ببناء الأملاك والأسواق في مدينتي القدس ويافا تلك الأملاك التي لها موارد كبيرة سنويا لوقف دير الروم ليومنا هذا.

هذه صورة مصغرة للعلاقة المتينة التي كان يتحلى بها والدي مع الأسرة الحسينية الكريمة بالقدس فأصبح لحسن حظه زمن الحاج سليم أفندي الحسيني وكأنه من آل الحسيني وهكذا نشأنا أنا وإخواني نترعرع في الإصطياف في القرى العائدة لهذه العائلة وأخصها بيت سوسين كما سيجيء البحث عنه في حينه من هذا الكتاب.

وإني أحتفظ بفنجانين قهوة مع الصحون من القيشاني القديم المنزّل بالذهب كذكرى كان والدي يقوم بهما، القهوة في بيتنا خاصة إلى المرحوم البطريرك ذميانوس فكان هذا البطريرك عند زياراته لوالدي يصعد إلى السطح الذي أشرت إليه من دار الجوهرية ليتمتع بمشاهدة منظر القدس الجميل النادر.

ومن جملة حسنات وثقة المغفور له الحاج سليم الحسيني ولإعتقاده بأن والدي له ذوقا سليما في كل ما أسند إليه من مسؤوليات سلمه المنتزه البلدي (المنشية) عند إنشائها مع البناء في وسطها وقد خصص غرفة علوية إلى سعادة متصرف القدس وبجانبها غرفة خاصة للوالد الذي كان يشرف على المنتزه بأكمله ويوجد مخزن كبير لحفظ أوائل الزينة من أعلام وفوانيس وغيره وهذا المنتزه وأشجاره وزراعته وبركه ونافوراته كانت كلها من تصميم المرحوم والدي وكان مساحتها في أول الأمر لغاية الطريق المؤدية إلى راهبات المحبة وقد أقيمت قاعدة فوق سطح البئر للماء في منتصف المنتزه مسقوفة بالخشب والزينكو المزخرف ومن حولها مقاعد خشبية ثابتة لفرقة الموسيقى العسكرية للدولة فكانت تحضر هذه الفرقة بعد ظهر أيام الجمعة والسبت والأحد من كل أسبوع وتشنف آذان الشعب والجيش والحكومة ويكون غالبا سعادة المتصرف مع والدي يتمتعا بمشاهدة هذه الإحتفالات من ساحة غرفة المتصرف بالطابق العلوي من البناء.

وكان والدي يشغل الطابق الأرضي كمقهى عربي تستعمل فيه القهوة والأركيلة للجموع تحت الأشجار وعلى رأس هذا المقهى أبو حسن وبجانب هذا المقهى بار يديره رجل يوناني وإسمه أرستيدي والد الآنسة نينا خليلة المطران إيفانيوس في يومنا هذا[1] مع العلم أن والدي لا يدفع شيء للبلدية بالنسبة إلى ذوقه السليم ونفوذ الحاج سليم الحسيني رحمهما المولى. [وقد] وقف الحال[2] مرة مع والدي وكان دخله لا يفي ما يتطلبه البيت من اللوازم الضرورية وقد أقبل عيد الفصح المجيد ودخلنا في أسبوع الآلام والوالدة تطلب الطلبات من أكل ولبس للبنات والأولاد ليكونوا أسوة بالمعارف والجيران وخصوصا في بهجة العيد ولم تعلم حالة والدي المادية وقتئذ وما وصلت إليها من العوز وكانت العائلة مؤلفة من إحدى عشر شخصا والدي ووالدتي وعمتي والأولاد سبعة وسلطانة اللنجي التي كانت تساعد الوالدة في تربية الأولاد في ذلك الوقت.

١ "في يومنا هذا" - لم نستطع معرفة تاريخ كتابة هذا القسم من المذكرات وإن كانت الإشارة من الفحوى تبدو إلى بداية عهد الإنتداب

٢ "وقف الحال" - سائت الظروف

وكانت عادة والدي زيارة الحاج سليم أفندي في بيته وديوانه في الصباح وقد صادف بأنه تأخر عن هذه الزيارات وأخيرا اتفق أن زار الحاج في عصيرة نهار الأربعاء المعروفة بأربعة أيوب من أسبوع الآلام الأمر الذي جعل الحاج يلاحظ بأن الجوهرية في شيء من العوز .

إستقبله بأحسن استقبال وحلف عليه بأن يقضي ليلته عنده لأنه زهقان وهكذا بقي والدي يلاعبه الضاما . . ويبادله الأحاديث وعند الصباح قال له يا أبو خليل نريد الإنزواء هنا لنرتاح من غلبة الناس فبالله عليك لا ترفض بأن تقضي عندي اليوم وهذه الليلة وغدا الجمعة سترافقني بالعربة إلى باب العامود ، فأنت تروح إلى البيت وأنا سأصلي صلاة الجمعة في الحرم وهكذا كان . والوالد قلق الأفكار كيف لا وهو على وشك العيد ولم يأخذ شيء ولا يشتري شيء ما من طلبات الوالدة بمناسبة العيد السعيد .

قضى نهار الخميس وهو خميس الغسل وصباح جمعة الحزينة ورافق الحاج في عربته الخاصة (اللاندروفر) إلى باب العامود ولما غاب الحاج عنه بدلا من أن يذهب إلى دار الجوهرية توجه إلى حارة النصارى وبقي هناك مع الأصدقاء لغاية الساعة التاسعة مساء فدخل الدار وقابلته الوالدة باشة هاشة قائلة له : "والله هذا كثير يا أبو خليل ! ! فلماذا إشتريت كل هذه الدنيا ؟ "وأشارت بيدها إلى المؤونة الموضوعة في إحدى زوايا الإيوان وكانت قفة أرز ، تنكة سمن ، تنكة زيت ، قفة بن أخضر صغيره ، كيس طحين ، تنكة سيرج ، خمسة أرطال صابون ، مع خمسة أرطال من السكر الرأس . ثم ثلاثة أرطال سميد للمعمول ، مع العجوة والجوز . تبسم والدي وفهم بأن المرسل هو الشهم الحاج سليم أفندي وعندما دخل غرفة نومه وجد بدلة جوخ سوداء جديدة وفيها بجيبة الصدرية ثلاث ليرات عثماني ذهب وهكذا كانت الصداقة أفندم .

نبذة عن سياسة الحاج سليم الحسيني

حدثني والدي بأنه كثيرا كان يرافق المغفور له الحاج سليم الحسيني في تجولاته في قرى قضاء القدس وكان يعجب من تواضعه الغريب فعندما كان يجلس مثلا في قرية ما على الطعام (المنسف) لم يترك أحدا من أهل تلك القرية من رجالها وفقراءها وأولادها إلا وأمر أن يجلس ويتناول الطعام الكافي تحت نظره وكان هو في كثير من الأوقات يفت اللحم ويناول الفقراء إلى أن ينتهي من إشباع الجميع .

والجدير بالذكر بأنه رأى أفعى وهو على الطعام فسحقها برجله ووضع ركبته على الفراش والأفعى ميتة تحته بدون أن يشعر أحدا من أهالي القرية إلى أن أكمل فصل إشباع أصغر شخص في القرية وبعدها قال لهم قيموا هذه الأفعى الآن ، خوفا من إنزعاج البعض وهم يأكلون .

فهذه بعض من أعماله الطيبة والتي كانت سببا في حب الفلاح له وإحترامه له المتناهي فكانوا حتى وبعد وفاته لا يحلفون إلا برأس سيد البلاد الحاج سليم أفندي رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه .

مواصلة صداقة والدي مع أولاد المغفور له الحاج سليم حسيني

توسعت الصداقة والثقة المتبادلة ما بين والدي و أولاد الحاج سليم موسى كاظم باشا وحسين هاشم والحاج شريف زمن المغفور له الحاج سليم فكانوا وعلى الأخص حسين هاشم لا يعملون إلا بأفكاره بجميع ما يتعلق بشؤونهم الخاصة في المدينة وفي أملاكهم في القرى. كنت أنا وأخواتي وإخواني نقضي كل فصل الصيف غالبا في قرية ديرعمرو التابعة إلى حسين أفندي وقد امتلكها بمساعدة والدي حتى كنا نعتقد بكل تأكيد أنها خاصة ملكا لوالدي لما كان عليه من حرية في التصرف بكل ما يمت في دير عمرو بصلة. وإني أذكر نبذة عن هذه الخربة لتبين للقارئ مدى الأخوة الصادقة ما بين والدي وحسين أفندي.

كان والدي كما سبق وقلت في مستهل كتابي هذا محاميا في صباه وقد امتاز بصفته مسيحيا محاميا لدى المحاكم الشرعية في القدس للمسلمين[1] وله مواقف طريفة في هذا الموضوع عندما كانت المحاكم المدنية مفقودة في ذلك الوقت، وكان زميلا له الشيخ أسعد الشقيري من عكا إلا أنه كان يزاحمه في أشغاله وقد صادف بأن الشيخ أسعد الشقيري زار الإستانة وحصل على وظيفة قاض شرعي للمحكمة الشرعية بالقدس وهكذا أرسل هذه البرقية باسم والدي يقول فيها : "جريس أفندي الجوهرية–القدس، تعينت قاضيا للقدس. حمد"

إضطر والدي أن يترك القدس وكانت حالته المادية في بحبوحة فذهب إلى خربة دير عمرو وكانت خربة في كل ما في هذه الكلمة من معنى فرفع غرفتين فوق زاوية قريبة على القسم العالي من قمة الجبل، وزرع الأشجار حولها وقد وجد ما يقرب من إحدى عشر بئرا محفورة بالصخر ربما تكون رومانية فنظمها ونظفها حتى أصبحت ملآنة بالماء. ثم اكتشف في قعر الواد الواقع من الجهة الجنوبية من الدار (خبص من الماء) وعليها قليلا من النحل وهكذا أخذ بعض معلمين البناء من [ابناء] طائفة الروم [تحديداً] يعقوب وسليم وقسطندي فاشة ونجح بوجود مياه ليست قليلة تنقط من سقف مغارة فجمع المياه بواسطة قناة مفتوحة داخل المغارة وهو منظر في منتهى الجمال ثم أخرج المياه إلى خارج هذه المغارة بواسطة ماسورة تصب في بركة من الحجر الأحمر المسمسم بمساحة خمسة أمتار بخمسة ولها سلم حجري للنزول إلى قاعها عند اللزوم فكنا نجلس حول هذه البركة فرحين والجبال الشاهقة المحيطة بنا، ومن هذه البركة تتسرب المياه للبساتين والجناين الكائنة من الجهة الشرقية لها بمنحدر طبيعي بواسطة أربعة مفاتيح، وقد أنشأ غرفة خاصة للمسؤول عن هذه البساتين وكان اسمه خليل الياسيني من قرية دير ياسين وإخوانه كما سيجيء البحث عن نكاته الطريفة، وسميت هذه المياه "بالعين الجديدة" وله طريقين الواحدة كما يقولون "مقربنة" قريبة للدار ولكنها صعبة ووعرة والأخرى سهلة وطويلة تمر عن خربة الصفير من الجهة الشرقية لخربة ديرعمرو. ثم زرع كرما من العنب المختلف الأنواع على قمة الجبل غربي الدار وعمل مصطبة خاصة خلف الدار كان يجلس عليها مع حسين أفندي ويشربا الأركيلة في الصباح الباكر في أيام الصيف. أما الديوان المعد للقضاء عندما كان يحضر حسين أفندي من القدس مخصصة

[1] يبدو أن المقصود أن والد واصف كان يمثل المسيحيين في الشؤون التي تمت إلى المحاكم الشرعية بصلة.

الصورتان من ألبوم رقم واحد من المجموعة الجوهرية وتظهر فيهما الدار القديمة في خربة دير عمرو وهي من أملاك حسين سليم الحسيني. المصور غير معروف والتاريخ بالغالب يعود للمرحلة الانتدابية.





بجانب مقام ولي المدعو الساعي عمرو[1] بجانب شجرة خروب قديمة كبيرة عظيمة فكان والدي المساعد القضائي في شؤون مشاكل الفلاح الذي كان يفضل حل مشاكله عن المحاكم في الحكومة لما كان له ثقة بالسيد حسني هاشم أفندي الحسيني.

عمل [والدي و] بنى وأنشأ واكتشف كل هذه الأعمال وصاحب الملك حسين أفندي الموحى إليه متغيبا في باريس فرنسا وبدون أن يأخذ منه تفويضا ولا مال! ! وقد باغت حسين أفندي عندما رجع من فرنسا فأخذه والدي ولم يعرفه عن أي شيء عمله في خربة دير عمرو فتردد في بادي الأمر وقال يا أبو خليل. مالنا ومال دير عمرو الآن! نذهب لمحل منقطع خارب وخصوصا تأخذ مياه الشرب معنا من قرية صوبا؟ قال والدي لا قد أرسلت ماء هناك فبالله عليك لا ترفض طلبي، وأخيرا ذهبا وعندما وصلا قرية صوبا[2] نظر المرحوم حسين أفندي فرأى الدار المرتفعة فوق الجبل عن بعد وهكذا وصل واطلع على كل ما عمله الجوهرية فدهش وتعجب جدا من هذه الجرأة والعمل الجد وشكره. وهكذا بقي والدي في خربة ديرعمرو إلى أن حصل على عزل الشيخ أسعد الشقيري من وظيفة القاضي الشرعي بالقدس وذلك بنفوذ المغفور له الحاج سليم الحسيني وأولاده الكرام فرجع القدس مرفوع الرأس بين معارفه في المحاكم.

أما أراضي خربة ديرعمرو فهي مجموعة من القرى التي تحيط بها وهي: خربة العمور، بيت نقوبة، صوبا، خربة اللوز، مطاف، وخربة الميس وربما كسلا. وكانت غالبية أهل هذه القرى تزرع اراضي ديرعمرو وبقي هذا الحال بعدما تملكها كاملا حسين أفندي فكان مقابل هذا يستوفي من المزارعين العشر[3] عن حاصلاتهم وذلك بواسطة والدي فكنا نقضي الليالي في ضي القمر على بيادر هذه الخربة بجانب الدار ومن ثم بيادر خربة الصفير التي تبين بأنها كانت بيادر رومانية. أما مساحة هذه القرية فتبلغ الأربعة آلاف دونما، وموقعها عال ومرتفع جدا وقد قال المستر ستابز مدير أراضي فلسطين زمن الإنتداب (لو أنني خيرت بشراء محل في فلسطين لفضلت شراء خربة ديرعمرو بأي ثمن كان) وهذه شهادة قيمة تظهر ما لهذه الخربة من موقع استراتيجي وجمال وروعة.

كما عندما نترك خربة ديرعمرو نذهب رأسا من هذه الخربة راكبين الحمير كل منا إناثا وذكورا وفي أحيان الجمل فإني أذكر مرة ركبت الجمل مع أختي عفيفة وكانت ماهرة في ركوب الجمل لوحدها فمررنا عن باب الويب، وكان جبل خربة الأكراد من ضمن أملاك خربة ديرعمرو وهو مغروسا بأشجار البلوط فأصبح غابة يتعذر دخولها في رابعة النهار خوفا من الوحوش البرية وإذا ما مررت عن قمة هذا الجبل من الجهة القبلية ترى منظرا جميلا لقطار الحديد الراجع من يافا والقدس والعكس بالعكس في الواد المعروف بوادي اسماعيل والجدير بالذكر بهذا الصدد أنك ترى كهف مرتفع وله ثغرة ضيقة تطل على السكة الحديدية وإنها تدعى بمغارة شمشوم الجبار وهي مغارة تاريخية. ثم عندما نترك باب الويب تكون خربة الميس وصاحبها من آل حمدان تلك العائلة الشهمة جارة خربة ديرعمرو المرضية ثم تنزل واد يدعى بواد عين العرب والحق يقال واد مقطوع مخيف وله روعة وفي وسطه عين ماء للشرب شربنا وأشربنا الحمير والجمال والخيل واسترحنا مع المرحومة الوالدة والوالد وإخواني وأخواتي وكنا وعلى الأخص الصبيان صغار. ثم تسلقنا

١ الولي - مقام شيخ أو قديس عاش في ريف فلسطين.

٢ صوبا: من قرى القدس الغربيه التي إحتلت عام ١٩٤٨ محيت عن الوجود بعد النكبه.

٣ العشر: ضريبة كان يفرضها العثمانيين على المحاصيل الزراعيه.



صورة لخليل رعد ويظهر فيها مشهد من قرية فلسطينية قد تكون خربة دير عمرو. من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت.

عقبة يتعذر للطير أن يسلكها حتى وصلنا قمة الجبل وبجانبنا قرية كسلا، ثم مراح البصل وعسلين ومررنا بجانب قرية صرعا وأخيرا دخلنا قرية بيت سوسين ملك المغفور له الحاج سليم وكانت هذه القرية تزرع فيها أهالي قرية بيت محسير وساريس وغيرها فكانوا يدفعون لعائلة الحسيني العشر بواسطة موظف مسؤول معين من الحاج سليم واسمه غنطوس من أهالي يافا وإني أذكر تلك الأوقات الجميلة وخصوصا ليالي القمر على بيادر بيت سوسين عندما تكون الصليبة أي الناتج من محصولات القمح والشعير والدرة وغيره أكداسا كالجبال على البيادر وكنا نقضي السهرة وعندما يكون الطقس حارا ننام على الفراش المطروحة على القش والتبن فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها ! آه.

إقتنائي لأول آلة موسيقية محترمة تدعى الطنبورة

رغبت أن أعطي القارئ الكريم صورة مختصرة عن العلاقة المتينة التي كانت ما بين والدي وبين الأسرة الحسينية والتي بواسطتها كان لي ولإخواني الحظ الوافر في اللجوء إلى القرى العائدة لهذه الأسرة والتي كنا نتمتع بخيرها وبالإصطياف فيها طيلة مدة فصل الصيف من كل سنة ونستعمل العمارات ونأكل الخيرات إن كانت من الأشجار أو الكروم أو البساتين أو البيارات وحتى مؤونة الحنطة التي كانت تنتج من هذه المحلات حتى كنا نتخايل بأننا نحن المالكين والمتصرفين فجميع الخدم والمزارعين يحترموننا وإني أذكر بأنني عندما كنت ربما وعمري لن يتجاوز العشر سنين كان مختار قرية ساريس واسمه الشيخ سليم ذو ذقن طويلة وكبير في السن يقبل يدي ويقول لي سيدي الأفندي.

ولما كان لي ولعا خاصا بالغناء والموسيقى ابتكرت آلة من علبة صبغة البيض التي نوهت عنها اصطحبت هذه الآلة معي إلى قرية بيت سوسين وكنت أنقر أوتارها المشدودة بدون دوزان نقرا غير أصولي وكان حاجا مغربيا واسمه الحاج محمد معين من قبل الحاج سليم الحسيني حارسا وناطورا يشرف على ناتج القرية من حبوب محافظة على حصة سيده الحاج سليم من السرقة وتلاعب المزارعين، وكان هذا الحاج ينام دائما تحت حائط الدار المعروفة بدار الحاج سليم أفندي وبالطبع كنا نحن نشغل هذه الدار.

وعندما رأى الحاج محمد "آلتي التنكية" أعجبني وتحمس وقال لي (هذه لا تسوى يا واصف وكان عمري حوال السبع سنين) جيب لي (يقطينة) ناشفة من أبو سالم البيارجي فأنا أعمل لك طنبورة عظيمة كما هي العادة عندنا أهل المغرب. فطربت وشكرته وفي الحال نزلت البيارة وأحضرت (يقطينة) ربما كان طولها ١٨ سنتمتر تقريبا مستطيلة وسلمته إياها فأخذ الموس المربوط على وسطه وشطرها لقسمين وأخذ قسما منها ونظفه ومسحه جيدا ثم جاء بقطعة خشب قاسية وبواسطة الموس نجرها وقسمها فأصبحت كما العصا إنما معكوفة من الرأس الأعلى ومبسوطة في القسم الذي كان يجب أن يرتكز على القرعة ذاتها.

فوضعها كنت أنا بجانبه كل ساعات العمل. ثم قال أنه يرغب بقطعة جلد من جلد جدي أو خاروف فامتثلت لأمره وأحضرت له ذلك وكان صدفة مدبوحا في ذلك اليوم لنا فجاء الحاج محمد وقص قطعة مناسبة من هذا الجلد بعدما

نحت عنها الشعر ثم وضعها على الفجوة المفتوحة من القرعة وابتدأ يلصق أطرافها بطريقة فنية حول القرعة إلى أن تسكرت الفجوة وأصبح لها صدرا محترما . ثم جاء بقطعة من الخشب القاسي وعمل ما يسمونه بجحش وبعدما نشفت الجلدة ركب وترين وربط طرفهما الأخير بالقطعة الخشبية الأخيرة والطرف الثاني بالمفاتيح اللذين كانا من صنع الموس فقط . ثم رفع الوترين على الجحش وحملت هذه العملية ربما أكثر من أسبوع وكنت دائما عنده أتمعن بشوق وأنتظر إنهاء هذه الآلة العجيبة من صنعه . وعندما بدأ يعزف عليها جن جنوني طربا وفرحا وأعتقد بأنه قدير في فن الموسيقى وكان يعزف بمهارة فائقة إنما كان يعزف قطعا موسيقية ذات ألحان مغربية بعيدة عن ذوقي المقدسي .

سلمني هذه الآلة وبدأ يشرح لي طريقة وضعي الأصابع على الوتر فإذا ما وضعت الإصبع الثاني مثلا يرتفع اللحن درجة ثم طريقة النقر على الوتر أرغمني على عدم قص ظفر إصبعي (الشاهد) من اليد اليمنى والعزف على الأوتار بواسطة الظفر وليس بريشة أو غيره .

إحتفظت بهذه الآلة وكبرت نفسي وكأن معي رأس كليب ! ! أخذت منه الطريقة بالعزف وخصوصا دوزان الوتر الأول والثاني وابتدأت أطبق عليها من محفوظاتي المقدسية مثل "ع الروزنة" وعلى "واخ مشعل" وغيره وأصبحت عازفا ماهرا لمثل هذه الطقاطيق فأعجب الحاج محمد المغربي عندما سمع مني هذه المقطوعات وكنت أنا بالنظر لخدمته لي أقدم له ما هب ودب من أكل وفاكهة وحلوى عندما أحصل على شيء ما فلا أتوقف عن إكرامه مطلقا والفضل في هذا يرجع برضه إلى المرحوم والدي الذي كان يشجعني على ذلك .

وفي فصل الصيف ورجعت القدس ومعي الطنبورة (بعدما هجرت الأولى التنكية وتركتها وشأنها في بيت سوسين) وأطلعت عليها أولا أولاد الجيران فكنت أعزف وأغني الأغنية وأنا ماشي والأولاد من خلفي يرددون الترديدة في قاع الدار والدهليز وفي الساحات السماوية من دار الجوهرية المعهودة . وعند المساء أعيد الحفلة لمن كان يزورنا من الجيران والضيوف الكبار وفي مرات كثيرة كانت والدتي وأخواتي يأخذونني عندما كانوا يزورون الجيران المسلمين ليلا في ليالي رمضان أمثال دار الداودي والصالحاني وقطينة وغيرهم فحمدت الباري عز وجل على تحقق أحلامي فصار عندي آلة طرب ممتازة بالنسبة إلى عمري وتفهمي لفن الموسيقى وقد اشتريت علبة لوضع الدخان من الهنود وقدمتها هدية للحاج محمد المغربي عندما رجعنا في صيف السنة الثانية إلى بيت سوسين تقديرا مني على لطفه .

تعلمي الأهازيج والدبكة وأغاني الفلاحين الشعبية

كنت والحالة طموحا لا أرضى بالبقاء على المعلومات التي حصلت عليها في الموسيقى ولا الوقوف للحد الذي وصلت إليه في هذا الفن ونظرا لوجود المجال الواسع أمامي وأنا وعائلتي نتمتع بجمال الطبيعة بين أهل القرى في الجهتين الجبلية والساحلية منها ولكثرة حضوري أهازيج واحتفالات أهلها وأفراحها ولسمعي غناء الرعاة وهم خلف قطيع الغنم والبقر يلعبون الناي والأرغول والجوز ويرقصون الدبكة بدأت أتعلم ما يلفت نظري ويطرب سمعي من ألحانهم الشعبية

فتعلمت من راعي غنم حسين أفندي في ديرعمرو المدعو العبد وصديقه علي المعروف آنذاك بإبن يامنة الساريسية وكذلك من واحد مشهور ديب بن أحمد مصلح ربما من قرية كسلا أو ساريس القطع الآتية :

دكدوكة يا دكدوكة   يا ام اللحية المدقوقة دكدوكة يا بنت العم   على فراقك نهكل

حطوا محمض للراعي   وريته سم ما يذوق لو حطوني بحبس الدم   لازم خدك ما أذوق

دور   دور

دكدوكة وقت ماني   ع الفرقة يا خلاني دكدوكة يا بنت الخال   على فراقك أنضى الحال

والله لأركب حيصاني   والحق راعي دقدوقة لو أعطوني ألف ريال   ما فتك يا دكدوك

دور   دور

وقد وجدت عدا عن هؤلاء الأشخاص في ديرعمرو رجل يدعى صالح الشعراوي طويل القامة وبدني الجسم حاد العينين وجميل الوجه وفارس في ركوب الخيل وكان مشهورا آنذاك في الدبكة كما حضرته في الأفراح . فكنت وأنا صغير لعندما أصبحت شابا أرقص عليها في القدس بين العائلة والأصدقاء وكانت تلفت أنظار كل من سمعها ورآها في القدس . وأذكر مرة أنه عندما جاءت مرة ثانية جوقة أولاد أبو السباع في ليلة من ليالي والدي المرحوم في دار الجوهرية سمح لي والدي برقص وغناء دكدوكة وكانت الجوقة الذكورة تعزف ألحانها الصحيحة على الكمان والعود والقانون بمصاحبة الرق فسر الحضور وخصوصا الجوقة ذاتها وأعجبوا مني أيما إعجاب .
وبعد هذه الأغنية تعلمت غناء ودبكة أغاني أخرى أذكر منها ما يلي :

يابو جديلة منشورة   علمشيك دلال وغندرة

بليتني عجبتك   ماليش عليها مغروزة

دور

بليتني عجبيك   رب السماء يشبتك

بازين والبس جبتك   دير العصابة للوراء

ثم

اسمعوا يا ناس وايش قال الخطيب   في بلدنا حللوا ذبح الغريب

وطبعا كل من هذه الأغاني لها دبكة خاصة وقد صادف حفلة فرح في بيت سوسين فجعلني معلمي صالح الشعراوي الماهر كما قلت في فن الدبكة وإنشاد الأهازيج أن أترأس حلقة الدبكة في العرس حاملا محرمة كبيرة ويسمونه "اللواح" فعندما أنقل حركة برجلي حسب الطريقة لتلك الأغنية تكون بمثابة مثال لكل واحد في حلقة الدبكة فيعمل مثلي وكان عمري بين الثمان والعشر سنين.[1]

واني أحتفظ بسجل خاص لمخطوطاتي بخط يدي بجمع جميع الأغاني المماثلة. مثل دلعونة، يا غزيل، وآخ مشعل، عالميجنة وغيرها من هذه الأغاني الجميلة. واني أذكر في هذا الصدد أن إبنة أختي ايلين بنت شفيقة كنت عندما أزور والدتها في بيت جالا وأنا صغير يسألونها "أبي خالك أجا؟" فكانت تشير بخبط رجلها على الأرض وتقول هاً هاً هاً وتعني بأن خالها الذي يدبك أبي صاحب هذا الكتاب.[2]

برسفون خليلة حسين هاشم الحسيني

مضى زمن في البلاد وخصوصا في القدس كانت العادة المتبعة لأولاد الذوات من وجهاء الأسر المعروفة بالقدس الحسيني والخالدي والنشاشيبي وغيرهم أن يتخذ الواحد منهم خليلة لنفسه فيفتح لها بيتا خاصا لها ويقضي معها أوقاته فكان راغب بك النشاشيبي يحتفظ بخليلة يهودية وكان حسين أفندي يحتفظ بواحدة [بخليلة] يونانية من ألبانيا على جانب عظيم من الجمال والرقة تدعى برسفون وكانت معروفة لدى الأوساط المقدسية وكانت بالنظر إلى قوامها الفتان وجمالها الباهر وأناقتها في اللباس فإذا نزلت لزيارة القيامة تقول الناس بأنها (نزل البطرك) وقد أحضرها من استانبول ومكثت معه لمدة أكثر من سبعة عشر سنة. وقد تعلمت اللغة العربية ومنحها الحرية المطلقة في التجول وقضاء فصول الصيف في بيت سوسين وخصوصا في ديرعمرو. وقد كانت تعمل أشغالا يعجز القلم عن وصفها في هاتين القريتين فاشتغلت بتقطير السعتر [أي الزعتر] البري بواسطة ماكينة وميزان خاص وكانت تبيع زيت السعتر بأسعار عالية للروس الذين كانوا يأتون القدس ويزورون الأماكن المقدسة بعدد كبير في كل سنة، ثم عملت في زراعة الحبوب بالشراكة مع حسين أفندي وخليل بك الداودي وفؤاد بك بن موسى كاظم باشا وغيرهم وكان لها قطيع من الغنم الأبيض والأسود والأبقار والدجاج والحمام وغيره فكانت تعيش وكأنها ملكة لما كان يتمتع حسين أفندي به من نفوذ قوي عند أهالي القرى الذين كانوا يطيعون أوامرها وينفذونها بحذافيرها في بيت سوسين وديرعمرو. وقد تأخر بالفعل حسين أفندي عن زواجه بامرأة شرعية لوجود برسفون حتى عيل صبر والدي فعمل جهده وأصر على زواج حسين أفندي من صاحبة الصون والعفاف فاطمة كريمة محمد طاهر الخالدي فأنجبت منه أربعة أولاد.

كنت أنا بوجه خاص أرافق من صغري هذه السيدة في القدس وبيت سوسين وديرعمرو فكانت تحبني جدا وكانت على صلة مع والدي وعائلتي بل عمدت أخي فخري، وكانت تسهل لي ما أبتغي من الزيادة في علم الأغاني والدبكة من الأشخاص اللذين يأتمرون بأوامرها. وقد تزوج حسين أفندي عندما كان رئيسا لبلدية القدس وعمل شهر العسل

[1] أحيانا يبدو أن هناك عدم دقة في تحديد العمر التقريبي وهذا بالتأكيد راجع لأن المذكرات كتبت بعد الحدث بزمن طويل. فواصف قد ذكر سابقا أنه تعلم الموسيقى وهو في العاشرة ثم ذكر أيضا أنه قد صنع أول آلة موسيقية وهو تسعة أعوام.

[2] سجل الاغاني المشار اليه لدى عائلة المؤلف وقد لاحظنا انه يحتوي ليس فقط على كلمات الأغاني بل على نوتة موسيقية خاصة أيضاً إبتدعها واصف ليدون بها الألحان.

في بناية الألمان المعروفة بالأوغستا فكتوريا "أم الطلع"[1] جبل الطور بالقدس بدعوة من دولة ألمانيا . وكنت أعزف لها الأغاني على الطنبورة دائما أبدا في جولاتها ما بين بيت سوسين وديرعمرو وسأخصص نبذة عنها وعن نهايتها الأخيرة في فصل آخر من كتابي هذا .

[1] هكذا في الأصل - وهو المعروف اليوم بالمطلع.

تعليمي العزف على الربابة

وقد صادف أن أحد المزارعين من أهل عين كارم على ما أظن كان يزرع في أراضي ديرعمرو وقد لاحظت بأنه يحسن العزف على الربابة وكان إسمه "أبو صندوقة" مشهور في ذلك الوقت فجئت إلى برسفون وعرضت عليها فكرة تعليمي منه فلم ترفض طلبي وبالحال جاءت بهذا الرجل واتفقنا على أخذ دروس خاصة واشترت لي بالفعل ربابة أظن كانت من صنع يده أيضا بثمانية عشر غرشا تركيا فصار يعلمني الربابة وأنا أجتهد حتى فزت بالعلم وكان عندما يحضر حسين أفندي يسر جدا من عزفي عليها وإني أذكر أنه كثير ما كان يحمل بيديه الطعام ثم البطيخة ويقدمهم إلى المعلم أبو صندوقة ليعتني بعلمي وهكذا بمدة ثلاثة شهور أصبحت بإمكاني العزف على الربابة جميع ما كنت أحفظه من الأغاني الشعبية الفلاحية مثل "دكدوكة" ، واسمعوا يا ناس وايش قال الليب ، يا أبو جديلة منثورة ، على وآخ مشعل ، ع الميجنا ، على دلعونة وغيرها وقد رجعت سنة ١٩٠٦ ومعي الطنبورة والربابة إلى القدس وهات يا سهر وعزف عند الجيران وخصوصا في سهرات عائلة متري عبدالله المنى المشهورة فصرت أتنقل بفن الموسيقى من عزف وغناء على الطنبورة ومن ثم على الربابة وبعدها أدبك أمام المعارف والأهل والأصدقاء وأنا بين الثامنة والتاسعة من عمري . وكان المرحوم والدي كما قلت سابقا يشجعني على ذلك فقد إشترى لي ذقن إصطناعية من الشعر الأسود مصنوعة بإتقان كنت ألبسها بسهولة على وجهي ولها سلكا خاصا مركزة قفا الأذنين وألعب الربابة بالألبسة العربية ولي مواقف هائلة في هذا الموضوع في كثير من البيوت ثم على المسارح المدرسية وغيرها .

قطعتين من أغاني الربابة سياسية المعنى

حدثني والدي قائلا : كان الشاعر المعروف في الشمال مختارا لقرية كفرعين من قضاء رام الله وقد تخاصمت هذه القرية بأهالي قرية أخرى مجاورة لها أعتقد بأن إسمها ديرغسانة ومختارها آنذاك يدعى صالح .[2] كان موقع هاتين القريتين مرتفع على قمم الجبال العالية وكانت الحكومة العثمانية في بلادنا آنذاك ضعيفة الشوكة والنفوذ ومسترة بنفوذ بعض أعيان مدينة القدس ليس إلا ، وهكذا كلما تذهب قوة من الجندرمة لجلب العصاة من كلا القريتين تضربهم الأهالي من أعلى الجبال بالحجارة ويضطروا يرجعون خائبين ، وأخيرا توصلت الدولة لمساعدة المرحوم بدر أفندي الخالدي الذي تآمر مع الدولة وأحضر العصاة بطريقة خبيثة خوفا من أن يفلت زمبرك الدولة عند الفلاحين . وعندما وصل الثائرين القدس

[2] هو والد عمر صالح البرغوثي الكاتب والمؤرخ ولاحقا الوزير في الحكومة الاردنية.

وسجنوا ألّف (المختار حليوة الكفرعيني) الشاعر المعروف الحادث بشعر طريف كان يغنيه على الربابة وقد أعطى نسخة منه إلى والدي بصفته صديقًا له وقال:[1]

يـا دولـة الغـز كلي وايـش بـدا بيتّش	بشـوف حـول في البلد يوزباشي
كـال لي تـفـضـل في المضـافـة نـاديـت	طالب أوادم ماهـوش طالب حواشي
كلت وحـدي؟ كـال صالـح يـاريتّش	واللي ما يروح راتشب تراه يروح ماشي
كلت مـا حـنـا وصـولـة صعاليك	صولة حكم ما حناش صيدة أوباشي
كـزى الخبر للقـدس واعـلـم بذلك	أجاني بيورولودي ملفكة بكماشي
فـيـها أمـان وراي لـكـل أهـاليـل	وبطيها أثـر المكـر والغشاشي
وركبنا بظهر العاديات السوابتّش	لحوض البيـرة وكلنا عطاشي
شـوب شـديد شفنا فيه المهاليتّش	شـوب شـديد وزاد عيني غباشي
وعـابـهـا الـذي معنا وتوريتّش	لا عاش ولـد السـوء فاني لا عاش
وصلنا ع الكـدس وكامـوا التدابيتّش	صولة حكم مثل هيل الطباشي
وأخذوناع السرايا وصفونا سلاميتّش	ومن بعد السلاميتّش كالوا هرش بوراشي
ونـزلـوا بنا على حبس المهاليتّش	لاعـنـا لحـف ولا بـو فـراشي
دولـة خـون عبـادة البشاليك	لا عاش ولـد السـوء فاني لا عاشي

وقد غنيت هذه القصيدة كثيرا وأنا أعزف على الربابة في المسارح وخصوصا في مسرح المطران الإنكليزية زمن تركيا بحضور سعادة متصرف القدس وقد حذرني والدي رحمه الله من القول (دولة خون عبادة البشالك) بل أشار علي بأن أقول (دولة عدل بتحب البشالك) وقد لاقت إقبالا عظيما واشتهرت بين أهل القدس.

[1] إنه من المعلوم كما قال والدي أن اللهجة للفظ حرف ال(ك) عند هذه القرى كانت تستعمل (تش) وعليه قد حافظت على قدر المستطاع بكتابة ذلك. ثم كتبت كثيراً كال لي (بدلاً عن قال لي) لعمة لهجة الفلاح . كلمة سلاميك بمعنى صف الجيش وتدريبه لدى الجيش التركي. ثم المعنى لهبل الطباشي هو "تكسير أواني الفخار المحمولة على ظهور الحمير تسير في زقاين غزة فتتكسر وتتطبش .

أما معنى عابها العرض: دلاله على مؤامرة المرحوم بدر أفندي الخالدي في الدولة وجلب الثائرين أو بالاحرى العُصاه كما يقولون بالغش . وأما عبادة البشاليك أي بمعنى عبادة المال والبشلك هو مجموع قطعة نقود في ذلك الزمن يساوي ثلاثة غروش تُرك وهو معروف لدى الناس.

ثم كلمة (كـزَى) أي أرمل (....لدي) بمعنى فرمان كان يوضع ضمن علم عثماني ويرسل رسمياً الى من له علاقة بالحوادث السياسية . زاد عيني غباش فقد كان حليدة الكفرة عيني المختار المنود عنه ف هذا الحادث ضعيف النظر "أعمص" وهو [ ] على من أنزله ورفيقه عند حوض البيره. ثم قاموا التدابيك أي أهل مدينة القدس استقبلوهم استقبلوا من (شخصين لا قيمة لهم) بالدبكة والاهازيج سعد وسعيد طريق رام الله [و.ج].

وأما القطعة الفنائية الثانية التي حفظتها من والدي فهي غزل وربما من زمن ابراهيم باشا

جاز قلبي في هوى الزينات جاز	يا سواد البخت كيف إصباغ الجاز
يا سواد البخت كيف صباغ النيل	ما خمنت الدهر على غيري يميل
يا بو عيون السود أنا بعرضك دخيل	بس ليلة ضمني بين البجاز
بس ليلة ضمني بين النهود	يا سميح الوجه يا بوعيون السود
كبكب الشنبر وبينوا النهود	شت عقلي قلت بلور وقزاز
شت عقلي قلت بلور ومري	والظاهر إنك علي مفتري
لأروح أنا وياك عند الشوملي	والحق ابراهيم باشا ع الحجاز
والحق ابراهيم باشا واشتكي	ياللي قمار خده لون [الوندكي]

ومع الأسف ذاكرتي خانتني فلم أذكر منها أكثر من هذه الأبيات وهي بمعنى رقيق في الشعر الساذج الطبيعي الإرتجالي من شعراء أميين. ومن هذه النماذج يرى القاري ما كان والدي رحمه الله هاو في ضروب الفنون الشعر والموسيقى والرسم وغيره والذي ورثنا منها القليل من كثير فأخذ أخي توفيق الفن أي فن الرسم والتصوير من والده كما سيجيء البحث عنه في مكان آخر من هذا الكتاب.

الدبكة المخصي في رام الله

ساعدني الحظ بالتعرف شخصية لامعة في العزف والقول على الرباب وهو جمعة الشاعر ناصر من أهالي بيت جالا وذلك بواسطة الأخت شفيقة عندما سكنت هذه البلد مدة طويلة في العهد العثماني، على ما أعتقد كان جمعة المومى إليه إشبينا [أي عراب] لإحدى أولادها وجارا مرضيا لبيت سكنها وصاحب ملك عظيم هناك بجوار عمارة المسكوبية "للروس".

وقد حدثني بأن هذه القطعة الغنائية للناقد المشهور الشاعر الياس من قضاء بيت لحم حقيقية وجرت له عندما زار الشمال وعلى الأخص رام الله إذ قال:

خطـــــر في بـــالي عـــن أدور شـــامـة | عــلـى رام الله وهــادريــّـش الـبــــلاد
وصـــــلـت رام الله عـصـير الماسـي | والا هـالـــدريـّـش بـيـزعـق وبـيـصـاحـي
بيزعق وبيقّول بعرضك يا شاعر الياس | إحمـيـــني مــن حــــــــد المــواســي

ورحـــنــا يـــا جماعــــــة ع المـضـافـة | وجـــابــوا الحنــــــايب والـبـــواطـي
وجـــابــوا الدريـّـش في وســــط الخـادم | وقــالـوا عنـــه مخـصـي مــن الخـاصـي

مـديـت إيــدي بلقمة تشـن طلعت ملانة | وتــانـي هـــواي تـشـــن طلعت خساسي
وثالث هـواي فت واسبح يا شاعر الياس | مـثـل الأعـيـــــاد في أيـــام الـغـطـاسـي

وأنـــا داعـــي ع أهـــل رام الله كلهم | أكــثــرهــم مـــا يمـــوت إلا بـلـمّـواسي
حـريـقــين والــــــدين أكـالـين قطين | وأكـبــــــر طـبـزيـة لهم في مـداسـي[1]

أبدعت في غناء هذه القصيدة مرارا وتكرارا وفي جملة مسارح بالقدس. والجدير بالذكر أنني غنيتها مرة في مدرسة المطران الإنكليزية وكان المرحوم الأديب بولس شحادة صاحب جريدة مرآة الشرق فاعترض وعربد لأنه من رام الله ولكن علم بعدما أزيلت ذقني بأن المغني هو تلميذ صغير وقبلني بعد الحفلة. وقد صادف تأخير والدي مرة وإذ حضر ومعه بعض الأصدقاء إلى بيتنا في دار الجوهرية أذكر من أصدقائه مصطفى [الجبشة] ومصطفى الموقت (السرية) وابراهيم فيضي العلمي وقد أقامني من النوم وألبسني اللحية المصطنعة بعدما عرف أصدقائه بأن عنده شاعر فلاح وله دعوى بالقدس فدخلت وألقيت على مسمعهم هذه القصيدة فطربوا وكانوا على جانب من الإنبساط وأخيرا جاء والدي وأزال اللحية فصاح جارنا أبو عبد الجبشة "ولك ! ! هذا واصف."
وأخيرا حفظت من الشيخ جمعة الشاعر أغنية درزية طريفة من معنى ومغنى وكنت ألقيها بذات اللهجة الدرزية فتجد حبا وقبولا من مستمعيها وأستعمل عند العزف والغناء اللفة الملتوية الكبيرة فوق رأسي بعدما أضع اللحية المصطنعة وهذه هي المقطوعة:

[1] ملاحظة: أستعمل لفظ القاف دائما (ك) ثم حرف الكاف (تش) لإظهار لهجة الفلاح. معنى المخادم أي البواطي الصغيرة الحجم. مخصي أي الخروف المسمن، أعياد الغطاس يتهكم هنا الشاعر بمعنى أن أعياد المسيحية في الغطاس لا يكون فيه شيء دسم بل تكون دائما في الزيت والسيرج وفي نظره أن هذه ليست تدعى بالأعياد المحترمة. [و.ج.]

في حكم السبع سلاطين "ايه ايه"	ما في مثل أم بشارة "ايه ايه"
بقت تحرث على جحشين ايه ايه	صارت تحرث على حمارة ايه ايه

دور

شخشبرك جاي من الشام ايه ايه	كان عند القاطرجي ايه ايه
يوم تحله وتيجي تنام ايه ايه	قدم كان بتسترجي ايه ايه

دور

شخشبرك يا أم الشخاشير ايه ايه	كان صغير وصار كبير ايه ايه
كان يجر العربانات ايه ايه	وصار يجر البوابير ايه ايه

وقد توفق والدي رحمه الله فاشترى لي ربابة المعروفة بالربابة الهندية كان يعزف صاحبها عليها وهو كردي الأصل ويجمع البعض القروش من المستمعين في الشوارع وهي مصنوعة بدقة فائقة من حبة جوز الهند وصدرها من الجلد ولها (وترين) من الشعر أيضا في غاية من الذوق. اشتراها بمبلغ بشلكين أي "ستة غروش" تصور.
والجدير بالذكر في هذه الصدد أنه عندما كنت في حاجة إلى الشعر أذهب وأخي توفيق ونتجول بين خيل عربات القدس- بيت لحم التي كانت تقف عادة باب الخليل لسريان بيت لحم وتعرف بعربات البوسطة ونجيء بخفة وبدون معرفة العربجي ونقف خلف الحصان ونتمكن من قبض ديلة (وننتش) ما نستطيع نتشة من الشعرات.

لعبة السيف والترس

كنت كما بينت سابقا بأن توفيق يكبرني حول السنتين من عمري إنما كنا متناسبين في الطول ولم يستطع أحدا من الغرباء[1] أن يعرف من هو الأكبر سنا منا نحن الإثنين. وكنا نرافق والدي في احتفال سبت النور ونشاهد لعب السيف والترس بعد فيض النور على أسطحة دير الروم أمثال مرّي قسطندي المنى وسابا الحرامي وخليل الحكيم ونخلة الهشة المبدع في هذا الفن وخصوصا الزائرين لبيت المقدس بمناسبة العيد المجيد من أهالي مدينة حلب الأرثوذكسي فكانوا يجيدون هذه الفروسية بألبستهم الشعبية العربية الأنيقة، وكنا أنا وتوفيق نقلد هذه الفروسية أحيانا في دار الجوهرية الأمر الذي لفت نظر والدي المتفاني لجميع ضروب الفن وهكذا ساعدنا وعمل لكل واحد منا أنا وتوفيق سيفا من الخشب القوي متقن الصنع، ثم ترسا من الزينكو ولونه باللون الأسود وكان لون السيف القبضة سوداء والسيف أحمر فاتح ثم عمل لكل منا سروالا أبيضا وله زنارا خاص ودمير من الساتان الأسود ولبده للرأس. وقد علمنا أصول هذه

[1] الغرباء: المقصود الحجاج الأرمن من أرمينا وتركيا غير المحليين.

في حكم السبع سلاطين "إيه إيه" ما في مثل أم بشارة "إيه إيه"

بقت تحرث على جحشين إيه إيه صارت تحرث على حمارة إيه إيه

دور

شخشيرك جاي من الشام إيه إيه كان عند القاطرجي إيه إيه

يوم تحله وتيجي تنام إيه إيه قدم كان بتستحرجي إيه إيه

دور

شخشيرك يا أم الشخاشير إيه إيه كان صغير وصار كبير إيه إيه

كان بجر العربانات إيه إيه وصار بجر البوابير إيه إيه

وقد توفق والدي رحمه الله فاشترى لي ربابة المعروفة بالربابة الهندية كان يعزف صاحبها عليها وهو كردي الأصل ويجمع البعض القروش من المستمعين في الشوارع وهي مصنوعة بدقة فائقة من حبة جوز الهند وصدرها من الجلد ولها (وترين) من الشعر أيضا في غاية من الذوق. اشتراها بمبلغ بشلكين أي "ستة غروش" تصور.

والجدير بالذكر في هذه الصدد أنه عندما كنت في حاجة إلى الشعر أذهب وأخي توفيق ونتجول بين خيل عربات القدس- بيت لحم التي كانت تقف عادة بباب الخليل لسريان بيت لحم وتعرف بعربات البوسطة ونجيء بخفة وبدون معرفة العربجي ونقف خلف الحصان ونتمكن من قبض ديلة (وننتش) ما نستطيع نتشة من الشعرات.

لعبة السيف والترس

كنت كما بينت سابقا بأن توفيق يكبرني حول السنتين من عمري إنما كنا متساوين في الطول ولم يستطع أحدا من الغرباء[1] أن يعرف من هو الأكبر سنا منا نحن الإثنين. وكنا نرافق والدي في احتفال سبت النور ونشاهد لعب السيف والترس بعد فيض النور على أسطحة دير الروم أمثال متري قسطندي المنى وسابا الحرامي وخليل الحكيم ونخلة الهشة المبدع في هذا الفن وخصوصا الزائرين لبيت المقدس بمناسبة العيد المجيد من أهالي مدينة حلب الأرثوذكسي فكانوا يجيدون هذه الفروسية بألبستهم الشعبية العربية الأنيقة، وكنا أنا وتوفيق نقلد هذه الفروسية أحيانا في دار الجوهرية الأمر الذي لفت نظر والدي المتفاني لجميع ضروب الفن وهكذا ساعدنا وعمل لكل واحد منا أنا وتوفيق سيفا من الخشب القوي متقن الصنع، ثم ترسا من الزينكو ولونه باللون الأسود وكان لون السيف القبضة سوداء والسيف أحمر فاتح ثم عمل لكل منا سروالا أبيضا وله زنارا خاص ودمير من الساتان الأسود ولبده للرأس. وقد علمنا أصول هذه

[1] الغرباء: المقصود الحجاج الأرمن من أرمينا وتركيا غير المحليين.

الفروسية بقدر المستطاع وكان والحق يقال يجيدها رغما عن كبر سنة ، وكان عندما يزوره الأصدقاء يأمرنا فنلبس في الحال اللباس الخاص ونلعب أمام الضيوف . فكان يعجب ويفرح ولكن بدون أن يظهر لنا ذلك خوفا من أن يصيبنا الغرور ويصبح ما تعلمناه منه اصطناعيا وليس طبيعيا على حد قوله .

وفاة المغفور له الحاج سليم أفندي الحسيني واستمرار الصداقة والمحبة بإبنه من بعده

عندما توفي علم البلاد المغفور له الحاج سليم أفندي الحسيني ودفن في مقره الأخير سنة ١٣٢٢هـ [وهي حوالي ١٩٠٣م] في مقبرة بئر الكلب في محلة الشيخ جراح بجوار قولونية الأميركان،[١] كنت أنا في خربة ديرعمرو وبعدها شعرت بما أصاب والدي وخصوصا حسين أفندي من أسى ولوعة على هذا المصاب الجلل وإني أذكر كان اجتمع والدي بحسين بعد مدة وجيزة من العزاء وتبادلا المحبة فكان حسين أفندي يطيب خاطر والدي قائلا "لا تفكر يا أبا خليل فأنت بمقام والدي ولن أنساك ما دمت حيا ولي منك ثقة عمياء أرجو أن تعتمد بأني أخيك الأصغر وتعتبر نفسك وكأنك مع الحاج سليم وأكثر في جميع شؤوني الخاصة والله على ما أقوله شهيد ."

عندئذ شكره والدي وقد كنت ألاحظ في جلساتهم بأن والدي كان دائما يلفت نظر حسين أفندي على حبه لي وثقته بي يثني على أمانتي دون أخوتي حتى ظهر لي جليا عطف حسين أفندي علّي دون إخوتي فيما بعد وكما سيجيء البحث عن هذا الموضوع في كثير من ذكرياتي في الصفحات الآتية من هذا الكتاب .

[١] القولونية الامريكية : من قصور آل الحسيني في القدس انتقلت ملكيتها قبل الحرب العالمية الأولى الى مجموعة من المرسلين السويديين الامريكان، وتحول استعمالها من مقر للأرساليين الى مشفى ثم اصبحت فندق في الستينات من القرن العشرين .

محلة باب العامود في زمن تركيا[٢]

أحب أن أبين للقاري صورة مصغرة عن محلة باب العامود عندما كنت أنا وإخواني نتجول ونمر منها للذهاب إلى بيتنا في محلة السعدية ، وكانت والحق يقال مثالا في المحبة والأخوة والمعاملة مع بعضنا البعض فهناك اللحام والفران وبائع الخضار والألبان والسمانة اللذين كان والدي يعاملهم في حياتنا :

إذا ما دخلت باب العامود تجد من على يسارك نقطة البوليس بجانب الشيخ لولو وخدامته لعائلة دار وهبة ، وكان هناك أبو عامر محمود الشاويش رجل كما يقولون درويش على بركة الله معروف لدى جميع سكان ذلك الحي . ثم القهوة لعلي زحيمان أبو زهدي ، ثم طاحونة محمد السباسي تحت الأرض وبعد المصبنة واستعملت فيما بعد قهوة لخليل نجم وكان يشتغل فيها أولاد فصل كركوز ومن ثم تغيرت إلى دكان في يد ابراهيم الخطيب العاصي . وقبل هذه المصبنة كانت قهوة صغيرة عارف زعترة أبو توفيق وأخيرا دكان صغيرة لبيع الدخان والتفرشة بيد جمعة السمان الساكن آنذاك بجانب قهوة مفيبو وبعدها استعمل هذه الدكان الصغيرة فائز العلمي . وعندما تترك الزقاق المؤدي إلى حارة السعدية تجد دكان السمانة لمصطفى عبد [الجبشة] وبجانبه قهوة لأحمد السمان الملقب بأبي جمعة واستعملها فيما بعد أبو كامل قليبو .

[٢] باب العمود هو أحد ابواب البلدة القديمة بالقدس ويعرف أيضاً بأسم باب دمشق أو بباب نابلس كونه يشكل المدخل الرئيسي للمدينة للقادمين من إتجاه الشمال.

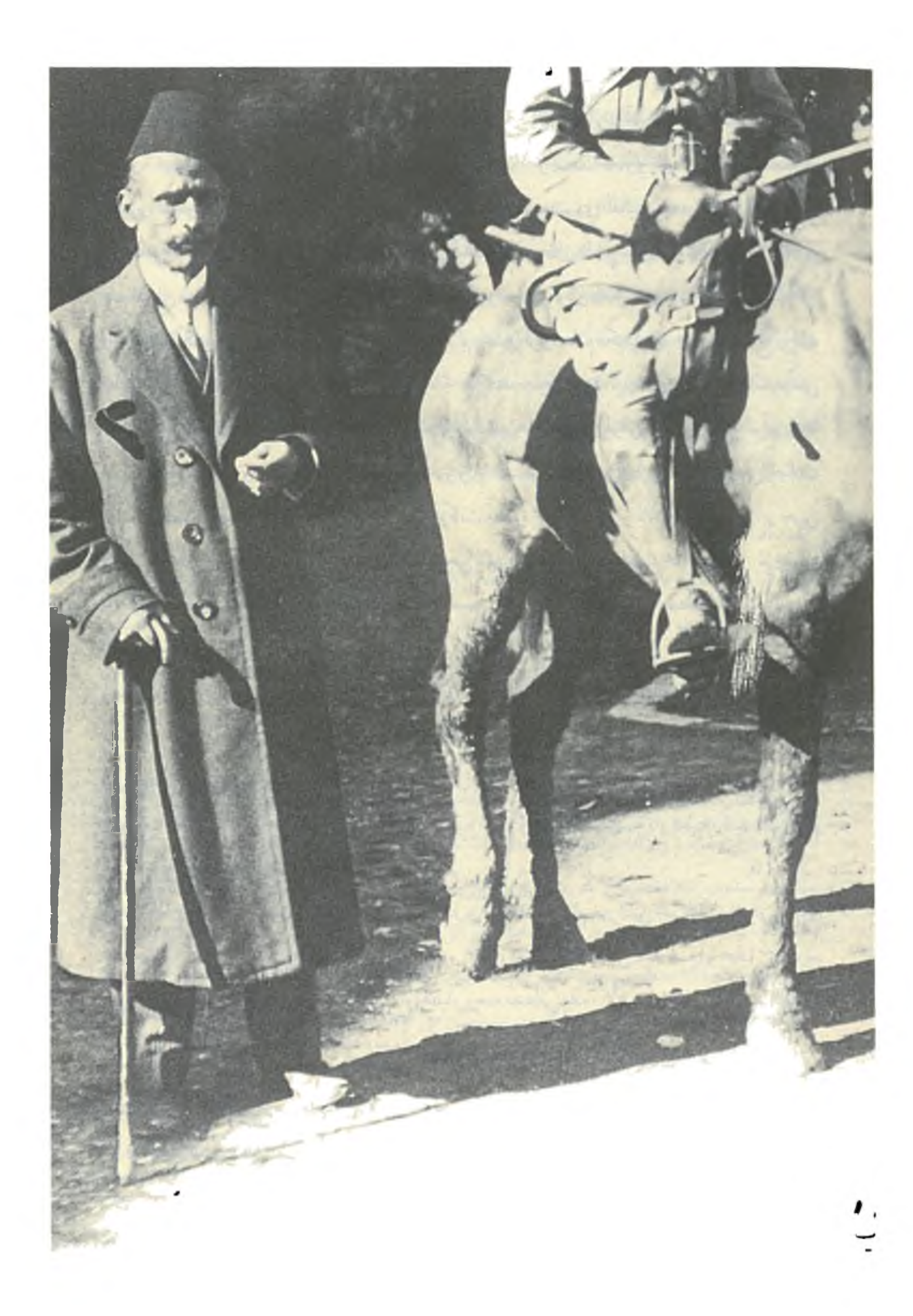


باب العامود، ١٩٠١

المصور: دوايت الندورف.

من مجموعة عصام نصار الخاصة

صورة حسين سليم الحسيني رئيس بلدية القدس في بداية مرحلة الاحتلال البريطاني للقدس وبعد استسلام المدينة ١٩١٧ والمصور غير معروف.



وإذا ما دخلت باب العامود تجد من على يمينك الشعارة للنابلسي المعروف (والد أبو الديب-النابلسي) ومدخل طاحونة محمد [السباسي] كان عارف فيضي العلمي بائع الشعير، وأسعد حجازي بائع حمص للأكل مطعم، ثم المغربي بائع اللبن والزبدة، وأمامه الأخرس وهو من عائلة أبو السباع بيع ويشوي المعاليق، وبعد المنعطف المؤدي إلى فرن طقش-حارة النصارى تكمل الدكاكين تجد من على يمينك أيضا دكان القباني لبن وجبنة وحليب وحويرنة، ثم عبد المعطي قرش بائع النقل والدخان، ثم العكرماوي بائع النقل والدخان. وكان بالفعل محل عبد المعطي قرش المذكور والعكس بالعكس، ثم حسن الآوي وهومن دار الخوجة، ثم رشدي قرش مطعم للكباب، ثم محمد الجبشة مع راغب قطينة أبو محي الدين قطينة وكانت دكان فخمة سمانة، ثم محمد معتوق سمان، ثم رشدي رصاص وبجانبه موسى كمال (حنكرو) بائع اللبن والجبن الحويرنة، ثم أبو شحادة ملولك جارنا في دار الجوهرية وكان سمان، ثم أبو غزالة الحلاق والطبيب في آن واحد، وبعدما تمر عن زقاق الحرو ودار السعودي اسماعيل الطزيز بائع الحلاوة على إختلاف أنواعها وخصوصا حلاوة القدوم، ثم زقاق على بيضة وكانت معصرة بجانبه للسنونو والمالك عمر الدجاني أبو حسن صدقي الدجاني، ثم حلاق يدعى أبو داود الحلاق مسيحي لاتيني سكن في دار المملوك محلة السعدية، ثم عابدين الأرناؤوط معمر السلاح، ثم فرن الخبز السوقي لصاحبه حسن خميس، وبعده دكان للحاج مصطفى عبد اللطيف لبيع الطحين وفيها المرحوم فوتة زخريا والد سابا ويعقوب زخريا، وأخيرا عقبة البطيخ.

وبعدها إذا ما رجعت وعلى جهتك اليمنى تجد دكان للمرحوم حنا الحلبي لبيع البواطي والسلع التي كانت تورد علينا من شرقي الأردن والد أنضوني واسحاق الحلبي وكان لابسا طربوشه المغربي، واستعملت ذات الدكان فيما بعد من قبل مصطفى عبد الجبشة بيع بالجملة للمواد الغذائية بالقدس، وعندك تجد الزقاق المؤدي إلى محلة الواد ووابور صلاح والمعروف بعقبة النوتة، ثم علي خميس أبو صالح خميس لبيع الفحم والطحين، ثم مصبنة دار قطينة رشيد قطينة، ثم سليمان وفا تاجر ثم حسن قليبو، ثم معصرة قطينة أيضا.

وأخيرا الحاج المغربي المسؤول رسميا لتوزيع تحارير المغتربين من الفلاحين، ثم خير الدين نجم سمان وبائع الين، ثم أبو عمر غوشة سمان، ثم محمد رصاص سمان، ثم عاشور سمان، ثم الشيخ أبو حسن المشعشع أبو حلقة سمان، ثم علي قرش أبو مصطفى وأبو عبد المعطي قرش بائع الخضار وبعده مصطفى ولده، الأعرج ثم محمد خليل عبد اللطيف زبدة ولبن، ثم الحاج خليل الهدمي، ثم عبد وبعده أخيه محمد المداح سمان، وأخيرا الجامع.[1]

الحكيم[2] متري النصراني

في أوائل قرن العشرين كان الطب الغربي الحديث معدوما في بيت المقدس ولم يوجد أكثر من ثلاثة أو أربعة أطباء غربيين معروفين ما عدا المستشفيات وكانت الناس تستعمل الوصفات العربية من سوق العطارين وبعض الحلاقين. وقد صادف في حارة السعدية حكيما يدعى الحكيم متري النصراني يلبس لباسا غربيا وعلى رأسه الطربوش وإني

١ وأنني أذكر أن الشيخ أبو أديب الشرج كان يشتغل جلايل الدواب وكان والدي يشرب الاركيلة عنده أحياناً في الدكان الواقعة تحت المصبنة الملاحقة للابي زهدي ازحيمان. [و.ج].

٢ الحكيم تستعمل باللغة الشعبية لتعني الطبيب.

أعتقد بأنه كان غريبا عن فلسطين طاعن في السن فقد كان يسكن في دار الشيخ حسن الدنف وكان أعزبا ينام في غرفة صغيرة ملآنة من العقاقير المختلفة الألوان والأشكال وكلها من صنع يديه وإني أقدم لمحة وجيزة عن طبة الطريف :

وقع أخي توفيق وهو ربما في العاشرة من عمره بمرض المفاصل "أرثريت" فكان يتألم ومرات كثيرة يتيبس مفصل يديه ورجليه ولم ينجح على أيدي الأطباء الغربين[1] أمثال الحكيم جورج وفوتة اليونانيين وقد صادف أن مرضه الحكيم النصراني فكان يحضر عند المساء ويغلي الخبيزة ويهبل توفيق عليها ثم يفرك موضع الألم ويذهب . وعند الصباح يرجع لكي يطمئن على مريضه ويسأل الوالدة "كيف الصبي يا أم خليل؟" الوالدة : والله نام مرتاح هذه الليلة الحمد لله . الحكيم : أضربي كفك هون ويمد كفه لها فتضرب على كفه ثم يقول إلا لو أنني لابس برنيطة[2] لكان إسمي انتشر في العالم ولكن إنني ألبس الطربوش . ومثلا يرجع في يوم آخر ويسأل كيف الصبي يا أم خليل؟ الوالدة : والله يا دكتور الليلة غلبنا جدا . الحكيم : ليش إبصر شو مخربط بالأكل معلوم مش ممكن أنا أعرف شغلي وهكذا .

١ المقصود أطباء مدربين في الطب الحديث.

٢ البرنيطة وهي القبعة الغربية.

المغني محمد العاشق

إني أذكر ليالي المنشد وعازف العود محمد العاشق بمنتهى التأثر والسرور فقد كان يحضر إلى القدس في فصل الصيف وكان يتفق مع أصحاب مقهى الهوسبيس[3] محلة الواد وأمام هوسبيس النمسا ويجلس على منصة خشبية مرتفعة في إحدى زوايا مفترق الطرق الرئيسية المقابلة للهوسبيس ويغني بصوته الحنون العالي ويعزف على عوده والناس جالسين من حوله وعلى رصيف كل شارع من تلك المحلة يشربون الشرابات والأركيلة والقهوة وكأن على رؤوسهم الطير ، إنما كنت تسمع كلمة الله يا سلام كما بالله عليك يا أستاذ عندما يطربون لقطعة مطربة من الحانه العذبة وخصوصا في ليالي رمضان فقد كان رحمه الله يزيد التجلي والإبداع في الغناء إلى أن يحين الوقت ضربة المدفع وإني لا أبالغ إذا قلت أن صوته وخاصة في ذلك الوقت من سكوت الليل وعدم وجود السيارات في القدس يسمع من دار الجوهرية صافيا طبيعيا وهي مسافة طويلة لا بأس فيها . وكنت ترى أن أكثر سكان تلك المنطقة تجدهم في الشبابيك والشرفات والأسطحة يستمعن إلى مغناه العذب . أما أنا فكنت أرافق إخواني وننزل من عقبة راهبات صهيون وننزوي بجانب المقهى ومرارا كثيرة كنا نصطحب جودلة صغيرة للراحة كل منا بدوره وإني لم أزل أذكر الأغنية المفضلة التي كنا نسمعها منه طقطوقة من مقام البيات وهي جوز الحمام مني من يشتري مني ثم يعيد كلمة جوز إلى قرار العود بطريقة سلسلة مطربة وأصبحت هذه الطقطوقة دارجة لدى هواة أهل مدينة القدس من رجال وسيدات . وكنت أستمع لهذا المغني بشغف زائد وأرجو إخواني بأن نبقى هناك لمدة أكثر وأكثر حتى ينرفز خليل وكنت أتمنى من كل قلبي بأن الله يجمعني بهذا المغني مرة ولحسن حظي وبعدما كبرت اجتمعت معه وغنيت وإياه وعزفت له على العود كما سأذكر ذلك مفصلا في حينه من هذا الكتاب .

٣ الهوسبيس وهي المستشفى النمساوية في القدس بداخل البلدة القديمة في تقاطع طريق الآلام مع طريق الواد.

أجير حلاق في فرصة المدرسة الألمانية

كان المرحوم متيا من طائفة لاتين القدس مشهورا في صناعة الحلاقة وكان وكأنه الطبيب فمن أراد تركيب كاسات دم[1] أو علق أو غيره أو وصفات عربية يجد المعلم متيا أبو عبد الله دكان محلة في دكان عائدة لأوقاف الخاناقاة مقابلة للزقاق المؤدي إلى محلة حارة النصارى لسكن الطائفة وكان شريكا لعيسى زيادة من الطائفة أيضا . كان أبو عبدالله صديقا إلى أخي خليل وهكذا وبواسطته اشتغلت مدة شهرين سنة ١٩٠٧ الصيف كأجير حلاق فكنت أمسك رقبة الزبون عندما يغسل أبو عبدالله رأسه من الخلف خوفا من نزول الماء على ظهره . أما الماء فكانت تصب بواسطة سطل نحاس في أسفله حنفية تصب على رأس الزبون وتنزل من رأسه إلى لكن [أي وعاء غسيل كبير] نحاسي داخل في رقبة الزبون . كنت مسرورا جدا بهذه الشغلة وعند المساء كان أخي خليل ومحمد المداح من أشاوس محلة باب العامود وكان سمانا يعامله والدي وقد علم خليل الرجولية فيأخذوني إلى الأوضة[2] في محلة باب العامود أدق لهم على الطنبورة وأغني .

وكنت في أثناء عملي هذا في النهار أترك الدكان وأستمع إلى السيد حسين النشاشيبي عندما كان يعزف على عوده في دكان حلاق أبو مناويل ملاحق إلى المعصرة التي تخص والد حسين المعروف بالشيخ خليل النشاشيبي . أما تقاسيم حسين النشاشيبي فكانت والحق يقال روعة وقد أخذها قطعة قطعة من أحسن معلمي العود آنذاك المصري المعروف بال [. . . [3]] فأطرب وأعجب أيما إعجاب وأقول في نفسي متى أصير أعزف على آلة العود يا ترى؟

كذلك كنت عندما أترك مدرسة الدباغة أعرج فأستمع إلى محمد الساسي أو عبدالحميد قطينة عندما كانا بالصدف يعزفون على عود عند عامل الأعواد فرح القرعة في الدكان الملاصقة إلى مدخل سطح القيامة الشرقي والمؤدي إلى خان الزيت . وكنت أجن فرحا وأتمنى لو كان بالإمكان مسك هذه الآلة والتحدث إلى من يعزف عليها ثم أترك وأرجع إلى الدار وكل أفكاري بالعود .

طنبورة رقم ٢ : دخولي إلى صنعة الموسيقى (١٩٠٧)

بمناسبة عيد القديس ديمتري وطبعا كان عيد جارنا متري عبدالله المنى فكان يوما سعيدا ، جمهور مجتمع من جملة عائلات الطائفة وقريب الغروب إذ حضر متري قسطندي المنى صاحب الصوت الرخيم ومعه متري الزائر نافخ وعازف الفلوت المبدع . وكما قلت سابقا أن هذه الإحتفالات كانت تجري في دار الجوهرية بحضورنا وعلى الأخص أنا بعدما تعلمت الدبكة والعزف على الربابة والطنبورة طنبورة الحاج محمد المغربي ، فقد غنينا أنا وأخي توفيق واستمعنا إلى المنى والزائر وأخذ حظنا منه جانبا من الليل وإذ حضر قسطندي الصوص وأخيه عيسى وكان قسطندي الصوص من طائفة الروم مشهورا في الغناء والعزف على العود ويجيد إلقاء أغاني الشيخ سلامة حجازي وأما أخيه عيسى فكان يضرب الدربكة ضربا جميلا فاستمعت إليهما لأول مرة وطلب مني أن أغني لهم فغنيت ثم دبكت ثم عزفت

[1] كاسات الدم وتعرف أيضا بكاسات الهوى وهي وصفة محلية شائعة تستخدم للتداوي من بعض الأمراض.

[2] راجع المقدمة لهذه المذكرات.

[3] ناقصة في الأصل.

الربابة وأخيرا غنيت روميو وجوليت قصيدة الشيخ سلامة حجازي وقسطندي الصوص يعزف معي على عوده فأعجب مني ومن صوتي وطريقة إلقائها بصوتي العالي وأنا ربما في التاسعة من عمري وقد طربت جدا عندما سمعت صوت قسطندي الصوص فسلمني عوده وهكذا جن جنوني فصرت أنقر عليه وأحاول وضع الأصابع على الزر الأول فأنطقت أغنية زينة زينة وكان من الحضور نخلة الهشة الصديق الوفي لمتري عبدالله فكانت ليلة من العمر فالجميع في فرح وسرور والسيدات تزغرد والرجال تشويش عندما يتوقف العزف والغناء إلى بعد منتصف الليل . قال لي قسطندي الصوص تعال غدا لبيتنا محلة الواد عقبة المغني فأعطيك (يد عود) جميلة فتركبها على عود صغير وتكون لك أحسن وأكبر من هذه الطنبورة ولكن نخلة الهشة قال لا أنا عندي قرعة كبيرة قديمة ناشفة فيمكنك وضع يد العود عليها فتكون أحسن .

أخذت الوعد من الصوص والهشة ولم أستطع أن أنام في تلك الليلة و[في الصباح ذهبت] عند الصوص فأعطاني يد أورقة العود جميلة جدا فأخذتها شاكرا ودبكت له دكدوكة فسر هو وعائلته . وثاني يوم ذهبت إلى نخلة الهشة وكان نجارا مع أخيه في عقبة دير الروم فأخذني إلى مخزن الخشب العائد له والواقع بجانب دار الخوري يعقوب البرامكي القديمة تحت القنطرة بجوار دير القديس نيقولاوس (قبل هدم دار البرامكي) فدخلت معه في ذلك المخزن المظلم وبصعوبة جدا وجدنا القرعة ما بين الخشب فأخذتها وشكرته . ولما كان أخي خليل يشتغل نجارا عند متري أبو شنب ركب يد العود على القرعة وعمل وجه القرعة من (فنيري معاكس كان يستعمل لخلف العربات) آنذاك فأصبحت جاهزة طنبورة ذات ثلاثة أوتار ولكن بقي علينا المهم جدا (القمرة) فأخذ والدي الطنبورة وبواسطة الموس قد حفر (قمرة) رسمة جميلة في وسطها وكان يحفر القمرة جالسا في كشك الصالون من دار الجوهرية والثلج ينزل بغزارة في القدس وهي سنة السبع ثلجات ربما سنة ١٩٠٧ وهكذا أنجزنا الطنبورة فترقيت في الفن وصرت أعزف عليها إنما لصغر مسافة طول الوتر أي يد العود والقرعة كنت أستعمل أصابع اليد الواحد بجانب الآخر يشبه العزف على المندولين .

يا هو يأخذ الصوص وأخوه

كانت العادة المتبعة بين شلة متري المنى في السهرات وليالي السمر عندما يتجلى الموقف ويكونوا مجتمعين ومعهم المضحك المشهور أحمد جاموس من عائلة شتية في القدس يختمون السهرة في آخر الليل ببعض الموشحات الدينية مثل يا راحلين إلى منى بقيادي ثم يصرخ أحمد جاموس بأعلى صوته قائلا :يا هو فيرد جميع الحاضرين ويقولوا "يأخذ الصوص وأخوه" أي قسطندي الصوص المغني وأخيه عيسى ضارب الدربكة اللذين يكونوا ضمن هذه الشلة . ومع الأسف الشديد أن عيسى الصوص المومى إليه قد مات شنقا من قبل السفاح جمال باشا في الحرب العظمى الأولى مع شخص آخر من عائلة القندلفت شنقا على المشنقة خارج باب الخليل . وقد رأيتهما وبكيت حزنا عليهما وإني أحتفظ بصورة المذكورين وهما مع جملة أشخاص آخرين على أعواد المشانق في المجموعة الجوهرية تظهر زمن الإستبداد ومظالم



صورة لأحد أبناء فلسطين معلقاً على عود المشنقة أمام باب الخليل في القدس في حوالي عام ١٩١٥. المصور خليل رعد من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ببيروت.

العهد العثماني ومجازر السفاح أحمد جمال باشا[1] آنذاك في العرب، وقد سافر أخيه قسطندي إلى الديار الأميركية هربا من مظالم العهد البائد ونجح نجاحا محسوسا في الغناء والموسيقى بين المغتربين هناك ولم نزل نأخذ الأخبار السارة عنه ليومنا هذا وفقه الله.

لمحة طريفة عن مواجهتنا للإختراعات الغربية الحديثة بالقدس

لحسن الحظ أنني منذ نشأتي في بيت والدي وجدت لامبات [مصابيح الكاز] نومرو [أي رقم] ٢ و٣ و٤ ومنها نومرو ٤٠ وهذه النمر لحجم الفتيلة التي كانت تشعل الغاز في القنديل فعندما كنا نشعل الفتيلة بالكبريت نضع البلورة العائدة لهذه اللامبة وكانت تنظف يوميا ونعيش ونقضي الليالي على هذا النوع من النور. ولكن شاهدت عائلة أنضوني المنى في الطابق الأرضي من دار الجوهرية فكانت هذه العائلة لم تزل تتناول طعام العشاء على "السراج المضيء بزيت الزيتون" كما كانت العادة للناس قبل إختراع لامبة الكاز، وعندما كنا نأخذ العجين إلى فرن الزروق ونتأخر بعد الغروب يكون الفرن الكبيرة مضاء بالكازة وهي إناء تنكي يشبه الحقن ملآن بالكاز وفيه فتيلة رفيعة تضاء بالكبريت ولا يوضع فوقها بلورة وأنها قذرة وتسبب دخان الكاز عن من يكون حولها والعياذ بالله.

البريموس

جاءوا بوابور البريموس للقدس فدهشنا من هذا الإختراع لنتخلص من الحطب والفحم للطهي وهكذا تحمس والدي فاشترى بريموس للوالدة معتقدا بأنها تكون مسرورة ودفع مبلغ أربعة مجيديات أي ثمانين غرش ثمن ذلك الإختراع الجديد مع العلم بأن راتب سعادة متصرف القدس الشهري كان ليس أكثر من الخمس ليرات وعلى هذه النسبة تتحقق مبلغ الأربعة مجيديات ولكن هذا الإختراع المريح النظيف لم يعجب الوالدة بل كان موضوع بحثها في الليل والنهار وذلك من قوة صوته ولعدم عادتها مثلا يدق باب الدار الرئيسي أولا وثانيا وهي تكون بجانب البريموس فلم تسمع وأخيرا عندما تجد الطارق داخلا الدار تبدأ وتلعن البريموس ومن اخترع ذلك البريموس، وأذكر مرة وكانت مغتاظة منه إذ دخل والدي الدار فقابلته بكل نرفزة وقالت "والله والله يا أبو خليل لآهج من ها البابور والله لأكفر وأنزلع الحرم دغري وأسلم يقطعه ويقطع الساعة اللي اشتريته فيها إيه بلاش ما احنا كنا عايشين وماله الفحم"، فضحك والدي وخصوصا وأن إسلامها يكون كفرا وطيب خاطرها.

ولكن إسمع ما عملت الوالدة، دخل والدي الدار يوما وإذ والدتي استقبلته وقالت له كيفك يا أبو خليل وأنا أتخلص من البابور؟ شوف شو أخذت بداله وعرضت ما يسمونه (شاف) للماء مع ست كبايات بلور مزوق مذهب من البلور الرخيص جاء اليهودي حايم فأعطيته البابور وداكشته [أي بدلته] بهذا الشاف والكبايات بالله عليك كيف؟ يقطعه ويقطع صوته، جن جنون والدي المسكين وتأثر على مبلغ الأربعة مجيديات ولكن ما العمل والعوض على الله.

[1] جمال باشا القائد التركي للجيش العثماني الرابع الذي حكم فلسطين إبان الحرب العالمية الأولى.

اللوكس

كانت أختي عفيفه ساكنه بيت لحم بمناسبة شغل زوجها هناك عند شكلف فذهبت مرة أنا وتوفيق وقضينا مدة إثني عشر يوما عندها وقد صادف بأن بلدية بيت لحم قد علقت لوكسا كبيرا في سطح المهد المقدس للزائرين في عيد الميلاد وقد دهشت المدينة عندما شاهدت هذا الإختراع لأول مرة والجدير بالذكر أن بعض الناس وعلى رأسهم المختار صالح القنواتي وكان صديقا لوالدي تجمعوا ومدوا الفراش فوق حصيرة وناموا تحت هذا اللوكس وكنت وتوفيق معهم لعندما جاء صهرنا أبو فائز عند الساعة التاسعة مساء وأخذنا للبيت ونحن نلهج باللوكس وبذلك النور البهيج. وبمدة وجيزة انتشر استعمال اللوكس في المقاهي والشوارع فأصبحت القدس وكأنها شعلة من النور وعندما تم إنشاء الساعة[1] المقامة على سور باب الخليل خصصت دائرة البلدية أربعة لوكسات كانت تضاء ليليا من كل جهة من جهاتها الأربع تشاهد من القرى ومسافات بعيدة وكانت أشبه بالمنارة. وهكذا شكرنا الباري على مشاهدتنا إختراع اللوكس في المدينة.

[1] بنيت الساعة المذكورة على برج فوق برج باب الخليل وكان ذلك إحتفالاً بالذكرى الخمس والعشرون لتولي عبد الحميد السلطنة. وقد بقيت الساعة في ذلك المكان إلا أن أزالها الإنجليز بعد عدة سنوات من إحتلالهم للقدس.

الكهرباء

أول من أحضر الكهرباء إلى القدس عمارة النوتردام دي فرانس بالقدس فقد جاءوا بموتور لتوليد الكهرباء لإنارة هذا المعهد العظيم. فكنا نمر على هذا البناء ونشاهد إنارة الكهرباء من المدخل الرئيسي ومن شبابيك العمارة. ولحسن الحظ ولأول مرة كنت وتوفيق مع والدي عندما كان سهران مع حسين أفندي فبعد السهرة بجانب منتزه البلدية أحضرنا له حماره الأبيض فركب ومشينا من حوله إلى أن وصلنا مدخل النوتردام وكان على ما يظهر يعرف البواب فوقف وطلب من البواب(وكان مقطوع اليد) أن يطلعنا على كيفية إنارة هذه الكهرباء فدخلنا معه إلى أول الإيوان فجاء وأدار زر كان على الحائط إذ طفأ نور الكهرباء الذي كان على المدخل والقسم الأول من إيوان النوتردام، وأصبح المحل مظلما ثم وبأقل من لمح البصر وضع يده على هذا الزر وأداره فأضاء المكان بالحال. وتعجبنا جدا من مشاهدة هذه العملية وقلنا أنه والحق يقال لأعظم من اللوكس وخرجنا وبقينا مدة طويلة ونحن نقص ما شاهدناه للأصدقاء وللوالدة وللأخوان فيدهشون. وهكذا شكرنا الباري لإطلاعنا على الكهرباء لأول مرة وطبعا بالتدريج انتشر هذا الإختراع في كثير من العمارات الفخمة.



باب الخليل وعليه الساعة والبرج المذكوران. المصور غير معروف. حوالي ١٩١٥.

أول فونوغراف لأديسون

ورد فونوغراف أديسون لمدينة القدس فكنا نسمع ما يشاع عن هذا الإختراع الفريد وكيفية تسجيل الصوت شبيها بآلة الفوتوغراف التي تنقل وتطبع صورة الإنسان على الورق. مضت مدة من الزمن وإذ شاء القدر ولحسن حظنا جاء المدعو متري الزاير عازف الفلوت والذي ذكرت عنه ضمن شلة متري قسطندي المنى بصفته صديقا لجارنا

متري المنى جاء بهذه الآلة لأول مرة فاجتمعت جميع الجيران من كبار وصغار وكنت أنا وإخواني في أول الركب، فقد شاهدناه ودهشت عندما سمعنا الصوت من الأسطوانة اللولبية الشكل - صوت واضح مسموع لدى الحضور وزيادة على ذلك كانت سماعات تتصل بأذني الراغب بواسطة برابيج كوتشوك فيستمع السامع لصوت أكثر وضوحا .

بدأ المرحوم متري يسجل من بنات الجيران التراتيل مثل رن صوت في الأعالي، نزرع صباحا، هذا هو اليوم السعيد، ثم بعض الزغاريت لنور المنى وزمردة وهيلانة المنى ثم بعض الأغاني الدارجة في ذلك الوقت ثم جئنا أنا وتوفيق بدورنا فسجلنا ما تيسر وأذكر بأنني سجلت "الغصن إذا رآك مقبل سجد"، ثم الأغنية الدرزية "في حكم السبع سلاطين" المدونة في مكان آخر من هذا الكتاب[1]. سجلنا جميع هذه المقطوعات بواسطة ساعة وفيها إبرة تسجيل خاصة وبعد إنتهاء التسجيل غير المرحوم متري هذه الساعة لساعة أخرى الخاصة لسماع الأصوات المسجلة وهكذا سمعنا لأول مرة صوت كل واحد منا ونحن في دهشة غريبة جدا وقلنا علم الإنسان ما لم يعلم صدق الله العظيم .

ملاحظة :تمسح الأسطوانة بالكاز ويعاد التسجيل عليها .

فونوغراف رقم ٢ العادي (كالأكل على الأسنان المصطنعة)

لم يكن هناك إقبالا محسوسا لإقتناء أول فونوغراف أديسون لدى الشعب في مدينة القدس لسببين أظن أنهما : لأن ثمنه كان غاليا بالنسبة إلى الرخاء في ذلك الزمن واستنادا لقولي أعلم القاري بأن المرحوم يعقوب سعيد اشترى هذه الآلة بخمس وعشرين ليرة فرنساوي وعليه لا أظن أن أكثر من عشر آلات بيعت من هذا الشكل لبعض الأغنياء من الأهالي فقط . والسبب الآخر هو عدم وضوح الصوت للحضور وعلى كل حال وبمدة ليست طويلة إذ ورد إلى القدس الفونوغراف المعروف ليومنا هذا ذات الإسطوانات المستديرة من ماركة His Master's Voice وبوليفون وكرامافون وغيرها بصورة واسعة جدا وبدأنا لإستماع المنشدين والعازفين المشهورين وخصوصا من مصر .

جاءت اسطوانات المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوي ومحمد عثمان والشيخ سلامة حجازي ومحمد سالم العجوز وعبد الحي حلمي وداود حسني وزكي مراد وغيرهم من أدوار وقصائد وموشحات وخصوصا من الصفتي .

وهكذا انتشرت الموسيقى انتشارا واسعا مبتدئة من المقاهي . فكنت على ما أذكر عندما آخذ متليك[2] من والدي أذهب إلى المرحوم إبراهيم البيروتي وكان ضريرا يملك آلة فونوغراف كبيرة جدا تحتوي على أربعة زمبركات ولها بوري من النحاس الأصفر ملتوي ثم له فتحة كبيرة لتكبير الصوت . والجدير بالذكر أنه خوفا عليه من العين [أي الحسد] كان يجلل [أي يغطي] هذا البوري باليانس الأحمر ويعلق عليه خرزة كبيرة لون الأزرق مع الشبة [الشبة هي مادة كيماوية تشبه الأحجار] ورأس الثوم ويحيط على دائرة هذا البوري بعض رسوم السيدات الجميلة ومنها الفنانين .

كان هذا الفونوغراف موضوعا على رصيف مقهى علي زحيمان العم أبو زهدي في الشارع باب العامود وبجانب هذا الفونوغراف صندوقين من الخشب ملآنة اسطوانات من مختلف أساتذة الموسيقى في ذلك الزمن يحافظ عليها

[1] أنظر صفحات ٤٠ و ٤١.

[2] متليك: أصفر قطعة نقدية معدنية عثمانية.

محمود الأرناؤوط، وأمام العم ابراهيم البيروق طاولة وعليها صينية نحاس أصفر تضع زبائن المقهى ما تجود بها أنفسهم من مآليك مقابل استماعهم لهذه التسجيلات. فكنت أقف وأرمي المليك في الصينية وأقول له عمي سمعني مثلا بالله مرحمة وصبرا للغد للشيخ سلامة حجازي. وبسرعة فائقة يضع يده في الصندوق ويخرج هذه الأسطوانة (وهو ضرير تماما) فكنا نعجب كيف بإمكانه معرفتها!! ثم نستمع إليها ونحن واقفين إلى أن تنتهي الأغنية. وبهذه المناسبة أذكر للقارىء ما قاله الأستاذ كامل الخلعي الموسيقار المشهور في كتابه إذ قال "أن السماع له كالأكل على الأسنان المصنوعة"، أما أنا فأقول والحق يقال أن بواسطة إختراع الفونوغراف إنتشرت الموسيقى على إختلاف أنواعها في العالم وأصبحت عالمية وسهلة الإستماع إليها والتذوق منها ومعرفة الصالح والغير صالح منها لدى كل الشعوب فنعم هذا الإختراع ورحم الله من كان سببا في إيجاده كما وإني أحمد الله الذي كان ذلك على زماننا.

زيارة سمو البرنس فريدريك ايتل القدس

كنت تلميذا في مدرسة الدباغة للألمان عندما زار مدينة القدس سمو البرنس [الأمير] فريدريك أيتل نجل جلالة إمبراطور ألمانيا غليوم. وقد جاء خصيصا لإفتتاح عمارة الأوغستا فكتوريا (أم الطلع)[1] على جبل الزيتون وقد افتتحها باحتفال مهيب يليق بمقامه السامي وهي ولا شك من أعظم وأقوى عمارات الشرق العربي آنذاك على ما أعلم. كانت زيارة سموه للقدس سنة ١٩١٠ وقد لبسنا أفخر ما عندنا من لباس واستقبلناه عندما حضر قداس إلهي في كنيسة الألمان (الدباغة) وكان يوم ابتهاج وسرور لدى الدولة والشعب. والجدير بالذكر أن المرحوم متري المستكلب، الذي كان فاتحا مقهى في دكان صغيرة واقعة على يدك اليمين عندما تدخل السطح الشرقي من جهة باب خان الزيت ومن أملاك دير أبونا ابراهيم، فرق الجمهور المجتمع لاستقباله فدخل بينهم ووقف أمام سمو البرنس وبيده ابريق قهوة فكبه [أي سكبه] على الأرض. وهي عادة قديمة كانت تستعمل عند الأهلين في ذلك الوقت بمعنى أن يكون مروره سعادة وهنا ويسر. فتقبل سمو البرنس هذا الإكرام بالشكر وأمر المسؤول فدفع له ليرة ذهب. وإني أحتفظ بصورة طريفة وسموه يفتتح بناء الأوغستا فكتوريا وحوله أشخاص نادرة من أهل بيت المقدس وذلك ضمن المجموعة الجوهرية [الفوتوغرافية].

حي المصرارة خارج سور المدينة

منذ سنة ١٨٦٠ عندما أنشأت مدرسة شنلر للأيتام تشجعت الأهلين على توسيع مدينة القدس والسكن خارج السور تدريجيا فقد أنشأت قومبانية[2] مياشعاريم ومن جاورها من القومبانيات للسكاج واليمن من اليهود ثم قومبانية النجارلية وقد اتصلت بعض هذه القومبانية إلى الجهة الغربية من القدس شارع يافا فأنشأت عمارة المسكوبية العظيمة وعليه أصبح في أوائل قرن العشرين أصبحت ثغرة فارغة ما بين هذه المنشآت وبين سور المدينة من جهة باب العامود.

١ المعروف اليوم بالمطلع ويبدو أن المطلع هو تحريف لأم الطلع.

٢ القومبانيات: تحريف عربي لكلمة كومبون (المستوطن المشاعي) وهو تعبير استعمل عموما لمساكن اليهود الغربيين والكيبوتسات لاحقا بشكل خاص.

فبدأ يهود الأكراج بإنشاء القوميانية تجاه باب العامود مدخل حي المصرارة من الجهة اليمنى وثم الجهة اليسرى ثم أنشأت عائلة الدزدار يوسف آغا وداود آغا أملاكهم وبعدها عائلة الخالدي محمد الطاهر والشيخ موسى شفيق والعكرماوي والمتولي وأخيرا من ذلك القسم حسن بك الترجمان لغاية طريق مياشعاريم. ومن ضمن هذه المنطقة بنى داود يعقوب ويعقوب سعيد ومدرسة الأسوج وعائلة الخياط. أما الجهة المتجهة من باب العامود إلى عقبة نوتردام دي فرانس فهناك أملاك بجوار أرض عيسى نخلة قرط وعندما فتحت الطريق المؤدية من تلك العقبة إلى حي المصرارة وقد فتحها المرحوم فيض العلمي وهو رئيسا لبلدية القدس سنة ١٩٠٦ عمر الدكتور كنعان بيته المعروف[1] والمعلم عيسى موسى اسيتان من الطور ثم الحاج اسماعيل النجار ثم عائلة الأنصاري وفيض العلمي وسميت بعقبة فيض ليومنا هذا. ثم وقبل هذه المنشآت جاء وقف السكاج [أي الإشكناز أو اليهود الشرق أوروبيين] وبنى عمارته بجانب مدرسة السلزيان للأثاث فشكيب النشاشيبي فعارف العلمي فتومايان وأبو هرماس وطليل (وكانت مدرسة في ملكه سابقًا) فقسطندي وصليبا الدعدوش فيعقوب الحشي فالخوري خليل ابراهيم فرح فالمعلم عيسى موسى الطوري وعائلة الأنصاري ونقولا الشمالي ودحبور وجورج الحرامي والشاغورية والحاج بكر النشاشيبي وجورج بدور وعائلة محمد الخليلي فالشبر والحشي ومصطفى الجبشة واليافاوي والعارف وأبوشنب والداروتي وقمر والموقت وسعيد.

وهكذا وفي هذه المنطقة تركت عائلات كثيرة داخل السور وسكنت حي المصرارة. وكان البناء لهذه الحلة عقد حسب قضبان حديدية وكان موديل السقف مغطى بالكرميد شغل شنللر والجدير بالذكر أن معظم هذه العمارات لها آبار لجمع مطر الشتاء كما كانت العادة داخل السور كما يظهر هناك ليومنا هذا وكانت والحق يقال فكرة مفيدة.

أما طريقة السكن فكانت أكثر العائلات تتخذ ذات طريقة المعيشة كما كانت عليها في داخل السور فمثلا كانت عائلة سليم السكافي وافتيم عكرة وسبير الخياط وقسطندي عبدالنور ساكنين في طابق الأول من دار في حي المصرارة كما يلي:

سليم السكافي وعائلته في غرفتين واحدة صالون والأخرى للنوم وأما المطبخ وتناول الطعام في الطابق السفلي من هذه الدار.

أفتيم عكرة وعائلته في غرفتين واحدة صالون والأخرى للنوم وأما المطبخ وتناول الطعام في غرفة صغيرة خارج هذه الطابق، سبير الخياط وعائلته في غرفتين.

قسطندي عبدالنور في غرفتين وأما المطبخ فهو عبارة عن خشبة مسقوفة بالزينكو (متر في متر ونصف) كائنة على بلكون خارجي لهذا الطابق من البناء!!

أما إيوان الدار الفسيح فهو لإستعمال الجميع. وأما بيت الخلاء فهو واحد لهذه العائلات الأربع من الزينكو وداخله جورة للأوساخ! بدون سيفون أو ما يحزنون، واقع في ساحة الأرض المقام عليها البناء عند المدخل الرئيسي المعد لها.

١ وهو الدكتور توفيق كنعان من بيت جالا الخبير في الأمراض الجلدية والكاتب الفلكلوري الشهير.

أما الحمامات في البيوت فكانت معدومة وكانت الناس تغتسل في طبق من النحاس إما في المطبخ أو غرفة النوم. ومن وقت إلى آخر وربما مرة أو مرتين في السنة يذهبون إلى الحمامات الكبيرة المعروفة بالحمام العربي كما سيجيء البحث عن هذا الموضوع في صفحة خاصة من هذا الكتاب.

حي البقعة الفوقا خارج سور المدينة

أما سبب انتشار العمران من جهة جنوب باب الخليل في أول قرن العشرين فقد كان المشجع على ما أعتقد وجود القطار الحديدي ومحطة القدس في محلها الحاضر قريبا من طريق بيت لحم-القدس سنة ثم وجود كولونية الألمان من الجهة الغربية لمحطة السكة الحديدية وأخيرا إنشاء بناء الكازخانة على زمن الحاج سليم الحسيني رئيسا لبلدية القدس بين ١٨٧٩ إلى ١٨٩٧ فقد أصبحت ما بين هذه العمارات الخالدة ثغرة فارغة وهي ما يسمونها بالبقعة الفوقا.

وهكذا فكر بعض الأشخاص من أهالي بيت المقدس من المسيحيين و المسلمين (ولم يوجد يهوديا واحدا في هذه المحلة) وباشروا تدريجيا بالعمران ومنهم: داود أبو جضم، طناس فراج، جريس سمعان، جورج زخريا وإخوانه، جورج الخوري المعروف بالبيضة، عائلة ميكيل، أنطوني عصعوصة، ابراهيم عصعوصة، سمعان الزغلول، حنا تيودوسي، طناس الحلبي، يوسف جهشان، عبد عكزة، سمعان صحار[١]، وغيرهم من المسيحيين. أما المسلمين فقد بدأوا من ذي قبل عائلة الوعري الكبيرة العدد ونصار وأرناؤوط والدجاني مع العلم أن عائلة الوعري هي باعتبارها المؤسسة لهذا العمران وكانت منذ القدم تسكن أملاكها التي تتصل مع أملاك النامرة وسميت بالوعرية أي محلة الوعرية. وعبدالله الدجاني [كذا في الأصل]. وأما طريقة البناء فكان أكثر المبتدئين (عقد صليب) ولم يعتنوا بالكرميد لأن عمرانهم بوشر به قبل تاريخ عمار حي المصرارة مع العلم أن المالكين حافظوا على فكرة وجود البئر لجمع مياه فصل الشتاء أيضا. وقد امتاز نخلة أفندي كتن فأنشأ دارا خاصة بجوار ملك فيض العلمي على جبل شرفات فكانت أبعد عمارة عن القدس في ذلك الزمن.

١ يبدوا أن المقصود هو سمعان السحار وهو من المصورين العرب المبكرين في القدس وصاحب دكان التصوير الواقعة آنذاك خارج الباب الجديد.

المهرجانات الدينية لأهالي مدينة القدس

لحسن الحظ أنه وجد من قديم الزمن مهرجانات دينية كانت ولم تزل تقام داخل المدينة وحول مدينة القدس أعتقد بأنها كانت ترفه عن الأهلين لكل من المسلمين والمسيحيين واليهود. ولولا هذه الإحتفالات التي هي مبنية على أساس ديني لماتت الأهالي غما خصوصا في الزمن القديم عندما كانوا يسكون داخل سور المدينة ويغلقون عليهم أبواب المدينة عند غروب الشمس خوفا من هجوم البدو عليهم. والسبب الرئيسي هو موقع مدينة القدس وهو باعتباره موقع ديني صرف فقط فلا تجد ماء ولو نبعة ولا نهر ولا بحر ولا غابات بل كل ما تجده أين ما ذهبت أديرة كنائس زوايا مساجد كنيس يهود. ولا شك أنها مدينة لها قيمتها التاريخية بوجود أعظم أثر ديني في العالم ولكن كان الفضل الأكبر لمن ابتدع

هذه الإحتفالات التي سأوصف البعض منها في هذا الكتاب والتي تعتبر التسلية الوحيدة بطريقة وأسلوب ديني لترفيه الشعب على إختلاف مذاهبه وطوائفه في بحر السنة فمثلا نبتدي ب :

شطحة ستنا مريم عليها السلام

عندما نبدأ بصوم سيدتنا العذراء كانت العادة أن يقضي أفراد طائفة الروم الأرثوذكس وعائلاتهم مدة خمسة عشر يوما من ٣١ تموز شرقي[1] إلى ١٥ آب الشرقي من السنة في الوادي تحت أشجار الزيتون حول مقام قبر سيدتنا العذراء مريم الواقع من الجهة الشرقية من القدس. فترى في هذين الأسبوعين العائلات العديدة يقضون نهارهم وليلهم تحت الأشجار وينصبوا الحرامات أو الشراشف أو (الإيزار) في طرف أغصان شجرة الزيتون مدليا إلى الأرض ليقيهم وأولادهم من الندى وحر الشمس، وأما الثري منهم فإنه ينصب خيمة جميلة ويقضي أوقاته الجميلة ضمنها . الجميع يكونوا صياما ويكثرون من الفواكه الكثيرة والخضار في ذلك الفصل من السنة ومنذ عصيرة كل يوم يبدأون بشرب الخمور فمنهم من يغني على الدربكة أو الدف ومنهم من النفت حول عازف عود أو كمان يردد ما أنشده المغني والعازف فيكونون جماعات ملاصقة لبعض البعض إما على ضوء القمر أو يشعلون لامبات الكاز وفي المدة الأخيرة اللوكسات، وكل عائلة من سكان هذه الشوادر والخيم وتحت الزيتون تنهمك بضيافة من يزورها من الأهل والأصدقاء بلا استثناء فعندما يحضر أي شخص ويطرح السلام يقدم له مثلا كاس العرق أو النبيذ أو غيره وفي اليد الأخرى يقدم له المازة .

إنك يخيل لك وأنت في هذا المهرجان بأنك في عرس فتستمع إلى الشوباشات من الرجال ثم الزغاريت من النساء والغناء مع العزف من كل من وجد في تلك الجمعة وكانت العادة بعدما ينتهي الرجال من الشوباش تطلق الشباب من مسدساتها وبنادقها النار بصورة تثير العواطف لما لهذه الأصوات في سكون الليل وصدى الوادي من روعة وطرب إلى ما بعد منتصف الليل وعند الصباح يذهب الموظف أو التاجر أو العامل إلى عمله ويرجع بعد الظهر من كل يوم إلى أن يحين العيد .

أما وقفة العيد وما يسمونها بالشطحة فإنه يوم مشهور لدى الجميع وخصوصا في هذا الزمن أي من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ فكانت الحكومة تتفانى لعطف غبطة البطريرك ذميانوس وذلك لكرمه الحاتمي، [2] فكنت تجد فرقة الموسيقى التابعة للجيش تعزف الألحان من صباح ذلك اليوم إلى منتصف الليل في صالون خيمة خاصة ومعها طابور من الجيش ثم سعادة المتصرف وأعيان الدولة في صالون آخر خيمة وجميع هذه الأمة تتناول الطعام من خراف محشية طيلة النهار المقدمة من البطريركية الأرثوذكسية .

أما المتفرجين من غير الطائفة الأرثوذكسية فتكون في هذا اليوم منتشرة على الطرفين من أول باب الأسباط على المقابر والتلال والشوارع إلى قربا من رأس العامود فهنالك من يتأرجح في المراجيح الخاصة للأولاد وهناك من يشتري الدربكات الصغيرة والزمامير للأولاد وهناك من جالس على المقهى البلدي في طرفي الشوارع حول مقام سيدتنا العذراء

[1] التقويم الشرقي وهو الجولياني وهو متأخر ١٤ يوم على التقويم الغربي الجيروغري السائد اليوم.

فلا يمكنك أن تسير بين هذه الجموع إلا بصعوبة فائقة والجميع في هرج ومرج وفرح وسرور من مسيحيين ومسلمين لا فرق بين الجنسين.[1] وأن لي ذكريات عظيمة في هذه الشطحات وأمضيت أوقاتا عظيمة ليلا ونهارا في الموسيقى مع كثير من أهالي القدس وأدون في صفحات هذا الكتاب.

وفي ثاني يوم من نهار البرامول[2] يكون العيد المجيد لسيدتنا العذراء مريم وتدخل الكنيسة في التسعة أيام التالية من العيد بما يسمونها التاسع وفي هذه المدة ينزل كل من له نذر في الصباح الباكر وربما الساعة الرابعة صباحا ومنهم (حفايا بدون ما يلبسون الكنادر) من المدينة إلى مقام سيدتنا مريم (وكل امرء ما نوى من النذر) ويضيء الشموع الصغيرة على درج الكنيسة عندما تدخل مدخلها الرئيسي وخصوصا عندما تكون في أسفل الكنيسة حذاء القبر المقدس فترى الكنيسة أجمعها وكأنها شعلة من النور.

وعند نهاية التسعة أيام يمثل رجال البطريركية الأرثوذكسية جناز السيدة العذراء مريم باستعمال نموذج مصنوع بدقة من اللؤلؤ الأبيض والحجارة الكريمة قياسه حول المتر فيحمله رئيس الكنيسة (من على السرير) بين يديه وأمامه المطارنة والخوري والرهبان يرتلون ويسيرون بموكب فخم يضم جموعاً غفيرة من البشر من قبر العذراء في الشارع المؤدي الى باب الاسباط ثم طريق الالام فعقبة المفتي ثم درج الخانقة والخمارات فحارة النصارى وينزلون الدرجات المؤدية الى كنيسة القيامة ويحفظون هذه الايقونة الثمينة في دار سيدتنا مريم المقابلة لباب كنيسة القيامة بجانب جامع عمر.

هذه لمحة وجيزة عن عيد السيدة مريم العذراء والبرامول يوم الشطحة ثم التاسع تمتع بهذا العيد والمهرجان أهل بيت المقدس بالبهجة والسرور والمحبة بين الجميع بدلا من البحور والأنهر والمقاهي والكبريهات وغير ذلك من النزهة الموجودة في البلاد الأخرى. وأن أنسى لن أنسى ما كان يزور أماكن هذه البلاد المقدسة من ألوف الروس اللذين كانوا يسكنون في المعاهد الروسية المنتشرة في فلسطين ويتجمعون في كل مناسبة إحتفال ديني من هذه الإحتفالات ويشتركون مع رجال الدين بأصوات تراتيلهم الشجية وخصوصا بمناسبة عيد الفصح كما سيجيء البحث عنه مفصلا في حينه من كتابي هذا.

حالة مدينة القدس في أسبوع عيد الفصح المجيد لدى المسيحيين والمسلمين واليهود بين ١٩٠٠ إلى ١٩١٤

بصفتي معاصر الحكم العثماني والبريطاني عزمت على دمج وصف الأعياد لدى الثلاث ملل [يقصد بها الأديان] في أسبوع عيد الفصح المجيد لأبين للقارئ صورة واضحة عن حكم وإدارة العهد العثماني. نعم إنني لا أنكر بأن الأتراك يعتبرون بالمستعمرين أيضا ولكن المهم في الأمر هو أن الأشخاص والحكام والمدراء والجندرمة والبوليس كانوا الحسن الحظ من خيار أهل المدينة فإذا ما وقع حادث فكان يحل بالتي هي أحسن وبوجه السرعة والعدل بين الأهلين لأنه كما قال المثل أضرب الأرض بالتي خايرها!! ولأن أشخاص قلائل أتراك كانوا يرسلون إلى بلادنا ليس لهم قيمة سوى

١ يقصد بها الكاتب اتباع الدينين.

٢ البرامول: هو وقفة العيد.

سعادة المتصرف ولهذا إنك تعجب جدا عندما تطلع على هذا الفصل وترى كيف كانت تمر هذه المواسم الضخمة والإحتفالات القومية العريضة لكل ملة ولكل طائفة ملاحقين لبعضهم البعض في بقعة صغيرة تمر بأمان وسلام وإني أحتفظ بالتعليق والمقارنة بين هذا الفصل وبين الفصل ذاته في زمن الإنتداب البريطاني وذلك في الجزء الثالث من كتابي إن شاء الله. بمناسبة عيد الفصح عند اليهود تغلق أبواب المتاجر ومعامل اليهود في القدس لمدة سبعة أيام وكانت العادة في هذا العيد أن ينزلوا من جميع القومبانيات [الأحياء اليهودية] المحيطة بالقدس ومن يهود القرى المجاورة ينزلون من باب الخليل فسويقة علون[1] ثم إلى حائط المبكى. وبعد صلاة الجمعة (الجمعة السابقة ليوم الجمعة الحزينة عند المسيحين) يسير موكب النبي موسى من المسجد الأقصى باحتفال ديني مهيب فيكون المتصرف والقاضي الشرعي والرؤساء من موظفي الحكومة والأعيان ورجال الدين عند المسلمين ويخرجون من ساحة الحرم الشريف حاملين الأعلام حسب الآتي:

١. شخصين من عائلة القطب يحملا علمين وهذه هي من الحقوق المتبعة ليومنا[2] هذا.

٢. شخصين من عائلة الدجاني الداودي يحملا علمين يعتبرا أعلام النبي داوود.

٣. شخصين من عائلة يونس الحسيني يحملا علمين يعتبرا أعلام النبي موسى بصفتهما متوليين مقام النبي موسى.

٤. شخص واحد من عائلة قليبو يحمل علم النبي موسى وهذا العلم بالعادة هو علم فضيلة مفتي القدس.

وأن حملة هذه الأعلام تكون راكبة الخيل وكل واحد منهم يحمل العلم ويركز خشبة العلم على قطعة خاصة فوق الركاب. ومن العادة المتبعة أن تحفظ هذه الأعلام في دار المعروفة بدار البيرق الكائنة في عقبة المفتي والعائدة لعائلة الراغب الحسيني. ينزل هذا الموكب الفخم من باب الأسباط وأمامه الموسيقى العائدة للجيش ثم شباب مدينة القدس من أهالي محلة باب حطة وكان يحمل عادة بيرق الشباب أما شخصيا من عائلة زائد أو من عائلة القرجولي من رؤساء ومختاري محلة باب حطة. وترافق الموكب ما يسمونها بالسيارة [الفرقة المرافقة] مؤلفة من طبول كبيرة وصغيرة ومزاهر وكاسات نحاسية يدق أو يضرب عليها بإيقاع مختلف الشكل واللون عائدة إلى عائلة الدبسي ويرأسها الشيخ عاطف المسؤول عن جامع الشيخ جراح، ثم فرقة ثانية يرأسها عادة الشيخ أبو عبد القزاز الذي كان يرتل الموشحات والآيات الدينية بصوت عال مشبع وجهور ويبدع في ضرب الكاس والطبول. هذا وكان يشترك بحملة إعلام أخرى كثيرة الفلاحين من قرى قضاء القدس وأخصهم سلوان والعيزرية وأبوديس وغيرها وكل قرية ومعها فرقة خاصة يسمونها (السيارة) ولا تسأل عن أهازيج ودبكات ورقص الفلاحين الجميع في إيقاعة ثم المدائح النبوية والشوباشات الوطنية من أفواه أشاوس مدينة القدس مثل يا عمنا وافتح لنا البوابة عبد الحميد يا منصور وبسيفك هدينا السور صفوا كراسي جيناكم إلى ما هناك من أغاني حماسية فترى الخيل ترقص على قرع الطبول والكاسات والموسيقى ثم عرض كامل لقوة

١ سويقة علون: جزء من السوق الواصل منطقة باب الخليل بسوق حارة النصارى.

٢ لقد توقفت احتفالات النبي موسى بعد حرب ١٩٦٧ والإحتلال الإسرائيلي لتتم إحيائها مرة أخرى بعد تأسيس السلطة الفلسطينية بعد اتفاقات أوسلوا عام ١٩٩٣.



موكب أهل عين كارم المتوجه إلى احتفالات الصورة من المجموعة الجوهرية البوم رقم ٣. النبي موسى في القدس. والمصور غير معروف.

مدينة القدس الدولة من جندرسة وبوليس ويوليوس سواري وجمال هجين يركبونها في بدلاتهم الرسمية وإني أذكر جليا هؤلاء الأشخاص أمثال مصطفى أفندي الصالحاني ، محمود أفندي جارالله ، عبد القادر العلمي ، الحاج خليل رصاص وغيرهم يسيرون بانتظام باهر ومن خلفهم فضيلة القاضي والمتصرف في عربة خاصة حتى يصلوا رأس العامود وهناك يصير لهم استقبال رسمي في صالون خيمة ضخمة من قبل رئيس بلدية القدس تقدم لهم الشرابات الباردة والقهوة ثم يسيرون بعدما يلقوا جميع الأعلام ويركب من يركب العربات أو الخيل إلى أن يصلوا مقام النبي موسى . والجدير بالذكر أن الشوارع الرئيسية من أبواب الحرم إلى رأس العامود من فوق سور المدينة والتلال الواقعة على جهتي الشارع الرئيسي والمستعملة مقابر إلى نهاية رأس العامود لا يمكنك أن ترى شيء اسمه أرض بل ملآن من البشر وأخصهم السيدات المسلمات اللذين يكرسون هذا اليوم للفرجة مع أولادهم منذ الفجر لأجل أن تحتفظ الواحدة بمحل ولو مقعد على أعلى السور . وإني أؤكد للقاري أن أغلب الأهالي تترك بيوتها في ذلك النهار وتتناول الطعام في الشوارع بواسطة البائعين المتجولين من جميع أشكال الأكل والشراب والتقرشات والحلوى والفواكه والخضار ، كما أنه كنت تجد أشياء تعرض للبيع من ألعاب الأولاد والعصي وعلب السكاير والنرابيج والأراكيل وغيره التي يتعذر أن تجدها في الأسواق . وإني أذكر مرة بأن شخصا مصريا على ما أعتقد بأنه كان يبيع خيزرانات ويتجول بين سيدات المسلمين وينادي بأعلى صوته "ربي زوجك بقرش" ثم عندما كان يتجول بين الرجال يعكس الآية ويقول "ربي مراتك بقرش." يبقى هذا الموكب في مقام النبي موسى في الغور لمدة أسبوع وفي أثناء هذه المدة يصادف أحد الشعانين فإليك ماذا يحدث :

أحد الشعانين المقدس "تقاليد المسلمين"

يتحرك موكب أهالي مدينة خليل الرحمن بعد ظهر نهار السبت بأعلامه وطبوله وكاساته تحت قيادة رجال الدين ومفتي واعيان مدينة الخليل وكانت العادة تناول هذه الناس جميعها طعام العشاء على مائدة المرحوم سليمان جاسر المشهور آنذاك في الجود والكرم وهو من خيار عائلات وأغنياء مدينة بيت لحم وذلك في قصره الواقع بجوار قبة راحيل طريق بيت لحم . وفي صباح نهار الأحد نهار أحد الشعانين يدخل القدس في احتفال مهيب ، فتستقبله رسميا حكومة القدس في باب الخليل كذلك يستقبله أهالي القدس المعروفين من أعيان المسلمين والشباب بالأهازيج والأناشيد الوطنية .
فإني أؤكد للقارئ أن هذا الموكب يسير ببطىء بمدة لا تقل أحيانا عن الأربع ساعات في طريق المحطة التي تبدأ من بركة السلطان لغاية باب الخليل ، وتكون الجهات الواقعة على ضفتي هذه الطريق ملآنة من المتفرجين من نساء وأولاد وخصوصا على جبل صهيون يكونون منذ الفجر حتى يتمكن الواحد بحجز مقعدا على الأرض يتسابق عليه ليشاهد هذا المهرجان القومي وأما الرجال فتكون في مقاهي باب الخليل قهوة المعارف وقهوة البلور التي كانت مقامة في الزاوية العائدة لوقف العنابوسي والقهوة المعلقة والمعروفة بقهوة البنك لأنها كانت مستعملة بنك . وبالإختصار يصل الموكب قريب الظهر ويدخل من الثغرة المفتوحة بسور المدينة والتي فتحت خصيصا عند دخول جلالة إمبراطور ألمانيا غليوم


جزء من قصر جاسر في بيت لحم. الصورة حديثة من كتاب ذاكرة منحوتة في الصخر من منشورات مؤسسة رواق في البيرة.

سنة ١٨٩٨ فيزور القدس ويصلي وبعد الصلاة يتوجه إلى مقام النبي موسى ويلتحق بالفوج الأول الذي سبقه بعد ظهر نهار الجمعة.

الشعانين "تقاليد المسيحيين"

في هذا اليوم والوقت. تبدأ مراسيم الإحتفال الديني للمسيحيين في كنيسة القيامة وخصوصا عندما يكون العيد (كبس) أي يصادف عيد جميع الطوائف من لاتين وروم كاثوليك وروم أرثوذكس وسريان أرثوذكس وسريان كاثوليك وأرمن أرثوذكس وأرمن كاثوليك وأقباط وحبش وموارنة وبروتستانت وكافة فروعها. تبدأ هذه المراسيم بترتيب منظم بواسطة أشراف الحكومة وقوة البوليس والجيش Statico[1] لكل طائفة ميزة خاصة ووقت خاص ومحل خاص ودورة خاصة في داخل كنيسة القيامة. والجدير بالذكر أنه جرت العادة من القدم وربما منذ فتح القدس من قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فسلم مفتاح كنيسة القيامة إلى عائلة جودة من عائلات القدس المعروفة وأمر بإعطاء حق فتح باب القيامة وإغلاقه من قبل عائلة نسيبة ليومنا هذا وكذلك الحق بإغلاق وفتح باب قبر يسوع المسيح لهاتين العائلتين ليومنا هذا.

[1] المقصود status quo وهي اتفاقية دولية تتعلق بملكية الاماكن المقدسة وتوزيع امتيازات الطوائف الدينية وقعت في منتصف القرن التاسع عشر.

وبهذه الحالة تصور يا أخي زائرين كنيسة القيامة في هذا اليوم العظيم من رجال دين الطوائف الكثيرة والأهالي ثم حجاج بيت المقدس من أوربيين يونان وقبارصة وبرغال ثم فرنسيين وألمان وغيرهم وعلى الأخص عدد لا يقل عن ٣٠ ألف روسي من ذكور وإناث يتجولون في أحياء الكنيسة وسطح القيامة وماذا يكون موقف الحكومة والأمن والإدارة والسوقة الخ. في مثل هذه الإحتفالات وتأمل أين توزع القوة في هذا الأسبوع من كل عام لتحافظ على اليهود وعقائدها ثم المسيحيين واحتفالاتهم والتعصب الأعمى بينهم وبين الآخرين وما يحدث من مشاكل سريعة تؤدي إلى مالا تحمد عقباه لولا لم تكن الدولة رغما عن قلة عددها [كذا] في ذلك الوقت. أعود وأقول الفضل الأكبر والأساسي في هذا الموضوع هو تعيين موظفين لهم مكانتهم من خيرة أفراد الشعب فمثل هؤلاء لا تخيفهم كثرة عدد الحجاج فكانوا والحق يقال ساهرين على الأمن ويمضي كل شيء في سلام.



حجاج روس في احتفال الشعانين في القدس في بداية القرن العشرين. من مجموعة جمعية الدراسات العربية، القدس.

الإثنين - تقاليد المسلمين

يتحرك موكب عظيم من أهالي مدينة نابلس المعروف بجبل النار فيدخل القدس من محلة الشيخ جراح ثم إلى باب العامود بذات الطريقة تماما كما دخل موكب مدينة الخليل بالأمس وبعد زيارته القدس يتوجه إلى مقام النبي موسى ويجتمع بمن سبقه من أهل القدس والخليل. والجدير بالذكر أن جميع هذه الزوار تبقى مدة الأسبوع في مقام النبي موسى على أكل وشرب ومنام على نفقة النبي موسى، فيكونوا المتولين من عائلة يونس اللذين لهم الحق بالإشراف على مخصصات أوقات النبي موسى طيلة السنة عليهم أن يباشروا أعمالهم فيطبخوا الأرز واللحم ويطعمون كل واحد من غني وفقير

وغريب. وقد ساعدني الحظ فزرت مقام النبي موسى بمعية حسين أفندي الحسيني عندما كان رئيسا لبلدية القدس وكان سماحة المفتي الشيخ لهم الحق بالإشراف على مخصصات أوقات النبي موسى طيلة السنة عليهم أن يباشروا أعمالهم فيطبخوا الأرز واللحم ويطعمون كل واحد من غني وفقير وغريب.

خميس الغسل – تقاليد المسيحيين

في هذا اليوم المجيد وهو تمثيل عملية غسل أرجل تلامذة المسيح من قبل السيد يسوع المسيح وهكذا تجري مراسيم الدينية لكل الطوائف في الأمكنة العائدة لهم داخل كنيسة القيامة، أما طائفة الروم الأرثوذكس وعلى الأخص زمن غبطة البطريرك كيريوس كيريوس ذميانوس فقد ابتكرت عادة إقامة قداس بمناسبة الغسل في سطح القيامة[1] وليس داخلها وهذا الإحتفال يعتبر من أروع الإحتفالات المسيحية بالقدس لما تقوم به البطريركية من تمثيل ديني رائع لا يمكن أن ينساه كل من شاهده مرة في بيت المقدس. تنصب البطريركية سريرا عظيما من الخشب والحديد ومن حوله مقاعد ثابتة ثلاثة عشر مقعدا وهو عدد تلامذة السيد يسوع المسيح فتصعد كهنة طائفة الروم العرب وباقي العدد يكمل من اليونان، يصعدوا بسلم خاص للسرير ويجلسون في أمكنتهم المعروفة لدى كل واحد منهم. ثم يحضر غبطة البطريرك بعدما يتم القداس الإلهي داخل كنيسة القيامة فيصعد إلى هذا السرير وفي أثناء الصلاة والترانيم الخاصة بهذا العيد تشلح الكهنة فردة كندرة [أي الحذاء] والكلسة [أي جارب] من رجلها ثم يصير تغيير بدلة البطريرك فيصبح في لمحة من البصر وكأنه (حمامجي) بثوبه الأبيض الناصع وشيته النقية والفوطة الكبيرة على كتفه ورجال الدين جميعهم يرتلون الترانيم الشجية ويبدأ بغسل رجل كل كاهن بصفته تلميذا للسيد يسوع المسيح في طبق من الفضة النادر والشماس[2] يصب الماء على رجل الكاهن من إبريق الفضي أيضا ثم ينشف الرجل بالمنشفة التي يحملها بصورة دقيقة نادرة. كل هذا يجري والجمهور الموجود من أهل المدينة والحجاج ورجال الدين ورجال الحكومة محافظين على النظام والأمن وإنك لا تجد شرفة أو نافذة أو سطح حول سطح القيامة إلا وملآن من المشاهدين ثم يبدأ بعض شبان الطائفة من العرب على أسطحة مدخل كنيسة مار يعقوب[3] بإيعاز من البطريرك يصفقون ويشوبشون [أي يغنون بشكل جماعي] ويضربون الدربكة تماما في وقت هذه الصلاة فإذا ما سكت أحدهم كان البطريرك يلفت أنظاره إليهم ويأمرهم بالسير في ضرب الدربكة والشوباش.

وفي هذه الأثناء يكون منبرا مقاما موقتا بجانب مدخل دير أبونا ابراهيم على الحائط معلقا وفوقه زيتونة خضراء يكون فيها رجل ديني كاهن يقرأ الكتاب المقدس الإنجيل قصة تغسيل الأرجل بلغات عديدة إثني عشر إنجيلا. وتنصب خصيصا لهذا الإحتفال سقايل [جمع سقالة] من الخشب مشدودة بالحبال على أكثر حيطان المحيطة بسطح القيامة وتؤجر هذه المقاعد بمبالغ عالية للحجاج الذين يزورون القدس وكذلك درجا كبيرا عريضا على سطح دير دار العذراء وعلى قسم من بستان هذا الدير ثم أسطحة دير الروم بجانب قبة أجراس القيامة وكل هذه الأمكنة كانت تؤجر غالبا



احتفال غسل الارجل امام كنيسة القيامة في القدس في ١٩٠١. المصور: دوايت الندورف.

١ نعتقد أن واصف أخطأ بإستعمال كلمة سطح بل كان يقصد في الساحة خارج الكنيسة (وهي العادة آنذاك)

٢ الشماس هو راهب في الكنيسة أقل رتبة من الكاهن.

٣ وهي كنيسة الروم الأرثوذكس المحاذية تماماً لكنيسة القيامة وتشترك معها بنفس الساحة.

إلى المسكوب[1] لكثرة عددهم وتفانيهم في حب أثريات بيت المقدس فكانوا يصرفون الأموال الكبيرة بدون حساب ثم بعد رجوعهم إلى بلادهم يرسلون الأموال إلى البطريرك والرهبان وخصوصا إلى رئيس كنيسة القيامة المدعو افتيموس فكان والحق يقال أن دير الروم لما كان عليه من غناء ونفوذ وبذخ يعتبر حكومة ضمن حكومة . ينتهي هذا الإحتفال الديني في الساعة التاسعة والنصف من صباح الخميس فتتفرغ الحكومة والقيادة إلى طلوع علم النبي موسى حالا وإليك الوصف على قدر الإمكان :



حاج روسي امام كنيسة القيامة. من مجموعة جمعية الدراسات العربية، القدس.

خميس الغسل - تقاليد المسلمين

تترك جميع الزوار والحجاج والمسؤولين والضيوف مقام النبي موسى وتتجمع في رأس العامود ويستقبلهم في الصالون المقام رئيس بلدية القدس وبعد استراحة قليلة وشرب الشرابات ينزل هذا الموكب الضخم القومي الطريق المؤدية إلى مقام السيدة مريم العذراء ثم يسير في الطريق المؤدية إلى باب الأسباط ويدخل المدينة بصورة وطنية فائقة أكثر منها عند نزوله منذ أسبوع لأن الزائرين زاد عددهم كما تبين فقد حضرت أهالي الخليل وجبل الخليل وأهالي نابلس وجبل نابلس كذلك عدد الفلاحين من قرى قضاء القدس ورام الله اللذين كانوا يدخلون القدس يوميا وينزلون إلى مقام النبي موسى في مدة الزيارة التي هي عبارة عن الأسبوع . وهكذا وفي هذا اليوم ترى مجموعة كبيرة من الأعلام والعدة فقد زادت بيرق نابلس وبيرق شباب نابلس ثم بيرق الخليل وبيرق شباب الخليل وبيرق شباب القدس اللذين لهم الحق بأن يسيروا في الأول محافظين على أعلام القدس وعلى الأخص علم النبي موسى فالأولوية في السير تكون دائما لأهل بيت المقدس . قف أيها القارئ وتأمل كيف تكون مدينة القدس في هذا اليوم (يوم خميس الغسل) من السنة فجميع المسيحيين على اختلاف طوائفهم يقومون باحتفال ليس له مثيل بالإشتراك مع من يزور المدينة المقدسة من سياح وحجاج أجانب وخصوصا كما قلت في مستهل هذا الموضوع عدد الروس العظيم ، ثم المسلمين المجتمعين فيها من ذات المدينة ومن القرى المجاورة ثم أهالي الخليل وجبل الخليل ثم أهالي نابلس وجبل نابلس . محمولة من قبل أهل القدس والخل

الجمعة الحزينة - تقاليد المسلمين

في هذا اليوم العظيم يتجمع كافة المسلمين اللذين رجعوا من مقام النبي موسى في الأمس ، تتجمع في الحرم الشريف في المسجد الأقصى والصخرة وساحة الحرم العامة فتجد الحرم في هذا اليوم يغص بالبشر حتى لا يمكن لأحد من السير في ساحاته الوسيعة إلا بصعوبة فائقة وجميع الأعلام التي أشرنا إليها وكانت محمولة من قبل أهل القدس والخليل ونابلس وقرى قضاء القدس ورام الله وجميع العدة (أي الطبول الكبيرة والصغيرة) والكاسات تضرب والناس جماعات منظمة تزف هذه الأعلامات وترنم بالأناشيد الدينية والوطنية (يسمى هذا اليوم بزفة الأعلام عند المسلمين) وذلك بعد إقامة صلاة الظهر من يوم الجمعة داخل المسجد يخرجون ويقومون بهذه الزفة العظيمة ضمن ساحات الحرم لغاية العصر ثم

يخرجون من مدينة القدس أفواجا أفواجا مودعين ويرجعون إلى مدنهم وقراهم وكل من حيث أتوا ، ويبقى في مدينة القدس العدد الكافي منهم بالنسبة إلى عدد السياح والحجاج المسيحيين من تلك السنة إلى الإنتهاء تماما من العيد .

الجمعة الحزينة – تقاليد المسيحيين

أما المسيحيين من يوم الجمعة العظيم فلا تنفك عن إقامة الصلوات والقداس داخل كنيسة القيامة كل منهم له وقت وعادة خاصة لإقامة القداس وفي هذا اليوم من حين إلى آخر تستمع إلى نقرات الأجراس التابعة لكل طائفة من المسيحيين وهي كثيرة جدا ومتفرقة في المعاهد العائدة لها بالقدس تستمع إلى ضرباتها المحزنة بمناسبة عيد الحزن وهو جناز سيادة يسوع المسيح وخصوصا في الليل من هذا اليوم إلى منتصف الليل .

وأما عادة طائفة الروم الأرثوذكس لها الحق بالإشتراك مع الإكليروس اليوناني عندما يدورون في ساحة القيامة المعروفة بالسطح . يسير الموكب المؤلف من رجال الدين حاملين الشموع ومعهم كهنة الروم العرب جميعهم فيدوروا ثلاثة دورات يرتلون فيها الترانيم الخاصة بالجناز باللغة اليونانية والعربية ومن خلفهم القناصل والموظفين وأعيان طائفة الروم العرب .

إنه والحق يقال مشهد رائع خصوصا إذا صادف أن الطقس يساعد هذه المواكب الدينية في السطح وتحت الماء وترى على الأخص حارة النصارى الدكاكين المختصة لبيع الصلبان والشموع والأكفان وخشب الزيتون المقدس والصدف للزائرين وعلى الأخص للروس وكأنها شعلة من النار الجميع في مكاسب وأرباح خيالية لأنهم ينتظرون هذه الساعات والأيام المباركة من السنة وهذه هي المدة الوحيدة في الموسم لكسب ما يصرفونه وعائلاتهم طيلة السنة . وقد تقام إحتفالات دينية الجناز عند الساعة الثانية عشر ليلا في كنيسة القيامة من غبطة البطريرك بالذات تحضرها جموع غفيرة من مختلف الطوائف .

سبت النور العظيم بالقدس للمسيحيين

في هذا اليوم العظيم تكون المراسيم عندما يكون العيد كبيس لدى كل الطوائف المسيحية في يوم واحد تكون المراسيم التقليدية الدينية مجموعة عند الطوائف التابعة للكنيسة الشرقية أي طائفة الروم الأرثوذكس والأرمن الأرثوذكس والسريان الأرثوذكس والأقباط والحبش داخل كنيسة القيامة وجميع هذه الطوائف قد إعترفت بالإجماع وقبلت بأن تؤمن وتأخذ النور من غبطة البطريرك للروم الأرثوذكس وتبارك منه وتنقله إلى كنائسهم وإلى الطائفة التي تتبع إليها .

أما طائفة اللاتين فقد انفردت لوحدها ، وأول من يجري عملية النور المبارك هو غبطة بطريرك اللاتين بالقدس بواسطة القدحة وذلك عند صباح نهار السبت حوالي الساعة التاسعة صباحا فيدخل القبر المقدس ثم يخرج ويقف أمام القبر خارجه ويبدأ القداس ثم يناول رجال الدين والرهبان والراهبات وأولاد مدارس وطائفة اللاتين جسد المسيح بواسطة برشامة.[1]

[1] البرشامة : رقيقة .

وبعد إنتهاء هذا القداس والخدمة الإلهية يقف المسؤولون عن الحكومة ومعها فريق من عائلة نسيبة وعائلة جودة فيدخلون القبر المقدس ويعملون التحريات الدقيقة خوفا من أن يكون مخفيا في زوايا القبر أي نوع من جنس الإشتعال مثل كبريت صوفانة وقداحة أو كهرباء أو غير ذلك ثم يخرج الجميع ويغلقون الباب المدخل الرئيسي للقبر المقدس ويحضر الشخص المفوض من عائلة جودة ويقفل الباب ويسلمه إلى عائلة نسيبة ويكون باب القبر مختوما بالشمع الأحمر لعندما يحضر البطريرك عند الساعة الثانية عشر تماما .

ثم تبدأ الناس فتدخل كنيسة القيامة فتدخل رجال الدين الروم الأرثوذكس إلى محلهم في كنيسة نصف الدنيا[1] ثم رجال الدين للأقباط وطائفة الأقباط وحجاج الأقباط اللذين يحضرون خصيصا من مصر ويسمونهم (مقدس) ويتخذون المكان المخصص لهم حول القبر بشبابيك خاصة في الطابق الأرضي والأول ثم رجال الدين السريان وطائفة السريان وزوارهم من الخارج ويتخذون المكان المعد لهم بجانب القبر المقدس ثم رجال الدين الأرمن وعلى رأسهم بطريرك الأرمن وطائفة الأرمن وزوار الأرمن الغرباء ويتخذون أمكنتهم من الجهة اليسرى عندما تدخل إلى ساحة القبر المقدس ولهم شبابيك في الطابق الأول تطل على القبر المقدس وأخيرا الحبش [أي الأثيوبيين] . ولا تنسى في ذلك الزمن الألوف المؤلفة من الروس المسكوب مرصوصة الواحد بجانب الآخر نساء ورجالا داخل كنيسة القيامة حول القبر المقدس وفي نصف الدنيا وخلف نصف الدنيا وفي الأروقة والزوايا والدرج المؤدي إلى الجلجلة[2] ثم الجلجلة ثم الدوار فتكون هذه الأماكن جميعها ملآنة من الناس تشبه النمل ومن الأثرياء الغرباء من يونان ومسكوب وغيرهم من يدفع الأموال الباهظة ويحتفظ بمقعد صغير أينما كان حول القبر أو على الشرفات والبلكونات التي تطل على القبر المقدس وعلى كنيسة نصف الدنيا وكل من هؤلاء الزوار يدفعون إلى رجال الدين العائدين للطائفة التي ينتسب إليها وهذه المقاعد الممتازة تكون بحسب تذاكر خاصة مطبوعة غالبا من قبل البطريركية . أما البلكونات المواجهة لقبر الخلاص لسعادة المتصرف وعائلته وقوماندان البوليس وعائلته ولمثل هؤلاء الموظفين الكبار في الدولة تقدم مجانا من قبل غبطة البطريرك ليشاهدوا الإحتفال للذكرى . كذلك يكون بين الزائرين داخل القيامة المسيحيين العرب القادمين من سوريا وخصوصا حلب ودمشق ثم لبنان وشرق الأردن وخصوصا اليونان القادمين من بلاد اليونان وجزائر اليونان وبلغاريا والجبل الأسود والبلقان وقبرص وكريت وغيرها حتى أنك لا تجد شبرا من الأرض داخل القيامة إلا فيه ناس من مختلف الشعوب وكثيرا منهم من يقضي هو وعائلاته وأولاده أربعة أو خمسة أيام ليلا ونهارا ينامون على أرض كنيسة القيامة في الأروقة العديدة منها . أما الطابق الثاني من القبة الكبيرة المعروفة بقبة القبر المقدس فلها بابا خاصا يدخل منه من سطح دير الروم الأرثوذكس بموجب تذكرة خاصة تصدر من الترجمان الأول للبطريركية وفي هذا الطابق العلوي الذي يطل من شبابيكه على داخل القيامة وخصوصا القبر المقدس كانت بعض أفراد الطائفة العرب يحضرون إحتفال سبت النور منه بالإضافة إلى السياح القادمين من الأقطار البعيدة كذلك يدخلون بموجب تذكرة خاصة . والجدير بالذكر بأن دير

١ كنيسة نصف الدنيا : مقام قبر المسيح في القيامة .

٢ الجلجلة: وهي التلة التي يعتقد انها موقع صلب المسيح وهي الان في ضمن كنيسة القيامة.

اللاتين الفرنسيسكان الذي يتمتع بسبعة شبابيك تطل على مدخل القبر المقدس تكون فارغة من المتفرجين ولا يسمح لأحد من غير اللاتين الوقوف بها في هذه الساعة حتى وإني أذكر بأنه لا يكن واحد لاتيني في إحدى هذه الشبابيك باعتبار أن احتفال سبت النور للكاثوليك قد تم وانتهى وكانوا يمنعون رجال الدولة في حالات كثيرة من استعمال هذه الشبابيك عندما يجري وقف فيضان النور المقدس لدى الطوائف الأرثوذكسية والتابعة للكنيسة الشرقية.

وبعد هذا التنظيم يحشر جميع هذا البشر داخل القيامة يسمح لشباب طائفة الروم الأرثوذكس العرب اللذين يكونون جاهزين بألبستهم التقليدية لمثل هذا العيد حاملين سنجق الشباب[1] ومعهم لاعبي السيف والترس وعدد من الدربكات يدخلون بالإضافة لمن يزور القدس من المجاورين العرب السوريين واللبنانيين وأهالي بعض القرى التابعة لمدينة القدس المسيحيين منها مثل رام الله[2] وبئرزيت وبيت لحم وبيت جالا وجفنا والطيبة وغيرها ومرات كثيرة أناس من نابلس يدخلون بالأهازيج والشوباشات بأصواتهم المرتفعة إلى عنان السماء يرددون الأنشودة المعروفة منذ القدم عند أهل بيت المقدس بمناسبة عيد سبت النور وهي كما يلي:

هذا أمر سيدنا	سبت النور وعيدنا
وسيدنا عيسى المسيح	والمسيح فادانا
واحنا اليوم فراحا	بدمه اشترانا

والبهود حزانا

عيدكم عيد القرود	يا يهود يا يهود
والمسيح فادانا	عيدنا عيد المسيح
واحنا اليوم فراحا	بدمه اشترانا

والبهود حزانا . . . وهكذا

ثم ينزل بل يخرج غبطة البطريرك من البطريركية ويسير في الشارع هو وبعض الإكليروس المخصص لمرافقته بألبسته السوداء البسيطة تظهر للعيان بأن غبطته في حالة من الحزن فيدخل باب القيامة وبعدها يجري إغلاق باب كنيسة القيامة العام رسميا من قبل عائلتي جودة ونسيبة وهكذا يصبح جميع الموجودين داخل بناء القيامة أشبه بسجن مغلق وعندما يصل غبطته إلى باب القبر المقدس الذي يكون مغلقا ومختوما بالشمع الأحمر بمعرفة الحكومة وذلك حول الساعة الثانية عشر وبعدما تكون شباب العرب يشوبشون مدة لا تقل عن الساعة قبل دخول البطريرك، يفتح باب القبر ويدخل إلى

١ سنجق الشباب : البيرق الخاص بهم .

٢ يلاحظ القارئ أن رام الله وبيت لحم وبيت جالا في هذه الفترة العثمانية كانت مجرد قرى .



وصول موكب البطريرك لكنيسة القيامة. المصور غير معروف. من مجموعة جمعية الدراسات العربية، القدس.

داخله . والذي يفتح القبر ويزيل الشمع الأحمر عن بابـــ القبر المقدس عائلة نسيبة بحضور عائلة جودة بشهادة رجال الدولة . فيلبس البطريرك ثوبه الأبيض الخاص أمام الحكومة والجمهور يدخل لوحده .

أما شباب العرب كما قلت أعلاه فعندما يدخلون القيامة يذهب الأشخاص المعروفين بحملة السناجق بواسطة المختار (وكان قديما بواسطة عائلة حنانيا ميخائيل الطويل والد حنا حنانيا) يسلم كل واحد منهم وهم ثلاثة عشر يسلم السنجق ويدور ثلاثة دورات حول القبر بعدها يكون سكوت تام من الشوباشات والأهازيج وتسلم فيما بعد هذه السناجق إلى المسؤول في القيامة وتحفظ فيها . وهكذا يبقى الجمهور داخل القيامة على الأرض والشرفات التي تطل على القبر المقدس ومن حول الدوار للقبة العليا ونصفـــ الدنيا وجميعهم ينتظر فيض النور العظيم وفي أيديهم الشموع لأجل أن يشعلوها من النور للتبريك . وعند حوالي الواحدة من بعد الظهر يفيض النور ويعلن ذلك بواسطة أجراس القبة العائدة لكنيسة القيامة الأرثوذكسية والواقعة فوق المدخل ثم يتبع ذلك الأجراس النواقيس والأجراس الصغيرة وألواح الخشب الخاصة للنواقيص والعائدة إلى الأرمن تقرع ويبتهج الشعب والجمهور بالصياح والأناشيد لدى كل الطوائف المعنية بالأمر . أما طريقة إعطاء النور فيعطي البطريرك فندا[1] إلى خوري الطائفة وفندا إلى عائلة سحيت نيابة عن الطائفة والأبناء العربية .

ثم فندا خاصا لرجل الدين المفوض لدى الأرمن وهذا بدوره يعطي السريان والأقباط . ثم يربط فندا بواسطة الحبل الطويل مضيئا ويسحب من أعلى نوافذ القبة التي فوق القبر المقدس والتي لها بابا خاصا منها يشرف على سطح دير الروم وبأقل من لمح البصر ينتشر ضوء النور المقدس في كل مكان داخل القيامة وياله من منظر رائع والخوف كل الخوف من الحريق من كثرة عدد الشموع المضاءة بيد كل واحد يكون داخل القيامة . وفي هذه الساعة الرهيبة تسمع الزغاريت من السيدات الزائرين وخصوصا الأقباط من مصر ثم الشوباشات من كل صوب ويهرعون تدريجيا بالخروج من بوابة كنيسة القيامة بعدما تفتح حالا عندما يفيض النور .

ثم يخرج موكب شباب أبناء الطائفة العربية الأرثوذكسية بالقدس ويتبعه مواكب الزائرين من شباب رام الله وبيت لحم والقرى المحيطة بالقدس كذلك الأغراب السوريين وخصوصا أبناء حلب ثم لبنان . والعادة تسير هذه المواكب من القيامة وتصعد الدرج الواقع داخل كثدرائية مار يعقوب والذي ينفذ إلى أسطحة دير الروم الفسيحة مباشرة وعلى هذه الأسطحة تشاهد ألعاب الفروسية السيف والترس من شباب الطائفة الأرثوذكسية أمثال جورج وسابا الحرامي ومتري المنى وخليل الحكم ومن ثم عيسى الغوري والياس الخروف فيبدعون كل الإبداع والشيخ الشهير الذي كان يتقن هذه الفروسية ويحسن لباسها النادر العربي كان المرحوم نخلة الهشة . والأجمل منها هو ألعاب السيف الترس من أبناء الأرثوذكس الزائرين من حلب فهناك الخفة والرشاقة وإني أذكر أن الأكثرية من هؤلاء الحلبية كانت تلبس الكادر الحمراء وكل له ترانيم خاصة وكثيرا كان الشاب الذي بيده السيف يكون واقفا على أكتاف شخص قوي آخر ويلقي

[1] فندا : قنديل النور المقدس .

مجموعة من رجالات الطائفة الأرثوذكسية في القدس. الصورة من الألبوم رقم ٣ من المجموعة الجوهرية ويصفها واصف، بأنها صورة "جمعية تنصيب بطريرك عربي" التاريخ غير معلوم لكنه بالغالب في أواخر العشرينات من القرن العشرين والمصور غير معروف.



أبيات الحماس وخصوصا" سبت النور وعيدنا ثم يا مارجرجس على الخضر صلينا واحنا النصارى الشمع بايدينا ثم ياعذراء عليك السلام ياعذراء السلام" . وبحسب الوضع السياسي فكانوا دائما يدعون إلى السلطان فيقولون مثلا "عبد الحميد عزك دام يلبق لك شك النيشان" أو" عبد الحميد يامنصور وبسيفك هدينا السور"إلى ما هنالك من أناشيد دينية ووطنية وشعبية وكان الجميع يردد ما قاله الحامل السيف والواقف على الأكتاف ويقضوا الساعات الطويلة بلعبة السيف على أسطحة دير الروم ولا تسأل عن المتفرجين من أسطحة المنازل القريبة والبعيد حتى من عل مأذنة مسجد عمربن الخطاب المقابلة لكنيسة القيامة . وإني أذكر في اللحظة التي يفيض فيها النور داخل الكنيسة ، فإن أكثر من أربع أو خمسة أشخاص بلباسهم الأبيض السروال من أبناء طائفة الروم العرب وطائفة الأرمن العرب من أهالي القدس كانوا يركضون على رؤوس وأكتاف الجمهور وكأنهم يمشون على الأرض وهذا أكبر دليل يعبر عن إزدحام العالم الموجودين في تلك البقعة والذي يبلغ عددهم على وجه التخمين لا يقل عن ٣٠ ألف داخل كنيسة القيامة عندما يفيض النور .

استقبال الراهب "الكرنفال" - بوريم عند اليهود

عند برامول[١] صوم عيد الفصح المجيد تكون العادة المتبعة عند أهالي مدينة القدس وأخص منها طائفة الروم الأرثوذكس العرب يقيمون ليالي طويلة في بيوتهم السهرات المشهورة والمعروفة بالحرومة فترى أغلب البيوت والعائلات من شباب وسيدات يتفقون بترتيب الحرومة فيلبسون اللباس النادر الشعبي مقلدين بذلك الشعوب المختلفة من العالم ويخفون وجوههم وأجسامهم حتى أنه يصعب عليك معرفة الشخص الذي يلبس هذه الأزياء . فمثلا يمثلون العرس فترى العروس بألبستها الأنيقة وتبرجها الجميل خصوصا على وجهها وشعرها ومصاغها على الصدر والأذنين والرقبة مع أن الشخص يكون شابا وليس امرأة أو بنت والعكس بالعكس فيدخلون البيوت على حين غرة ومن حولهم جماعات كل لابس بمفرده يمثل دور القداس بألبسته والكاهن ولاعب السيف والترس يرقصون ويغنون حتى يتخايل لمن يراهم بأنه في حفلة عرس "مسخرة" .

كذلك جماعة من الناس يقلدون ما تلبسه اليهود والسكناج فيضعون على رؤوسهم السوالف من الشعر وآخر يمثل لبس فلاح القرية وزوجته بمختلف ألبستها لباس رام الله تطريز الفاخر أو بيت لحم الشطوة وغيره يمثل لبس القزاك[٢] فيرتدي السروال والكالباك والدمير الملآن صدره من فشك البارود وعلى وسطه الآمه [؟] وهذا يلبس ويقلد لباس الأرناؤوط[٣] بطربوشه الأحمر المغربي والشرابة الكحلي تدلى على كتفه لصدره ثم قنصل بألبسته الرسمية وعلى رأسه التوب هات[٤] إلى ما هنالك من ألبسة يعجز القلم عن وصفها . وتزور هذه الجماعات وفرق الآت الطرب معها من عود ودف وزمر يزورون الجيران وسكان الحي الذي يقطنون فيه .

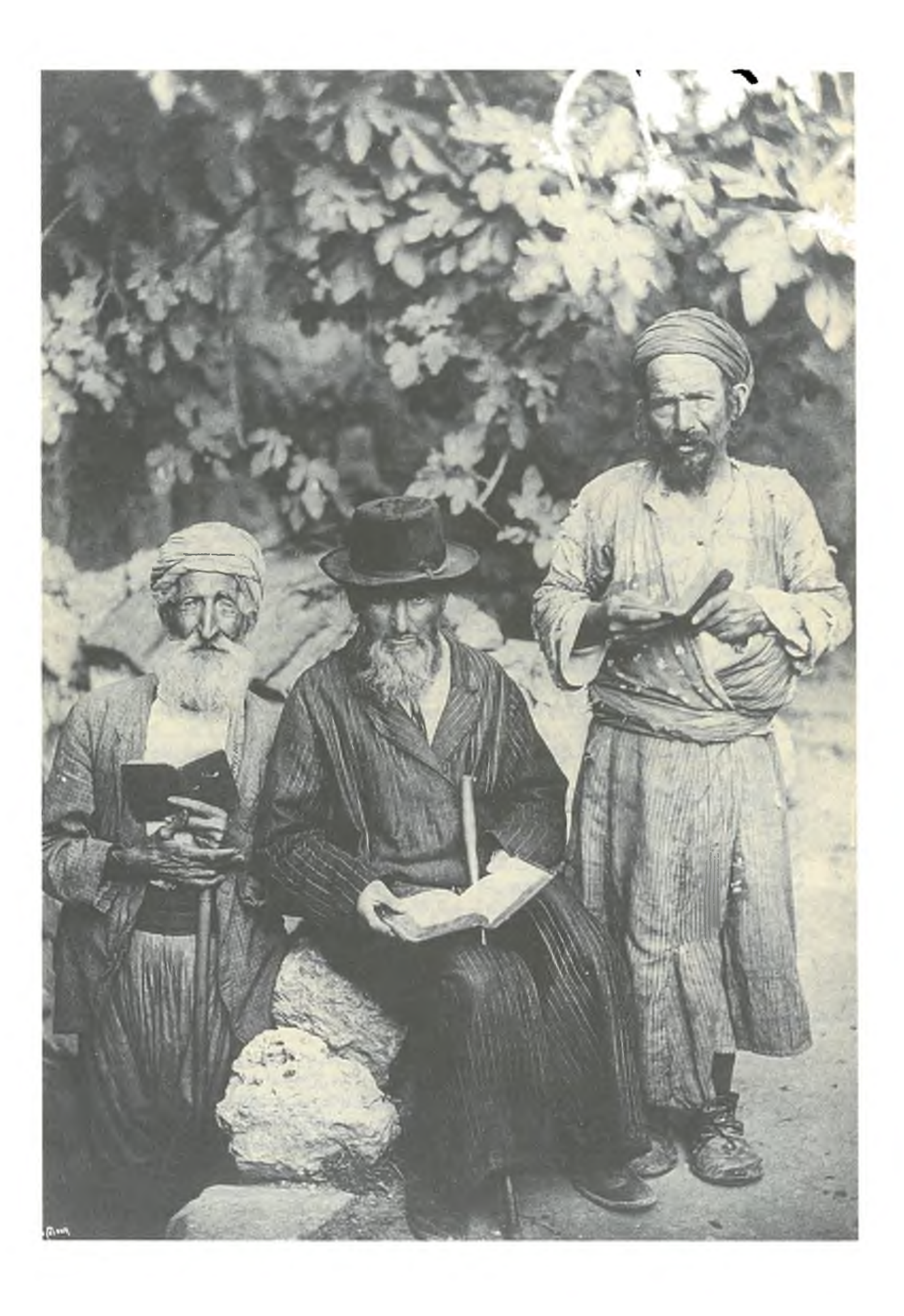
١ برامول: وقفة العيد عند الروم الارثودكس.

٢ القوزاك : وهي القبائل المحاربة من جنوب روسيا.

٣ الآرناؤوط : التعبير العربي القديم للألبان.

٤ التوب هات : القبعة الارستقراطية الاوروبية ذات أصل عربي.

صورة لبعض من يهود القدس في أواخر العهد العثماني الصورة من ألبوم رقم ٦ من المجموعة الجوهرية.



وإني أذكر من جملة هذه الأزياء النادرة :كنت ألبس تنورة سيدة وأشدها على وسطي بعدما أكون لابسا السروال الأبيض وأضع الغربال فوق رأسي، فيجيء شخص آخر ويرفع التنورة من وسطي إلى ما فوق الغربال ويربطها فيصير القسم الأعلى من جسمي ورأسي ضمن هذه التنورة وكنت أرفع يدي داخلها أيضا لأنظر إلى ما أمامي من الشق فتحة التنورة ماسك طرفه يد واحدة والأخرى طويلة وعليها أكمام طويلة تقلد يدين الرجل وأخيرا وبهذه الصورة ندخل إلى قاعة المتفرجين فأرقص على أنغام الآت الموسيقى من دربكة أو غيره الأمر الذي يدهش من شاهدني ولم يخطر في بال أحد أن هذا هو إنسان من عظم تغيير الملامح من مرة، والأنكى من هذا يجي زميل آخر مثلا أخي توفيق (فيقف على خشبتين عاليتين ولهما موقف لوضع الرجلين يعلو عن مستوى الأرض نصف متر وعلى رؤوس خشبتين (القباسي) من تحت الإبط لكل يد ، وبعدما يلبس وجه الإخفاء المخيف يضع طنطور عال على الرأس، ثم يلبسوه بلرين طويل) من على أكتافه فيغطي هذا البلرين الجسم كله وعندما يمشي هذا الهيكل تجد ماردا طويلا من الصعب أن يدخل من أبواب البيوت فيمشي هذا المارد بجانبي الهيكل الدحبر القصير شيء يضحك الحزين .

وقد اعتاد فريق من الطائفة أن يأخذ الدراهم من غبطة البطريرك فيعملوا هذه التقاليع بإتقان وكان على رأسهم جليل قمر يحمل المكنسة بعدما يكون لابسا ألبسة كريكاتورية فيسيرون بعد ظهر نهار[ناقص في الأصل] من البراموول من دير نوفريوس الكائن في وادي الربابه جنوب بركة السلطان بالقدس كل واحد من هذه الجوقة متفننا بزيه البديع ويسيرون على الدربكة والرئيس يحمل جرسا كبيرا يدقه إلى أن يصلوا باب الخليل ثم لدير الروم. أما هذا اليوم فيكون مشهورا لدى أهل مدينة القدس من مسيحيين ومسلمين حتى اليهود فتكون العائلات وأولادهم محافظين على مقاعدهم ومحلاتهم منذ فجر ذلك النهار وذلك على جبل صهيون المشرف على طريق باب الخليل، ثم ذات تلة باب الخليل ترى جمهور من مختلف الأهلين منهم الجالس على المقاهي الكثيرة التي كانت توجد هناك في تلك المحلة ومنهم من وقف طيلة النهار على رجليه يتسكع وينتظر دخول الكرنفال المسخرة التي تعرف بملاقات الراهب .

وإني ألفت نظر القارئ أن هذه العادة الكرنفال كانت تمثل أيضا لدى يهود القدس في بيوتهم وقومبانياتهم المحيطة بالمدينة ويدعونها يوم "البوريم" وقد قضينا الليالي الطوال ما بينهم في القومبانيات شفنا فيها العجب وعلى الأخص زمن تركيا .

خميس الصعود الطور

يقع عيد الصعود المجيد عند المسيحيين بعد أربعين يوما من أحد القيامة أي نهار عيد الفصح عندما صعد سيدنا يسوع المسيح إلى السماء . ولما كان موقع الصعود من جبل الطور وهي ولا شك نعمة جزيلة زيدت على النعم التي اختصت بها أهالي الديار المقدسة فحدثت جميع ما قام به سيادة المسيح من ولادة وتبشير وعماد ودخوله إلى الهيكل ثم دخوله إلى القدس نهار أحد الشعانين ثم آلامه قبل الصلب وسيره حاملا صليبه في طريق الآلام المعروفة بالمراحل داخل القدس

إلى أن وصل (القيامة) وصلب وقام في اليوم الثالث وكانت هذه الأماكن المقدسة والتي لم تزل خالدة مكرمة مباركة مقدسة لدى العالم، فقد أجمعت المسيحيين وأخص الأرثوذكسيين منهم على القيام باحتفال ديني مهيب في الموقع الذي صعد منه سيدنا المسيح وكان يوم خميس ولذلك دعي بخميس الصعود أو خميس الطور نسبة لموقعه وهو جبل الطور أو الزيتون. ولما كان من المعتقد بأن محل صعود السيد المسيح في جامع للمسلمين مقام في منتصف قرية الطور بجوار كنيسة كلاليا للأرثوذكس جرى الإتفاق والتراضي من قديم أن طائفة الروم الأرثوذكس تقيم عادة القداس الهي بمناسبة الصعود وهي مرة من كل سنة في قسم خاص من هذا الجامع الأمر الذي يعطي القاري صورة مصغرة عن مدى الأخوة القائمة ما بين المسيحي والمسلم وعلى الأخص المسيحيين الأرثودوكس منذ القدم ليومنا هذا بعناية الله)

ففي هذا اليوم تتجلى فيه البهجة والسرور فتهرع رجال الدين ويقيموا القداس الإلهي العظيم هناك وعلى الأخص الروس المسكوب اللذين لهم ديرا عظيما وكنيسة جميلة على موقع جبل الطور، ولذلك أقول لم تبق عائلة من طائفة الروم في المدينة إلا وعملت الجهد ومنذ بزوغ الشمس خرجوا أفواجا فمنهم من ركب الخيل والحمير ومنهم من اختص في عربة ومنهم من ذهب ماشيا على رجليه كل حسب مقدرته ونصبوا الخيم أو الستائر حول أشجار الزيتون المباركة في دير المسكوب أو بجواره واصطحبوا معهم أنواع المآكل والخمور فقضوا كل هذا النهار تحت الأشجار يشربون ما أمكن شربه من الخمر ويأكلون ويغنون ويرقصون وكثيرا منهم من أخذ آلات الطرب لمصاحبة غنائهم القومي إلى بعد غروب الشمس وذلك بعدما قضوا فريضة الصلاة والتبرك في ذات موقع الصعود كما أن رجال الدين لا ينفكون عن الصلاة وأنها للحظة سحر أخاذة إذا أتيح لك أن تزور كنيسة المسكوب هذه وتسمع ألحانا موسيقية كلاسيكية روسية من الجوقة الروسية الموجودة في الدير ذات الأربع أصوات وبدون مصاحبة أي آلة من آلات الطرب أو الإيقاع والمهم في هذا الدير أن قبة الأجراس المقامة فوق الكنيسة عظيمة جدا وذات علو شاهق رغما عن موقع جبل الطور المقام البناء والجرسية عليه فإذا صعدت إلى الشرفات العلوية فإنك ترى بأم عينك ما لهذه البلاد من روعة وقداسة فيكون نهر الأردن يصب في البحر الميت ثم الغور ومساحاته ثم جبال الشرق وكأنها تحت قدميك كما وأن الجهة الغربية ترى البحر المتوسط.

عيد العنصرة

يصادف عيد العنصرة نهار الإثنين. وهو بعد مدة خمسين يوما من عيد الفصح المجيد. ومعنى هذا العيد هو حلول روح القدس على تلاميذ المسيح بالسنة لهب. ففي هذا العيد تقام الإحتفالات الدينية في موقع الصعود في الطور وتشترك طائفة الروم بقضاء طيلة النهار كما فصلنا في الصفحة أعلاه أي إحتفالات عيد الصعود. وأن في هذه الأعياد وخصوصا قبل وقوع الإنقلاب الشيوعي[1] أي قبل دخولنا في الحرب العظمى الأولى كان للقدس وسائر الأماكن المقدسة المسيحية بهجة وروعة زائدة لما كان يدخل هذه البلاد من الروس ويصرفون الأموال الطائلة وكانوا هم الحق يقال السبب

١ الإنقلاب الشيوعي: المقصود ثورة أكتوبر ١٩١٧م في روسيا.

الرئيسي في إعاشة الأهلين وأخصهم الروم الأرثوذكس لأن هذا الشعب المتفاني في الإيمان للدين المسيحي وكان الزائر منهم يسير على قدميه فيذهب مثلا من القدس ويصلي في العيزرية وأريحا والأردن ونهره وبحر الميت والأديرة التابعة مثل دير قرنطل وحجلا ومارجريس ثم من القدس إلى بيت لحم ومار الياس وغير هذه الأماكن فينام عندما يتعب ليلا ونهارا وهكذا أين ما حل يصرف نقود لصاحب الخان ولبائع الخبز والخمار والقهوجي أن كان على الطريق أو البحر ثم يدخل هذه الأماكن ويدفع النقود ويشتري الشموع والصلبان والبخور ثم يرجع من حيث أتى فيصرف مدة لا تقل عن الشهرين من السنة لأن حالة السفر كانت مقصورة على الدواب فقط وإني لا أبالغ إذا قلت أنه لا أقل من ٣٠ إلى ٣٥ ألف روسي يكون متجولا في بلادنا ليس له شاغل سوى الصلاة ودفع النقود . ولهذا السبب فإنك تجد أن منشآت الروس في بلادنا هي أكبر عددا من منشآت الدول الأخرى .

وعلى كل حال أعود وأقول أن يوم عيد العنصرة من الأعياد التي تجلب الفرح والترفيه لأهالي مدينة القدس بالإضافة إلى قداسة العيد .

دير المصلبة وعيد الصليب

أما عيد الصليب فإن الباحث يجد أنه كان ذكرى لوجود الصليب المقدس عندما جاء قسطنطين وهيلانة لبيت المقدس فوجدوا الصليب الحقيقي الذي صلب عليه سيدنا يسوع المسيح وذلك في مغارة الصليب في الطابق السفلي لكنيسة القيامة .

وأنه يقال بأن الشجرة التي قطع منها هذا الصليب كانت في الموقع الذي أنشأ عليه دير المصلبة بالقدس من الجهة الغربية في الوادي . أن هذا الدير كبير جدا وقديم وقد أقيم من قبل البطريركية الأرثوذكسية بالقدس على الأرض والأراضي التي كانت تخص هذه البطريركية . ولكن مع كل أسف قد بيع قسما كبيرا من الأراضي التي كانت تحيط به إلى اليهود وأصبح عمران يعرف بمحلة رحافيا .

وفي هذا الدير مدرسة شهيرة تعرف بمدرسة المصلبة لعلم اللاهوت وإن أكثر رهبان ومطارنة وبطاركة الروم الأرثوذكس الموجودين تخرجوا بعلم اللاهوت خصوصا من هذه المدرسة أذكر منهم : تيموتاوس ، كيرلوس ، أفذوروس ، جراسيموس ،أثيناغوراس ، ثيوذورتوس ، أفراميوس ، كرياكوس وبهذه المناسبة أعلم القاري بأن الأديب المرحوم بندلي الجوزي[1] وغيره من طائفة الروم العرب تعلم فيها عندما كان الإكليروس اليوناني ينظر إلى طائفة العرب بحق الإشتراك نوعا في الوقف .

كنت وإخواني نشترك بشطحة الصلبة منذ الصباح من ذلك اليوم وكانت والحق يقال رحلة طويلة لأهل مدينة القدس في الزمن الغابر نظرا لبعد موقع هذا الدير عن المدينة وعدم وجود وسائط النقل المريحة . كانت العائلات تجلس في الدير طيلة النهار تحت ظل أشجار الصنوبر وحب قريش الكثيرة الكثيفة الواقعة أمام الدير من جهته الشرقية من طرف

١ بندلي الجوزي : المؤرخ المقدسي واستاذ الاستشراق في جامعة باكو بجورجيا، اشتهر بمؤلفاته عن التاريخ الاجتماعي للحقب الاسلامية .

الرئيسي في إعاشـة الأهلين وأخصهم الروم الأرثوذكس لأن هذا الشـعب المتفاني في الإيمان للدين المسيحي وكان الزائر منهم يسير على قدميه فيذهب مثلا من القدس ويصلي في العيزرية وأريحا والأردن ونهره وبحر الميت والأديرة التابعة مثل دير قرنطل وحجلا ومارجريس ثم من القدس إلى بيت لحم ومار الياس وغير هذه الأماكن فينام عندما يتعب ليلا ونهارا وهكذا أين ما حل يصرف نقود لصاحب الخان ولبائع الخبز والخمار والقهوجي أن كان على الطريق أو البحر ثم يدخل هذه الأماكن ويدفع النقود ويشتري الشموع والصلبان والبخور ثم يرجع من حيث أتى فيصرف مدة لا تقل عن الشهرين من السنة لأن حالة السفر كانت مقصورة على الدواب فقط وإني لا أبالغ إذا قلت أنه لا أقل من ٣٠ إلى ٣٥ ألف روسي يكون متجولا في بلادنا ليس له شاغل سوى الصلاة ودفع النقود . ولهذا السبب فإنك تجد أن منشآت الروس في بلادنا هي أكبر عددا من منشآت الدول الأخرى .

وعلى كل حال أعود وأقول أن يوم عيد العنصرة من الأعياد التي تجلب الفرح والترفيه لأهالي مدينة القدس بالإضافة إلى قداسة العيد .

دير المصلبة وعيد الصليب

أما عيد الصليب فإن الباحث يجد أنه كان ذكرى لوجود الصليب المقدس عندما جاء قسطنطين وهيلانة لبيت المقدس فوجدوا الصليب الحقيقي الذي صلب عليه سيدنا يسوع المسيح وذلك في مغارة الصليب في الطابق السفلي لكنيسة القيامة .

وأنه يقال بأن الشجرة التي قطع منها هذا الصليب كانت في الموقع الذي أنشأ عليه دير المصلبة بالقدس من الجهة الغربية في الوادي . أن هذا الدير كبير جدا وقديم وقد أقيم من قبل البطريركية الأرثوذكسية بالقدس على الأرض والأراضي التي كانت تخص هذه البطريركية . ولكن مع كل أسف قد بيع قسما كبيرا من الأراضي التي كانت تحيط به إلى اليهود وأصبح عمران يعرف بمحلة رحافيا .

وفي هذا الدير مدرسة شهيرة تعرف بمدرسة المصلبة لعلم اللاهوت وإن أكثر رهبان ومطارنة وبطاركة الروم الأرثوذكس الموجودين تخرجوا بعلم اللاهوت خصوصا من هذه المدرسة أذكر منهم : تيموتاوس ، كيرلوس ، أفذوروس ، جراسيموس ،أثيناغوراس ، ثيوذوروتوس ، أفراميوس ، كرياكوس وبهذه المناسبة أعلم القاري بأن الأديب المرحوم بندلي الجوزي[1] وغيره من طائفة الروم العرب تعلم فيها عندما كان الإكليروس اليوناني ينظر إلى طائفة العرب بحق الإشتراك نوعا في الوقف .

كنت وإخواني نشترك بشطحة الصلبة منذ الصباح من ذلك اليوم وكانت والحق يقال رحلة طويلة لأهل مدينة القدس في الزمن الغابر نظرا لبعد موقع هذا الدير عن المدينة وعدم وجود وسائط النقل المريحة . كانت العائلات تجلس في الدير طيلة النهار تحت ظل أشجار الصنوبر وحب قريش الكثيرة الكثيفة الواقعة أمام الدير من جهته الشرقية من طرف

١ بندلي الجوزي : المؤرخ المقدسي واستاذ الاستشراق في جامعة باكو بجورجيا، اشتهر بمؤلفاته عن التاريخ الاجتماعي للحقب الاسلامية .

الوادي وصاعدا إلى حوالي منتصف الجبل . كل ومعه طعامه وشرابه ومشروبه من الخمر . أما الماء فكنا ننقلها من الدير ومن آباره الكبيرة . وكان يسمح لنا ولجميع الشطاح[1] أن يدخلوا الدير وهكذا كنا ندخله ونتفسح على أسطحته الوسيعة وغرفه الضخمة وهو والحق يقال من أقدم الأديرة في هذه البلاد وكأنه قلعة أو حصن في ذلك الوادي ولم يكن حذائه أي بناء كان .

وكنا نتفرج على صفوف علم اللاهوت الأنيقة ثم ذهلنا من مكتبة هذا الدير التي تضم ألوف من الكتب القديمة النادرة على مختلف أنواع العلم وأكثرها باللغة اليونانية وكثير منها مخطوط . والواجب ذكره في هذا الصدد أن البطريركية خصصت في غرف كبيرة من هذا الدير للآثار وفيها الكثير من الآثارات النفيسة وذات القيمة وإني أذكر أن في أعلى هذه الغرفة كانت أفعى من جنس بوا مصبرة بالألوان الطبيعية المختلفة طولها حوالي الخمسة أمتار تقريبا فكنا نعجب لمنظرها .

وكنا نرجع إلى مدينة القدس فالبعض يركب الحمير والآخر يغني ويشوبش ويشرب العرق من باب القنينة وهو ماشي ويناول رفيقه ليشاركه الفرح وكثير من الشباب كانوا كما كانت العادة في كل المناسبات يطلقون البارود من مسدساتهم وبنادقهم فما أحلى تلك الأيام . كانت آخر شطحة للمرحوم والدي من حياته في هذا الدير تحت ظل أشجاره الحب قريش وقد أسعدني الحظ فرافقته وغنيت وعزفت العود له ولأصدقائه كما دونت ذلك بالتفصيل في مكان آخر من هذا الكتاب .

مار الياس

إن موقع دير وكنيسة القديس الياس على طريق القدس - بيت لحم يظهر جليا عندما تقف باب الخليل إلى الجنوب . وقد فهمت بأن هذا الدير لم يكن مقاما على شيء أثري مقدس ثابت كمثل الآثارات المعروفة بالقدس وعلى الأخص بيت لحم إنما كانت العادة في قديم الزمان يبنون في حالات كثيرة أديرة تكون منعزلة عن البلد والعمران فخوفا من الهجوم عليها من البدو في البلاد وجدوا بأنه أحسن حل للتخلص من الغزو والهجوم من القبائل الغير مسيحية أن يسموا الدير وكنيسته بإسم (مار الياس أو الخضر) لما لهذين القديسين أو بالأحرى قديس واحد كما يقولون من احترام وإيمان من هذه القبائل . وعلى كل حال إن دير مارالياس هو من أعظم وأضخم الأديرة المعروفة تابع لبطريركية الروم الأرثوذكس بالقدس وفيه الغرف العديدة والساحات السماوية الفسيحة وتقع الكنيسة في الطابق الأرضي منه . وله وقف خاص من حوله غابات من أشجار الزيتون القديم الروماني وعملية عصر الزيتون مشهورة فإنك تحصل على ناتج الزيت الأصلي النظيف الصافي والذي يباع دائما بأسعار أكثر من سعر الزيت الآخر من البلاد .

يكون عيد مارالياس في ٢٠ من شهر تموز شرقي من السنة في فصل الصيف والمثل المعروف لدى مزارعين هذه البلاد يقول (في عيد مارالياس يتخلق الغيم) أن الطقس يميل قليلا إلى البرود . وهكذا يكون براмول العيد يوما مشهورا في

[1] الاولى - الشطاح : المشارك بالشطحة وهي الرحلة الترفيهية ، وربما استنبط الجوهرية الكلمة .

الدير وعلى الأخص الأراضي المحيطة بها من كل الجهات فقد تحضر طائفة الروم الأرثوذكس العرب من مدينة القدس ومن بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور وغيرها من المدن المسيحية منذ الصباح الباكر ويشطحون مع عائلاتهم وأولادهم تحت أشجار الزيتون المنتشرة هناك لغاية المساء يأكلون ويشربون الكحول وخصوصا أهالي بيت لحم ويغنون ويدبكون فترى تلك المنطقة ملآنة بالعالم والطريق الممتدة من هذا الدير إلى بيت لحم والقدس مرصوصة بألوف الناس والعربات والدواب وهناك تحت الأشجار البائعين من كل أصناف الأكل والشراب والنقرشة ثم الملاهي والألعاب للأولاد والدربكات وغيرها شي يخيل للناظر بأنه في ساحة حرب سلمية.[1] هذا وتعج الكنيسة داخل الدير برجال الدين ثم تستلم النذورات على اختلاف أنواعها من الأهالي اللذين ينذرها لمارالياس بمناسبة الحوادث التي تصيبهم فيقدمون الشموع وتنك الزيت أو الأيقونات أو تطريز على قطع خاصة صنع بيت لحم للكنيسة وخدمة الكنيسة. هذه لمحة وجيزة عن عيد وشطحة مارالياس عند الروم الأرثوذكس وإني أذكر أيضا أن مثل هذه الإحتفالات تقام أيضا في بيت لحم بمناسبة عيد الميلاد المجيد فيسير ركب غبطة بطريرك القدس في ٢٤ من كانون الأول من السنة باحتفال رسمي مهيب من باب الخليل ثم يدخل بيت لحم باستقبال رسمي عظيم.

شطحة اليهودية بالقدس

يوجد مغارتين واقعتين في حي الشيخ جراح بالقدس بجوار أراضي وقف أبو جبنة تعتقد اليهود بأنهما قبور للصديق شمعون وكانت اليهود تزور هذه المقابر أعتقد مرتين في السنة ويقضون النهار تحت ظل أشجار الزيتون وكانوا وأكثرهم من اليهود الشرقيين اللذين يحافظون على العوائد الشرقية وخصوصا العربية في البلاد ومنهم جوقات موسيقية وتريه أذكر حايم عازف العود والكمان وزاكي من حلب ضارب الدف وله الصوت العالي المشبع ويغني غالبا الموشحات الأندلسية وبعض الحياكي يقضون الأوقات الجميلة طيلة النهار بالغناء والأهازيج وهكذا كان العرب من أهالي القدس المسلمين والمسيحيين يشاركون الجماهير اليهودية فتذهب العالات ويقضون الشطحة التي تعرف عند العرب بشطحة اليهودية فيكون الجبل في ذلك الموقع إلى الوادي مزدحم بالأهالي على اختلاف أنواعها والباعة المتجولة بينهم وكنت وإخواني لا نضيع الفرص أبدا.

الشطحة الدائمة في الصيف في سعد وسعيد

إن شطحات محلة سعد وسعيد فقد تقام بالقدس لنزهة الأهالي من مسلمين ومسيحيين وليست مبنية هذه الشطحات على أساس ديني كما سبق تدوين الكثير منها في هذا الكتاب.

إن محلة سعد وسعيد تقع من حدود جامع ومئذنة سعد وسعيد المقابل لدير الدومنيكان[2] طريق نابلس إلى الطريق الواقعة خلف مدرسة المطران الإنكليزية الغربية عند مدخل سنهدريا ويحدها من الجهة القبلية البيوت التي أنشأت

١ ساحة حرب سليمه : من مساهمات الجوهرية اللغوية.

٢ الدومنيكان : المعروف باسم مدرسة التوراة اليوم Ecole Biblique على شارع نابلس.

مجددا في حي المصرارة تبدأ من أملاك عائلة الدزدار وتنتهي إلى أملاك حسن بك الترجمان والحد الشمالي هو طريق العام المعروفة بطريق نابلس. هذا الموقع يحتوي بكثرة على أشجار الزيتون وبصفته قريبا إلى المدينة القديمة وخصوصا لباب العامود وباب الساهرة فقد اعتادت أهالي مدينة القدس ومنذ القدم عندما كانت تغلق أبواب المدينة عند الغروب اعتادت أن تخرج العائلات وأولادها في فصل الصيف من المدينة بعد ظهر كل يوم وتتنزه في هذا الموقع الفسيح. تجد كل عائلة أو بالشراكة مع عائلة أو عائلتين أخرى يجلسون تحت شجرة زيتون وفي حالة حرارة الشمس يستترون بواسطة الشراشف البيضاء أو الحرامات يربطونها في أغصان الشجرة تتدلى إلى الأرض ويقضون هذا الوقت لحين الغروب يشربون الأركيلة ويأكلون مع أولادهم ويشرب المسيحيين منهم العرق أو النبيذ ويشترون الحلوى والترمس والحاملة والكعك وغيره من الباعة المتجولين هناك والحق يقال أن محلة سعد وسعيد كانت المتنزه العمومي لمدينة القدس ولا يوجد سواها في ذلك الزمن.[١]

كنت وإخواني نرافق الوالدة في هذه الشطحات ونأكل بعض المآكل التي كانت تباع هناك مآكل طريفة ورغما عن قذارتها إلا أننا كنا نجدها لذيذة جدا وسأبين للقاري الكريم لمحة وجيزة عنها في فصل آخر يإذن الله وأن لنا ذكريات جميله في شطحات سعد وسعيد والتي مع الأسف توقفت اليوم ربما بالنظر إلى ضعف أشجار الزيتون في الوقت الحاضر وترقية الأهلين في المعيشة ومستواها.

[١] من المفارقة أن منطقة سعد وسعيد أصبحت عند نشر هذا الكتاب (عام ٢٠٠٣) التجمع الرئيسي للمطاعم في القدس العربية (المحرران).

شطحة بئر أيوب

كانت ولا شك الأمطار غزيرة في القدس فكنا مثلا نعيش في جو معتم فلا نرى الشمس أكثر من ثلاث أسابيع والمطر متواصل ثم البرد والثلوج وقد وجد بئرا يعرف ببئر أيوب في الجهة الشرقية من قرية سلوان السفلى بجانب القدس. هذا بئر فيه نبعة ضعيفة إنما عندما يتكاثر المطر والرعود فعندما يمتلئ أولا من مياه الأمطار تتدفق مياهه من ثغرة خاصة به وتنزل بقوة فائقة تصب في الوادي الواقع بشرقي البئر إلى أن ينتهي في البحر الميت، وهكذا تبقى عند فيضان بئر أيوب مدة لا تقل عن الشهر. وقد انتهزت أهالي مدينة القدس من مختلف طوائفها هذه الفرصة ولأجل اتخاذهم حرارة الشمس الدافئة بعد مدة طويلة يقضونها داخل بيوتهم داخل سور المدينة يذهبون جماعات جماعات مشيا على الأقدام من رجال وسيدات وأولاد ويتنزهون على ضفتي هذه النبعة التي تكون عند أهل القدس بمثابة نهر، يأخذون الأكل في السلال وربما البعض يحمل ما يقدر على شرائه في خرج ويركب على حمار.

والجدير بالذكر أن موقع هذه البئر بئر أيوب مع الأسف صادف أن يكون بجانب المجاري الأوساخ لمدينة القدس التي تنصب من المدينة بواسطة أقنية تحت الأرض أما عند وصول هذه الأوساخ تكون مكشوفة بجانب بئر أيوب فتصور يا أخي هذا المنظر كنا نشطح ونغسل أرجلنا في ماء زلال من بئر أيوب ولكن للأسف بجانبنا تماما نهرا كبيرا من الأوساخ

ورائحته القذرة، وإني أعتقد بأن جميع أهل مدينة القدس تمتعت بهذا المنظر منذ نشأتها وترعرعت على رائحة الأقذار بجانبه.

برامول عيد الغطاس

إن الإحتفال الديني لعيد الغطاس وهو عُمّاد[1] يسوع المسيح في نهر الأردن من قبل القديس يوحنا المعمدان وكان يمثل من قبل البطريركية الأرثوذكسية وبالإشتراك مع الطائفة العرب بروعة فائقة في زمن الحكم العثماني والذي أدون هذه الذكريات حوله .

أحب أن أعلم القاري بأن المحل الوحيد في موقع المغطس على نهر الأردن كان للبطريركية الأرثوذكسية فقط فقد وافقت وسمحت الحكومة العثمانية ببناء موقع خاصا لهذا الإحتفال دون الطوائف الأخرى بالقدس. وهكذا كان في هذا اليوم الذي يقع [ناقص في الأصل] من كانون الثاني من السنة يتحرك موكب رجال الدين يرأسهم نيافة المطران من القدس ويقضون الوقت في دير مار يوحنا القريب من موقع المغطس. يقام تمثيل خدمة العماد الإلهي من قبل نيافة المطران ورجال الدين اللذين يرافقوه في (فلوكه)[2] خاصة أنيقة معدة لهذا الإحتفال فقط من كل سنة. وأما الجمهور المجتمع في هذا الإحتفال أقول يعجز القلم عن وصفه فإنك ترى مشهدا من البشر على اختلاف أنواعه منهم من جلس ومنهم من وقف ومنهم من تسلق الأشجار والأغصان على ضفتي نهر الأرض الشرقية والغربية منه. ثم ترى الجمهور الغفير من الروس رجالا وسيدات وآنسات واقفين ولابسين الأثواب البيضاء المفصلة خصيصا لهذا الإحتفال وفي أيديهم الشموع، وهناك شبان ورجال طائفة الروم العرب مدججة بكامل الأسلحة المختلفة الأشكال والأنواع، فيبدأ القداس ونيافة المطران حاملا الصليب الفضي وعندما يضع هذا الصليب في مياه نهر الأردن باعتبار عماد يسوع المسيح هناك ترى العجب العجاب فجميع هؤلاء الروس المسكوب الذي أشرت إليهم أعلاه ولا يقل عددهم عن العشرين ألفا يرمون بأنفسهم في وقت واحد في النهر بهذا الثوب الأبيض الناصع للتبرك من الماء التي تقدست بعدما أنزل المطران الصليب فيها ، والجدير بالذكر أن هذا الثوب الأبيض الذي سبح فيه الروسي في هذا الإحتفال يحافظ عليه لكي يلبسوه إياه عند مماته ويدفن به. وهكذا كان الإيمان القوي في الدين المسيحي لدى المسكوب في ذلك الوقت. أما عندما يمس الصليب المقدس المذكور مياه نهر الأردن تبدأ رجال الدين وعلى رأسهم نيافة المطران بالترنيمة المعروفة وبأعلى أصواتهم في اللغة اليونانية والعربية والروسية.

باعتمادك يا رب في نهر الأردن الخ

وتصور يا أخي عندما ترتل هذه الترنيمة من رجال الدين ومن أغلب الحضور من سائر الزوار اليونان والروس وأهالي البلاد العرب تسمع إلى أزيز الرصاص والبارود من أفواه المسدسات والبنادق المحمولة من قبل شبان ورجال بل أولاد

١ عُمّاد : أي تعميد وعي عملية غطس المقدسة التي تثبت الشخص البالغ أو الطفل في دخوله الى الدين.

٢ فلوكه : مركبة.

الطائفة الأرثوذكسية العربية هناك بصورة فظيعة فترى الناس قد أغلقت أذنيها من قوة صوت البارود في وادي نهر الأردن والجدير بالذكر أن شبان المسلمين من القدس وغيرها يشاركون المسيحيين في هذا الإحتفال والبارود . ويسير هذا الإحتفال ورجال الحكومة الرؤساء منهم مع عائلاتهم يتصدرون المواقع التي تليق بهم ضيافة على البطريركية الأرثوذكسية . فترى هناك الأمة وعلى الأخص العرب في حالة سرور وفرح وحظ وسكر منذ فجر ذلك النهار إلى بعد نصف الليل عندما يحضرون قداسا آخر في الليل في ذات الموقع .

وفي هذا الإحتفال لطائفة الروم العرب ذكرى محزنة جدا فقد قتل شابا عزيزا من عائلة الحراسي الكريمة واسمه داود شقيق الأستاذ شكري[1] وخميس وفرح والياس الحرامي أولاد المرحوم يوسف الحرامي . قتل عفوا عندما بدأوا في استعمال الأسلحة في احتفال الغطاس سنة ١٩١٤ [وإني أحتفظ بصورة لهذا المشهد من نهر الأردن للسنة المذكورة عند الحادث للذكرى] ولما كانت عائلة عريقات تعد من الشيوخ للمنطقة المعروفة من قرية أبوديس إلى نهر الأردن بالوادية وما لأفراد هذه العائلة الكريمة من شهرة فائقة ورجولة ومساعدة للحكومة في ذلك الزمن ففي هذا الإحتفال كانوا ولا شك يرأسون الأمن ويحمسون الأهالي على إقامة هذه الإحتفالات بلا خوف في منطقتهم وإني أعرف منهم المرحوم رشيد عريقات وخليل عريقات والسيد عبد الرحمن عريقات أمد الله في عمره وجميعهم من خيار الأسر وأصلهم من عرب الحويطات في شرق الأردن .

أما عند رجوع هذه المواكب بعد احتفال الغطاس إلى القدس فشيء يدهش وكما تعلم ترجع الناس مشيا على الأقدام من نهر الأردن ويرتاحون وينامون في أريحا وثاني يوم يدخلون مدينة القدس وأخص منهم طائفة الروم العرب فكنا نستقبلهم في رأس العامود فتدخل الشبان يلعبون السيف والترس والشوباشات وضرب البارود من كل جانب ولا ينفك مطلقا إلى أن يصل الموكب إلى باب الأسباط .

ليالي رمضان بالقدس

تكون ليالي رمضان بالقدس ليالي أنس وسمر وخصوصا عندما يصادف وقوع هذا الشهر المبارك في فصل الصيف من السنة ولما كنت وإخواني من سكان محلة السعدية وباب العامود واندماج والدي في الجيران المسلمين بصداقة متينة كنا نشاهد حفلات ونحضر اجتماعات ونطلع على عوائد[2] المسلمين يتعذر لغيرنا من المسيحيين الحصول عليها والوصول إليها . فكثيرا كنت وإخواني نشارك بحفلة الذكر في مقام الشيخ ريحان المجاور لدار الجوهرية وننشد معهم الأناشيد الدينية مع المحترفين والهواة منهم . ثم في الليالي نزور جيراننا منهم الشيخ محمد الصالح الأستاذ الأكبر والشيخ أديب جودة والشيخ سليم المملوك ومصطفى الزروق وعبد الداودي ومصطفى الصالحاني ومصطفى الجبشة وغيرهم ونقضي الليالي بالطرب خصوصا عندما آخذ طنبورتي فأعزف وأغني مع أخي توفيق ونشرب الشرابات ونأكل البرازق والحلوى في منتهى السرور والبهجة . وكانت العادة وهي على ما أعلم لغاية يومنا هذا تجتمع أولاد عائلات محلة

[1] شكري الحرامي : المربي المعروف ومدير كلية الامة شمال القدس.

[2] عوائد : عادات.

السعدية وباب العامود ومعهم (أجران الفرانة) ويدوروا بعد ضرب مدفع الإفطار عند الغروب على البيوت وهذه الفرقة تعرف ب (الحواية) الأشخاص اللذين يحووا بمعنى يمدحوا ، وقد يزوروا دارنا ويقفوا في الظلام في دهليز الدار ويقولون بأعلى أصواتهم هذه الأبيات [لولا خليل (أي الأخ خليل) ماجينا ، حل الكيس واعطينا ، واعطينا حلاوانا ،صحنين بقلاوة ، جاي علينا جاية ، ويايدنا العصاية ، ضرب الحواية ، وارغيفين شلبيات ، وارغيفين حلبيات ، حي الله يا بنات الشام ، وفيها الخوخ والرمان ، ودولابي دولابي ، يا سكر حلابي ، دولاب العبيد ، جلاب العبيد ، دولابي أبو رقبة] ، ثم ينزل الرئيس من بينهم ويدعو بأعلى صوته قائلا يخللي له أمه الجميع آمين يخللي له أبوه آمين يخللي له أخته آمين. وهكذا إلى أن ينزل والدي إلى الدهليز ويغدق على كل واحد منهم المتليك. والجدير بالذكر أنني أذكر بأن أجير الفران المدعو حسن وكان يشتغل في فرن الزروق وله داله علينا كان هذا الخبيث يغير صوته بعدما يستلم المتليك من الوالد ويقول (أنا ما أخدتش عمي أبو خليل) ولما كان الدهليز مظلم فينخدع والدي ويدفع له متليكا باعتبار أن الشخص هو شخص آخر وأخيرا علم بالحيلة وشتمه وكان يحبه لأنه كان خفيف الروح.

وأما من يعرف ساحة باب العامود من الداخل وخصوصا قبل ضرب مدفع الإفطار للغروب بمدة ساعة ونصف الساعة ينشرح صدره فكانت هذه الساحة من تلك المحلة مرتبة ومنظمة تنظيما فنيا فكل بائع له موقفا خاصا أعتقد بأنه له بالمستمر مثل أشبه في بسطات باعي ذكريات المقدسة لبيت المقدس(سوفنير) التي تطرح في موسم عيد الفصح المجيد على سطح كنيسة القيامة. فهنا وعلى كرسي مقهى بلدي صغير ترى صدرا ملآنا بكرابيج حلب مجللا بالناطف وعليه تزويق القرفة للبائع المشهور في ذلك الزمن والإختصاصي في هذه الصناعة جورج داود ياسمينة مقابل قهوة المرحوم خليل نجم الذي كان يشتغل فيها كراكوز[1] أول فصل بعد الغروب ثم أمام سبيل الماء الواقع في الزاوية المؤدية إلى محلة الواد رجل يدعى فلوص (ولي معه حادث لحسني لاخوي كما جاء في هذا الكتاب) هذا الرجل كان أقرع إنما كما يقولون ذات روح خفيفة وأزعر ، ويبيع هذا الصنف أيضا من الحلوى ولكنه كان قذرا فيبيعه بسعر أقل من أسعار ياسمينة وقد حافظ على الناطف من الذباب فعمل قبة من القزاز وأقامها عليه للزينة ولكن الذباب أبى أن ينصرف ويتركه فكان يقف بالألوف على وجهه ولباسه ، وبجانب فلوص الأقرع خزانة خشبية لونها أزرق موضوعا فيها القناني البلورية القديمة البيضاء ملآنة من شراب الخروب فكانت هذه الخزانة شُعبة أو فرعا من تجارة هذا الصنف من الشراب اللذيذ لصاحبه الشهير الحاج خليل مقابل لزلاطيمو سوق خان الزيت فينادي البائع بأعلى صوته "على الله الشفا يا خروب" وفي وسط هذه الساحة الواقعة بين مفترق الطرق تجد بائعي برازق[2] رمضان والخبز والكعك وشراب السوس والليمون (والقضامة المطحونة[3]) وكانت تستعمل بكثرة عند الصائمين للدوخة) منتشرة في كل مكان يصعب عليك أن تمر من بين هذه الباعة وكل يصيح بأعلى صوته يدلل على حسن صنعته وجودها إلى أن يحين وقت ضرب مدفع الإفطار

١ كراكوز: مسرح خيال الظل وقد اختفى بالخمسينات.

٢ البرازق: رقاقات مخبوزة وعليها السمسم مشهورة في القدس .

٣ القضامة المطحونه: من غير الواضح كيف يستعمل الصائم هذ الوصفة للدوخة!

فالجميع يصيح وكأن على رؤوسهم الطير لا ينطقون ببنت شفة فهذه الساحة وأصحاب والدكاكين المحيطة بها يبدأون بالإفطار يأكلون كل في محله الخاص والأكلة الممتازة بكثرة في هذا الشهر هي البرازق .

وعلى ذكر مدفع رمضان كانت العادة أنه يكون موضوعا على سطح قلعة النبي داود باب الخليل بالقدس وعندما يضرب خصوصا في الليل تهتز أركان مدينة القدس بأسرها ويكون صوته مسموعا لجميع أهل المدينة لأنه مكانه مرتفعا والجدير بالذكر أنني وأخي توفيق كنا نجلس على رأس الدرج في دار الجوهرية وكما قلت بأن هذه الدار عالية فكنا نشاهد ضرب المدفع من على القلعة وكأنه أمامنا . وهكذا كنا نحضر بعض الأكل والشرب فنمسك اللقمة في يدنا ونفتح أفواهنا مستعدين ومراهنين على أن من بدأ بوضعها في فمه (بعد الضرب مباشرة) يكون الغالب . آه . وأما عند المساء فإن هذه الساحة لغاية باب العامود من الداخل فتكون مزدانة ومضيئة بالأنوار الكثيرة وكانت اللوكسات والناس تشرب الأراجيل جالسين على أرصفة الشوارع يستمعون إما إلى فونوغراف ابراهيم البيروتي الذي ذكرته أعلاه أو لمن يزور القدس من المغنين المشهورين أمثال الشيخ الصفتي ، وكان المطرب محمد العاشق يزور القدس غالبا في شهر رمضان ويشتغل في مقهى الهوسبيس في الشارع كما ذكرت لمحة وجيزة عنه في السابق .

الكراكوز

أعلم أن كلمة كراكوز هي تركية الأصل بمعنى (قره كوز) قره ، أسود وكوز ، عيون أي العيون السود وإن أصل هذه الألعوبة هي من بلاد فارس فكانت في الأصل أشخاص حقيقية يمثلون أدوارا فكاهية انتقادية في مجالس الملوك في الزمن القديم للترفيه عنهم . وأخيرا تقلص هذا الفن وصار يمثل بواسطة خيالات[1] تصنع من جلد الحيوان والأكثر جودة من جلد الخيل فهو شفاف وتلون كل قطعة من لباس هذا الخيال باللون الطبيعي للأزياء فهذا ما كنا نشاهده في صغرنا فيتضح للناظر صورة بديعة الإتقان تشبه تماما الرجل أو الإمرأة أو الحيوان أو الأشياء المتجسدة بحجم صغير يحير العقول ويجلب الإنتباه والإعجاب وكأنها صورة مصغرة للسينما في يومنا هذا .

أما السر والأهمية الكبرى في هذا الفن النادر هو الشخص الذي يدير ويحرك ويلاعب هذه الأقزام الخيالية وإنك لتعجب أيها القاري الكريم عندما تعلم بأنه شخص واحد فقط ليس إلا فإنه وله المقدرة الخيرة الوافية بأن يمسك في يديه جملة خيالات وذلك بواسطة عود خشبي خاص لكل خيال وكثيرا ما يمسك أعواد أضافية لبعض أطراف الجسم من هذا الخيال ليتحكم في تحريك اليد أو الرجل مثلا عندما يتطلب ذلك حسب وقع الفصل المعين من تلك التمثيلية الجميلة .

والأنكى من هذا كله فإنه هو بذاته يقلد أيضا الصوت أو الأصوات الطبيعية لكل من هذه الخيالات فإذا ما نطق بيتا من الشعر يمكنك أن تفرق هل كان هذا الصوت صوت كراكوز أو عواظ سيدة أو صوت سيدة أو ولد وهكذا حتى أنه يتخايل لك بأنك تشاهد أشخاصا حقيقية تمثل أمامك على المسرح بالنسبة . فترى أقزاما من البشر يتحركون ويرقصون ويتكلمون شيء يذهل العقل حقاً .

[1] خيلات : انعكاسات المجسمات على الحائط نتيجة توجيه الضوء عليها .

لقد شاهدنا وحضرنا كثيرين من لاعبي هذا الفن ويعرف بال "كراكوزاتي" ولكن أقولها صراحة أن الحظ ساعدنا بمشاهدة وسماع أشهر كراكوزاتي عالمي ألا وهو الحاج محمود الكراكوزاتي من أهل طرابلس الشام فكان الحاج محمود رحمه الله يزور القدس ويقضي طيلة شهر رمضان المبارك في القدس وقد فضلها عن سائر البلاد الأخرى طيلة حياته لما لمس من حب وإقبال أهالي بيت المقدس له وعليه.

كان يبدأ بالتمثيل على هذه الخطة منذ الساعة الواحدة عربي أي ساعة واحدة بعد الإفطار عند المغرب في كل يوم خميس مقاهي داخل المدينة الأول في مقهى خليل نجم وهو فصل لمدة ساعة للأولاد كي يتمكوا من ترفيه نفوسهم قبل النوم والفصل يكون من قصص الفروسية عنتره بن شداد وأبوزيد الهلالي وغيرهم يشاهدون الشجاعة والفروسية عند العرب وينقسمون إلى قسمين عند المعارك قسم عنتر والقسم الآخر مع أبي زيد وهكذا

أما الفصل الثاني في محلة باب حطة للأولاد أيضاً، والفصل الثالث في مقهى محلة الواد مقهى الموسيس والرابع أما في مقهى محلة خان الزيت أو محلة النصارى إلى أن يحين موعد الفصل الخامس والأخير وهو الفصل المهم يتخلله الأدب والشعر والمغذى الفريد والنقد اللاذع فيكونوا المستمعين والمشاهدين لهذا الفصل من خيار الشعب الأدباء والأساتذة والمثقفين فترى الجميع وكان على رؤوسهم الطير يستمعون ويتجلقون بكل انتباه لهذه الخيالات من الأقزام بواسطة النور (السراج) من خلفها فيكون السراج مضيئاً بين الحاج محمود وبين هذه الخيالات فيتضح جليا للناظر الخيال بألوانه وحركاته وكأنه طبيعيا.

ضحكة فجاة خوفا من أن تفوته كلمة أو نكتة عابرة من بدائع وعبقرية هذا الأديب الحاج محمود فإنه ولا شك كان موهوبا وذكيا حتى قيل لي بأنه يحتفظ في ذهنه ما ينوف عن عشرة آلاف بيت من الشعر على مختلف أنواعه وكان رحمه الله بديهي النكتة بشوش الوجه خفيف الروح ذكي لامع متواضع حتى أنه بمزاياه هذه الرفيعة اكتسب حقا محبة الشعب. وعلى ذكر هذا النابغة إني أخالف قاعدة (الولد سر أبيه) في هذا الفنان فقد حضرت وإخواني وأصدقائي من أهل بيت المقدس ولدا له بعد وفاته وهو يقلد ما عمله والده في فن الكراكوز إلا أنه مع الأسف لم يفلح مطلقا فقد أجمعنا على ترك التمثيل في وسط الفصل من أدواره تركا وشأنه وقلت ولله في خلقه شؤون. أما مجموعة هذه الخيالات فتعرف بخيمة كراكوز وتحتوي على طائفة كبيرة من الممثلين ولكل فصل من التمثيليات خيالات خاصة به ولكل خيال له إسم خاص طريف أذكر منها :

كراكوز، عواظ، شك قرينا زوجة الحاج كراكوز، معوظة، المدلل، فتفوت، الحاج دقاميقو، الحاج قريطم، خمخم بارد، الآغا، البكري مصطفى، أشو آغا، طرامان، أبو أووء، وقد حصلت على هذه المجموعة من الخيالات ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى.



خليل السكاكيني. الصورة من العائلة والمصور غير معروف.

أما خيمة كراكوز فهي عبارة عن شاشة بيضاء مشدودة برباط على طرفي زاوية من زوايا المقهى الظاهرة للعيان ومن خلفها يجلس الحاج محمود وأمامه رف خشبي وفوقه السراج كما أشرت للقاري عنه أعلاه فيظهر الخيال من خلف النور بألوانه الطبيعية للجمهور ، وبجانب الحاج محمود رجل يدعى عبد السلام الأقرع يضرب الرق ويغني بصوته قسما من توشيح عندما يبدأ الفصل فمثلا يغني "يا هلالا غاب عني واحتجب" ضرب [نوته] فينزل مثلا خيال كراكوز ويحاول الرقص على أنغامه . والأنكى من هذا أن الحاج محمود كان لا يترك النربيج للأركيلة من فمه طول ساعات عمله رغما عن كل ما ذكرت عن هذا الإجهاد في العمل ، وكان عندما ينتهي الفصل ويأخذ مدة ساعة تقريبا يطفي السراج بسرعة ويقفز راكضا رغما عن كبر سنة إلى مدخل المقهى الرئيس فيقف عند الباب يقبض من كل من المتفرجين عند تركهم المقهى "متليك" ولم يفلت منه أحد وهو يودع كل منهم بالمداعبة والنكات ويحكي كل منهم باللغة التي يفهمها .

إن تمثيلية كراكوز المعروف بالفصل الأخير الخامس كانت تقام في مقهى واسع تعرف بمقهى علي زحيمان والعم أو زهدي وفي فصل الصيف كانت تقام على سطح هذا المقهى المسقوف بالحصر وهي ساحة فسيحة وبعد هذا المقهى اتخذ مقهى النابلسي مقابل باب العامود خارج السور ملك هندية يبدأ الفصل في منتصف الليل من ليالي رمضان وينتهي قرب ضربة مدفع المنبئ للصوم .

في هذا الفصل أنني أذكر حقاً تكون أكثر أدباء القدس موجودين أمثال الشيخ محمد الصالح ، الأستاذ نخلة زريق ، الحاج الشيخ علي الريماوي ، الأستاذ خليل السكاكيني ، الأستاذ إسعاف النشاشيبي وغيرهم وأما ليلة الأحد فيضم الفصل المسيحيين ومن خيار أعيان الطوائف .[١]

أما التمثيليات فقد كانت في غاية من الروعة فكل تمثيلية تعرف بالفصل ولها معنى ومغزى خاص ينسجم وينطبق تماماً لحياتنا الإجتماعية على مختلف ألوانها ، وقد انطبع في ذهني كثير من كلمات مأثورة أخذتها من فم العم الحاج محمود لم تزل تدور على ألسنتنا نحن أهل بيت المقدس وأصبحت مثلا بيننا نرددها في كثير من المناسبات ليومنا هذا . ثم كان يتخلل هذه الفصول من التمثيليات مقطوعات فكاهية تعرف بلغة كراكوز بالغرزة ففي هذه الغرزة يجعل المستمع والمشاهد إليها أن لا يستطيع أن يتماسك ويمسك نفسه وجسمه من شدة الضحك فكثيرا ما كنت وأصدقائي نقع من على كرسي المقهى البلدي الصغير على الأرض ولا نبالي لمن ينظر إلينا فهو أيضا كما قيل "كلنا في الهوى سوى ."

وها أنا أدون للقارئ لمحة وجيزة بقدر المستطاع عن بعض الفصول والغرز من تمثيليات المرحوم الحاج محمود لأخذ فكرة وجيزة عن هذا الفن الذي أصبح وياللأسف في دور النسيان :

فصل الخشبات عند السمان

ليعلم القارئ قبل الخوض في التمثيليات بأن شخصية كراكوز مهرج من أكبر نوع المهرجين والمضحكين وبذات الوقت تمشي عليه الحيلة فيأخذها بكل بساطة وبعدما تنجلي عليه الحيلة أو المقلب كما يسمونها يأخذ ثأره بطريقة طريفة

١ الطريف هنا أن المؤلف أدرج أسماء اثنين من الادباء المسيحيين مع الادباء المسلمين وهما نخلة زريق وخليل السكاكيني.

مضحكة تدهش الناظر والسامع إليه من جميع النواحي . أما عواظ فهو ذا شخصية متزنة متعلم مثقف ويعرف في خيمة كراكوز من دهاء مدينة البصرى ، كما تبين لنا ذلك في كثير من تمثيليات كراكوز وهكذا تراه دائما يتغلب في كثير من المواقف على أخيه (بالصداقة) كراكوز فإذا تكلم تكلم اللغة الفصحى وإذا ما أبدى نصائحه في موضوع ما أبداه بأبيات من الشعر تناسب المقام وها أنا أدون لهذين الشخصين المعروفين الأعمدة الأساسية في خيمة كراكوز فأقول :

وقف كراكوز فرقص لوحده على نقرات دف عبد السلام الأقرع وبعد فترة قال "والطير يرقص مذبوحا من الألم، ثم تنهد من الأعماق وبدأ يتذمر من حياته وفقره إلى أن صادف فجأة عواظ وقال "صح بدنه أخي كراكوز ، مالك ، مين ناطر وشاغل أفكارك؟"

كراكوز آه يا أخي عواظ فكك عني من عدى براده ، طفران قلبي ما بيعرف غير ربي .

عواظ بسيطة يا كراكوز عندي شغلة ظريفة بتخليك غني بمدة صغيرة .

كراكوز دخيلك إيش هي هالشغلة

عواظ شوف يا كراكوز ، بعملك جوز عيون ، وبحطك على قارعة الطريق ، وبشحت عليك ، أما شو يا كراكوز شغلة خفيفة لطيفة على كيفك .

وكيفك أخي؟

كراكوز العما فيك وفي هيك شغلة ، وبعدين؟

عواظ شو بعدين؟ خلص مسألة بسيطة ليش التبلة الرزق بده نطة . أخي ولك يا كراكوز ما أنا أطفر منك؟

وهكذا وهما يتذمران من حياتهما الشقية وعوزهما إلى المال لإعالة عائلاتهما وإذ بأشو آغا[1] أمامهما فضرب كرباجه وصاح بصوت مخيف ولان[2] ديوس في سخره إنت مش بيعرف؟ في خشبات لازم بودي عين تاب فاهم ولان؟ .

عين تاب كراكوز وعواظ: فاهمين يا آغا يبلاك في وتاب ، وبصوت خافت يقولان لا حول ولا قوة من أين إجتنا ها المصيبة؟

كراكوز وقف وراء عواظ ونكشه من الخلف وقال له إسألنا إياه فين هذه عين تاب؟ بعيدة؟

١ أشو آغا حاكم تركي عصبي المزاج شديد-السخره بمعنى خدمه يعملها الشخص أو الأشخاص من الشعب مجانا وبدون مقابل للدوله في زمن الظلم والإستبداد.

٢ ولان تحريف لكلمة ولك العامية وتعني يا هذا .

أشـو آغا ولان مش بعيدة "ستّين يوم في البحر ، وستّين يوم في البر ! !"

كراكوز يضرب قاووقه (رأسه) بيده ويبربر بلسانه في فمه مندهشا .

وبعد أخذ ورد يسلّمان الخشبات (حزمتين من الخشب كبيرتين ثقيلتين ، فيحملانها بكل مشقة خوفا من ضرب الآغا ويتركان الآغا لوحده . ثم يتفقان على طرق حيلة وخبث طريفة يخدعون بواسطتها الآغا ويجعلونه يدفع لهما المال من حيث لا يدري وهاك الخطة :

عواظ بعدما يحتفظ وكراكوز بالخشبات في محل ما يرجع ويدخل على الآغا ويقول سلام عليكم يا آغا ويتظاهر بتقبيل أيادي آغا

الآغا عليكم سلام ، ولان فين خشبات؟

عواظ الخشبات عند السمان يا آغا

الآغا ولان شو سمان مين سمان؟

عواظ يا آغا يوطي مراتبك . أخذنا الخشبات وتوكلنا على الله ، ونحنا طلعنا من حارة باب العامود بيجي السمان (بده مصاري من كراكوز حق أكل سمانة) وبياخذ الخشبات بدال مصاري .

الآغا ولان قديش مصاري؟ عواظ : تنين مجيدي يا آغا .

الآغا خود ولان تنين مجيدي ، فك خشبات من السمان وروح عين تاب قدام (وينهره بصوته العالي)

عواظ يقبض المجيدين ويخرج من دائرة الآغا فيجد كراكوز ينتظره في باب الدائرة فيقول له إفتح إيدك يا كراكوز

كراكوز يفتح يده ويقول يا فتاح . عواظ مجيدي إلك ومجيدي إلي روح له . .

(يقبض كراكوز المجيدي وبعد مدة يواجه الآغا في السرايا ويدخل باكيا ، ويقول يا خسارتك يا عواظ يا ضياعتك يا عواظ)

الآغا ولان شو فيه؟ وين خشبات؟ فين عواظ

كراكوز آه يا أخي عواظ يا سيدي الآغا عواظ مات (ويضرب في كفيه على عواظ)

الآغا ولان كيف مات؟ !

كراكوز يا آغا خلص عمره، وما كان فيه بادور مفتوح في الطريق يا آغا منشان بصير بالوع، بينزل عواظ فيه بلاقيه على قده، ويبلبق له، وبعدين بتم فيه بموت آه يا أخي عواظ.

الآغا ولان أنا بعطي عواظ تنين مجيدي منشان سمان إنت بعطي سمان؟

كراكوز أبدا يا آغا (إش قوي آدمي عواظ! !) هذا بينعطى مصاري وحيات شرفك ما أعطاني ولا أعطى السمان. والخشبات عند السمان والخشبات عند السمان.

الآغا ليه معلش "زرر يوك" قديش لازم مصاري

كراكوز بسيطة يا آغا. إثنين مجيدي منشان السمان وتنين مجيدي جنازة منشان أخوي يا آغا.

الآغا ليه يالله خوذ مصاري هذه اربعة مجيدي قدام "دي خشبات عين تاب.

كراكوز حاضر يا آغا باتس أو ستنا (بقي على رأسي) يقبض الأربع مجيديات ويخرج فيلتقي بأخيه عواظ ويقول له إفتح إيدك. عواظ يقول يا فتاح فيقول له كراكوز (مجيدين إلك ومجيدين إلي روح له)

وبعد مده يحضر عواظ بين إيدين الآغا

الآغا ولان عواظ إنت مش بموت؟

عواظ يكفي الشر يا آغا أنا بموت؟

الآغا	ولان ديوس فين خشبات؟ هلأ كراكوز كان هون وقال إنت بموت ، أعطيه أربعة مجيدي ، تنين منشان جنازتك ، وتنين منشان السمان . فين خشبات؟
عواظ	إش قوي آدمي آي هو كراكوز بيسلم مصاري يا آغا؟ الله يعمر بيتك .
الآغا	ولان خشبات فين؟ عواظ : الخشبات عند السمان يا آغا . أجا كراكوز وضرب السمان كف على وجهه (وتحمس وبالفعل ضرب عواظ هذا الكف على وجه الآغا) .
الآغا	يهز رأسه من شدة الألم ثم يقول إلى عواظ ضربه؟
عواظ	ضربه يا آغا ،
الآغا	ليش ضربه؟
عواظ	مكيود منه ،

وهكذا يواصل كراكوز وعواظ الحيل والأكاذيب وكلما واجه أحدهما الآغا يرمي بحق أخيه ويقول هذه الجملة "إش قوي هو أخوي آدمي؟ بيسلم مصاري يا آغا؟"

إلى أن مل الآغا من ألاعيبهم وأخيرا تطاول أحدهما وصفع الآغا على وجهه كما بينت أعلاه وأخيرا قال الكلمة المأثورة كلمة الآغا وهي بيت القصيد في هذا الفصل من التمثيلية :

[ولان ديوس مين آدمي فيكم؟ يلعن بقى مين بيسخركم]

وهكذا أصبحت كلمة الآغا لدى أولاد القدس وليومنا هذا مثل . . ينطبق في كثير من المناسبات الإجتماعية والسياسية. "مين آدمي فيكم؟ مين آدمي فيكم؟"

غريزة كلب بلدي أو إفرنجي

ولما كانت العادة لدى سيدات الأجانب اللذين كانوا يعيشون في بلادنا من فرنسيين ويونان وإنكليز وغيرهم يعتنون بتربية الكلاب في بيوتهم ويأخذوهم معاهم للنزهة . . ويربوهم على الترف والدلال ويطعموهم البسكوت والشوكولاتة على مرأى من فقراء أهل البلاد العرب ، فابتكر الحاج محمود تمثيلية طريفة إنتقادية في هذا الموضوع وكان الإقبال عليها عظيما .

يبتدي هذا الفصل بأن ذهب كراكوز يوما إلى أخيه عواظ واشتكى له ما يتحمله من مشقة وعذاب في كسب قوته الضروري وبعد مشهد حديث وقيل وقال ما بينهم من مداعبات الحاج محمود إقترح عواظ على كراكوز بفكرة تمثيل نفسه بكلب ليتمتع بالحصول على الطعام اللذيذ (وكان مقلبا طريفا من عواظ وفخا أوقع كراكوز فيه فانعكست الآية وناله ضربا مؤلما بدلا عن الطعام) فقال :

عواظ: ولك لا تكون عبيط ، ودور مع الدرب ولو دارت ، وقال المثل "بوس الكلب من تمه لتقضي غرضك منه" ، ولك اليوم الدنيا رأس على عقب الحياة أصبحت مش للآدميين اللي مثلك ومثلي بل أصبحت للكلاب .

كراكوز: إيه والله ويتنهد ويقول : شفت مبارح الست اللي حامله الكلب على صدرها ويبوس فيه ويطعمه الشوكولاته .

عواظ: عفاريم يا كراكوز إذا ليش ما نعمل حالنا كلاب؟

كراكوز: بس كيف؟

عواظ: شوف يا كراكوز عليك تعمل تماما مثل ما بعمل أنا مسئلة بسيطة بس قول لي أولا شو بدك تكون كلب بلدي ، ولا كلب إفرنجي .

كراكوز: فكر قليلا ثم قال لا كلب بلدي (طمعا فيه بأن الكلب البلدي يكون ذو حجم كبير ويأكل أكثر من الكلب الفرنجي)

عواظ: إتفقنا ، إلحقني . . أنا إفرنجي وإنت بلدي .

مشى عواظ ووراءه كراكوز إلى أن وصلا إلى بيت جميل فأبقى عواظ أخيه كراكوز في محل منزوي مستور وقال له شوف يا أخي مثل ما بعمل إعمل (وهالقيت دوري) ، وتعلم مثلي .

تململ عواظ بجانب مدخل الدار وخرفش بيده بكل خفة ورشاقة على باب الدار وعوى بصوت رفيع من حلقه ليمثل تماما طريقة الكلب الإفرنجي وإذ بآنسة جميلة تطل عليه من الشباك الذي يعلو الباب ، وعندما رأته صاحت لأمها "يما يما يما"

الأم	مالك يما؟ تقبري إمك، ثوب الرضا يعمك عم، مالك يما؟

البنت	يما شوفي هالكلب ما أحلاه، يا قلبي، شوفي عيونه السود، يا روحي شوفي، شوفي، شوفي.

الأم	جاءت والأم ونظرت إلى عواظ من الشباك وقالت إلى إبنتها : إدخليه الدار وهكذا نزلت الإبنة وفتحت الباب وضمت عواظ تقبله وتلاعبه وكراكوز يشاهد هذا المنظر من بعيد بكل شوقة ولوعه.

الأم لإبنتها	أطعميه باقي الضلع، حطيله الكوسا المحشي، أطعميه من الكنافه وهكذا بدأ عواظ يأكل ما هب ودب من المآكل اللذيذة والحلوى وكراكوز من الخارج يستمع إلى مضغة الطعام ويبلع ريقه لاشتياقه إلى لقمة واحدة منه وينتظر بفارغ الصبر إلى دوره في هذا الوضع وقد نزلت رياله من حسرته بصورة تدهش الناظر وتشبعه ضحكا.

وأخيرا بعد الأكل أعطت الأم قنينة الكولونيا إلى إبنتها فغسلت عواظ بعد الأكل بصفته كلبا إفرنجيا، وأشبعته من القبل، وأصرفته من الدار بكل حنو ولطف فائق. خرج عواظ وواجه كراكوز وقال له شفت يا كراكوز ما أصابني من العز والنعم؟ يا الله يا أخي هالقيت دورك فمثل ما استطعت وإنت ونصيبك، فرقص كراكوز طربا لأنه حان وقت إشباع معدته الخافقة، وبعد مدة من الزمن هجم على باب الدار لهذه الآنسة الجميلة ووالدتها وكأنه كلب بلدي هجم بكل قوه ثم بدأ يعوي بصوت أجش قوي، وإذ بالآنسة عندما رأته من الشباك تنادي على والدتها :

يما، يما، يما، تعالي قوام شوفي هالكلب ما أكبره، يا الله ما أقواه، يما.

الأم	مالك يما، يا تقبري أمك، وينه وتطلعت من الشباك ورأت كراكوز ثم التفتت إلى إبنتها وقالت يما مش هذا الكلب الذي كسر لنا القزاز مبارح؟ أدخليه الدار، قالت هذه الجملة بصوت خفيف جدا لئلا يسمعها كراكوز ويهرب. نزلت الإبنة وفتحت باب الدار وأدخلت كراكوز المسكين الذي كان وكله أمل بأن يأكل ما أكله عواظ. ثم جاءت الأم بعدما أغلقت باب الدار من الداخل ونادت على العبد وأسمه مرجان كان خادما وحارسا في الدار

وقالت يا مرجان هات العلقة . فجاء مرجان وبكل قواه ورمى بكراكوز أرضا وربط رجليه بالحبل ربطا محكما وهات يا ضرب بالكرباج على رجليه ، ويقول له لماذا كسرت قزاز ستي امبارح؟ فهذا جزائك .

أما كراكوز فصار يصيح من شدة الألم ويقول والله لساني كلب جديد ، كلب جديد وما كنت امبارح بكلب إلى أن أشبعه ضربا وقذفه إلى خارج باب الدار وأغلقه . وأخيرا وهنا بيت القصيد عندما رأى كراكوز أخيه عواظ يضحك فهم أنها مؤامرة دبرت له بواسطته فهجم على عواظ ورماه أرضا وركب عليه ومن شدة الألم والغضب على عواظ وكان يقول له :

"الكوسا المحشي لعواظ ، الضلع لعواظ ، الكافة لعواظ . أما العلقة يا إبن الحرام خليتها لكراكوز" ، وهكذا كان إنتهاء هذه الغرزة من غرز الحاج محمود الكراكوزاتي المضحكة والجمهور يضحك بكل ما أوتي من قوة وصوت فسقيا لتلك الليالي ما أبدعها .

أعتقد بأني بتدويني فصلين من تمثيليات كراكوز وعواظ أعطيت فكرة مختصرة عن هذا الفن لأنني ولضيق الوقت لا يمكنني تدوين فصول أكثر وهي كثيرة مثل فصل الشحاتين وفصل اللحام وفصل السكران وفصل فتح البخت إلخ .

الدعاية

وقبل ما أختم البحث عن هذا الفن ألفت نظر القاري بأن المرحوم الحاج محمود كان يدخل الدعاية للأصناف الواردة مثلا لتجار المدينة في التمثيلية ذاتها فقد حضرت مرة بأنه بالمناسبة جرى البحث والحديث بين كراكوز وعواظ بموضوع ليلة ساهرة يعتزم عواظ على إقامتها . فقد وقف كراكوز ينصح عواظ بما يلي :
أما يا أخي عواظ شفتلك صنوبرات عند العطار الحاج خليل الداوودي مثل الذهب دوب[1] وصلوا من الشام بقى بالله عليك إشتري منهم للكنافة وأؤكد بأنك لو تأخرت فلن تجد ولا حبة بكرة ، أركض ، خف رجلك ، وهكذا . ثم ذكر بأن كيسا من التنباك العجمي الأصلي قد وصل عند السمان حب رمان في سويقة علون إلى ما هنالك من الدعاية تماما كما تراها في السينما في يومنا هذا .
ولما كان الحاج محمود من أعظم من شرب الأركيلة حسب ما أشرت عنه فيما سبق ، فالويل ثم الويل لصاحب المقهى العم أبو زهدي إذا ما تأخر عن مراقبة أركيلته بالنار ، أو بالولعة فبالحال كان يدخل إنتقاد لاذع من ضمن التمثيلية بين كراكوز وعواظ لأنه كان لا يستطيع أن يتفنن في الفصول المضحكة في حالة عدم تدخينه الأركيلة .

[1] دوب – في هذه اللحظة، بالكاد.

وبهذه المناسبة نحن أولاد القدس جيل قرن العشرين نذكر بتأثر عميق لشخص من عائلة نسيبة يدعى فهيم أبو نعمان فقد كان هذا الشخص يتفانى في النكتة وكان من عشاق الحاج محمود الكراكوزاتي ولم يفارق الكراكوز طيلة شهر رمضان المبارك فكان يجلس على مقعده بجانب عبدالسلام الأقرع مباشرة أي أول متفرج وكانت ضحكته مشهورة لدى أهالي القدس فعندما يطرب عند النكتة الزخمة يغمى عليه من الضحك بأعلى صوته . أما الزباين فكانوا يشربون الأراكيل والشرابات وخصوصا الصومادة إلى أن يحين ضرب المدفع .

المأكولات والشرابات عند أهالي القدس

إنني أذكر بعضا من مأكولات كادت أن تندثر في يومنا هذا . وإنك لتعجب عندما تقرأ وصف هذه المأكولات وكيف كنا نستعملها منذ الصغر في الشطحات خصوصا في أيام الصيف وكنا نشارك الذباب بأكلها ولحسن الحظ كان لنا المناعة الكافية لعدم إصابتنا بأي مرض رغما عن عدم وجود الطب والدواء في ذلك الوقت فأقول :

حلي سنونك يا ولدك

هذه الأكلة هي نوع من الحلوى المعروفة بالكعكبان الطازج . فكان رجل كبير في السن يغلي ويعقد السكر على النار ويصبغة بلون زهري فاتح معروف بلون السراقوني حتى يصير جامدا نوعا . ثم يشيل هذه الطبخة من السكر المعقود ويعجنها بيده القذرة ، ثم يكون مسمارا كبيرا مضروبا في جذع شجرة من أشجار سعد وسعيد أو ستنا مريم فيعلق هذا المعجون بالمسمار ويبدأ بجذبه إلى الأرض وعندما يلصق بيديه يلمس يديه بواسطة لسانه ، ويرجع بالجذب والمد وهكذا إلى أن يتسلط عليه ويزيله من على المسمار ثم يمسك أطراف المعجون ويشد طرفيه في كل يد ويعيد ذلك بواسطة لحسة يديه بلسانه وعندما تنزل إحدى أطرافه إلى الأرض فتأخذ ما أمكن من الأوساخ والتراب فيطوي المعجون بأسرع من لمح البصر ويعجنه ثانية حتى ينضج .

ثم ينادي بأعلى صوته "حلي سنونك يا ولد خلي القلب يدعي لك بالصبر طيب" وطبعا نكون حوله شبه حلقة مستديرة نشاهد بلهف زائد عمله وننتظر بفارغ الصبر نهاية المعركة ونبدأ ندفع له "الكيك" فيناول لكل منا قطعة ونباشر بالأكل من هذا المعجون النظيف الشهي .

اليحميك - بمعنى [يحميك]

أعتقد بأن أصل هذه الأكلة من الحلوى من صنع الهند لأنها معجون مركب من كثير من البهارات الحارة وإليك التفصيل :
كان بائعها يحمل صينية من الزينكو مستديرة ومقسمة إلى ستة أقسام . يصعد من وسطها عامود وعلى رأسه قطعة من الحديد الأسود في طرفها سهم . وكل قسم من الأقسام الستة ملآن من معجون السكر المتجمد ممزوجا مع شكل

من أشكال البهارات الحارة. فأول قسم معجون بالفلفل الأسود مع السكر وفيه العطر، والثاني بالجنزبيل مع السكر، والثالث بالكبش قرنفل وهكذا.

فكنا عندما ندفع الكبك يضرب البائع الحديدة المبسوطة من فوق العامود والتي في طرفها السهم يضربها بيده بشده فتدور بسرعة إلى أن يقف السهم على قسم من الأقسام الستة. وهكذا يعرف الولد بأن بخته ونصيبه أن يتذوق المعجون الذي في داخله.

ثم يجيء البائع بقضيب خاص من الحديد الأسود القذر الخاص لهذه العملية فيغمصه في معجون القسم القائم فوقه السهم فيلف المعجون على طرف القضيب ثم يجذبه ويقولـــ لي مثلا إفتح ثمك، فأفتح فمي بالحال، وهكذا يلقمني المعجون ويقول لي "إسحب شد" فأشد على شفتي ويبقى المعجون بفمي والبائع يسحب ذلك القضيب من فمي لأنه القضيب الوحيد الذي يلقم جميع المشترين من الأولاد، والجدير بالذكر أنه عندما كنا نأكل هذه اللقمة لا نستطيع أن نتكلم إلا لعندما نبلعها ثم نقول يا الله ما أزكاها. [أي ما أطيب طعمها]

أكتب هذا الوصف وأقول مؤكداً لو أنني رأيت هذا البائع يلقم ولدي جورج في يومنا هذا لما كنت تأخرت عن مقاتلته وربما شكيته ومنعته من مواصلة رزقه على هذه الصورة القذرة. ولكني أعود وأقول أن الجهل بالشيء في ذلك الوقت كان السبب في تغلبنا على الأمراض، والله أعلم.

تم بلوظ

أما البلوظة فكنا نشتريها من العم الحاج محمد المحضر. فكان رجل كبير في العمر معمّم يجلس بجوار سبيل الماء في ساحة باب العامود داخل السور وأمامه طاولة قصيرة قديمة وعليها صينية من البلوظة (مصنوعة من النشاء المطبوخ حتى يصير جامدا أشبه بالكولا) وبجانب هذه الصينية إبريق كبير من الحديد المدهون أكل الدهر عليه وشرب حتى زال بعض الدهان الملون عنه، وعدد كبير من ذات الجنس صحون.

فكان رحمه الله ينادي بأعلى صوته ويدلل على البلوظة فيقول (تم بلوظ، تم بلوظ، بنص كبك، تم بلوظ) ثم يدعوا الأولاد ويقول لهم (ع الكتباية، ع الكتباية) ومعنى الكتباية (الجبة المقامة من الحجر والتي تفصل طريق العربة من الطريق المبلطة بالبلاط الريم وخصوصا لمنع تدفق مياه المطر من الطريق). فكنا ندفع نص الكبك ونجلس على هذا الحائط القصير المعروف بالكتباية فيضع ملعقتين من البلوظة ويصب عليها ماء السكر السائل ولونه أحمر على البلوظة البيضاء في ذلك الصحن الأثري، ويكسر البلوظة بالملعقة أو السكين ويقدم لكل من دفع صحنه، ونأكل وندعو للعم المحضر الدعوات الخيرية. ولم أدري من ورث عدة البلوظة من الإبريق والصحون والملاعق الأثرية من ورثته!

أما الدندرمة فكان يصنعها ويبيعها العم أبو موسى المعروف بأحمد جاموس من عائلة شتيه المعروفة بالقدس قديماً . إن أحمد جاموس هو ولا شك فاكهة لذيذة في بيت المقدس لما لهذه الشخصية من فكاهات ونوادر سأدون بعضها في هذا الكتاب . أما ونحن في موضوع الدندرمة أو ما يسمونها بالبوظة كان أحمد جاموس يصنعها على الطريقة القديمة المتبعة في ذلك الزمن أي توضع المواد إما من الحليب أو الليمون أو غير ذلك في إناء نحاسي ضمن برميل خشبي ومن حوله قطع الثلج إما ثلج طبيعي في أيام الشتاء أو اصطناعي في الفصول الأخرى من السنة ، ويدار هذا الإناء النحاسي بواسطة دولاب يديره أبو موسى أو أحدا من عماله حتى يتجمد ويصبح بوظة فكان يحمل هذا البرميل وفي اليد اليسرى يحمل بالإضافة مع شخص آخر العدة التي يقدم البوظة والتي تحتوي على طاولة زينكو ومن فوقها الكاسات الخاصة لوضع البوظة فيها والملاعق وإبريق الماء ليعد غسيل الكاسات أو الصحون بعدما يأكل الزبون .



بائع الدندرمة في القدس حاملا طبرا على يده. تصوير: حنا صافية. من كتاب: *Hanna Safieh: A Man and His Camera (Ramallah: n. p., 1999).*

كان يتجول ومعها كرسي بلدي صغير يجلس أبو موسى عليه عندما يتعب ونجتمع من حوله ونشتري البوظة على أنواعها المختلفة . والجدير بالذكر بأنه عمل أو بالحري ألف ولحن قطعة من الأغاني كان يغنيها بصوته الرخيم مع زملاءه في أحياء المدينة خصوصا داخل السور وعندما كنا نسمع صوت جاموس نفتح الشباك ونوقفه تحت الشباك في الشارع فيقعد ويغني :

الرّديدة: دندرمة يا دندرمة	شاكريني دندرما	دور
دندرمة يالله بحليب	تعال عندي يا حليب	قالوا لي عنك أديب جيت أشتري دندرما
يا بنت ياللي بالدهليز	واقفة بطاق القميص	الله يبعتلك عريس حتى أبيعك دندرما
دندرما بوزه بليمون	تعال عندي يا حنون	ولاتك ولد مجنون بطلّت[1] أبيعك دندرما

[1] بطلّت : الغيت قراري.

وإني لم أزل أحتفظ بلحن هذه الأبيات في ذهني وأذكر العم أبو موس وأدعو له بطول العمر والبقاء . أما معنى شاكريشي : فهذا لا نعلمه لا نحن ولا أنتم أنجق جناب الله بلير كما قال معلم الدين التركي . الله يجيب اللي ما ادردى !

وكان أحمد جاموس مشهورا عند الظهر فيبيع لحم وعجين من صنعه وهي ما تعرف أيضا بالصفيحة فقد كان يدخل ذات الأقراص من العجين والملآنة باللحم والصنوبر ، ويحدفها على بلاط الفرن . وليس كما كانت العائلات تخبزها بواسطة الصينية داخل الفرن ، وكانت والحق يقال أكلة لذيذة عندما تكون ساخنة ويرش أبو موسى بيده عليها رشه من السمن الصافي .

والجدير بالذكر أنه عندما كان يحمل هذا الصدر من اللحم والعجين ثم يضعه على السيبة في وسط الشارع ينادي بأعلى صوته "ليه ولحم الله يجيب اللي ما ادردى أي الله ما يجيب اللي ما تخونق" ، والعياذ بالله ولكن كانت العالم رغما عن استماعهم إلى شتائمه فقد يشترون منه ويكونون مسرورين نظرا لخفة روحه ودمه .

سحلب كينور

وأما عند الفجر فإن العم أبو موسى يحمل إبريقا ومن تحته كانون النار ومحمول بذات الإبريق الملآن من السحلب وهكذا كان بيع السحلب خصوصا في أيام الشتاء وكان سحلب جاموس من أحسن الصنع واللذة خصوصا بعدما يصب السحلب بالفنجان المزوق ويرش عليه الجنزبيل الطازج . فكان وصفة لها مكانتها لإلتهاب الحنجرة والسعال وجلي الصدر مناديا "سحلب كينور" .

وإذا ما رأى إحدى أصدقائه مقبلا في الشارع من بعيد وربما لا يرغب شرب السحلب فإن أبو موس يبادرة بصوته العالي "لا تركض بالمذهب بالمذهب" وبالفعل وبدون طلب يصب له السحلب بالفنجان ويقدمه له حالا عند وصوله إليه فلم يرفض هذا الصديق بل يتقبل سحلب أبي موسى ويدفع له ما تجود به نفسه بكل فرح وسرور .

أما كلمة كينور فهذه كلمة غريبة تجدها في قاموس أحمد جاموس .

مطبق زلاطيمو بالقدس

إعلم أيها القارئ أن لكل بلد من البلاد العربية مختصة بنوع خاص من المآكل أو الحلوى أو الشروبات فمثلا يقال الحلاوة بالجبن لطرابلس الشام ، ثم بقلاوة بيروت ، أو كنافة نابلس وقد انفردت مدينة القدس بنوع الحلوى المعروف بالمطبق ، وأظن أن الأصل من استانبول . وقد اشتهر هذا النوع من الحلوى من صانعه وهو المرحوم الشيخ محمد زلاطيمو الجد الأول لهذه العائلة الكريمة بالقدس .

إني أذكر المرحوم الشيخ محمد فكان رحمه الله معمم وله ذقن بيضاء عندما كان يشتغل بيده المطبق في دكانه الأولى "الأخيرة من الجهة اليمنى من الدكاكين تحت قنطرة خان الزيت" بجوار درج الحبش ودكان زلاطيمو في الوقت الحاضر[١] ، وقد استعمل دكانه القديمة المذكورة من بعده علي النمر (مطعما) . كنت أرافق والدي ونشتري القطعة الواحدة من المطبق بقيمة "قرش ترك" أي ثلاثة متاليك ونصف كبك . أما حجمها فكان بقدر قطعة المطبقة بوقتنا هذا وزيادة عنها بثلثين ، وكانت قديما والحق يقال صنعتها أجود والسمن والجبن كان صافيا ، وقد ورث أولاده إبراهيم وأولاده عنه هذه الصنعة الفريدة ولم تزل والحمد لله مشهورة ويضرب فيها المثل وإني أذكر أن المرحوم يوسف العيسى صاحب جريدة ألف باء في سوريا كان يزور القدس خصيصا ليأكل المطبق ومثله الكثيرين .

١ و ما زالت الدكان موجودة الي هذا اليوم وهو تاريخ صدور الكتاب.

وقد سمعت هذه الرواية من الحاج محمود العاصي حيدان من لفتا عن المرحوم الشيخ محمد زلاطيمو قال: أنه زمن حرب تركيا والمسكوب[1] ربما سنة ١٨٦٠ كان الشيخ محمد عسكري نفر في الجيش التركي في بيروت لبنان، وكان محمد العاصي والد الحاج محمود شاويشا عليه فكان الشيخ محمد زلاطيمو يتردد عند صديق يبيع هذا الصنف من الحلوى في بيروت فتعلم هذه الصناعة وعندما قضى مدة الجيش رجع القدس إبتدع صنع المطبق المعروف بإسمه والله أعلم.

[إقرأ الحادث الطريف بمناسبة زلاطيمو، أدناه].

ناعمة ياالله يا . . .

جاء القدس رجل طويل القامة جميل الوجه أنيق اللباس يلبس السروال الجوخ والدمير وكان من أهالي طرابلس الشام وقد اشتهر هذا الطرابلسي في صنع الغريبة، فكان يتقن صنعها لدرجة أنه كان القطعة الواحدة حجم صغير بمتليكين، وكان بالطبع سعر عال جدا بالنسبة لثمن الحلوى الأخرى في ذلك الزمن. جاء القدس ربما سنة ١٩٠٦ وأقام فيها وكان يحمل لكنا أو ما يسمونه بالجاط المدهون وفيه قليل من حب الغريبة، فيضع هذا اللكن على رأسه ويتمختر في شوارع المدينة داخل وخارج السور ينادي بأعلى صوته "غريبة، ناعمة، ياالله ياه"

والجدير بالذكر أنه عندما يكون واقفا وأمامه لكن الغريبة مرفوعا على السيبة[2] مثلا في سويقة علون أو حارة النصارى والرجال جالسين على ضفتي الشارع يشربون الأركيلة كانت تمر أو يمروا سيدات مسلمات أو مسيحيات منهن من يلبس الحبرة أو اللبس الفرنجي المكشوف فعندما تقع عينه على من كانت آيه في الجمال. يصيح بأعلى صوته "ناعمة، ناعمة، ياالله ياه" بمعنى أن هذه السيدة ناعمة وهكذا يلفت أنظار كل من وجد في الشارع من الرجال فتخجل تلك السيدة أو الآنسة حتى تكاد أن تعثر في قدميها. وهكذا كان هذا الرجل الغريب مكروها لدى كل من فيه دم العرب حتى إنني أذكر بأن الأستاذ خليل السكاكيني كان ينتقده ويذكره بالسخرية لدى التلاميذ ويقول "إذا كان هذا المارد الذي يجب أن يحمل الأثقال بالنظر لقوة جسمه يبيع الغريبة وكلها كم من قطعة على رأسه فقل وعلى الدنيا السلام."

الصومادة شراب

أما الشرابات التي كانت تستعمل في مدينة القدس في هذه الفترة ١٩٠٠ - ١٩١٤ كانت الشرابات المعروفة لدى الأقطار العربية المجاورة مثل شراب السوس والخروب والليمون والبرتقال والتمرهندي والمستعملة ليومنا هذا. والصنف الوحيد خصوصا الذي فقدناه بكل أسف هو شراب الصومادة. يستعمل هذا الشراب من اللوز الناشف (مستحلب) ويمزج بالطريقة الفنية بالسكر وقد كان يبيعه لنا رجل لا أذكر إذا كان تركيا أو يونانيا الأصل. كان يحمل إناءا بلورا جميلا لونه أبيض على ظهره ومعلق عليه نقود فضية وذهبية بواسطة السلاسل والخرز الأزرق فعندما يمشي في السوق تعمل

[1] المسكوب: الروس نسبة إلى موسكو (موسكفا).

[2] السيبه: القاعدة الخشبية للعينية.

أصواتا جميلة جدا وإني لا أنسى الرقمة التي كانت ثابتة فوق باب الإناء مصنوعة من النحاس الأصفر الذهبي ومحفورة بفن رفيع ويعلوها الهلال والنجمة من نحاس براق. وعلى وسطه زنارا يتسع لوضع الكؤوس الخاصة لشرب الصومادة هذا الزنار مصنوع من النحاس أيضا فعندما كان يختال هذا البائع الخفيف الروح والظل وخصوصا في نور الشمس وفي شوارع المدينة فإنك تندهش من منظره وعدته التي كانت تشع بنور الشمس وكأنها قبة إحدى كنائس روسيا، وتستمع إلى صوت النقود عليها وهو ينادي بأعلى صوته "صومادة بوزكبي" أي بمعنى الصومادة باردة كالثلج. فكنا نشرب هذا الشراب اللذيذ الذي كان يطفئ الحرارة بأيام الصيف.

وإني أذكر بأننا كنا نستعمل هذا الشراب من العم على زحيمان أبو زهدي في المقهى فكان يقدمه للعالم في مقهاه المشهور باب العامود مثلجا في فصل الصيف وساخنا في فصل الشتاء من ليالي رمضان المبارك.

التطلي

كانت العادة في هذه الفترة زمن تركيا العادة لدى أعيان المسلمين وإجمالا لدى عائلات المسيحيين من أهالي القدس بأن يقدموا لضيوفهم وزائريهم بمناسبة الأعياد التطلي. فكانت والدتي تطبخ أنواعا شهية ومختلفة مثل الفشنا وكانت تردنا من تركيا وهي من أحسن أنواع التطلي على الإطلاق. ثم السفرجل ماء السفرجل وبرش السفرجل، ثم الخشخاش وقشر البردقال[1] وخصوصا الكباد وكان يرد على القدس من يافا. وإني أذكر أنها كانت تعمل تطلي من جوز الهند والمستكا.

هذه العادة كانت جميلة جدا ولكنها كانت تأخذ من أوقات صاحبات البيوت الساعات فتصور يا أخي طبخ هذه الأشياء والمحافظة عليها لوقت الأعياد من السنة ثم والمهم أنه عند تقديم التطلي كان يقدم على صينية كبيرة الحجم من الفضة عند الأثرياء. مؤلفة هذه الصينية من: إنائين لنوعين التطلي مثلا سفرجل وفشنا. إناء خاص لوضع ملاعق صغيرة برضة[2] من الفضة عند الأثرياء. قدحين وفيهم الماء لوضع الملعقة فيهم بعدما يتناول الضيف التطلي في فمه فيضع الملعقة في واحد من هذه الأقداح. والجدير بالذكر أن حامل هذه الصينية ينقطع ظهره من ثقلها وبعدما تستعمل الملاعق الست يأخذ الملاعق شخص آخر من أهل البيت ويمسح كل ملعقة بالمنشفة الخاصة ثم يرجعون ويكملون التقديم للضيوف إذا كان عددهم أكثر من ستة.

وإني والحق يقال كنت ولم أزل معجبا بهذا النوع من الأكرام وقد واصلته في داري وبعد زواجي بعدما كان في طي النسيان عند أكثر أهل بيت المقدس اللذين اكتفوا بتقديم حبة من الشوكولاتة، أو غيره. لا أنكر أن العادة الحديثة أنظف وإنما من يتخايل تلك الصينية بمعداتها الفضية وكؤوسها المزركشة وملاعقها عندما تكون جاهزة وواقفة أمام الضيف ليتناول ما رغب من أصناف التطلي اللذيذ الشهي المفيد الخالي من كل تزييف لهو حقا كرم يتجلى فيه جود العرب وبهجة العيد فسقيا لتلك الأيام.[3]

[1] البردقال: البرتقال.

[2] برضه: أيضاً.

[3] انظر ملحق رقم ١١ في آخر الكتاب.

الأوضة

أما الاوضة فإني أذكر للقارئ لمحة عنها للمعرفة :

كانت العادة المتبعة في ذلك العصر بأن يتفق بعض الأصدقاء أو الجيران القريبين من سكناهم في أي حي من أحياء القدس من المسلمين أن يستأجروا داراً خاصة مؤلفة من غرفة أو غرفتين ومنافعها من دور مدينة القدس القديمة، يجتمعون فيها ويقضون السهرات الطول خصوصاً ليالي الشتاء ويسمونها بالاوضة. فإذا ما حضر فنان موسيقى أو منشد يأخذونه ويحيون ليلة خاصة فيها ويدعون أصدقائهم . ثم يلعبون فيها الورق والداما والدمنو والطاولة والادرلي ما بينهم، أو يستمعون الى من يحسن قراءة القصص من قصص ألف ليلة وليلة، أو عنترة وأبو زيد . وكان البعض من أصحاب هذه الاوض[1] والفراميات مع من يصادفهم من المؤمسات والاولاد أبناء الازقة. أما الأوض المعروفة الشريفة فكانت كثيرة منها أوضة في حي الشيخ جراح تضم خيار أهالي مدينة القدس وأدبائها سعيد أفق.

الألعاب التي تستعمل بين أهالي مدينة القدس من رجال وأولاد في العهد التركي [راجع الملحق في المجلد الأول]

[1] أسماء القطعة الموسيقية.

العود وعزفي العود

بقيت أعزف على آلة الطنبور رقم واحد والرباب والطنبورة رقم ٢ والربابة الهندية كما جاء الذكر عنها مدة ما تقرب من الثلاث سنين حتى أصبحت ماهرا في العزف على كل منها أعزف ما تعلمته من الأساتذة الهواة لكل من هذه الآلات الموسيقية ثم نجحت بترجمة ما كنت أنشد في ذلك الوقت من طقاطيق شعبية معروفة بكل دقة وإتقان. ولكن بالنظر لميلي الشديد لفن الموسيقى فقد زاد طموحي ووجدت نفسي بأنني قادر على الزيادة في العلم والتوسع في هذا البحر فكنت أتشوق لعلم العزف على آلة العود وهي الآلة الممتازة منها في الموسيقى العربية بل الشرقية على ما أعلم.

حنا فاشة

ولحسن الحظ كان حنا فاشة من أبناء طائفتنا الروم الأرثوذكس ساكنا في ذات الدار التي كانت تسكنها أختي عفيفة زوجة قسطندي عبد النور في حي المصرارة. كان العم حنا نجارا ويصنع العود بدقة لأنه كان يجيد العزف عليه وقد عاش في القاهرة سنين طويلة واقتبس طريقة العزف ولكنه لا يحسن الإنشاد بالنظر لصوته الوحش، فكان يداعبني حتى أغني له ما كنت أغنيه من طقاطيق يعزفها معي على عوده فيطرب لصوتي ويسمح لي بمسك عوده فأنقر على الأوتار، وأكون مندهشا من الفرح الأمر الذي جعلني أكره ما كنت أعزفه على الآلات الصغيرة المبينة أعلاه. فكنت أنام عند أختي الليالي العديدة طمعا لمشاهدتي واستماعي العود الذي أصبح معشوقي، وبهذه الطريقة أخذت فكرة جدية عن العود والعزف عليه.

صبري عبد ربه وشرائي العود

جارنا صبري عبد ربه صاحب فرن عبد ربه الواقع في محلة السعدية بجوار المأذنة الحمراء كان هاويا لعزف العود ويعزف على عوده في الفرن خصوصا في تغيب والده الرجعي،[1] ولما كان والدي من أحسن زبائن عبد ربه فتخبز المعجنات والخبز في فرنه وأصبح حسن حال بيننا ويزور بيتنا بمناسبة الخبز فكنت أتردد عليه وأستمع إلى عوده وكان العود من صنع نجار الأعواد فرح القرعة "قالب سيدات" مصدف ولطيف فداولت العم صبري واتفقنا على أن يبيعني العود هذا بأربعة مجيديات أي ثمانين غرش تركي فأصبح همي الوحيد آنذاك إيجاد الطريقة التي توصلني لإقتناء هذا المبلغ فصرت أدخر ما أحصل عليه من نقود من الوالد، وبعد الجهد والإجتهاد والدبلوماسية الجوهرية أصبح معي عشرين غرشا مع العلم بأنني كنت لم أترك زيارة العم صبري خوفا من أن يبيعه لغيري. وقد ساعدني الحظ في ليلة من ليالي سيدي حسين أفندي – مع الوالد طرحت بحث العود والموسيقى إلى تحمس المرحوم حسين أفندي وتكرم وأعطاني مبلغ الستين غرش دفعة واحدة فأمنت قيمة العود ولولا خوفي من غضب الوالد لكنت ذهبت توا في تلك الليلة (وكانت والحق يقال ليلة سعيدة من حياتي) ذهبت إلى صبري عبد ربه واشتريته ولكنني توقفت وأجلت الشراء لثاني يوم وكان على ما أذكر صباح الأحد، وبالإختصار اشتريت العود وأحضرته إلى البيت وكانت فرحة وهيصة في دار الجوهرية لم يسبق لها فرحة.

كبرت نفسي ولم أدع أحدا من أخواني أن يلمس العود وقد عملنا له بيتا من الفنيلا والوجه أتلس خوفا من البرد يا حبيبي. كنت أنام مع إخواني على فراش الأرض مع الوالدة وأضع العود فوق رأسي وكثيرا ما كنت أنقر عليه في الليل عندما يكونون نائمين فتصيح والدتي وتقول "يقطع العواد واللي بدقة عليها، ولك هذا العود لسا بده يجننك قطيعة والله لو أنه كتاب لدروسك ما بتفتحه في هالليل" إلى ما هنالك من كلمات لاذعة وشتائم ودواعي كنت والله أتحملها بطيبة خاطر كرامة للعود ولفن الموسيقى الرفيع مرددا قول الدور "العذاب في الحب هين بس لو يرضى الحبيب" فأنا والحمد لله قد أدركت آمالي وأصبح حبيبي بين يدي.

[1] الرجعي: ذا السلوك المحافظ.

عبد الحميد قطينة

إعتقد والدي بأنه من الواجب أن يساعدني على قدر المستطاع بالعلم لهذا الفن وهكذا اضطر جادا لإيجاد معلم خاص. ولما كان عبد الحميد بن المرحوم أسعد قطينة من أقدم عائلات القدس من هواة عزف العود الممتازين في ذلك الزمن وبصفته صديقا لوالدي والصداقة من والده أسعد قطينة إتفق مع عبد الحميد وصار يزورنا في الدار مرتين في الأسبوع وباشرت العلم لأول مرة فنيا على العود. والجدير بالذكر أن والدي كان يحضر له الخمر والمازة النادرة يحضرها بيده الأمر الذي جعل العم أبو أسعد يجد في تفهمي وتلقيني طريقة العزف. وبدأ فأعطاني دولاب، ثم يا صاح

الصبري، [٨٣] ثم قطعة من بشرف طانيوس فأخذت منه ثلاثة عشر درسا . وهذا كل ما تعلمته من العزف على العود من معلم.

أما دوزان العود فكان عند إبتدائي في العلم صعب علي فعندما تنتهي سهرة العلم ويتركنا عبد الحميد أجد في الصباح أن دوزان الأوتار قد اختلف بالنظر لإختلاف الطقس والملاوي الخشبية. وكنت في عمر يصعب علي أن أدرك صحة دوزان كل وتر من الأوتار الخمسة المزدوجة إلى أن ابتكرت طريقة شيطانية في هذا الصدد ونجحت، أما هذه الطريقة فهي:

عندما تركني ثاني ليلة من الدرس وكان العود في حالة ممتازة من الدوزان، جئت بالمسطرة، ووضعتها (عرضا) على أوتار العود ما بين القمرة ورقمة العود ورسمت خطا بقلم الكوبيا فظهر ساوياً على خشبة صدر العود والأوتار معا. وبهذه الطريقة كنت عندما أرى بأن هذا الخط إختلف فنزل مما كان مرسوما على الوتر عن محله الأصلي من الخط الساوي، كنت أرفع ذلك الوتر بواسطة المفتاح الخاص به إلى أن يرجع الخط ساويا كما كان! . وقد داومت على هذه الطريقة المبتكرة إلى أن حان الوقت وتفهمت فنيا وعمليا طريقة الدوزان المعروفة. وقد تعجب كل من رأى هذه الطريقة من الأشخاص اللذين كانوا يجيدون العزف على العود ويزورون بيتنا.

حمادة العفيفي

كان العم أبا فؤاد "حمادة العفيفي" من أعرق أسر أهالي القدس المسلمين الكريمة. كان موظفا كبيرا في القضاء وصديقا لوالدي. وكان يعتبر من خيار هواة الفن يعزف العود وحسن الصوت فإذا ما غنى موشح أو قصيدة يخيل لك بأنك أمام أشهر الموسيقيين من أهالي القاهرة فكان عزفه وطريقة نقر الريشة لا يقلده فيها أحد من هواة هذا الفن المقدسيين ولحسن الحظ بعدما أصبح في بيت الجوهرية العود أكثر العم أبو فؤاد من زياراته للوالد وكان يبدع أيما إبداع ويطرب نفسه من نفسه وباعتقادي أنه هذا هو عين الفن الأصيل حتى قال الفيلسوف جبران خليل جبران كلمته المأثورة في الفنان "لا يستطيع المغني أن يسحرك طربا إلا إذا كان مسحورا بالطرب". فكنت أكتسب منه قطعا فريدة واستمرت معرفتي للعم أبي فؤاد بعد وفاة والدي كما سيجيء البحث عنه في الفصل الثاني من كتابي هذا. وإني ليومنا هذا لم أزل أردد موشحا من أحب الموشحات إليه مطلعه "صاح وخبر فاتر الأجفان عن وجدي"، وإني أعترف بأن لأبي فؤاد الفضل الأكبر علي لما وصلته في فن الموسيقى العربية.

أما طريقة علم العزف على العود والتي تعلمت فيها في ذلك الزمن فكانت تعطى من المعلم قطعة قطعة على الوتر حسب اللمس بالإصبع من الأغنية أو المعزوفة الصامتة فيعلم العود إلى التلاميذ وهذا بدوره يحاول إعادة عزف الجملة الموسيقية الصغيرة في الحال كما سمعها من المعلم شريطة أن يحفظها عن ظهر قلبه في ذهنه وهي الطريقة القديمة قبل

العلم حسب النوتة الإفرنجية. ولذلك كنت تجد قليلا من ينبغ في الموسيقى إلا إذا كان موهوبا فيجاهد بالعلم ولو بهذه الطريقة الصعبة القديمة بكل فرح وسرور نظرا لحبه للفن الرفيع.

زيارة المطران جراسيموس رئيس كنيسة القيامة لدير عمرو

كان المطران جراسيموس رئيس كنيسة القيامة بالقدس بعد وفاة أفتيموس صديقا للسيد حسين سليم الحسيني والوالد وقد دعاه لزيارة خربة ديرعمرو فلبى الدعوة وحضر وكنا أنا ووالدي هناك فعملنا الترتيبات اللازمة فدخل باحتفال مهيب وكان معه حاشيته من الرهبان ثم حضر حسين أفندي وبقي هناك على الرحب والسعه فكانت الأهازيج والدبكات تقام في ساحة الدار ليليا من الفلاحين بصورة منظمة وقد رافقت الدبكة وكنت اللواح في الرقص بجانب صالح الشعراوي وقد أحضر حسين أفندي الخدم والطباخ وأوائل[1] تقديم المائدة من فندق فاست من القدس خصيصا لزيارة جراسيموس وكان رحمه الله يحب أن يستمع مني العزف على العود ولو كنت مبتدئا بعد ويميل إلى غنائي العربي ويقول أنه كثيرا يشبه الموسيقى البيزنطية.

وعندما رجعنا القدس أخذني والدي إلى عمارته المعروفة المقامة على جبل صهيون فقد قدم لي هدية خمسة ليرات فرنسية ذهبية كدت أن أطير فرحا وكانت ثورة في بيتنا بيني وبين إخواني. الأمر الذي جعل والدي أن يحتفظ بهذه القيمة عنده هذا ما قدمه لي المرحوم جراسيموس وإني أسائل نفسي إذا كان هذا المبلغ قدم هدية لي إذا ما هو المبلغ الذي كان من نصيب والدي في ذلك الوقت يا ترى؟

خليل الياسيني ولكن غرني القمر

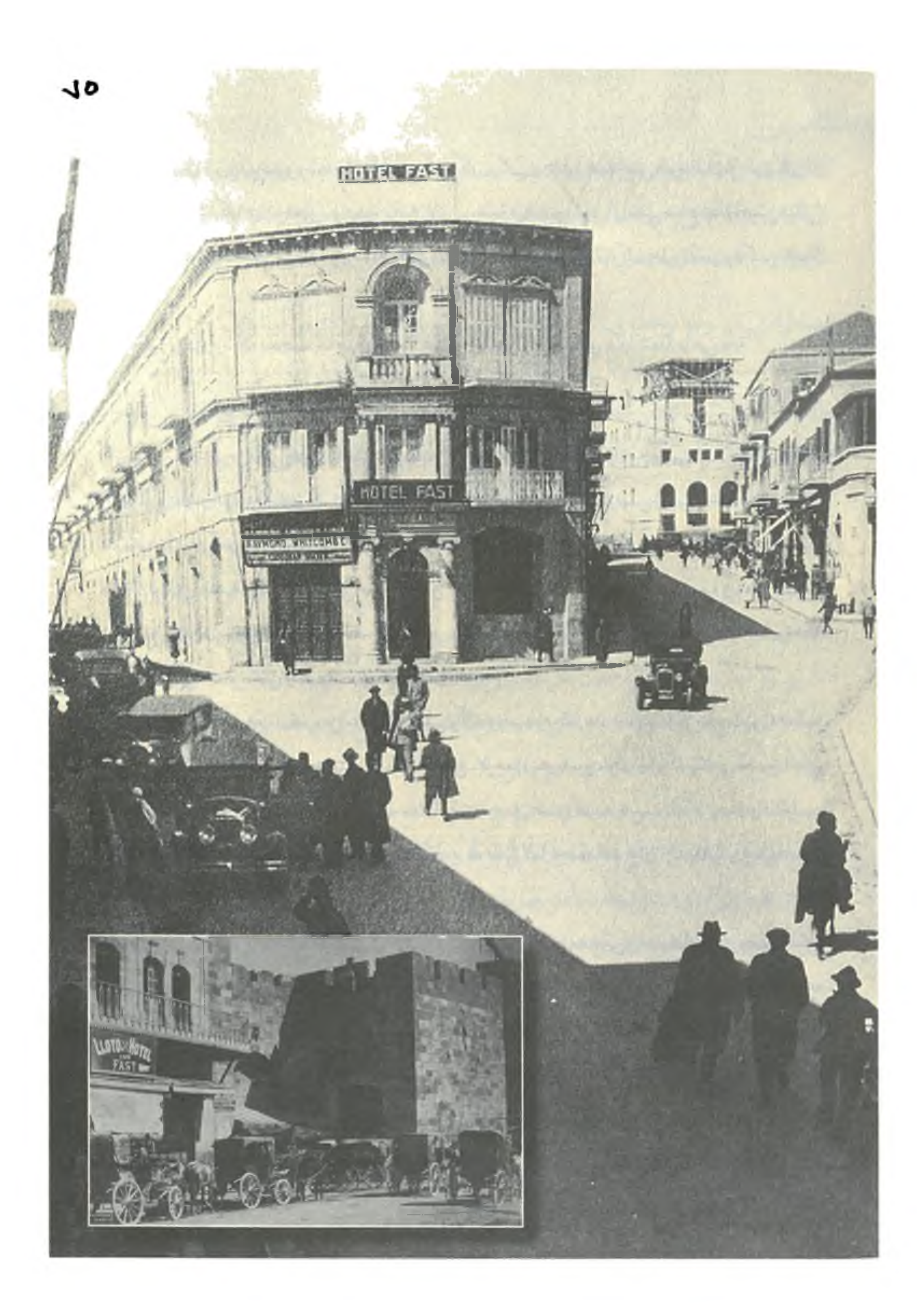
كان خليل الياسيني أحد عمال السيد حسين الحسيني في ديرعمرو، وكانت له حوادث مضحكة جدا لأنه كان رحمه الله طيب القلب لدرجة أنه كان يعتبر من الأغبياء إنما كان أمينا ومحافظا على سر أعمال سيده ويشتغل الليل والنهار بدون تذمر. فمثلا كنا وحسين أفندي سهرانين ربما للساعة العاشرة مساءً في الدار في ديرعمرو وكانت ليلته مقمرة وإذ بصوت شديد يخاطب البغل الذي كان مربطه من تحت الدار فخرج حسين أفندي ووجد خليل الياسيني يحمل صحارتين العنب على ظهر البغل وينهر عليه بغضب.

فدهش حسين وسأله ماذا تعمل يا خليل؟ أجاب الدنيا الضحى تعوقنا الله يلعنك يا بليس بدنا نمدّن[2] (أي يذهب إلى القدس لبيع العنب) فضحك حسين أفندي وضحكنا، وقال له ولك مجنون بيأكلك الضبع لسا الدنيا ما صارت نصف الليل.

وقد عمل هذا الفصل مرة أخرى فوصل القدس في منتصف الليل ونام إلى أن طلع الفجر وله حوادث غريبة من نوعها وكانت زوجته حليمة تشتمه على مسمع من الناس لخفة عقله وكان والحق يقال هو التسلية الفريدة في خربة ديرعمرو.

١ أوائل: أواني وأدوات الأكل.

٢ نمدّن: في التعبير الفلاحي " نذهب إلى المدينة ".



صـورة فندق فاست خـارج باب الخـليـل وتـظهـر بـلدية القـدس في الخلف وكذلـك دائـرة البريد عمارة بنك باركليز. الصورة من المجموعة الجوهرية. المصور غير معروف.

الصـورة الصغيرة لفندق خارج باب الخليل مباشرة وهو فندق للويد مقابل فندق فاست الحديث وموقـع فـنـدق فـاسـت الســابق. مـصـورو الأمـريـكـان كـولـوني. من كتاب عصام نصار تصوير القدس: صورة المدينة في القرن التاسع عشر.

بدها شفقة

سافر والدي إلى خربة ديرعمرو ومعه خليل الياسيني الذي كان يركب حمارا محملا على ظهره قليلا من المؤن كان قد اشتراها والدي لنا كلها في ديرعمرو. وعندما وصلا إلى عقبة قرية صوبا وإذ بالياسيني صاح غفلة "هيش هيش" فوقف الحمار ونزل الياسيني من على ظهره ورفع كيس المؤن وحمله على كتفه هو ثم ركب على الحمار والكيس محمولا على كتفه.

جن جنون والدي وسائله بتعجب "ما هذا يا خليل" فقال رحمه الله "وله يا سيدي بدها شفقة ما هي دابة"

قروق عيسى الياسيني

كان عيسى الياسيني بن أخي خليل الياسيني المنوه عنه أعلاه شقيا عفريتا يعيش وأخيه موسى في الأحراش ويرعون الأغنام وبالنظر لوجود بركة العين التي كنت ذكرت سابقاً. كان يصعد وأخيه موسى إلى بيت عمه ناطور الجناين المشرف على البركة ويرمي بنفسه من أعلى سطح المنطرة إلى الماء ويسبح الأمر الذي أثر على صحته فأصابه فتاق ونزل له قرقا في كيسه[1] وكان لم يبلغ الإثني عشر سنة من عمره. وقد صادف أن حسين افندي رآه مرة في فصل الصيف فشفق عليه وأراد إسعافه فأمر والده فأحضره إلى القدس وأدخله في مستشفى الألماني لإجراء عملية جراحية بواسطة الطبيب الألماني المدعو كيلن والمعروف لدى أهل القدس بالسلاخ.[2]

ولكن أين لعيسى الصبر فقد ارتعب من منظر المستشفى وآلاته ولباسه وهكذا عند الظلام تسلق على ماسورة الطلمنا القريبة من شباك غرفة المستشفى وهرب بلباس المستشفى. فرجع إلى ديرعمرو، وقد خابر المستشفى حسين أفندي عن هربه وانتهى الأمر. وفي فصل الصيف من السنة التالية زار حسين أفندي خربته حسب المعتاد وسأل والد عيسى وكان إسمه مصطفى الياسيني عن حالة إبنه فأجاب "الحمد لله طاب لأننا أخذناه عند فلان الجبر الختيار في قرية صوبا وكواه بالنار".

حسين أفندي: وين كواه؟ أجاب مصطفى في عرق يده اليسرى، ثم أحضر مصطفى ولده وأطلعه على حسين أفندي وكنت حاضرا وإذ كل شيء كما يرام لا قرن ولا فتاق ولا ما يحزنون. دهش حسين أفندي من الوصفة وعند رجوعه إلى القدس قص الحادث إلى الدكتور كيلن الألماني في فلم يصدق إلى أن أحضر الولد عيسى وعاينه ثم بواسطة حسين أفندي أحضر الجبر من صوبا وكان معروفا في ذلك الوقت (أنا نسيت إسمه) وبحث معه عن مكان العرق الذي يتصل إلى كيس البيض للشخص فدله فسر جدا من حكمة العرب ودفع له ليرة فرنساوي ذهب.

١ في كيسه: خصيته.

٢ السلاخ: الجزار.

الوالدة والأخرس

كانت الوالدة رحمها الله أمية وقلبها بسيط جدا وكانت على منتهى الإخلاص والوفاء تجاه زوجها وأولادها وجيرانها بل لكل من عرف أم خليل. وكانت لها حوادث طريفة ومواقف لطيفة نسبة إلى دهاء الجوهرية آنذاك. وإني أذكر للقاري هذا الحادث الظريف يعطي القاري فكرة عن المرحومة الوالدة:

بصفة والدي كان موظفا ومحاميا في زمن تركيا فكان يرسل رجلا أخرس من فلاحين قرية بيتونيا[1] إلى الدار ليوصل حاجات البيت ويخدم والدتي أحيانا. يحمل تنكات الماء من الطابق السفلي للطابق الثالث وكانت توده وتعطف عليه وكان هذا مشهورا لدى موظفي الحكومة في القدس فالكل يخدمه ليوصل حاجات بيوتهم ومعروفا بالأخرس البيتوني.

ففي ذات يوم عندما كان والدي راجع من عمله للغذاء فتح أخي توفيق الشباك المطل على الشارع وإذ بأخرس (ومعه شخصا من عائلة حدوثه) مصاب بجرح في رأسه ويصيح متألما ويشير بيده إلى الشباك ولا خفاك صوت الأخرس الذي أقام حي السعدية وأقعدها حتى اجتمع حوله جمع غفير في الشارع وكانت الشرفات كلها ملآنة من الجيران اللذين وقفوا يتفرجون ويتجمعوا على صوته المزعج، وقد إعتقد بأن حجرا أصابه من الشباك الذي كان فيه أخي توفيق وكان هذا الشخص الأخرس هو السيد عبدالله الأخرس الحسيني ومن عائلة سماحة المفتي بالقدس ووالد الدكتور موسى الحسيني ولا تسأل عن الشتائم التي صبت على توفيق وعلى عائلته مع أن أخي توفيق كان بريئا من هذه التهمة حقا.

وعندها طل والدي من الشباك وعرض على الجمهور خطأ ظنهم إلى أن اقتنع كل من المجتمعين بعدما فهموا أن الساكن هو صديقهم الجوهرية وقد أسعف والدي المجروح. قدر الإمكان فراق الجو في الشارع. وفي هذا الظرف والموقف الحرج عندما كنت أنا بدوري أتفرج من الشباك الصغير الذي كان في المطبخ والذي يطل أيضا على هذه المعركة والجمهور في الشارع، جاءت الوالدة من خلفي وقالت (ولك شيل من هون) فأطعت أمرها فطلت رأسها من هذا الشباك وكان السكون مخيما عن من في الشارع وقالت بأعلى صوتها:

ولكن كيف يهون علينا نضربه وهو من خدامنا لإعتقادها بأن الأخرس هو ذلك الفلاح البيتوني الذي يجيئها ويخدمها أحيانا جن جنون والدي وأسرع وجذبها من الخلف وقال لها "ولك هذا أخو المفتي شو خدامك، الله يسود وجهك يالبعيدة"

ولكن هل تعلم ماذا كان جوابها رحمها الله؟.

كان جوابها "يوه! كيف بيكون أخو المفتي، وأخرس؟. مش ممكن.

وأصبحت هذه القصة الطريفة موضع بحث في مجالس الجوهرية لأصدقائه وخصوصا أسرة الحسيني الكريمة. فكانوا يضحكون ويثنون على طيبة قلب الوالدة أم خليل.

[1] بيتونيا قرية غربي رام الله.

الوالد وعائلة البغل

أكتب هذا الحادث الطريف وهو من جملة الحوادث النادرة التي اشتهر الوالد بها بين أهالي بيت المقدس على كافة طوائفها وكان يلقي نكاته الجوهرية في حينها فتخرج من فمه وكأنها مثلا بالنسبة لذلك الموقف الذي قيلت فيه :

زار والدي أختي عفيفة زوجة قسطندي عبد النور (البغل) بمناسبة عيد القسطنطينية . وكان جمهورا من عائلات طائفة الروم يعيدون [أي يحتفلون بالعيد] داخل البيت فترأس المجتمع وبلش يتحدث ما طاب له من الأحاديث في مواضيع شتى يشرب الأركيلة إلى أن انتهى الإحتفال . وعندما دخل والدي البيت ربطت أنا وأخي توفيق الحمار الأبيض الذي كان يركبه عادة في ماسورة الطلمبا[1] من دار فروسو المنى الكائنة في حي المصرارة وسكن أختي عفيفة آنذاك ولكن عندما خرج والدي مودعا رافقه أغلب من كان حاضرا يشبعوه بالحفاوة والإكرام وكان فريقا لا يستهان به خصوصا من عائلة البغل الكريمة . ولسوء الحظ لم نجد الحمار في محله وفي هذا الظرف الحرج أبى الجوهرية أن تفوته النكتة فوجه حديثه إلى صهرنا أبا فائز الذي انكسف وانهمك في التفتيش على الحمار فقال له والدي :

"مسألة بسيطة ولا خوف على الحمار يا صهري إنما وبهذه المناسبة جاءت على فكري نكته أحب أن أحدثكم إياها"

فسكت كل من حوله يستمع إلى هذه النكتة فقال :

عائلة القباقيبي مشهورة ومن العائلات المعروفة في الشام . وقد صادف أن شيخا نديا ذكيا حاضر النكتة زارها في ليلة سمر وقد أخفوا فردة من مركوبة عمدا في تلك الليلة وعند انتهاء السهرة حاول أفراد العائلة بمظهر التفتيش عن المركوب وقالوا "أين بابوج سيدنا الشيخ أين سيدنا الشيخ البابوج؟" فبالحال فهم نواياهم الخبيثة واعتقد بأن الأمر مصطنعا ليتحفهم بكلمة سخرية وقال لهم بيتا من الشعر "لا غرو إن ضاع سيري في ساحتكم فإن البوابيج إخوانا للقباقيبي" ثم قال : لا تزعل يا صهري إذا أين فقد الحمار ، أليس في دار البغل؟

[1] الطلمبا (أو الطرمبا) : ماكنة الضغط لرفع المياه من بئر الجمع.

السلفيتي الخوري

كان ميخائيل السلفيتي وعائلته أصدقاء وفيين لوالدي ووالدتي وزياراتنا مباحة بدون كلفة . فقد زارتنا هذه العائلة ليلة من ليالي رمضان في دار الجوهرية في السعدية ما عدا ميخائيل وكان يرافقهم خوري بالألبسة الأرثوذكسية قدموه إلى والدي قائلين أنه جاء خصيصا من قرية عابود . قضاء رام الله وسألهم عن الجوهرية بخصوص قضية قضائية يرغب مواجهته للبحث فيها . وربما أنه لا يعرف العنوان فقد انتهزوا الفرصة وأحضروا هذا الخوري معهم لأنه من معارفهم وبذات الوقت كي يقضوا السهرة سوية ، وهكذا جلس الخوري في صدر القاعة بجانب والدي وتفرقت باقي العائلة في القاعة . دخلت الوالدة فقبلت أيادي الخوري ثم قبلنا أنا وإخواني وأخواتي يديه بدورنا . وقد صادف أن جيراننا عائلة متري المنى زارتنا في تلك الليلة فكان من دخل الصالون من هذه العائلة يقبل أيادي الخوري إحتراما للكهنوت

ثم يجلس وكان متري عبد الله وعائلته وأخته نور ومعتوق زخريا وعوض فتالة والأولاد والبنات، جميعهم لثم أيادي الخوري الطاهرة.

وعندما سألت والدتي عائلة السلفيتي عن تغيب ميخائيل أجابت والدته بأنه معذور ومشغول وربما سيجيء متأخرا فما كان من الخوري إلا وأزال لحيته المصطنعة وشلح القلوسة[1] وقال لا ياما أنا جيت معكم. فتصور ذلك الموقف وإذ هو ميخائيل بعينه!! شهق كل من الحضور ومات ضحكا على ميخائيل وحوادثه إلا والدي الذي عرف المؤامرة سرا والمهم في الأمر فتصور يا أخي أن ميخائيل تجرأ ولبس هذه البدلة وجاء بلحية مزيفة مشيا ومر من داره التي كانت في حارة النصارى إلى باب العامود ومن ثم إلى حارة السعدية ليس لشي سوى الضحك. فكان لا يضحك خصوصا عندما قبل جميع الحضور أياديه. فكان ماخذ بجده رحمه الله.

[1] وهي قبعة الكاهن بحسب التقليد البزنطي.

السلفيتي والعامل محمود

كانت عائلة السلفيتي تملك مصيفا في شرفة عين كارم قضاء القدس وكان هذا القصر الصيفي مجمع الخلان من أصدقائهم المقدسيين فإذا مازرت المصيف تشاهد ما يدهشك من فكاهات العائلة وأخصهم ميخائيل فقد نصب عددا كبيرا من القنابل الفارغة التي تركت من الجيش وكان يضرب عليها بعصا مقلدا نواقيس طوائف الحبش والأقباط والسريان في سبت النور العظيم. وكان محمود من قرية عين كارم قد إشتغل مدة ثلاثة أسابيع في الأرض والسلاسل للمصيف ولم يقبض أجاره من العم ميخائيل لأن الدراهم كانت تحفظ عند سليم أخيه وكان صرافا للنقد وكان العم ميخائيل يماطل محمود ويعده للأحد القادم إلى أن زهق العم ميخائيل من مطالبة محمود وأصبح في موقف حرج ولم يبق له أي عذر لتسديد الأجار حتى ابتكر هذا الحادث الطريف وتخلص من العامل محمود كليا الذي لم يرجع إليه ثانية وعاف أجاره المسكين، وإليك الحادث:

كان العم ميخائيل يحمل بجيبه قليلا من ناعم الفوارة.[1] فجاء محمود مطالبا بالإيجار على عادته في صبيحة يوم من الأيام وطرح السلام وجلس بجانب ميخائيل تحت ظل الشجرة. ففاجئه العم ميخائيل قائلا: "يا محمود كثير من المرات بتحصل معي دوخة، وبغيب عن الدنيا. يا زلمة ما بعرف شو بعمل ساعتها" إلى ما هناك من تذمر من هذا المرض محمود: "ول يا زلمة ما تحكم شوف الحتشيم.[2] ميخائيل: وبخفة فائقة وضع قليلا من ناعم الفوار في فمه بدون معرفة محمود، ورد قائلا "يلعن أبو الحكماء إني لم أترك أحدا منهم إلا وحكمني. أخذوا المصاري ع الفاضي." ثم قال هأ هأ أجت يا محمود، أجت يا محمود فأزبد من فمه بواسطة الفوارة وشقلب عيونه فهرب محمود ولحقه ميخائيل يهدرم ويشتم ويعربد ومحمود يركض أمامه يصيح من شدة الخوف مسافة طويلة. وهكذا رجع العم ميخائيل وتخلص من محمود إلى الأبد.

[1] ناعم الفوارة: مسحوق سكري يفور عند ملامسته الماء وكان يستعمل في تلك الايام في مكان المشروبات الغازية اليوم.

[2] الحتشيم: الحكيم أي بالطبيب بلهجة الفلاحين.

الملح المهرب

إشترى مرة العم ميخائيل كيسا من الملح المهرب من البدو اللذين كانوا يشتغلون بالمهربات ويبيعون الأشياء بأسعار رخيصة تخلصا من رسوم الجمارك. وقد حمل ميخائيل كيس الملح على حماره وجاء وأخته ملكة. ولأجل أن يتخلص من مراقبة موظفي الجمرك اللذين كان مركزهم في ذلك الزمن بـاب الجديد فكر ميخائيل جليا بالأمر وركب أخته ملكة فوق كيس الملح على أمل بأن الموظفين لا يفتشون الحريم. كما كانت العادة في زمن تركيا ثم سار الحمار بملكة وتأخر ميخائيل مراقبا عن بعد. وعندما وصل الحمار أمام نقطة الجمارك شاء القدر أن يعثر (ويقع بملكة أرضا). الأمر الذي جلب إنتباه الموظفين فجاءوا لإسعاف الحرمة ولكن وجدوا الملح المهرب، فاضطر ميخائيل أن يظهر فحضر بالحال وانكشف وبعدما دفع شيئا من المال كما يسمونه رشوة سمح له بأخذ كيس الملح فعربد وغضب. ولكن الأنكي من كل ما حدث بأن ملكة عجنت العجين واستعملت فيه قليلا من هذا الملح، وإذ تبين بعد الخبيز بأن طعم الخبز مرا علقما، وفهم العم ميخائيل بعد كل هذا العذاب والفضيحة أن ما ابتاعه من البدو كان من الملح بجانب بحر الميت والذي لا يستعمل للأكل مطلقا.

السلفيتي ورسوم العهد البائد في تركيا

في زيارة عائلية لبيت السلفيتي الواقع بجانب دار نقولا عبده في حارة النصارى وعندما كان حشد كبير يتحدث في ساحة الدار ووالدي يشرب الأركيلة إذ استمعنا إلى غوغاء وأصوات مزعجة، وكانت ملكة أخته واقفة على درج يؤدي إلى بيت خلاء بلدي واقع في أسفل الدار، وكانت متألمة غيظا وتصيح بأعلى صوتها "يكسر إيديك يا ميخائيل، بكفي، حرام عليك بس " وهكذا.

ترك والدي الأركيلة وذهب مع جميع الحضور مدهوشين حتى وصلوا ملكة وإذ هي تخاطب أخيها ميخائيل اللعين وكان داخل بيت الخلاء وقالت لنا: بالله عليكم تعوا شوفوا هالقلب الآسي[1] وهكذا ظننا أن حادث طارئ حدث لشيء ما، ونزلنا منزعجين وإذ ميخائيل ثائر، وبيده كندرة قديمة بليانة[2]، يضرب فيها بعض رسوم كانت معلقة على الحائط في بيت الخلاء، وكانت هذه الرسوم الكبيرة الملونة صورة عبد السلطان عبد الحميد ثم محمد رشاد وغيرهم من عظمة آل عثمان. كان بهياج ليس له مثيل يضرب رأس الرسم بالكندرة ويقول "أهلكتونا، بكفي يا عفريت وهكذا."

كل منا يحلق بعين الآخر وهات يا ضحك. فأخذنا ميخائيل إلى السطح وكان عمله القذر والمضحك موضع بحث تلك الحفلة وله في كل جلسة نكتة ليلهي جميع الحضور فيها.

[1] الآسي: القاسي.

[2] كندرة بليانه: حذاء مهترئ.

السلفيتي والفوتوغراف

كما في نزهة شطحة مع بعض عائلات كريمة منهم عائلة النوري سوتيري حنانيا ، وعائلة يعقوب سعيد وعائلة شكري ديب وغيرهم في نهار جميل من أيام الصيف بموقع عالي هو رأس بيت جالا .[1] وكانت لحسن الحظ عائلة السلفيتي معنا لنتعاون في الغناء والفكاهة . ولما كان سليم السلفيتي يعمل صرافا في عمارة المسكوبية جاء ميخائيل وقال للحاضرين وهم في نشوة الطرب والحظ والسكر ويستمعون إلى عزفي على العود والغناء ويرددون الطقاطيق الشعبية قال أن أخيه سليم أحضر معه ماكنة فوتوغراف كبيرة من صديق له روسي وأشار بيده عليها وكانت ملقاة بعيدا عنا بجانب منحدر وسلسلة وعليها حراما أسودا لإحتجابها عن أشعة الشمس . وهكذا طلب من الحضور بالإستعداد لأخذ صورة لهذه الشطحة الذكرى بداعي أن أخيه سليم يحسن إستعمال هذه الماكنة .

صدق الجميع أقوال ميخائيل وبدأ هو وكأنه المرحوم كريكوريان يرتب مقاعد كل منا ثم يذهب إلى أخيه سليم ويرفع معه الحرام الأسود فوق الماكنة ثم يرجع ثانية ويعدل وقفة هذا ، ويرفع يدي الآخر ، ويميل وجه الآنسة الأخرى ، وينزل العود الذي أحمله عشرة سنتمتر إلى أسفل إلى أن إنتهى هذا الدور فأصبحنا وكلنا على أهبة أخذ الصورة . ثم ذهب ميخائيل راكضا ودخل ورافق أخيه سليم خلف الحرام الأسود الجلل به ماكنة الفونوغراف . وأخيرا رفع الستار الأسود (الحرام) وإذ هو جحش مقلوب ورفع ذيله إلى فوق ثم شد بيده على كيس بيضه الأسود بمعنى أنها الكاشوكة التي تأخذ الصورة ، وبعدها رفع ذيل الحمار بيده برهة ، وترك الحمار ووقف بجانبه ورفع الكالبك من على رأسه وقال لنا (Thank you) .

ولا أبالغ إذا قلت للقاري أن جميعنا وقعنا على بعضنا ثم على الأرض من شدة الضحك . وهذه التقليعة كانت من حوادث ميخائيل النادرة القدرة يعجز عن عملها أكبر حشاش مصري .

السلفيتي والأسطول

مر وقت طويل في القدس زادت الحكومة التركية الطلبات من الشعب بمناسبات كثيرة مثل مساعدات لشراء السلاح ، مساعدات لتقوية الجيش ، مساعدات لجمعيات الهلال الأحمر ، مساعدات حربية وهكذا وكانت الحالة المالية سيئة جدا وليس في الإمكان تحمل هذه الطلبات والضرائب وبذات الوقت لا يوجد من يستطيع أن يرفض طلبا من هذه الطلبات وكان ولا شك زمن الظلم والإستبداد .

وقد صادف أن قوة من البوليس وعلى رأسها صالح أفندي العلمي كهيئة خاص لجمع الأموال من الشعب عرجت على دكان سليم السلفيتي وكان يعمل صرافا تحت قنطرة حارة النصارى ، فوقفت آلة الظلمة كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت وطلبت إعانات للأسطول العثماني . تحمس العم ميخائيل وقال معلوم جئتم في وقتكم ، ودخل إلى داخل المخزن وبعد مدة رجع وفي يده قطعة من جنزير حديدي أسود قديم ، وقدمها إلى الرئيس صالح أفندي وقال :

[1] المنطقة المعروفة بايفريست اليوم .

السلفيتي والفوتوغراف

كنا في نزهة شطحة مع بعض عائلات كريمة منهم عائلة النوري سوتيري حنانيا، وعائلة يعقوب سعيد وعائلة شكري ديب وغيرهم في نهار جميل من أيام الصيف بموقع عالي هو رأس بيت جالا.[1] وكانت لحسن الحظ عائلة السلفيتي معنا لتعاون في الغناء والفكاهة. ولما كان سليم السلفيتي يعمل صرافا في عمارة المسكوبية جاء ميخائيل وقال للحاضرين وهم في نشوة الطرب والحظ والسكر ويستمعون إلى عزفي على العود والغناء ويرددون الطقاطيق الشعبية قال أن أخيه سليم أحضر معه ماكنة فوتوغراف كبيرة من صديق له روسي وأشار بيده عليها وكانت ملقاة بعيدا عنا بجانب منحدر وسلسلة وعليها حراما أسودا لإحتجابها عن أشعة الشمس. وهكذا طلب من الحضور بالإستعداد لأخذ صورة لهذه الشطحة الذكرى بداعي أن أخيه سليم يحسن إستعمال هذه الماكنة.

صدق الجميع أقوال ميخائيل وبدأ هو وكأنه المرحوم كريكوريان يرتب مقاعد كل منا ثم يذهب إلى أخيه سليم ويرفع معه الحرام الأسود فوق الماكنة ثم يرجع ثانية ويعدل وقفة هذا، ويرفع يدي الآخر، ويميل وجه الآنسة الأخرى، وينزل العود الذي أحمله عشرة سنتمترات إلى أسفل إلى أن إنتهى هذا الدور فأصبحنا وكلنا على أهبة أخذ الصورة. ثم ذهب ميخائيل راكضا ودخل ورافق أخيه سليم خلف الحرام الأسود المجلل به ماكنة الفونوغراف. وأخيرا رفع الستار الأسود (الحرام) وإذ هو جحش مقلوب ورفع ذيله إلى فوق ثم شد بيده على كيس بيضه الأسود بمعنى أنها الكاشوكة التي تأخذ الصورة، وبعدها رفع ذيل الحمار بيده برهة، وترك الحمار ووقف بجانبه ورفع الكالبك من على رأسه وقال لنا (Thank you).

ولا أبالغ إذا قلت للقاري أن جميعنا وقعنا على بعضنا ثم على الأرض من شدة الضحك. وهذه التقليعة كانت من حوادث ميخائيل النادرة القدرة يعجز عن عملها أكبر حشاش مصري.

السلفيتي والأسطول

مر وقت طويل في القدس زادت الحكومة التركية الطلبات من الشعب بمناسبات كثيرة مثل مساعدات لشراء السلاح، مساعدات لتقوية الجيش، مساعدات لجمعيات الهلال الأحمر، مساعدات حربية وهكذا وكانت الحالة المالية سيئة جدا وليس في الإمكان تحمل هذه الطلبات والضرائب وبذات الوقت لا يوجد من يستطيع أن يرفض طلبا من هذه الطلبات وكان ولا شك زمن الظلم والإستبداد.

وقد صادف أن قوة من البوليس وعلى رأسها صالح أفندي العلمي كهيئة خاص لجمع الأموال من الشعب عرجت على دكان سليم السلفيتي وكان يعمل صرافا تحت قنطرة حارة النصارى، فوقفت آلة الظلمة كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت وطلبت إعانات للأسطول العثماني. تحمس العم ميخائيل وقال معلوم جتم في وقتكم، ودخل إلى داخل المخزن وبعد مدة رجع وفي يده قطعة من جنزير حديدي أسود قديم، وقدمها إلى الرئيس صالح أفندي وقال:

[1] المنطقة المعروفة بايفرست اليوم.



أحمد جمال باشا قومندان الأوروالهاميوني الرابع وناظر الحربية المعروف بـ جمال السفاح. المصور خليل رعد. من محفوظات مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

خذوا هذه تنفع وصله لباتر السطول . بدنا الصرفة !

فضحك صالح أفندي وجماعته وتركوا الدكان وساروا ولم يراجعوه مرة أخرى .

احتفالات الإنقلاب العثماني : ١١ تموز ١٩٠٨

حدث الإنقلاب العثماني في ١١ تموز سنة ١٩٠٨ في الإستانة وكانت فرحة لدى الحكومة وخاصة الشعوب العربية في البلاد فكانوا يسمون هذا الإنقلاب بالحرية "حرية عدالة مساواة" أما يهود بيت المقدس فكانوا يسخرون سرا من هذا الإنقلاب ويسمونه ب (خرقية) أي حرقية ويقولون أن الويل سيحدث بعد هذا الإنقلاب . كما هو معلوم لدى العموم بأن الذي قام بهذا الإنقلاب هم قواد الجيش المعروفين بجمعية الاتحاد والترقي[١] وعلى رأسهم نيازي وأنور وجمال وغيرهم وانتصروا على خلع الطاغية السلطان عبد الحميد الذي حكم مدة طويلة من الزمن تنوف الثلاث والثلاثين سنة حكم البلاد بالنار والظلم والإستبداد فأصبحت بحالة فقر وجهل ليس له مثيل فكان إذا ما سمع بأي شخص من بلاده وبلاد العربية بأسرها يثور وبصورة دبلوماسية وبطريقة جهنمية يرسل ويحضره إلى الإستانة ويفقده حياته إلى أن دب الرعب والجزع بين الأهلين فقضى عليهم تماما .

وعلى إثر هذا الإنقلاب وعين السلطان محمد رشاد أخيه جرت الزينات والإحتفالات وليالي السمر في جميع البلاد بصورة يعجز القلم عن وصفها . وإني أذكر هذه الأيام والليالي وكنت وأخي توفيق في المدرسة الإبتدائية المعروفة بمدرسة الألمان الدباغة . فكانت مدينة القدس شعلة من الأنوار فلم يبق منزلا ولا عمارة ولا معهد ولا دكان ولا شارع إلا دكان منارا بالشموع (ولم يكن عهد الكهرباء) فوانيس صغيرة وداخل كل فانوس شمعة والأعلام والزهور وأغصان الشجر تزين المدينة لمدة أسابيع والشعب بهرج ومرج وفرح وسرور وابتهاج وإني أذكر بصفة والدي كان مسؤولا عن المنتزه البلدي في المنشية فكنا أنا وإخواني نتمتع بمشاهدة الكثير من الإحتفالات الرسمية التي كانت تقام فيها ليليا لمدة طويلة من الزمن وكانت فرقة الموسيقى التابعة للجيش ترفه عن الشعب يوميا تسير في شوارع المدينة وبعد الظهر تكون في المنتزه لبعد الغروب . وقد يتعجب القاري عندما يعلم بأن كل من أبناء الشعب كان يحتفظ بمسدس لأن السلاح على إختلاف أنواعه كان مباحا آنذاك فيضرب الرصاص في الشارع والبيت والإحتفالات في الهواء وكانت نشوة النصر فكنت تتخايل بأنك في معركة حرب .

أما زينة محلة باب العامود فكانت تمتاز عن جميع هذه الإحتفالات ، فقد تكاتفت أهالي باب العامود والسعدية والواد على ذلك وصرفت المبالغ الطائلة وقد نصبت أربعة أقواس نصر على كل من الطرقات المؤدية إلى نوتردام دي فرانس ، المصرارة ، طريق نابلس وأخيرا طريق أريحا كما وكان ذات الباب لباب العامود مزدانا بأحسن الزينة والأنوار وكانت الساحة الفسيحة ما بين هذه الأقواس تعج بالأهالي بالأهازيج والرقص والدبكة والشوبشات والأناشيد الوطنية والحماسية لمطلع الفجر . وقد وجهت الدعوة لأهالي محلة باب حطة وغيرها فحضروا الإحتفال واشتركوا الأفراح وإني

١ الاتحاد والترقي: ناقصة في المخطوطة.

أذكر أن عددا كبيرا من البراميل الكبيرة الحجم كانت مفرقة في تلك الساحة خارج باب العامود ملآنة (باللامونادة) الطازج ومعطرة بماء الورد جاهزة لكل من أراد الشراب مجانا من الجمهور . هذه الإحتفالات كانت الأولى والفريدة من نوعها التي أقيمت في البلاد عامة بمناسبة التخلص من عهد القوه والإستبداد والذي كان يرأسه الطاغية السلطان عبد الحميد لم أنساها ما دمت حيا .

تعيين حسين أفندي رئيسا لبلدية القدس

وعلى إثر الإنقلاب العثماني صارت الإنتخابات لرياسة بلدية القدس وانتخابات المبعوثان وهكذا حصل حسين أفندي على رياسة بلدية القدس فاستلم البلدية في الحال من خلفه الرئيس فيضي أفندي العلمي وفاز راغب بك النشاشيبي وسعيد بك الحسيني بالمبعوثين عن قضاء القدس.[1]

وإني أذكر في هذا الصدد بأن حسين أفندي الحسيني عمر بعد تعيينه رئيسا للملك العائد للبلدية والواقع خارج باب الخليل وكان مستعملا آنذاك فندق يدعى بفندق الجمال وعنده أبو الشر وعمل له درجا خاصا من الخارج كما هو مبين في العمارة واستعمل هذه العمارة كدائرة بلدية للقدس وكانت أول موقع لإدارة البلدية خارج السور (حيث كانت بجوار السراي ملك الأوقاف والتي استعملت فيما بعد معهدا لأيتام المسلمين تحت مراقبة جميل وهبه داخل السور)

الشيخ سلامة حجازي بالقدس نهاية فصل صيف سنة ١٩٠٨

من بعض حسنات المرحوم حسين هاشم الحسيني بعد حصوله على كرسي رئاسة مدينة القدس ومصادفة الوقت الذي كان فيه الإنقلاب العثماني هذه الثورة التاريخية التي أصبحت البلاد فيها تنعم بالعدل والمساواة والحرية فلأجل زيادة الأهلين بالترفيه عن نفوسهم بعد الإحتفالات والزينات العظيمة التي كانت تقام سنة ١٩٠٨ جاء حسين أفندي بالموسيقار الذائع الصيت والممثل القدير المرحوم الشيخ سلامة حجازي من القاهرة إلى القدس . كان وفرقته الكبيرة برفقة جورج الأبيض[2] فنصب له ولفرقته صالون "سرادق" أو ما يسمونه بالخيمة "على الخندق الملاصق لسور مدينة القدس خارج باب الخليل على الجهة اليسرى طريق المحطة وهذه القطعة تعلو موقف سيارات وباصات بيت لحم الآن.[3]

وأما هذه السرادق هي أكبر حجم سرادق كانت في البلاد إستأجرها من دير الفرنسيسكان بالقدس . وهكذا مثل المرحوم الشيخ سلامة حجازي وفرقته النادرة جملة تمثيليات وروايات خالدة أذكر منها رواية صلاح الدين الأيوبي واستمعنا من صوته الحنون القصيدة المشهورة ومطلعها أن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم . ثم رواية شهداء الغرام روميو وجوليت واستمعنا إلى القصيدة المعروفة (والتي كنت دائما أقلد غناء هذه القصيدة منذ صغري) ومطلعها سلام على حسن يد الموت لم تكن فأبدع في تمثيل هذه الرواية وكان المرحوم الشيخ سلامة مصابا بالفالج ولما كانت كل أدواره التي كان يلقيها من التلحينات الحزنة فكان الجمهور يبكي بأعلى صوته عندما يستمع إلى صوته وهو

[1] المقصود مجلس المبعوثان وهو البرلمان العثماني.

[2] جورج أبيض من أوائل الممثلين المسرحيين العرب.

[3] من الواضح أن الحديث هو عن مرحلة ما قبل ١٩٤٨.

مصابا بالفالج لا يستطيع أن يمشي على رجله الواقفة من الحركة فيجرها جرا رافعا يده الأخرى على رأسه وما كان استمراره على الغناء والتمثيل وهو على هذه الصورة مفلوجا إلا لعظم حبه وتفانيه لفن الموسيقى الرفيع والذي خلق لأجله. وإني والله يشهد كنت ألاحظ أن من بعض المتفرجين وكانوا يونانيين لا يفهمون العربية كانوا يبكون وكأنهم في مأتم. لما يدهشون من صوته الحنون النادر وطريقة إلقائه الأنغام وتمثيلة.

كان حظي سعيدا فحضرت لياليه جميعها بالقدس بواسطة المرحوم حسين أفندي وزاد على ذلك بأنني تنفست الصعداء عندما قبلت يديه في صالون دائرة البلدية وكان عمري في الحادية عشر فدخلت وقبلت أيدي حسين أفندي ورجوته بأن يسعى لكي أقبل أيادي سيدنا الشيخ فكان ذلك بالحال وخرجت لوالدي وكان في غرفة المرحوم الياس أفندي حبيب باشكاتب الدائرة آنذاك وأنا طرب مسرور.

ألفت نظر القاري أن التذكرة التي يسمح لحاملها الدخول والأستماع إلى الشيخ سلامة كانت بنصف ليرة فرنساوي وهو مبلغ عظيم بالنسبة إلى أسعار الحاجيات ومستوى المعيشة كما بينت ذلك في الملحق من هذا الكتاب وذلك لما كان لهذا الموسيقار عليه من قيمة وإقبال.

لمحة وجيزة عن حياة الشيخ سلامة حجازي

"يا رب المصطفى بلغ مقاصدنا واسمح لنا بالرضا يا واسع الكرم"

من على مأذنة أحد المساجد في ثغر الإسكندرية وصل هذا الصوت إلى أذن الرأسمالي المسرحي (اسكندر فرح) فجاء من مصر إلى الإسكندرية وألهمه التفكير في استخدام المؤذن الخامل الذكر إلى حلبة المسرح، وافتتح عصر جديد يلي عصر النقاش وأبي خليل القباني في مصر. ولد الشيخ سلامة سنة ١٢٧٨هـ. بمدينة الإسكندرية وأول دور مثله في رواية (مي) هو كورياس مع أستاذه سليمان حداد الذي مثل أمامه هوراس. ثم مكث زهاء خمسة عشر سنة في جوق اسكندر فرح.

المختار من تلاحينه وغنائه

شكرنا للمليك اعتموه أيها الغفار، طف بالكؤوس على الندامى، العدل والإنصاف، دام مولانا المليك، أنا سعدي وتم قصدي، أنعمت بالخير الجزيل، أيها المولى ثأن، يا كثيرين بالأنصاف، مرحبا أهلا ببدر، يا مليكا ساد كل الملوك، ملك الألباب خفف، يا أميرا بالسجايا، هلم يا أخا العلا، لها الهنا لها الرضا، الكاس أيها الساقي، هات لي خمرة الشفا، يا مليكا فضله، يا أيها الملك السعيد. والجدير بالذكر أن هذه القطع الغنائية كل منها موزون على إيقاع من أوزان الموشحات الأندلسية المعروفة. ثم من بعض القصائد التي كان يلقيها على المسرح بعد الإنتهاء من الموشح أذكر الآتي:

إن كنت في الجيش إدعى صاحب العلم، سلام على حسن يد الميت لم تكن، تحيرت والرحمن لا شك في أمري وحلت بي الأكدار من حيث لا أدري، بالله مرحمة وصبرا للغد وأشفق علي فليس قلبي بيدي، سمحت بإرسال الدموع مما جرى لما تزايد في التجني هاجري، سلي النجوم يا شرلوت عن سهري، سلو حمرة الخدين عن مهجة الصب ودر ثناياكم عن المدمع الصب، وغيرها. ثم قد سجل في أوديون بعض الأدوار وكان عندي أسطوانة خاصة ب "ياالليل على الوجهتين" نادرة. وقد كبرت له رسما جميلا حفظ في المجموعة الجوهرية للذكرى.

حفلة عرس جريس توما الدباح وغنائي في الشارع

كان جريس الدباح قريبا لنا بحكم النسب مع عائلة عبد النور (البغل) وكان من المشهورين من شبان طائفة العرب الأرثوذكس بأناقة لباسه وهندامه العربي فتزوج من الأخت غرتكي كريمة عيسى بلاطة من القدس وأقام عرسا على الطريقة القديمة في دار سكن عائلة البغل وملك مهى النشاشيبي في الزقاق بجانب مدرسة السلزيان للبنات في حي المصرارة. وقد أحضر على نفقته الخاصة مغنية ربما من سوريا أو لبنان تدعى "الست زكية" والمعروفة بأم الياس (وكان معها صغيرا)[1]. أحضرها للغناء في هذا الفرح للسيدات وبذات الوقت كانت فرقة أولاد أبو السباع المشهورة في القدس تطرب الرجال.

[1] كان معها صغيراً: يبدو أن المقصود هو ابنها الياس.

وكنت بالطبع مدعوا مع عائلتي لهذا الفرح ونظرا لصغر سني كنت أرافق أم الياس في غناءها بين السيدات والآنسات وقد أعجبت كل العجب من غنائي وصوتي وكانت تأخذ الطربوش من على رأسي وتلبسه للغية فكانت الرجال تكاد تطير فرحا وتبصبص علينا من الأبواب والشبابيك عند رقصها وكانت جميلة نوعا وأما صوتها وطريقة غنائها فكانت على جانب عظيم من الإبداع وقد غنت لأول مرة بالقدس طقطوقة "أسمر ياباس الصبي على بالك وإلا إنت ناسيني يا أسمر" من مقام البيات فكانت تتجلى في هذه الأغنية وأبدعت كل الإبداع وقد حفظتها منها وأصبحت أغنية منتشرة على أفواه المغنيين من هواة ومحترفين بالقدس.

كما في هذا الفرح مدة لا تقل عن الأسبوع غناء وحظ وشرب ليلا ونهارا في هذه الدار صاحبة الساحة السماوية الفسيحة النادرة وقد يتخايل للمرء بأنها أقيمت خصيصا لمثل هذه الأفراح. وعندما أستعدت أهل العريس والمدعوين للعرس بما فيه جوقة الرجال وجوقة النساء على الذهاب إلى بيت العروس للإستلام وكما كانت العادة فقد قامت هذه الجموع وهي على جانب عظيم من الحظ والإنبساط، ومشوا في الشارع الرئيسي وأمامهم جوقة العازفين والمنشدين مبتدئين بالرجال شاء القدر أن أقف أمام فرقة أولاد السباع المؤلفة من القانون والعود والكمان والدف وأن أغني لهم بأعلى صوتي أغنية "زينو زينو زينو أسمر ومكحل عينه" إلى أن أكملنا السير في الزقاق وخرجنا إلى شارع المصرارة العام المؤدي إلى طريق نوتردام دي فرانس وقد صادف مرورنا من الطبيعي على المدرسة الوطنية (التي سأتحدث عنها تفصيلا فيما بعد) فقد وقف معلمين وتلامذة وعمال هذه المدرسة على باب المدرسة الرئيسي وعلى سورها يتفرجون

على إحتفال العرس ويستمعون بإعجاب لهذا الصبي الذي كان يغني فيرددون الترديدة عليه وقد تبين لهم بأن الجمهور كان معجبا في ولكن عند صفو الليالي يحدث الكدر فقد دخل بين الجموع فريد قمر، وجذبني من كتفي وقال لهم أن والده استدعاه، وأخذني فعلا إلى الوالد الذي لامني جدا ومنعني عن متابعة السير مع الفرقة خوفا من إنتقاص الناس وكان الغناء مبذولا في ذلك الوقت ويا للأسف.

وهنا بيت القصيد شاء القدر أن أدخل هذه المدرسة بعد مدة قليلة ربما شهرين ولدى دخولي أحاطت بي التلاميذ والمعلمين يتغامزون علي ويقولون هذا هو المغني، هذا هو المغني، وكنت أنكسف جدا من إنتقاداتهم علي خصوصا من التلاميذ لمدة طويلة، إلى أن فني وصوتي آنذاك جذبهم بحب للإستماع إلي وصرت أجلب الطنبورة وأغني لهم تحت الزيتون الذي كان يحيط هذه المدرسة.

العرس لدى طائفة الروم الأرثوذكس العرب بالقدس سنة ١٨٥٥

على ذكر عرس جريس توما الدباح في الفصل المار ذكره أعلاه حصلت على تفصيل وافي بخصوص عوائد وتقاليد أبناء طائفة الروم الأرثوذكس العرب في القدس منذ سنة ١٨٥٥ وذلك من العم معتوق زخريا أمد الله في عمره وهو ولا شك المرجع الوحيد في التقاليد والعوائد القديمة فأقول:

الإستعداد للبدء في كيفية الدخول في الموضوع:

من وقت إلى آخر وفي كل مناسبة من المناسبات، عندما تجتمع العائلة والمقربين إليها (وما أكثر إجتماعاتها) يتحدثون بوجوب زواج ولدهم الذي أصبح بالغا، ويبدأون بتسمية بنات العائلات القريبة والبعيدة عنهم وفي هذا الحديث لا يهتمون ولا يتطرقون في شكل العروس من جهة جمالها أو بشاعتها مطلقا وإنما تنحصر أفكارهم وأبصارهم واهتمامهم بذكر والدة العروس التي يبحثون عنها وكيف سبق وعاشت والدة العروس مع أهل زوجها من حيث الأخلاق والطاعة وبذلك يطبقون المثل "إكفي الجرة على تمها، بتطلع البنت لإمها."

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه في أكثر الأحيان لا يكون لولدهم الموحى إليه وهو العريس لا يكون له علما بما هم عازمين عليه وربما وافقوا بالإجماع على العروس وابتدأوا بالمخابرة في الموضوع والآغا.. لم يفاتح بهذا الخصوص بعد.

وفي حالة تصميمهم على إحدى البنات تذهب إحدى النساء المقربات من العريس وتبدي إعجابها بالولد قائلة أنه ولدا نشيطا، آدمي، ولدنا بإيده صنعه ولدنا لا يسكر، ولدنا لا يعاشر أبناء السوء لآخر ما هنالك من المديح والإفتخار والكلام المعسول.

وفي هذه الحالة تأمل وانظر إلى والدة العروس، التي ترفع رأسها عاليا وتشامخا، لماذا؟ لأنها أصبحت إبنتها يشار إليها بالبنان، وابتدأ الطلاب من الشبان يراجعون بيتها للزواج ويصيبها الغرور وتعتقد بأن ابنتها هي الإبنة الوحيدة من بين

عموم أقربائها المنتخبة للزواج وقد فضلت عن باقي بنات الطائفة في المدينة وأصبحت إبنتها قبلة الطلاب، وهكذا عندما يزور الأم أحد المعارف أو الأصدقاء تشاورهم بالأمر وإذا صادف أن دخلت إبنتها المطلوبة يدها إلى البيت الموجودين فيه الضيوف فلا يجوز ولا يسمح لهذه البنت أن تسمع أو أن تلاحظ من أحاديثهم شيئا بتاتا .

وبعد أخذ ورد وقيل وقال مدة لا تنقص عن الشهر الواحد على هذه المذكرات والمخابرات يتم الحديث إما بالقبول أو بالرفض. وإذا كان الرفض، فهنالك الثورة ويصير الدم والقدح من كل من الطرفين إلى ما يحمد عقباه. وأما إذا تم وأسفرت النتيجة بالقبول فبعد مداولته بين النساء مبدئيا وإعلان القبول :

يذهب وفد من الرجال المقربين إلى العريس إلى بيت العروس فيجدون الرجال المقربين إلى العروس لملاقاتهم وهذا يكون باعتبار الإجتماع الأول وبعد الجلوس وقبل شرب القهوة يباشر الرجل الأكبر سنا من وفد العريس بالطلب إما من والد العروس أو الكبير من ولي أمرها . في ذلك الإجتماع قائلا طالبين التقرب منكم وطلب يد إبنتكم وإسمها إلى يد ولدنا العريس وإسمه .

ومرارا يقولون "طالبين قربكم، مش طالبين بعدكم" فتجيب أهل العروس "مقدمة جارية بمطبخكم" وعلى كل حال بدوره المباركة ويقول يجعلها مبروكة، وبعدها في الحال يشربون القهوة ويبان على وجوههم بشائر الفرح. وبعد أسبوع واحد من هذا الإجتماع يرسلون كاهنا ليأخذ المباركة من أهل العروس رسميا ويبلغها الكاهن بدوره لأهل العريس. وبعد بضعة أيام يتباحثون فيما بينهم على تعيين يوم الخطبة وما يتوجب على العريس تقديمة من حلى وفساطين ولوازم العرس.

إنني أؤكد للقاري الكريم جازما بأنه يجري كل هذا وتسعين بالماية كما كانت العادة آنذاك من العرسان أي العروس والعريس لا يدرون ولا يعلمون بما حدث وربما في حالات كثيرة تكون جيوب العريس خالية لا يملك من الدراهم بارة الفرد فيستدينون ما يحتاجون إليه من النفقات اللازمة ويخففون الحمل على العريس ويقولون له "ولو العروس رزقها يا بني ميسور، ولا تفكر أبدا ."

وهذا المسكين يصبح بين الشك واليقين. والأنكى من هذا أنه ليس له سابق معرفة لا بالعروس والتي ستكون شريكة حياته ولا بأحد من أهلها ولكنه رغما عن كل هذا تراه معتزا بنفسه فيبني القصور الشامخة بالهواء ويعيش بالأمل.

الخطوبة

يدعو كل من الطرفين أي أهل العريس والعروس أقرباءهم من الرجال لحضور يوم الخطوبة. ويذهب في اليوم المعين الكاهن مع أهل العريس إلى بيت العروس وبعد استراحة قليلة يطلبون حضور العروس، فتحضر العروس بصحبة إحدى العجائز من سيدات البيت وتقدمها لوسط البيت فيقوم الكاهن ويقدم للعروس بدوره ما جاء به من طرف عائلة العريس ويسمونه (المسكة). والمسكة هذه هي عبارة عن "زهور مجدوله على ثلاثة ألوان من الكرديلا زهري وأبيض وأخضر

فيلبســه بعنق العروس ويتدلى على صدرها ، ثم خاتم ليديها ومنديل على رأسـها وربما قطعة قماش لفسـتان مع محرمة حرير" وهذه التقدمة يكون متفق عليها سابقًا كما قلنا بين الطرفين ومن أصل ما قد تم الإتفاق عليه ليوم العرس . ثم يبارك الكاهن العروس ويدعو لها بالتوفيق فيردد الحاضرون كلمة مبروك ويوجهوا الكلمة إلى والد العروس أو وليها .
وبعدها في الحال تحضر القهوة فيشربونها وتكون العروسة واقفة مكتوفة الأيدي بجانب زاوية مناسبة من زوايا الغرفة بيّما يكملوا شرب القهوة ثم تبدأ بتقبيل أيدي الكاهن أولا ومن ثم أيدي جميع الحضور إلى الصغير فيهم . . ولو كان أصغر منها سـنا . لا يجوز للعريس حضور هذا الإجتماع والإحتفال . ومنذ الآن لا يحق للعروس أن تذكر مرة إسم العريس ولو اتفق أن إسم أخيها يكون ذات إسم العريس فعليها أن تتجنب ذكر إسـم أخيها الآن وتكتفي بمناداته يا أخي ثم لا يسـمح لها بالخروج من البيت بعد الخطوبة خوفا من أن يصادفها العريس ويراها وخصوصا فإنها تمتنع بتاتا من المرور في الشارع الذي يشتغل فيه مثلا العريس أو يسكن فيه خوفا من أن يقل بأنها ذكرت أو رأت عريسها لأنه كان عارا وكل العار لها ولأهلها مع أن الواقع أن ٩٠٪ من هؤلاء العرائس لا يعرفن عريسهن حتى ولو بالفرض لو إلتقت به في محل أو شارع ما فتصور ! .
وكذلك الأمر عند العريس فلو بالفرض سمع بأن خطيبتها وعائلتها عازمين أن يمروا الشارع فإنه يتجنب أن يسلك ذلك الشارع خوفا من كلام وانتقاد رفقائه بأنه تعمد لرؤية خطيبته في هذه الطريقة الدنيئة ! ! مع أنه لا يعرف وجهها وليس له سابق بمعرفتها ولا يستطيع مشاهدتها أيضا وهي مبرقعة بالمنديل على وجهها كما كانت العادة بالأزياء في ذلك الزمن مثل المسلمين حجاب .

الشوفة

يدعى عادة الأسبوع الثاني من الخطوبة بيوم "الشـوفة" وفيه يذهب العريس يوم الأحد قبل الظهر مع جماعة من رجاله المحيطين به لأول مرة إلى بيت العروس وعند دخوله حالا يقبل أيادي الرجال من الحضور من جماعة العروس وهكذا يتعرفون عليه كل بمفرده وبعد راحة قصيرة تقدم لهم الشرابات وبعض الشـي من حلوى أو فاكهة ضيافة . وقبل شرب القهوة تبدأ رفقاء العريس بالتنكيت على العريس فيداعبونه ببعض الفكاهات وأخيرا يطردونه من الغرفة ، لماذا؟ لأن عادة العروس المتبعة أن تحضر إلى هذا البيت وتقبل أيادي الحضور بعدما يشـربون القهوة ، ولا يسمح له في هذه الحالة البقاء أمامها وعندما يترك العريس القاعة تودعه فقط والدة العروس خارج باب القاعة وتتعرف عليه لأول مرة وبعدما يقبل أياديها تقدم له هدية محرمة حرير ، وربما محارم أخرى لإخوانه لكي يكمل لهم الفرح . وفي هذه اللحظة تكون شبابيك البيوت وأسطحتها المجاورة لبيت العروس ملآنة من الناس والجيران يتفرجون على هذا المنظر المخجل . .
تصور أيها القاري الكريم حالة العريس في هذا الموقف الشاذ ! ! يتمنى العريس فيه كما يقولون "لو تنشق الأرض وتبلعه من شدة الخجل والكسوف" فيسير ولا يعي على أي شـيء في طريقه لأنه أولا مسـاء من رفقائه اللذين طردوه

طردا من البيت بحضور رجال أهل العروس اللذين قبل أيديهم قبل لحظة . . ثم مقابلته لأول مرة لأم العروس والتحدث إليها وتقبيل يديها وأخيرا منظر الجمهور المجتمع من الأسطحة والشرفات يتفرجون عليه ويحلقون به وكأنه مجرم وهكذا عندما يدخل بيته يلقي بنفسه على الفراش يترنح من العرق الذي ينصب من وجهه وجسمه فيغضب ولا يسمح التكلم مع أحد من عائلته الخاصة، حتى والدته والعياذ بالله.

وعند بعد ظهر ذلك اليوم تجتمع نساء أهل العريس في بيته ويذهبن مع المدعوات من السيدات إلى بيت العروس "نساء فقط" فيستقبلونهم بالبخور وماء الورد وكل ترحاب وبشاشة وجه ويتجاوبن فيما بينهم الزغاريت والتي تدل على معنى خاص. (بعض هذه الزغاريت)، وبعد تناول الشرابات وبعض أنواع الضيافة كل حسب مقدرته تقدم أم العريس لوالدة العروس ما تيسر من الحلى وفستان ومنديل للوجه. وكثيرا ما يصحبون معهن الجناكي فيقمن بواجب الفراح (وكانت الجناكي عادة تضرب على الدربكة وخصوصا النقارة التي انقرضت في يومنا هذا) وبعد شرب القهوة عند الغروب يرجع كل من الحضور إلى بيته.

جهاد العريس منذ يوم الشوفة

ومن هنا يشمر العريس عن ساعده المفتول، ويبدأ بالجد والكد والعمل مواصلا الليل مع النهار لكي يستطيع على القيام بالواجب الملقى على ظهره، ويستعد لملاقاة الأعياد وهي والحمد لله كثيرة ليقدم للعروس ما قد كان أتفق عليه فمثلا:

الهدايا بمناسبة الأعياد

في عيد العنصرة يذهب العريس وأهل بيته ليقدم ما تيسر من الحلى والثياب من أصل المفروض عليه. ثم في عيد شخصه (القديس) أو عيد العروس. وفي عيد الصليب عليه عادة أن يقدم للعروس من ٢١ حبة إلى ٣١ حبة من السفرجل ثم ٢١ حبة إلى ٣١ حبة من الرمان والخوخ. وكانت العادة أن على أهل العروس أن يوزعوا هذه الهدايا على الأهل، وإذا ما كان المقدم من هذه الهدايا الفاكهة غير كاف عليهم أن يشتروا الأكثر لإرضاء جميع الأهل. والجدير بالذكر أنه لا يجوز مطلقا للعروس أن تأكل أو أن تلمس أو أن تذكر هذه الأشياء المقدمة بمناسبة فرحها، وفي عيد القديسة البربارة على العريس أن يقدم الحلوى أو نقرشات (نقل مشكل الأنواع) بالإضافة إلى أي شيء من أصل متفق عليه سابقا للعروس. وكذلك الأمر عند عيد الميلاد المجيد وحلول رأس السنة الجديدة. وأما بمناسبة أحد الشعنينة عليه أن يقدم الشعنينة وشمعة خاصة. وخصوصا عند عيد الفصح المجيد يقدم الشمعة الخاصة وتكون بمناسبة هذا العيد الكبدرة عليه!

تكرر هذه التقدمة من الهدايا في الأعياد طيلة مدة الخطوبة، وكان العادة عند البعض من أهالي العريس أن يقدموا من تلقاء أنفسهم ما تجود به أنفسهم بمناسبة عيد رأس السنة من حلى أو قماش أو نقود وبهذه التقدمة يسمونها (فورية) وأما النقود المقدمة فمن واجب أهل العروس أن يشتروا بها ما يرونه ضروريا للعروس.

الزيارات في مدة الخطوبة

لا يعلم مدة الخطوبة إلا الله ، وكثيرا ما تكون سنتين أو ثلاث سنوات حتى يتمكن العريس من القيام بواجب ما فرض عليه تقديمه للعروس ليؤمن مستقبلها السعيد . وفي حالة رغبة العريس زيارة العروس فمن الواجب عليه أن يرافق أفراد عائلته خصوصا الكبار منهم إما والده أو والدته وإخوانه وعندما يدخلون لا يسمح له أن يرى العروس ويجلس معها . وحيث أن أغلب أهل ذلك الزمن كانوا يعيشون في غرفة واحدة تكون الوحيدة للنوم ولا تستقبل الضيوف فوالحالة هذه كانوا يحشرون العروس في (القوس المعد لحفظ فراش ولحف ومخدات النوم) المعروفة بالركسة فتبقى العروس المسكينة خلف الستار طيلة السهرة من قبل العريس وأهله تحجب أنفاسها وسعالها خوفا من ملاحظة العريس وأهله بمكانها ، وكثيرا ما كانت تقع العروس من أعلى الفراش عندما تنام من طيلة مدة السهرة وتظهر للحضور والعريس في وسط الغرفة ، وهناك البكاء وصرير الأسنان ويبدأون بمعاتبة أهل العريس قائلين "مالهم ذوق ، قطيعة طولوا ، ومش عارفين أننا لا نسكن إلا في هذه الغرفة مسكينة نامت فوقعت وهكذا" .

مثال

وإني أذكر للقاري بأنني عرفت شخصا عاش حياته عند أهل العروس قبل زواجه طبعا ، وقد صادف أن ولدت العروس وترعرعت على يديه فكان يحملها مرارا وربما (وسخت عليه في صغرها) وشاء القدر عندما كبرت ورغب زواجها لنفسه واتفقوا على الزواج. ولكن بعد الخطوبة منعوه من رؤيتها مدة لا تقل عن الثلاث سنوات. وقد صادف بأنه زار مع والدته بيت الخطيبة ليلة ما من ليالي الشتاء الممطرة ولحسن الحظ كان يوجد في زوايا الغرفة (سدة) يضعون فيها مؤنهم وأغراضهم ولها سلم خاص. ولما كانت الخطيبة خارج الغرفة عندما دخل الخطيب الغرفة فاضطروا خوفا عليها من المطر بعد التفكير أن لفوها باللحاف ليحجبوها من رؤية الخطيب وهكذا أدخلوها الغرفة فصعدت إلى السدة وانزوت هناك لعندما انتهت الزيارة فتصور ! ! .

حادث آخر طريف

ذهبت الخطيبة لزيارة خالتها مع أمها وأخواتها فمروا جميعا على محل عمل الخطيب الواقع في ذلك الشارع وذلك بعدما تأكدوا بأن الخطيب متغيبا عن محله في ذلك اليوم. وقد صادف العكس فعندما لمحت الخطيبة خطيبها داخل دكانه أغمي عليها وتشنجت أعصابها ، ولولا مساعدة أهلها في تلك اللحظة لكانت فارقت حياتها . لهذا الحد كان الخجل والشرف لعدم رؤية العريس في ذلك الوقت فتأمل !

الإستعداد للعرس

عندما يصمم العريس على السير بالعرس نهائيا يذهب أهل العريس لبيت العروس قبل العرس بمدة أربعين يوما ويطلبون منهم تسليم ما قد كان قدمه العريس طيلة مدة الخطوبة لأجلـ أن يفصلوا ويخيطوا ويحضروا جهاز العروس ويكون جاهزا عند العرس. ويبحثون كذلك في هذا الإجتماع بخصوص الخياطة ونوع الخياطة من الثياب والأبيض (الطقوما التحتا) وهذه طبعا شغلة شاقة يتحملها العريس ويتحمل كلفتها فهات خروجات، وهات أويا، وهات زرار الخ. لعندما تنهي الخياطة.

والجدير بالذكر في هذا الصدد يحضر والد العريس أو ولي العريس أو أحد كبار عائلة العريس (ومعه طقية العريس التي كان يلبسها عادة في حياته وتكون طبعا مرنخة بعرق رأسه، وقد أكل عليها الدهر وشرب، ويقدمونها إلى والدة العروس وهي بدورها تسلمها إلى إبنتها العروس لكي تحتفظ بها وتضعها على جسمها أينما شاءت ومقابل هذه الأمانة تعطي والدة العروس أو بالأحرى ترجع بدلا عن هذه الطقية محرمة بنتها العروس التي كانت تستعملها فتسلم هذه المحرمة إلى العريس ليحتفظ بها بدوره ويضعها في صدره بإعتبار أن كل من العروسين شركاء الحياة يتطعم جسمه من عرق الآخر.

ثم يعين موعد آخر قبل تاريخ العرس فيعقد إجتماعا كبيرا رسميا بين أهل العريس وأهل العروس وذلك في بيت العروس بمعية الكاهن ويتناول البحث حول المدعوين ونوع تقديم الضيافة، والمكان الذي يجري فيه سر الإكليل المقدس وجميع الترتيبات الواجب إتباعها خوفا من سوء التفاهم بين الطرفين وخوفا من تفضيل جهة عن الجهة الأخرى بالقيمة والواجب والكرامة، وبعد أخذ ورد وتفاهم لمدة لا تقل مرارا عن الأربع الساعات حتى يكون الطرفين راضيين ينهض الكاهن ويقدم لا أقل من ليرة ذهب لأم العروس وهذه التقدمة يسمونها "تقدمة حمام العروس".

حمام العروس

من العادة المتبعة في ذلك الزمن يكون حمام العروس بعد ظهر يوم الجمعة أي قبل نهار العرس بيومين وهكذا في صباح الجمعة يتكلف العريس (لعزومة الحمام) فيكثر اللحم والرز ويعملون ما يسمونها (لبية) وعند الظهر يسكبوا اللبية في طبق أو طبقين من النحاس ويجللونها بشقف من اللحم ومن غليها السمن، ومن فوقها الزهور ويحملونها على رؤوس الحمالين فيذهبون بزفة تتقدمهم الأولاد تحمل الشموع وأغصان الليمون وأمام الجمهور ضارب الزمر حتى لا يبقى أحد داخل المدينة إلا ويستمع إلى صوت الزمر ليعلم بحمام العروس. ومن خلف هذه الزفة بعض أقارب العريس من الرجال ويذهبوا إلى بيت العروس وذلك من بيت العريس طبعا فيستقبلهم أهل العروس بالزغاريت ويرحبون بهم بكل حفاوة وإكرام.

وبعد ظهر اليوم ذاته تجتمع نساء أهل العروس في بيت العروس وتذهب هذه الجماعة من النساء ومعهن العروس إلى الحمام ولدى وصولهم إلى المدخل العمومي يجدون نساء أهل العريس هنالك فيستقبلون العروس وأهلها بالبخور وماء

الورد وبعد إستراحة قليلة في إيوان الحمام العمومي يقدمون لهن الشرابات المنعشة. وليكن معلوما بأن كل طرف من الجهتين يحضر معه إلى الحمام ما هب ودب من الأكل وأنواعه المختلفة ولا تسأل عن اللحم والسمن الذي يهدر في وقته. وفي كثير من العائلات يحضرن الجناكي إلى الحمام فتأخذ بالعزف والغناء والرقص وترقص الحضور على الأنغام الشجية للترفيه عن النفس وعلى نفقة العريس.

فصل آخر في حمام العروس الطريف

لدى دخول العروس إلى الحمام وبعد الإستراحة تأخذها الداية أي القابلة الخصوصية لأحد غرف الحمام المعروفة بالخلوة وهناك معد "المعجون المعروف بالسكر المغلي المتجمد والمعروف بالعقدة" وتبدأ بتنظيف جلد جسم العروس من كل شعرة، وبهذا المعجون اللعين الذي لو جربه الرجل ووضعه على يده لجن جنونه من الألم، وتكون العروس والحالة هذه صابرة على غلبها فلو بالفعل تألمت وأظهرت ألمها لضربتها الداية وتقول لها "إلا كيف بدك تكوني عروس يا بنيتي" وبعد هذه العملية الشاقة بالنسبة إلى جسمها الناعم والذي مر عليه الزمن ولم يمسسه بشر، تأتي ما يسمونها الماشطة. والماشطة إمرأة خبيرة بشؤون التزيين والتواليت كما يسمونها في يومنا هذا. تأتي الماشطة على هذا الجسم المنهوك وتمر عليه ثانية فتراجع ذات العملية من أقص القدم إلى ما فوق الرأس بدقة فائقة وتكون العروس كالحمل الوديع بيد الجزار لا تنطق ببنت شفة حتى ولو عطشت لا تتجاسر على طلب الماء، وبعد هذا كله تأتي صاحبة الحمام، وهذه بدورها تسلم العروس وتبدأ بتزيينها بالنقوش من أظافر الرجلين إلى السيقان ومن أظافر اليدين إلى السواعد وهذا يسمونه (بالحنة) ثم يشيعونها إلى إيوان الحمام العام ويبدؤون يلبسونها الثياب (ويجلونها) أمام المدعويين على عزف وغناء الجناكي إلى حين الغروب ويذهب كل إلى منزله.

تلقين الدروس الإبتدائية للعروس بخصوص الزواج

بعد وصول العروس إلى بيتها مع أهل العروس يدخلن العروس في بيت خاص من الدار حتى لا يراها أحد ما بعد هذه العملية والتزيين والحنة سوى بعض العجائز الخبيرات بشؤون الزواج ويبدأون التكلم معها عن كيفية الزواج وظرفه والتي تكون تجهله بالماية ماية، (كذلك العريس وربما كثير من أولاد جيله في البلد أيضا) فتقول العجوز الأولى لها "لا تخافي يا بنيتي أنا كنت متلك وبكرة بتكوني صاحبة بيت ومعك أولاد، وتأتي الثانية فتقول "يوه ليش خايفة؟ إذا جاء العريس نحوك وتكلم معك فلا تردي أي جواب مهما كان سؤاله لك"، ثم تجيء العجوز الثالثة وتخاطبها بالكلام العريض وعلى المكشوف والذي يخجل للمرء أن يدونه هنا! وتكون العروس البائسة وكأنها ملخومة وفاقدة وعيها من كل ما حدث ويحدث وسيحدث لها رغما شدة ألم جلدها من عملية المعجون اللعين على الأخص. وهكذا تنقطع نفسها عن الطعام،

وإذا صدف وطلب أحد من العجائز إطعام العروس من طعام، تجيب هذه الشمطاء على مسمع منها (كفاية يا أختي فرحتها الآن! ! إحنا بأكل ولا بشرب)؟.

وهنا تغرق العروس بتلق الأفكار فتفكر في مدة الثلاث سنوات الخطبة لا تستطيع أن تذكر إسم العريس، فكيف بها عندما يفاجئها هذا الوغد؟ ثم تذكر بحسرة عملية بل عمليات الحمام، وأخيرا تفكر كيف باستطاعتها أن تترك بيت والدها ومسقط رأسها والإبتعاد عن إخوانها وأخواتها الصغار، ثم كيف يكون مستقبلها عند رجل غريب والعيشة معه وبين عائلته الغرباء عنها! ! فيأخذها الخوف والفزع خصوصا من الرجل الذي تكون له عبدة ميسورة وواقفة عارية بين يديه ذلك الرجل الذي كانت لا تجسر قبلا أن تذكر إسمه.

عملية جهاز العروس

والآن لا تنسى العريس وما سيلقاه من مشقة لإتمام فصول هذا العرس العويصة فأصدقائه واقفة له بالمرصاد يلذعونه بالكلام الجارح وينكتون عليه في مواقف تثيره وتعلق أفكاره وتخجله بحضور الناس الكثيرين، ففي الساعة السابعة مساء عندما يتم حمام العروس يفرشون الطعام المختلفة على الأرض في دار العريس وبعد تناول الطعام مع هذا الجمهور المجتمع تجتمع رجال الأهل ومعهم الحمالين ويذهبون لبيت العروس وبعد استراحة قصيرة يقدم العرق والملبس وأخيرا القهوة ينهض الكاهن ويدفع قيمة ٤٨ قرشا ثمن العروس حسب العادة الدارجة في ذلك الزمن ويسلم أهل العريس الجهاز من أهل العروس يحملونه على رؤوس الحمالة اللذين يكونون معهم ويذهبون مع المدعوبين والخوري أمامهم لبيت العريس، ويستقبلوهم بالبخور وماء الورد والزغاريت وبعد استراحة يتقدم الكاهن ويعمل مراسيم خصوصية يسمونها "عقد الخاتم والزنار" فيقدم الكاهن كردلة عريضة تناسب مع الصليب ويجري البركة والصلاة [وتحفظ هذه الكردلة والصليب لوقت مراسيم الإكليل المقدس]. ثم وبعد الضيافة يذهب كل واحد إلى منزله.

الشباب يأخذون العريس إلى حمام

تأخذ الشباب من رفقاء وأصدقاء وأقرباء العريس يأخذوا العريس بدورهم إلى الحمام ليلا وهناك في الحمام يصير الفرح والشوباشات وشرب العرق أو غير أنواع الخمر وهو بينهم يشاركهم الشرب والأفراح.

تسجيل الكاهن الموجودات

وعلينا هنا أن نذكر بأن الكاهن يحضر في صباح الجمعة إلى بيت العروس ويدون في ورقة خاصة الموجودات عند العريس هذا كل بمفرده حتى دبابيس الشعر وبعدها يذهب إلى بيت العروس ويدون هناك ما قدمته العروس من جهاز كل بمفرده ثم ينظم من هاتين القائمتين ثلاث نسخ تحفظ نسخة واحدة مع كل من أم العروس، والعريس، والكاهن، وهذه

القيود تحفظ لتبرز في حالة وفاة إحداهم لا سمح الله أي العريس أو العروس وهذه طبقًا لها شـروط وشرائع خاصة لا مجال لذكرها هنا .

طريقة الدعوة للعرس

تأمل أيها القاري الكريم في طريقة الدعوة للعرس وقارن بالطريقة المتبعة الآن :

نهار الجمعة صباحا في ذات نهار حمام العروس تحضر (ما يسـمونها بالعزامة) وتكون إمرأة مسترجلة ، وعمرها ينوف الخمسين سنة تحضر إلى بيت العريس فتحمل شمعدانا من النحاس يبلغ السبعين سنتمترا تقريبا وعليه شمعه . وتأخذ في ذهنها وفكرها أسماء العائلات والأشخاص الواجب دعوتهم لحضور حفلة العرس فتدخل مثلا : دار فلان وتبدأ بالزغاريت والرقص والغناء بصوت مثل صوت لعنة الله على الكافرين فيسرعون بتقديم القهوة لها وبعدما تدعوهم وتنهم عن موعد العرس ومكان العرس يضعوا قطعة من الحلى الذهبية إما خاتم أو حلق أو سوارة على الشمعة باعتبار أنهم بلغوا بالدعوة رسميا وأخذوا علما بها والقطعة الذهبية بمثابة إيصال بالعلم خوفا من المعاتبة فيما بعد . وهكذا تدور العزامة من بيت إلى آخر بذات الطريقة حتى تتم عملية الدعوة على جميع المعزومين وترجع توا إلى بيت العريس فتسلم هذه المجموعة من الحلى الذهبية القيمة إلى والدة العريس وتعرفهم عن كل قطعة منها من من استلمتها ومن هم أصحابها فيأخذونها منها وتحفظ لديهم ليزينوا فيها العروس أثناء جلوة العرس .

وبعد إتمام العرس وحفلاته يرجعوا جميع هذه الحلى إلى أصحابها الحقيقيين ! ! بدون كتابة ولا ما يحزنون فبالله عليك قف قليلا وتأمل في هذه العجوز الجاهلة الفقيرة والمعدمة وتأمل في ذلك الزمن كيف كانت الأمانة والإستقامة بين الأهلين والقناعة ، فلو طمعت نفس هذه الفقيرة وحصلت على قطعة من هذه المجموعة بالإحتيال لكانت عاشت بثمنها مدة سنة على الأقل من حياتها بالنسبة إلى الرخاء والأسعار الرخيصة .

هدايا العرس

يكون بيت العريس عاجا بالأقارب والأصدقاء مدة الأسبوع بكامله لدخول العرس يتصل النهار والليل والجميع على طعام وشراب وخمر وغناء وعزف على الآلات وشوباشات وزغاريت بدون إنقطاع وهكذا يصرف العريس في هذا الأسبوع المبالغ الباهظة . وكانت العادة أنه من أول هذا الأسبوع يقدم أفراد العائلة هدايا العرس وهي :

خروف كانوا يصبغون شعره باللون الأزرق ، أو قفة رز موضوع عليها الزهور ، أو رؤوس من السكر وعليه الزهور ، أو حمولة باتنجان وبندورة موضوعة في صواني من النحاس فوق رؤوس الحمالة ومن فوقها الزهور . وهكذا كل شخص من الأهل والأصدقاء يتفنن بتقديم هديته أو بالأحرى مساعدته للقيام بالعرس الذي لا يقل عن الأسبوع . والجدير بالذكر أن هذه الهدايا يمشي أمامها رجل كان ضريرا وإسمه عبده يجيد العزف على الزمر فيمشي هذا الموكب من سوق المدينة

الرئيسي إلى دار العريس وترى الشرفات والأسطحة من المنازل والناس في الأسواق يتفرجون على هذا الحفل عند استماع صوت زمر عبده العظيم منها بأن هدايا عرس فلان قد إبتدأت تورد إلى دار العريس.

فبالله عليك أيها القاري الكريم تصور الإجحاف لو فرضنا تقدم أحدا بهديته التي لا يزيد ثمنها عن الدينار فهذا الكريم، وعائلته الكبيرة يبقى مدة أسبوع يأكل ويشرب في دار العريس وعلى نفقة العريس المسكين هذا وخصوصا بعد رجوع العريس من الحمام ورفقائه من الشباب وجميعهم سكارى إلى بيت العريس وتدب النخوة والكرم الحاتمي وتمتد الضيافة ليلا إلى مطلع شمس نهار السبت والجميع على أكل وشرب وخمر.. وشوباش وزغاريت ورقص إلى ماله نهاية. وطبعا عند الغروب من نهار السبت يقدم العشاء لجميع الحضور.

حلاقة العريس

وبعد العشاء تبدأ الإستعدادات لحلاقة العريس فيجلس العريس على كرسي والرجال من حوله تشويش له والنساء تزغرت له من حول حلقة الرجال والجميع يداومون على شرب كاسات الخمر. وفي هذه الدقيقة يرسل أول مرسال إلى دار العروس (وذلك بواسطة بعض الشبان وبيدهم فانوس كبير مضاء بالكاز أو بالأحرى بالشمعة لعدم وجود كاز آنذاك إلا إبتداء يعلم أهل العروس بحلاقة العريس كي يتمكنوا من تحضير أنفسهم للإستعداد لإستقبال أهل العريس عند إستلامهم العروس.

ملاحظة: عندما يحلق العريس يكون لابسا ثيابه البالية الرثة والتي أكل الدهر عليها وشرب، وهكذا يحلق الحلاق للعريس الذي يكون جالسا على كرسي كما ذكرنا أعلاه في ساحة الدار السماوية أو على سطح الدار. والناس من حوله وتكون الحلقة التي تحيطه من الرجال يشوبشون ومن حولهم السيدات يزغرتون وتكون الشرفات والأسطحة ملآنة من الناس والجيران يتفرجون على حفلة حلاقة العريس والجميع في حظ وسكر، وهكذا تسمى حلاقة العريس (بجلوة العريس) وبعد إتمام حلاقة العريس تجيء الشبان من رفقاء العريس فيمزقون ثيابه وأحيانا كلها حتى يصبح شبه عاريا!! والعياذ بالله. وكانوا يعللون هذه العادة في ذلك الزمن بأنهم مزقوا ما على العريس من جهل وهم في دور العزوبية، ثم يأخذونه إلى داخل البيت ويلبسونه الثياب الجديدة التي تكون جاهزة لهذه الساعة بإعتبار أنه إبتدأ بحياة جديدة وإرتداء ثوب الكمال والرشد والعفاف والرجولية، ولحق الرجال.

وكثيرا ما يحضرون جوقة الآلاتية في أثناء زفة الحلاقة فتعزف على الآلات وتغني في حالة حلاقة العريس وتكون فرحة شاملة تضم إلى حلقة الشبان والنساء اللذين يدعون بالشوباشات الحماسية والزغاريت ذات المعنى الجميل بصورة نادرة وياها من عادات جميلة تلاشت تدريجيا إلى أن كان يقضى عليها، ثم بعد حلاقة العريس يحلق الحلاق إلى الشبين ثم لبعض من أقرب المقربين من أهل العريس خصوصا [القرباء] منهم بإعتبار بأن يعقب لهم هذا الفرح ويصبحوا عرسان مثله، ولا تسأل عن صوت زمر عبده والدربكة التي كانت تبدع في حالات كثيرة عند حفلة الحلاق والدربكة

هي طبعا الشعار الرئيسي من الآلات المطربة لطائفة الروم الأرثوذكس بالقدس، كما يقولون وكثيرا ما كانت تعرف طائفة الروف (بطائفة الدربكة آه).

المرسال الثاني

وبعد إنتهاء مشكلة الحلاقة يرسلوا ثاني مرسال إلى بيت العروس بالطريقة المنوه عنها عند المرسال الأول يعلموهم بإنتهاء حلاقة العريس.

المرسال الثالث

وأخيرا ينتخبون عشرة أشخاص من رجال العريس أو أكثر ومثل هذا العدد من السيدات من سيدات العريس فيسير الكاهن أمامهم وفي أيديهم جميعا الشموع ويذهبوا إلى بيت العروس بإعتبار هذا الموكب الرسمي هو المرسال الثالث يعلموهم بأن العريس على أتم الإستعداد هو وجماعته لإستلام العروس ثم يكون مع هذه الجماعة رجل من عائلة العريس المعروفين حاملا رزمة من الشمع لأجل أن يوزعها على أهل العروس. وعند وصول هذا الموكب إلى بيت العروس تعزف الجياكي على آلاتهم وتغني والنساء تزغرت ويدخلون بكل حفاوة وإستقبال بهيج. وبعد إستراحة قليلة يقدم لهم المعمول أو الغريبة وتقليات عبارة عن بزر وفستق وبندق ولوز وقضامة. وكذلك قضامة بالسكر وزبيب وتكون النساء يرقصن أمام العروس بالشمع الكبير الحجم ويسمونه (شمعات العروس).

الزفة

عندما يأخذوا خبر خروج العريس من بيته للقاء العروس، يتقدم الكاهن مع أبو العروس أو ولي أمر العروس والمقربين منه ويندمجوا مع والد العريس أو ولي أمر العريس والمقربين منه ويجري تسليم العروس رسميا في بيت العروس وهكذا يسيرون يتقدمهم الكهنة يرنمون الترانيم الدينية ومعهم حملة الشموع وأغصان الليمون العالية وورائهم مباشرة العروس، ويسير بعد أو خلف العروس باقي الرجال والنساء من الطرفين الرجال تشويش والنساء تزغرد بأعلى أصواتهم حتى يلتقوا مع العريس في الطريق وبعدها يختلط جميع أهل العروس وأهل العريس بالجملة ويمشوا في هذا الموكب العظيم سوية.

وإني الفت نظر القاري أنه عندما يخرج العريس من داره يسير أيضا بإحتفال مهيب تتقدمه الشباب بالشوباش والأهازيج وأما فرقة الآلاتية الحاملة آلات الطرب بواسطة رباط خاص للعود والقانون ثم الكمان والدف والدربكة تعزف وتغني من خلف جماعة الشباب ومن ثم يكون العريس وعلى جانبه الأشابين ومن خلفه تكون جماعات السيدات الباقية من حوله وخلفه يزغرتن بأعلى أصواتهن في الشارع وهو منظر جميل يتجلى فيه الطرب والسرور.

ومن الواجب ذكره هنا بأن الشباب أصدقاء وأقرباء العريس لا يتركون العريس ماشيا هادئا بل كانت العادة المتبعة كانوا ينخرونه بالدبابيس والإبر وربما بالمسلات من خلفه مرارا وتكرارا وأما العادة ما تعمله النساء في هذه الزفة فكانوا يأخذون بتخييط ثياب العريس الذي يلبسها (ولكن بدون خيوط) وهذه العادة كانت حسب إعتقادهم فيما إذا ما كان معمول للعريس عمل سحري أو مكتوب له حجاب سحري من الحاسدين والأعداء، فبعملهم هذا يمنع مفعول السحر لأنه أقوى، وهذه العمليات المضحكة كانوا يقومون بها على طول طريق الزفة وخصوصا بعد الإكليل. تأخذ زفة العريس مدة لا تقل عن الثلاث ساعات في الشوارع ما بين دار العريس إلى قريب من دار العروس ويكونوا الحاضرين وهذه الجموع المجمعة لا تنفك وخصوصا الرجال عن شرب العرق على الماشي، وربما زادت المدة عن الثلاث ساعات عندما يكون الجو ملائم يتجلى به الجمهور الفرح والسرور والسكر، وعندما يتعب العريس كانوا يضعون له الكرسي الذي كان يحمله شخصا خاصا فيجلس في الشارع بين الغناء والرقص والشوباشات والزغاريت وعزف الآلات وترانيم الكهنة الدينية. وأخيرا يستقر جلوسه بعد مدة أخرى على الكرسي ينتظرون قدوم العروس ومن معها من الطرفين. وعند حضور العروس وجماعتها لا يجوز لأحد من الطرفين أن يتعدى الحدود المعتادة والويل ثم الويل إذا تجاوزت العروس قدما واحدا لجهة حد العريس قبل أن يتقدم هو إليها فهنالك يصير الأخذ والرد بالكلام (لا يسير أو يسير) ويحدث مرارا بعض الخصام فتداخل بعض الوجوه من الرجال المعروفين ولهم قيمتهم ويصرفوا هذا الأمر بالتي هي أحسن، ولا تنسى بأن الأغلب من رجال الطرفين يكونون في حالة سكر شديد، ولا يدرون أين هم سائرين إن كان في الأرض أو في السماء وأخيرا يتقدم العريس عندما يصل الموكب إلى الكنيسة يتقدم العريس فيدخل باب الكنيسة ومن بعده تدخل العروس.

حالة العروس وخصوصاً أثناء الزفة

أما العروس المسكينة فمنذ تركها بيت والدها يكون حالها كما يلي:

يمسك بيدها اليمنى أقرب المقربين إليها من أهلها ويمسك بيدها اليسرى أقرب المقربين من أهل العريس ويتناوبون في سيرها على هذا المنوال إلى أن تصل إلى الكنيسة ويكون جسمها ينقط عرقا ومن خارج ثيابها وفي نفسها غصة قلق وفزع وأشغال فكر خصوصا عندما تذكر ما قيل لها من العجائز من الكلام المغمغم، ثم جسمها المضنى وما عان في الحمام وبعدها مالبسوها من أزياء ضيقه وسجنوها في غرفة خاصة وحجبوها عن النور والشمس والمهم في الأمر أنها طيلة سيرها مع هذا الموكب ومنذ خروجها من بيت الداخلي لأبيها وهي مطبقة عيونها، وكأنها عمياء لا ترى شيئا أبدا كما كانت العادة آنذاك ولا يسمح لها التكلم كلمة واحده فكثير ما كانوا يضعون في فمها ملبسة لتدير لعاب فمها وإذا ما كان اللباس مشدودا أو محلولا لا يجوز لها أن تتذمر بل تكون صابرة على ما أصابها ثم يضعوا الإيزار ويشدون من فوقه الزنار ويضعوا على وجهها منديلا وذلك من تحت الزنار وفوق المنديل هذا يضعون من فوقه البرنجك. أما يديها

فتكون مرفوعة إلى فوق تحت الإيزار وهكذا لا تستطيع أن تعرف ولا تعي أين هي؟ ولا أين يذهبون بها بل تسمع إلى من يخاطبها قائلا (إنزلي درجة) أو (إطلعي درجة) أو (كمان درجة) أو (إرفعي رجلك) وهكذا على طول الطريق إلى أن يدخلوا الكنيسة .

في الكنيسة

تقف العروس أمام الهيكل وتقف الرجال عل جهتها اليمنى والنساء على جهتها اليسرى . أما الأشابين على جوانبهم أي جوانب العروس والعريس وهكذا يتم الكاهن والكهنة مراسيم الإكليل المقدس وعند دورة الإكليل ثلاث مرات يرش الملبس والأرز فوق رؤوسهم ثم يقدم الكاهن كأسا من النبيذ إلى العريس ومن ثم إلى العروس وهناك تتحمس الشباب فتتسابق لشرب ما تبقى من النبيذ في ذلك الكاس على إعتبار أن الفرح يعقب إلى من كان أعزبا من هؤلاء الشبان ، وبعد إتمام الإكليل ينتصب الشبين ويحمل العريس ويخبط به على الأرض بقوة شديدة ثلاث خبطات متواليات بإعتبار أن العريس يخلع منه العقل أو العقلية القديمة الجاهلة زمن العزوبية ومنذ هذه الدقيقة يلبس العقلية الجديدة ، ثم يجيء الكاهن ويلبس العريس الكرديلة التي نوهنا عليها في ليلة الجهاز فيضعها تماما فوق كتفه الأيمن إلى تحت الخاصرة اليسرى مع العلم أن هذه الكرديلة يجب أن تبقى على كتف العريس لمدة أسبوع واحد من يوم الإكليل مع رأس ثوم وعرق سداية مذهبة يضعونها فوق كتفه الأيسر . وأخيرا يمسك العريس يد عروسه ويخرج من الكنيسة .

بعد الإكليل في الكنيسة

تخرج العرسان من الكنيسة بهذا الموكب الضخم وتعاد الزفة على الطريق فرقة العازفين والمغنين وضارب الزمر والدربكة وشوباش الشباب وزغاريت النساء وذلك في سكون الليل وربما تكون الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ولا يجوز لهم أن يسلكوا الطريق التي جاءوا منها قبل الإكليل بل يغيروا السير من طريق أخرى ولو كانت بعيدة ولدى مرورهم في الشوارع تستعد أصحاب المقاهي التي تكون موقعها على هذه الطريق فيقف صاحب المقهى وبيده إبريق ملآنا من القهوة الطازج الساخن ويصب ما فيه على الأرض أمام العريس والعروس وبين رجليهما فيدفع له العريس بعض النقود مما تجود به نفسه بإعتبار أن كب القهوة تفاؤل تيسر طريق الخير له ، وهكذا تبقى هذه الزفة إلى أن يصل الموكب إلى دار العريس فعند وصولهم إلى مدخل الدار وفي حالة وجود درج أو سلم للطابق الثاني فلا يجوز للعروسين أن يصعدوا ويسلكوا السير كعادة الناس ، بل عليهم أن يغيروا إتجاه السير ويمشوا ثم يصعدوا الدرج بالمقلوب تماما فتكون وجوههم وهم طالعين السلم إلى الجمهور بالموكب وظهورهم إلى درج الدار فتصور هذه السخرية الخطرة خصوصا وحالة العروس المغلقة عيونها ، ولا تعلم هذا السلم والدار معا من قبل ، ومن ثم يصلوا إلى غرفة العرسان فتدخل العروس وتلقي بنفسها على السرير وتتنفس الصعداء بعدما يحلوا لها الزنار المشدود على معدتها وجسمها .

قصة الخميرة من على عتبة أوضة العريس

تعمل عائلة العريس ما يسمونها ب (شركة) أشبه بالمعمول ويضعونها بشاورية، مع خميرة وعرق أخضر، ثم يضعونها بحكمة فوق عتبة باب الأوضة وعندما تصل العروس هذا الباب فإذا ما كانت قصيرة تصعد وتقف على كرسي وتضع كف يدها على هذه الأشياء المعلقة. ثم يأتي العريس بدوره وعيون أهل العروس تكون مبحلقة به، فيمد يده اليمنى ويضرب بها على يد العروس ثلاث ضربات. فإذا ما كانت ضربات العريس خفيفة ظهرت على وجوه أهل العروس الأبتسامة والبهجة، ومر هذا الفصل بسلام وعلى ما يرام، أما إذا ما كانت الضربات مؤلمة ومن الوزن الثقيل، بمعنى أنه يشير إلى الحقد الذي في نفسه تجاه أهل العروس فيختلف وجوه أهل العروس على أثر ذلك ويصير الكلام اللاذع والمعاتبة والذم وأحيانا الشتم!! وأحيانا يؤدي هذا إلى ما تحمد عقباه بين الفريقين، وبعد هذه الضربات الثلاث من يد العريس يتحمس الشبان فتهجم على الشركة بكل شراهة ووقاحة بمعنى أن هذا الفرح يعقب لمن هو أعزب من هؤلاء الشبان.

جلوة العريس والعروس

وبعدما تدخل العروس إلى حجرتها كما ذكرنا سابقا، يذهب العريس وبصحبته الرجال المقربين إلى أحد غرف الدار وتكون النساء في غرفة أخرى خاصة. وبعد فترة ما يذهب العريس ومعه الشبين إلى حفل السيدات وهناك وفي هذا البيت المعد لجلوة العروس تكون الجناكي فتعزف له على آلاتهم وتغني أغنية الإستقبال المعروفة "البدر لما زار يا عيني زالت الأتراح" فيدفع لهم ما تجود به نفسه من النقود ويصدوه في صدر الأوضة أو بالحري القاعة مع الشبين وتكون جميع النساء من حوله والقاعة ملآنة من سيدات الطرفين من العروسين وتبقى الجناكي تعزف وتغني ما هب ودب من مختلف الأغاني. ثم يحضرون العروس بلباسها الفاخر وعلى وجهها برنجك ملقى من على رأسها إلى أخمص قدمها محاطا بكل جهة من جسمها. وليكن معلوما بأن العروس تكون مغمضة عيونها وتسير داخل البيت بإشارة ورافعة يديها لتجلى وعندما تدخل باب القاعة تستقبلها الجناكي والعزف على آلاتهم المطربة "البدر لما زار يعيني زالت الأتراح الخ".

فيدفع العريس ما تجود به نفسه من النقود لهؤلاء الجناكي أيضا.

ثم يبدأون بتضييف (حلوى العروس) والمضحك في هذا الأمر أنه عندما تتناول السيدة من الحضور القسم المخصص لها من حلاوة العروس تكون أحد العجائز بجانب العروس ويدها فوق رأسها وبالحال تحني بيدها رأس العروس إكراما وأحتراما لهذه السيدة لأن عيون العروس تكون مغمضة كما بينا أعلاه، ويبقى هذا التضييف وعلى هذا المنوال والعروس يحني رأسها من يد اليمنى من تلك العجوز إلى أن تنتهي الضيافة من حلاوة العروس والعروس تكون تسير مشيا على قدميها من أول باب القاعة إلى أن تصل حد منتصف الأوضة فعندها وبموجب القانون المتبع آنذاك يقوم العريس من على مقعده ويتقدم إلى العروس وبحسب إشارة من تلك العجوز المرافقة لها تعدل قامتها أي قامة العروس وتنصب

رأسها عاليا ويرفع عن رأسها ذلك البرنجك ويرجع رأسا إلى مقعده في صدر القاعة وعندما يزيل هذا البرنجك من على رأس العروس يأخذه ويحذفه بخفة على كتفه هو حتى تتم جلوة العروس الأولى وبعدها يتقدمون بالعروس رويدا رويدا دقة دقة ويجلسونها على كرسي بجانب العريس والمهم في الأمر لا يسمح للعريس لغاية الآن أن ينظر إلى وجه العروس ! !
والآن يبدأ الرقص وتناول السيدات من أهل العريس الرقص أمام العريس والعروس وعلى أنغام آلات الطرب بأيدي الجنكية وعلى كل رقصة تدفع السيدة الراقصة شيئا من النقود إلى الجناكي في وسط الدف . وبعد ذلك تؤخذ العروس إلى خارج القاعة وتغير فسطانها الأول وهكذا ترجع وتغير إلى أن تلبس جميع الفساتين الجاهزة للعرس وعند كل ما تلبس الفستان تتجلى به وفي هذه الحالة يقدم أهل العريس لجميع الحضور المعمول ثم صحن نقل نقرشه لكل شخص من الحضور وكثيرا ما يقدموا نوعا من الفاكهة مثل التفاح والبرتقال أو نوعا من الخضار مثل الخيار وغيره .

النقوط

وأما العادة المتبعة بمشكلة النقوط في ذلك العهد كانت تقف العروس عند باب إحدى الغرف من الدار وبجانبها إحدى العجائز القديرات منهن فيسير الحضور بالترتيب مودعين ومباركين للعروس يسلمون عليها بالأيدي وبعدما تضع يدها في يد الشخص تقبل أياديه ويضع في يد العروس ما تيسر من النقود كل حسب مقدرته . وعندها تسلم العروس هذه النقود (كل مرة على حدها وعند القبض) إلى العجوز ، وهذه العجوز تحيل ما استلمته في الحال إلى الشخص المفوض من قبل العريس والذي يكون بجانبها تماما آنذاك ، وهذا بدوره عندما يأخذ المبلغ يسجله في قائمة خاصة بحذاء إسم الدافع ، وذلك لكي يستطيع العريس تسديد هذه القيمة بالمناسبة ويبقى دفع النقوط على هذه الصورة إلى آخر شخص من الحضور .

الختام

وأخيرا يأخذوا العروس إلى الأوضة أو الحجرة المعدة لها للنوم والراحة وهناك تشلح ثيابها وترمي بنفسها على الفراش وتتنفس الصعداء من هذه المعركة والجهاد طيلة الثلاث أيام والليالي ، وهكذا تصبح وأفكارها قلقة وليس لها مجير إلا الله حتى يدخل عليها الآغا ، أي العريس ويكون منفوخا رافع الرأس وكأنها ديك رومي (حبشي) بعد قبض ما قبض من النقود وهذا يتوقف على حظه عسى أن جميع النقوط لا تفي سداد ما أنفقه من مال خصوصا طيلة أسبوع الفرح .
وهكذا نسدل الستار عن تلك العقائد والعادات والتي كانت من كتب نساء ذلك الزمن الجاهلات والسلام .

اليوم الثاني من العرس بوسة الرأس

وفي اليوم الثاني من يوم العرس أي صباح الإثنين يخرج العريس من البيت ويمشي مرفوع الرأس فخورا بنفسه وكأنه الطاووس الذكر والشكلة أي الزهرة على صدره والزنار يكون مرفوعا لفوق معدته على غير عاده شد الزنار في اللباس

العربي، ويبدأ بشراء ما هب ودب من الحلوى والفواكه والنقرشة لإرضاء النساء من أهل العروس اللذين من عادتهم زيارة العروس باكرا من هذا اليوم، ثم يقفل راجيا إلى العروس يلاعبها ويداعبها طيلة النهار. وكانت العادة على أن أهل العريس يكلفن العروس في هذا اليوم بأن تعجن لأول مرة في بيت العريس بإعتبار بأن هذا العمل يدخل الرزق والبركة على بيت زوجها.

وعند الغروب يجتمع أقرب المقربين للعريس من الرجال في بيته ويذهبوا إلى بيت العروس ويكون العريس منفوخا فخورا بنفسه ويلبس الأزياء الجديدة من رأسه لقدمه وعند دخولهم إلى بيت العروس يبدأ بتقبيل أيدي جميع الحضور، وبعد الإستراحة يتناولون ما تيسر من الضيافة وبعدها يشربون القهوة. ثم يأخذون أهل العروس جميعهم ويرجعون سويا إلى بيت العريس وعند خروجهم يقبل العريس أيادي والدة العروس (إمرأة عمه) عند باب الدار فترضى عليه وتهديه محرمة حرير، أو شاورية، أو كيسا للنقود وعند وصولهم تقبل العروس أيادي هذا الموكب وتقف مكتوفة الأيدي عند عتبة البيت ولدى طلب أي من هؤلاء الناس كوبا من الماء يلبي طلب جلب الماء العريس ذاته وفي هذه الحالة تقبل العروس يد الشارب، وهكذا لعندما تنتهي السهرة والتي يسمونها بوسة الرأس.

حريق مدرسة شنللر

إني أذكر جيدا حريق مدرسة شنللر بالقدس وقد شاهدنا اللهب من على سطح دار الجوهرية في محلة السعدية لأن الحريق إبتدأ عند العصر من يوم أحد في فصل الصيف سنة ١٩٠٩ ودام طول الليل وقضى على الطابق الثاني بكاملة من المدرسة بما فيه الكنيسة لأن السقف كان من الخشب. والسبب كانت شرارة من المدخنة القديمة البالية سقطت على عدد من فراش التلاميذ البالية من القطن وبقيت تأكل القطن رويدا رويدا إلى أن أصابت الخشب والبناء. والجدير بالذكر بأن الكرزة في المدرسة وبعد صلاة الأحد من ذات اليوم كان من المستر باور الألماني وموضوعها "على الإنسان دائما أن يتخلص من كل شيء قديم لا نفع فيه الخ" إلى أن شاء القدر وعند المساء تحققت كلمته وأتت على القديم والجديد في آن واحد ! ! ألفت نظر القاري لبعد المسافة ما بين شنللر ومحلة السعدية.

دخولي مدرسة الوطنية

على إثر الإنقلاب العثماني في البلاد وإعطاء الحرية للشعب للنهوض بحياته الإجتماعية والسياسية تنفس الشعب الصعداء خصوصا العرب في كل أقطار العرب وكانت بالطبع غير مجزأة بل قطعة واحدة وقد إبتدأ بالفعل إرتفاع مستوى المعيشة والطموح خصوصا إلى العلم، وقد اغتنم الأستاذ والمربي الكبير خليل السكاكيني بفتح المدرسة المعروفة بالمدرسة الدستورية الوطنية وذلك في إحدى أملاك الحاج إسماعيل النجار في حي المصرارة. وقد إنضم مع الأستاذ السكاكيني كل من السيد علي جارالله وافتيم المشبك وجميل الخالدي وكان الإقبال عليها من الشعب

على إختلاف مذاهبه عظيما وكان فيها قسما ليليا أيضا واللغات التي كانت تدرس فيها العربية والتركية ثم الإنكليزية والفرنسية . وعلى أثر تركي وتوفيق مدرسة الدباغة للألمان بالصورة المحزنة كما بينتها للقاري في كتابي هذا أدخل والدي أخي توفيق مدرسة الروم الليلية في يافا ولكن مع الأسف هرب ورجع القدس مما اضطر لوالدي بأن يسيره في الصنعة وترك عمله .

أما أنا بعدما قضيت مدة طويلة كنت فيها أرافق والدي في أعماله خصوصا في خربة ديرعمرو نجحت والحمد لله بواسطة المرحوم حسين أفندي الحسيني بعدما تعين رئيسا لبلدية القدس فأدخلني تلميذا في هذه المدرسة في القسم الخارجي وساعدني الحظ بهذه الموفقية الكبرى لما كسبته من علم لا بأس بها حتى تمكنت من تأمين المستقبل . وإني قبل أن أبدأ في الشرح عن هذه المدرسة أحب أن ألفت نظر القارئ إلى ما لاقيته في الأيام الأولى من دخولي المدرسة فكانت التلاميذ وحتى المعلمين ينظرون لي نظرات خاطفة وابتسامة إستهزاء كنت أسائل نفسي عن هذا الإستقبال الشاذ إلى أن فهمت السبب وهو :

أرجو القاري الإطلاع على ما دونته في هذا الكتاب تحت موضوع عرس جريس الدباح ففي إحتفال العرس المذكور وحبي إلى فن الموسيقى الرفيع تحمست وأنضميت مع فرقة أولاد أبو السباع آنذاك وغنيت للجمهور بأعلى صوتي في الشارع وكان مروري عن هذه المدرسة التي خرجت بأكملها معلميها وتلامذتها وعمالها يتفرجون على إحتفال العرس ويستمعون إلى غنائي ، ومنذ هذا الإحتفال بالعرس أخذوا فكره واعتقدوا بأنني كنت أحد محترفي الغناء مع فرقة أبو السباع ولما كان الغناء والعزف على العود خصوصا بالإيجار مبتذلا لدى أكثر الأهالي في ذلك الزمن سبب عملي هذا سوء الفهم عند من صوت هذه المدرسة وأصبحوا كلهم وعيونهم تلومني على ما فعلته من إجرام مع أن الحقيقة كما هو بينت سابقا كان غنائي كما يقولون لله في لله لا إيجار ولا ما يحزنون ، إنما حبا للفن ليس إلا . وبقيت مدة حتى زال هذا الجفا وأصبحت تلميذا طبيعيا بالمساواة ، فتأمل ! ! وكان الحامي لي في هذا الموضوع الحساس هو الأستاذ السكاكيني لأنه على ما قد تبين لي بعد فترة بأنه يعشق الموسيقى ويتفانى في حبها وتقديرها وكان بالفعل يعزف لنا وللتلاميذ على الكمان فشكرت الباري على حسن حظي ووجدت بأن المدير يشاركني ميلي .

أما المعلمين فكانوا

خليل السكاكيني ، إفتيم مشبك ، جميل الخالدي ، ومرات علي جارالله . ثم الحاج شريف الحسيني ، المسيو جدعون ، حنا زخريا ، أديب عبده ، المعلمة لبيبة أحيانا وأما الآنسة إميليا السكاكيني كانت مختصة لبستان الأطفال تحت مناظرة السيدة سلطانه عقيلة الأستاذ السكاكيني .

كان الأستاذ السكاكيني يعلمنا اللغة العربية بأسلوب محبوب جدا للتلاميذ وهذه الطريقة قلما تجدها لدى غير أساتذة في الشرق على ما أعلم فكان يكره أن يتعلم التلميذ القواعد على ظهر القلب كما كانت العادة عند أغلب المعلمين بل

يحصر علمه مثلا في جملة صغيرة يشبع التلاميذ عن كل ما فيها من معنى وقواعد نحوية ولغوية والصرف ولا يراجع الكتب المعدة والمنتشرة في كل من هذه المواضيع . والجدير بالذكر أنه كان يتخلل درسه النكات النادرة يلقنها للتلميذ وكأنه في ساحة خطر ، وهكذا كان التلميذ يقبل على علم هذا المربي الكبير بكل شوق ولذة ويتفهم ما لا يفهمه من سواه الساعات الطوال . كان يلقن التلميذ الوطنية والرجولية من حيث لا يدري وكان يسخر من المتخنثين يحب الصدق والشرف والأمانة ويتفانى في حب الإنسان . كان دائما ينصحنا في المحافظة على الجسم لأن العقل الصحيح في الجسم الصحيح ثم يطلب منا المواظبة على الرياضة لتقوية الجسم دائما أبدا وكان ينصحنا بغذاء الجسم من اللحوم وخصوصا أكل الدجاج (مع أنه في النتيجة طلب أكل اللحوم إلى أن قضى نحبه لأمر لم أزل أجهله) وبالنظر لتسمية هذه المدرسة بالدستورية والوطنية فهو أول من منع الضرب للتلميذ مطلقا أبدا ، ومن نظريته الحكيمة إنتشرت هذه الفكرة في المدارس والفضل يرجع إليه وكان رحمه الله إذا لاحظ أي شيء يسيء بالتلميذ خصوصا أخلاقيا يجن جنونه ويظهر على وجهه الغضب بصورة تفزع الطالب الذي كان يكن له في قلبه كل إحترام وإكبار ويرجع عن خطئه بدون الضرب ، وبذات الوقت يحبه حب الوالد فهو ولا شك غرس في قلوب تلاميذه الخصال الحميدة وكان نعم المعلم والمربي .

كان الأستاذ اقتيم مشبك وجميل الخالدي يدرسونا الإنكليزية والفرنسية الإبتدائية . ثم الحاج شريف الحسيني يعلمنا التركية وإني أذكر بعض الحوادث الطريفة منها أن فوته دعدوش كان زميلي وفي أثناء الدرس يسألني الحاج شريف قائلا : جوهرية : س : دعدوش طربوشن رنكي ندر؟ ج: دعدوش طربوشن رنكي قرمزي در . أي أن لون طربوش الدعدوش هو أحمر ، فيقول لي أفارم ، وهكذا . وإني سأذكر الحوادث الطريفة في صفحة خاصة في الفصل الثاني من هذا الكتاب من حوادث فكاهات الحاج شريف .

إنني استفدت الكثير عندما أخذت لأول مرة الدروس الإنكليزية من المعلمة لبيبة وأظن أنها كانت من لبنان أو سوريا فبواسطتها قد نجحت لدرجة بأنني كسبت صفا عاليا وقبلت فيه . أما أديب عبده وهو شقيق السيدة سلطانة عقيلة الأستاذ السكاكيني فكان يعطينا الدروس الحسابية وقد ترك البلاد إلى الديار الأميركية فيما بعد وبقي مع الأسف هناك . وإني أذكر حنا زخريا وكان يعلمنا أيضا عندما لبس البدلة العسكرية التركية (البدلات) وذلك بعد الإنقلاب العثماني وهو شقيق السيدة فريدة زوجة السيد أنطوني عطاالله . أما المسيو جدعون فكان من لبنان يعلمنا الرياضة عن حقيقة علم عسكرية فرنسية لا غبار عليها .

وإن المهم في هذه المدرسة فقد قرر الأستاذ السكاكيني بأن يعلم كل من أراد العلم من التلاميذ المسيحيين قراءة القرآن وهكذا لبيت هذه الدعوة بإختياري وتشجيع والدي رحمه الله فقد حصلت على المصحف الشريف من سيادة المرحومة الحاجة أم موسى كاظم باشا الحسيني التي أهدتني إياه وكان نسخة أنيقة الطبع في الإستانة بعدما لقنتني وجوب إحترام القرآن والمحافظة على النظافة عند مسه وبهذه الصورة تعلمت القرآن من الأستاذ المخصص المدعو

الشيخ أمين الأنصاري المشهور بالقدس وكانت فكرة الأستاذ السكاكيني هي بأن جوهر اللغة العربية خصوصا الإلقاء هو قرائة القرآن بالطريقة الأصيلة وكنت أتلقى هذا العلم مع إخواني وزملائي الكثيرين من أبناء القدس المسلمين وابتدأت بسورة البقرة وإني أقولها صراحة بأن هذا كان الفضل الأكبر في حياتي خصوصا في الغناء والموسيقى العربية فكنت والحالة هذه أنطق الكلمة إن كانت في التواشيح وخصوصا القصائد بكل إفتخار وبحضور أساتذة وعلامة اللغة العربية كما سيجيء البحث عن مواقفي في الغناء في الفصول الآتية من هذا الكتاب.

جميل الخالدي

وفي ذات يوم من أيام دروس الأستاذ جميل الخالدي وكان يعطينا درس الأشياء باللغة الإنكليزية وكان صورة فصل الخريف على الحائط وفيها منظر تحميل الحبوب والمزروعات في القطار، فسألني الأستاذ جميل ما يلي:

who walks quickly?[1] وبالحال قمت ووقفت وقلت بأعلى صوتي Mr. Hanna Yasmineh الأمر الذي جعل كل تلامذة الصف أن يضحكوا شديدا لما كانوا يشاركوني به بالإنتقاد على ياسمينة المذكور. فغضب الأستاذ جميل ولكن أين يضربني؟ ومعاملة الضرب قد ولت، وهكذا طردني من الصف وخسرت ذلك الدرس ويا للأسف.

هذه حياتنا المدرسية في المدرسة الوطنية عندما تخلصنا من نير الإستعباد والضرب القاسي فقارن أيها القاري ماذا حدث بي والمعلم بشارة في مدرسة الدباغة؟.

أما التلاميذ فإني أذكر منهم: جورج خميس ووديع خميس، حنا حمامة، إحسان الترجمان وأخيه عارف، إبراهيم عويضة، فهمي عويضة، صبحي عويضة، يعقوب عويضة، داود عويضة، تحسين الخالدي، موسى الخالدي.

جورج البيبي

كان زميلي جورج البيبي ثرثاراً ويعطي الجواب للاستاذ السكاكيني مغلوطاً بدون انتباه، وكان الاستاذ السكاكيني يداعبه في اثناء الدرس بطريقة تجعله أن يتجنب هذه العادة فدخل في صبيحة النهار منبسماً

وقال اسمع يا جورج بدي احزرك هالحزيرة هل تعرفها ؟

عوج يا قرينها وشهل عينها وهي الفترة الله لا يدلك عليها؟ ماذا؟

جورج طنجرة، ثم يعيد الاستاذ الحزورة من أولها (عوج قرينها الخ).

جورج مقلى.

[1] يبدوا أن المقصود هو القطار وبالتالي فإن جوهرية يكون قد اخطاء في استعمال كلمة walk الانجليزية والتي تعني بالعربية يسير لكنها لا تنطبق بالانجليزية على الجماد.

الاستاذ ضاحكاً مع كل التلاميذ ، ثم قال " يا أخي اطلع من المطبخ ، وانتقل الى الصالون" .

السينماتوغراف

أذكر أنني وإخواني ووالدتي والجيران في دار الجوهرية وخصوصا عائلة متري عبدالله المنى إتفقنا ما بيننا فعزمنا على رؤية السينماتوغراف لأول مرة من حياتنا وكان ذلك سنة ١٩١٠ / ١٩١١ عندما كنت تلميذا في المدرسة الوطنية .

إشتغل السينما فحضرناه كما قلت لأول مرة في القاعة والمسرح الموجودة في عمارة فاينكولد شارع يافا مقابل عمارة المسكوبية (قسم المباحث زمن الإنتداب) وكانت تذكرة الدخول بشلك للواحد من العملة التركية وكان السينما [صامت] فدهشنا جدا من مشاهدتنا ذلك خصوصا فكان كل خيال يتحرك طبيعيا الأمر الذي كنا نجهله تماما وشكرنا الباري على نعمه .

أما هذه العمارة فكانت عظيمة بإعتبارها بلوكا من المخازن ومنازل السكن ثم بيعت إلى رئيس بلدية بيت جالا السيد مخلوف وأما القسم الشرقي منها وكانت تملكه سيده كتلينك سكن إبراهيم غتي رئيس مدرسة الأليانص لليهود بالقدس بيعت زمن الإنتداب إلى حسين [. . .] الذي جدد البناء الحديثي .

فانوس السحر

أما فانوس السحر فكان عبارة عن صورة مكبرة على الحائط أو الشاشة ملونة بالألوان الطبيعية ولكن بدون حركة .

فكنا نشاهده الفانوس السحري من يجيء به فرقة من الألمان بواسطة إدارة مدرسة شنللر في عمارة الدباغة للألمان وكان والحق يقال شيء يفيد المجتمع وخصوصا التلاميذ في ذلك الزمن لما نشاهده من أشياء واضحة يصعب أو يتعذر علينا رؤيتها في مكانها وخصوصا الأماكن الأثرية في بلاد العرب وأخصها شرق الأردن مثل البتراء (وادي موسى) جرش ، وادي الموجب ، اللسان الواقع في البحر الميت ، جبل الملح المعروف في البحر الميت ، عمان فيلادلفيا ثم بعلبك وغيرها . وكان الأستاذ إلياس حداد المربي في مدرسة شنللر يقوم بإعطاء التفاصيل الكافية والوصف الوافي لكل مشهد .

صندوق العجب "أو صندوق العجم"

إنني أعتقد بأن صحة الإسم هو صندوق العجب وإنما إبتكار بلاد العجم لأن الولد خصوصا لأول مرة يعجب جدا عندما يشاهد هذه الصندوق .

إن صندوق العجب هو عبارة عن شبه خزانة . نصف مستديرة مقسمة إلى ست فجوات من الخشب الكثيف وكل فجوة يكون فيها نظارة وسيعة مستديرة يشاهد منها الشخص إلى الصورة في داخل الصندوق بحجم كبير وبألوان الصورة الطبيعي من حيث الألوان . تكون الرسوم الداخلية ملفوفة على عامود خشبي يديره صاحب الصندوق بيده



عمارة القنصلية التركية في عهد الانتداب البريطاني في شارع يافا في القدس وهي بجانب سينما زيون (صهيون).



صورة لصندوق العجب. المصور غير معروف المصور هو كتاب وليد الخالدي ما قبل الشتات من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

فتجي صورة أخرى وهكذا . وبالطبع هذه الصور تكون على عامود خشبي مشابها للعامود الأول في طرف الصندوق الآخر .

يوجد في هذا الصندوق خمس إلى ست نظارات فكنا نجلس على مقعد خشبي ونشاهد الصور ونستمع إلى صاحب الصندوق الذي يكون يشرح لنا بأعلى صوته :

هذه مصر مصر ، هذه نهر الظهر . وشوف يا حبيبي شوف ، وتفرج وشوف يا سلام ، شو أحوالك على التمام إلى ما هنالك من إصطلاحات تجلب الزبائن من الأولاد أمثالنا لمشاهدة صندوق العجم . يكون عادة صندوق العجم أو العجب متنقل في الشوارع وخصوصا في إحتفالات ومواسم مدينة القدس . وخوفا من العين "عين الحسود" يكون معلق عليه من الخارج خرز أزرق وشبه رأس ثوم وكنا نترقب حضوره لمدينة القدس بإهتمام زائد .

الحكواتي

كانت العادة في مقاهي مدينة القدس داخل السور البلدية أن يحضروا بما يسمونه الحكواتي لأجل الترفيه عن الزبائن وإغرائهم بشيء يميلون إليه ويقبلون على الحضور إلى المقهى خصوصا في ليالي الشتاء .

كان يجلس الحكواتي على منصة مرتفعة في صدر المقهى ويكون قبلة المشاهدين والمستمعين . ويقرأ بصوته العالي قصص عنترة وعبلة وأبو زيد الهلالي والأمير عمارة لما في هذه القصص الشعبية من معنى ومغزى في البطولة والنخوة والشرف والفروسية . وكان الأخ الحاج جودت بن موسى الحلبي من أهالي مسلمين القدس المعروفين في صباه له ولع خاص في قراءة هذه القصص وكان يقرأ في مقهى عبد اللطيف في محلة باب حطة وكان الإقبال عليه عظيما فكان يحضر لياليه سكان محلة البقعة الفوقا بالقدس في البرد والأمطار إلى منتصف الليل لما كان لديه من صوت جمهور مشبع وشخصية عظيمة ، يجيد القراءة ويحسن الإلقاء والمنطق ويعطي الكلمة فتخرج من فمه بمعناها الحقيقي وكأنه بطل تلك الرواية وكان يقرأ عادة رواية عنترة والأمير عمارة فكانوا يواظبون الإستماع إليه ولا ينقطعون ليلة واحدة إلى أن تتم القصة كاملة وبهذه الطريقة كانت شبان ذلك الزمن تتلقن وتتفهم إلى الوطنية والشرف والإنتقام من المعتدي وكل ضروب الفروسية وينبذون من كان متخنثا منهم .

وقد حضر بعده رجل مشهور من الديار المصرية وإسمه الحاج محمد المصري وكان من أعظم وأشهر المقرئين في عصره فأبدع أيما إبداع في هذا الفن كما شهد فيه الحاج جودت الحلبي بنفسه . وكان الإقبال عليه عظيما واشتغل في ذات المقهى العائد إلى عبد اللطيف والواقع في محلة باب حطة .

الرابطة والمساعدات التي كانت تحظى عليها أبناء الطائفة العرب من البطريركية قبل الإنقلاب العثماني

في ذلك العهد أي قبل الإنقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ كانت أبناء طائفة الروم العرب تتمتع بحب البطريركية الأرثوذكسية و البطريرك والإكليروس. كانت هناك بعض المساعدات ولكن ليست بالصورة التي كان يجب أن تكون بالنسبة لحقوق العرب المفقودة والتي بسببها إضطر أبناء الطائفة العرب بالقيام بثورة تسمى آنذاك بالنهضة والتي سأكتب لمحة خاصة عنها فيما بعد. وأكتفي هنا بذكر ما كانت العلاقة عليه ما بين البطريركية والعرب فأقول:

كانت مدرسة مار متري للذكور والإناث التابعة للبطريركية تضم بعض التلاميذ من العرب مجانا ثم مدرسة المصلبة كانت تقبل العرب فتعلم فيها الأستاذ الأكبر بندلي الجوزي والساعاتي [الاسم الاول ناقص في الاصل] وجورج سعيد ولكن لم يدخل من هؤلاء التلاميذ أحدا في سلك الإكليروس.

كان المستشفى المعروف التابع للبطريركية يقوم بتمريض أبناء الطائفة مجانا أيضا ثم كان يوجد ثلاثة أطباء هم الدكتور نقولا والدكتور جورجي والدكتور برنابا مخصصين لخدمة أبناء الطائفة فكان الطبيب منهم يتخذ الغرفة الواسعة من المستشفى المذكور على الجهة اليسرى من المدخل الرئيسي الشمالي للمستشفى للعيادة ويحكم [أي يطبب] أبناء الطائفة يوميا في الصباح وكان المسؤول الذي يسجل أسماء المرضاء المرحوم سمعان فراج خفيف الروح وسريع النكتة والمسؤول عن حمار الطبيب الذي ينقله إلى بيوت أبناء الطائفة العرب والذي لا يستطيع الحضور للعيادة بسبب شدة مرضه هو المرحوم دميان. فكان الطبيب يزور كل من طلبه ويمرضه في بيته. ثم الدواء يعطى مجانا أيضا من الصيدلية الواقعة مقابل غرفة العيادة تماما ويرأسها المرحوم [نقولا] الأعرج وعنده ثلاثة شبان من اليونان يساعدوا في تحضير [...].

الدير

ثم كان إبن الطائفة لا يشعر أنه بعيدا عن الدير والبطريركية في ذلك الزمن فكنا ندخل الدير وكأنه بيتنا لما كنا نجد فيه مسؤولين في إدارته من أبناء الطائفة أيضا. فهناك المحكمة الكنسية والترجمة وفيها المرحوم ثيودر برامكي ثم المرحوم سابا الفران في غرفة خاصة كذلك نقولا عبده في غرفة وهو المسؤول عن الحجاج اللذين يزورون بيت المقدس ويعتني بإدارة سكناهم وراحتهم طيلة المدة التي يصرفوها في البلاد من يونان وقبارصة ومسكوب وغيرهم. أما يعقوب سعيد ثم ولده جورج سعيد فكان المختص بشراء جميع لوازم الدير من الغذاء والكساء وغيره. وأما إفتيم وأخيه عبده فكانوا المسؤولين عن تصليح البناء في الدير ومن ثم الأملاك التابعة للبطريركية سكن أبناء الطائفة في حي النصارى. ولا تسأل عن مختلف العمال من معلمين وصناع منهم البنا والنجار والدهين والطريش والمبلط فكانوا جميعا من أبناء الطائفة العرب بالقدس. كانت عموم أبناء الطائفة تسكن مجانا في أملاك البطريركية المنتشرة في المدينة خصوصا في محلة النصارى

وعدا هذه الأملاك كانت عائلات كثيرة تستلم إيجارا سنويا بالنسبة إلى عدد أفراد عائلته ويستأجر بيتا في أي مكان.
ثم كان الدير يستأجر بيوتا من المسلمين وفي أحياء مختلفة ويسكن أبناء الطائفة من العرب.
وأخيرا كان الدير يوزع على عائلات الطائفة من العرب والفقيرة منها الخبز مرتين في الأسبوع ويسمون هذا الخبز (بالطلم) نهار الأربعاء والسبت وهذا الخبز كان يعجن ويخبز داخل الدير، كما كان الدير يدفع لبعض الفقراء المساعدات من الدراهم دائما أبدا. وبمناسبة الأعياد وخصوصا عيد الفصح المجيد يوزع الدير على بعض العائلات المعروفة من أبناء الطائفة وخصوصا من لهم علاقة بشؤون البطريركية والموظفين من العرب يوزع عليهم "الشرالك" أي كعكة العيد الخاصة بالبطريركية مع خمسين بيضة حمراء معايدة، هذا ما كنت أشاهده في بيت والدي.
كنت وأخي توفيق أذهب لوالدي الذي كان موظفا في المحكمة الكنسية وعضوا ملازما في قاعة الترجمة يشربون القهوة ويتحدثون في مشاكل الطائفة ويصلحون ما بين المختلفين من أبنائها ويخصصون المبالغ المرتبة للفقراء والأرامل ويكونون الحكم في الإيجارات التي كانت تعقد ما بين الملاكين وبين البطريركية وكل هذه الإدارة تلزم لأشخاص عديدين لهم المقدرة والنفوذ من أبناء الطائفة وكانوا يشتركون في قاعة الترجمة مع الكهنة وبعض أعيان أبناء الطائفة عموما.
هذا من جهة وإني ألفت نظر القارئ بأن أملاك البطريركية الواقعة خارج مدينة القدس ودخلها وحاصلاتها كانت تدار بواسطة الكثيرين من أبناء الطائفة العرب مثل العنب في قرية الخضر وزيتون مارالياس وغيرهم. ثم تلك الصفقات من الأراضي التي كانت تباع من الفلاحين أو المدنيين من أهالي القدس بواسطة عائلة الخالدي كانت تتم أيضا بواسطة بعض أفراد أبناء الطائفة العرب.

لمحة عن عمارة المسكوبية بالقدس زمن تركيا

عندما أنشأت عمارة المسكوبية في محلة شارع يافا كانت طبعا قبل دخول سنة ١٩٠٠ وهذه العمارة العظيمة تحتوي على عدد كبير من العمارات المتفرقة وكل عمارة تحتوي على طابقين مخصص لشيء خاص، وكان شكل بنائها كما يتضح للعيان لغاية يومنا هذا هندسة عربية أي عقد صليب في غاية من القوة والإتقان وعرض الحائط لكل هذه العمارات لا يقل عن المتر والنصف متر وشبابيكها معمولة من الدرفات القزازية إنما مزدوجة أي من خارج الحائط ثم درفات مثلها من داخل الحائط ليتسع الفراغ بينها ويمنع البرد بحسب الطريقة الروسية ثم الأرض لجميع غرف هذه العمارات منصوب عليها الخشب الكثيف والجدير بالذكر أن هذا الخشب للأرض كان يغطى بالدهان الكثيف دهان زيت ويعاد دهانه في كل سنة فيصبح وكأنه بلاطة واحدة إنما دافئة تمنع الرطوبة والبرد حسب الطريقة الروسية. وإن جميع هذه العمارات داخلها صوبات للتدفئة تشغل فيها الحطب، وهذه الصوبات جيئت خصيصا على النمط الروسي بحجم كبير جدا ولا يوجد لها مثيل في أي من عمارات الدول الأخرى بالقدس. ويتخلل ما هذه العمارات المتفرقة البساتين وغابات أشجار السرو والصنوبر والزيتون ومحاطة بسور ضخم من الحجر يحدها من الشرق المنتزه البلدي

ومن الغرب شارع الكتورة ملك الروس أيضا ومن الشمال طريق مياشعاريم ومن الجنوب شارع يافا العام فتصور يا أخي ساحة هذه العمارة ضمن الأربعة المبينة أعلاه. وفي منتصف هذه العمارات تجد الكنيسة الروسية المشهورة فما من أحد من أهالي مدينة القدس إلا ويعرف صوت أجراس قبة هذه الكنيسة الجميلة خصوصا عند الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم من السنة. ولسور هذه العمارات أربعة أبواب رئيسية في كل جهة من الحدود الأربعة بابا واحدا وأهمها الباب الشرقي الذي يودي إلى مدينة القدس. فكنا ونحن صغار يسمح للشعب بدخول الباب الشرقي والتفسح في البساتين تحت الأشجار لغاية موعد الصلاة عند الرابعة من بعد الظهر وكانت الحراس على الأبواب من العبيد الأقوياء وكنا نشاهد بعض الكلاب النادرة الكبيرة الحجم تقارب علو الجحش ولونها أسود حالك ذو الشعر الجعدي وهي من بلاد الروس. أما في أيام عيد الفصح المجيد فكان يسمح لأولاد أهل المدينة أن يدخلوا المسكوبية ويصعدوا إلى جراسيات الكنيسة ليدقوا الجراس وهكذا كنا نترقب هذه الفرصة وندق الأجراس والنواقيس المختلفة الأصوات بكل فرح وسرور. وبهذه المناسبة كان المرحوم والدي يغضب لهذا الإكرام والجود من قبل الروس لأولاد المدينة ويقول أما كان من الأفضل أن يقدموا لكم شيئا من النقود أو الحلوى بمناسبة عيد بدلا من هذه المخاطرة والصعود إلى قبب الأجراس العالية!

التعصب في الدين لدى حجاج الروس

من عرف زوار أو حجاج بيت المقدس اللذين كانوا يأتون بالألوف زمن الحكم العثماني وما كانوا عليه من إيمان أعمى في الدين المسيحي والتعصب الشديد يعجب حقا كيف نجحت ثورة البلشفيك في بلادهم!! كانوا يسيرون في البلاد المقدسة مشيا على الأقدام مثلا من القدس إلى أريحا إلى نهر الأردن ثم يرجعون ومنهم من بلغ الثمانين والتسعين من عمره. فأين ما حلوا كانوا يشربون الشاي على جانب الطرقات الرئيسية وهكذا كانت العائلات الكثيرة في بلادنا تعيش على هؤلاء الحجاج فمنهم بائع الشاي والسكر والخبز والجبن واللحوم ويربحون الأموال الطائلة تكفيهم طيلة السنة ثم المكارية والعربات والخيل والبغال التي كانت تنقل ما لزم لهذه الألوف من البشر من الغذاء والمؤن وكانوا على أي صغيرة أو كبيرة يصلون ويصلون وإني لا أبالغ أننا كنا نشاهد النساء منهم عندما يكونوا سائرين في الشارع يتجولون من محل إلى آخر، فعندما ترغب السيدة منهم قضاء حاجتها، تفتح رجليها وهي واقفة، ثم تبدأ أن ترسم الصليب على وجهها إلى صدرها ثلاث مرات وبعدها تقضي حاجاتها فتستمع إلى خرير الماء يتدفق منها [على] الأرض في الشارع وأخيرا ترسم الصليب وتمشي!! ولذلك كنا ندعوهم ب "الدوبرو" أي الدراويش.

الشارع المؤدي من باب عمارة المسكوبية إلى المدينة

بصفة والدي كان المسؤول عن منتزه بلدية القدس الواقع مقابل الباب الشرقي تماما من عمارة المسكوبية كما أنا واخواني نتردد على المنتزه يوميا بعدما ننصرف من المدرسة ونبقى هناك عند والدي إلى المساء ولذلك لي ذكريات بديعة في الشارع الواقع من شمال المنتزه والملاصق لسور المنتزه، هذا الطريق لم يزل في مخيلتي ولن أنساه، أتصوره تصورا حقيقيا وكأنه أمامي الآن وكيف كان يعج بالمسكوب وازدحام الأقدام هناك خصوصا مدة الشهرين الذي يقع فيها عيد الفصح المجيد بالقدس وها أنا أقدم لمحة وجيزة عن هذا الشارع والذي أصبح من الشوارع الميتة بعد ثورة روسيا .

كانت جميع المخازن من الطابق الأرضي لعمارة اللورد "بيوك" المقامة من الجهة اليسرى على الطريق المؤدية إلى المدينة من الباب الشرقي للمسكوبية، تبيع جميع الأصناف الغذائية المحببة لدى الروس من خبز وجبن وقطين وزبيب وجميع أنواع الخمور ولا ينقطع البيع في هذه الدكاكين نهارا وليلا . وإني ألفت نظر القاري بأن هذه العمارة عندما أنشأت من قبل اللورد بيوك الإنكليزي حصل على شروط رسمية ما بينه وبين دائرة بلدية القدس بأن تبقي الفسحة من جهتها الجنوبية بدون بناء البته وتستعمل منتزها لبلدية القدس خوفا من إقامة بناء فيها يحجب النور والهواء عن ملكه وهكذا تم ذلك وعملت المنشية المعروفة ليومنا هذا وإن عمارة اللورد بيوك بيعت في وقتنا هذا إلى الثري قسطندي سلامة من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس العرب .

كذلك جميع المخازن المقامة في الطابق الأرضي إلى العمارات بجانب عمارة لورد بيوك ملك كوكيا ثم أملاك سليم ميو كانت تبيع أيضا كل لوازم المسكوب . أما من الجهة اليمنى مقابل عمارة لورد بيوك دخلت سور المنتزه الحديدي كانت بسطات وفيها البائعين يحافظ كل واحد منه على حقوقه بالسنتمتر متر على بسطته وعليها ما هب ودب من اللوازم فكان أولا الصراف سليم السلفيتي ثم بائع الخبز الروسي (وهذا الخبز كان يخبز في أفران المسكوب داخل عمارة المسكوبية] ومنه نوع حامض ومالح كنا نشتري منه ونأكله بلذة، وإسمه صليبا بالروسي وهذا الخبز أقول بدون مبالغة أن سمك الرغيف كان ربما أعلى من ٤٠ سنتمتر متر والمهم أنه متقن الصنع وناشف من الداخل بصورة لا نعلم كيف كانوا يستطيعون بأن يخبزوه .

ثم أتلال من بيض عيد الفصح المجيد ولونه أحمر ملومة على قارعة الطريق وبجانبه صموارات الشاي تباع إلى من شاء من المسكوب ليلا ونهارا فكانوا والله يشهد يخيل لك بأن قطيعا من الغنم الأسود يسير في هذا الشارع ذهابا وإيابا هذا يشتري وذاك يسكر وآخر يصلي ويصلب مناظر جميلة تدخل للمشاهد الروعة والسرور والإبتهاج فكانت الأهالي تربح الأرباح الطائلة من هؤلاء الأغنام . . كذلك أولا الزغلول كانوا يصنعون ويبيعون العصي من حب السرو ورأسها من خشب الزيتون يمثل رأس الجمل وعليها الصلبان . . وكل حاج وحاجة كان يتكأ على عصا من هذا النوع.

وأما البلوك الواقع شرقي المتنزه العائد لبلدية القدس والذي أصبح محلة الآن دائرة بلدية القدس وبنك باركلس الذي أنشأ عن زمن راغب بك النشاشيبي كان يحتوي على مخازن مقامة من الخشب وهذه المخازن كانت مؤجرة إلى أبناء طائفة الروم الأرثوذكس العرب فالأولى للمرحوم يوسف الحرامي والد حنا وشكري وجيمس وفرح والياس يبيع فيها المسابح والصلبان ومصنوعات خشب الزيتون المقدس وخصوصا زيت الزعتر في قناني بيضاء صغيرة بسعر عال جدا بالنسبة إلى الأشياء الأخرى في ذلك الزمن لأنه (كان يشتري تنكة زيت الزعتر من برسفون خليلة حسين أفندي الحسيني دير عمرو والتي نوهت عنها] والأيقونات لكافة القديسين. كذلك نقولا متري البرينخ فكان يبيع الخمر على كافة أنواعه من عرق ونبيذ وكنياك إلى المسكوب وخصوصا إلى النساء منهم اللذين كانوا يدمنون على شرب الخمر حتى أننا كنا نشاهدهن يشربن السبيرتو الأبيض ، والله يشهد وكأنها كانت تشرب الماء الزلال ، ثم جبران الأجرب مخزن البقالة الممتاز ثم متري خشرم وأخيه المختصين ببيع صور البلاد الأثرية المقدسة والنظارات الكبيرة التي تكبر الصورة لحجم أكبر . ولا تسأل عن الفلاحات من قرى القدس اللواتي كانوا يقعدن على ضفتي الشارع ومن باب عمارة المسكوبية إلى باب دير الروم عن طريق باب الجديد وهذه الشوارع الطويلة لم تنقطع من المسكوب ليلا ونهارا والجدير بالذكر أن الفلاحات كانت أكثرهم يعرفون اللغة الروسية ويبيعون زهور البلاد المقدسة والمريمية والحصلبان والشولك والحطب والخشب خصوصا فلاحات قرية عين كارم . وإني أذكر أصناف الأسماك المقددة التي كانت تباع في هذه الشوارع لحجاج المسكوب مثل الفسيخ والبكلاي والمدخن والأخطبوط والسردين والبرلاميدا ثم الحلزون والخضار والبراصية والبطاطا والبصل الأخضر وغيره بصورة يصعب وصفها بالقلم فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها .

أما حارة باب الجديد فكانت المخازن كلها مؤجرة إلى أبناء طائفتنا العرب غريغوري أنسطاس وقسطندي أنسطاس وعائلة السحار وعائلة الحبش وعائلة قرط وعائلة عطاالله وغيرهم ممن كانوا يخرطون خشب الزيتون وخشب السرو ويعملون منها نماذج الجمال والعصي والصناديق وعلب السكاير والصلبان وخشب الأيقونات مما يباع إلى حجاج الروس في الليل والنهار وخصوصا نماذج الجمال المختلفة الأشكال من خشب الزيتون المبارك وخشب السرو.[١]

نيازي باشا : القائد بثورة

أذكر هذا الحادث الظريف يدل على ذكاء وقوة نظر المرحوم الوالد :

اتفقت ووالدي بالمثول بين يديه لفرض ما بعد انصرافي عصيرة يوم من أيام فصل الصيف عندما أنصرف من المدرسة الوطنية وذلك في باب الخليل. جئته بالوقت المعين وكان جالساً مع صديق له يشرب الأركيلة في غرفة خشبية عائدة لدائرة البلدية مقابل الثغرة التي فتحت في سور باب الخليل من الخارج. فعند وصولي تماماً قام عن مقعده وأشار إلي بيده إلى شخص كان يسير في الطريق ويجانب باب الخليل تماماً ، وقال لي بلهجة شديدة "واصف روح أنظر إلى هذا الرجل وتفرس في وجهه وتأمل فيه جيداً . .أركض . ." فامتثلت إلى أمره فذهبت وواجهت هذا الرجل وتأملت به جيداً من

١ ملاحظة المؤلف : أن عمارة المسكوبية العظيمة أقيمت على أرض كانت تعرف "بأم السماق" من أراضي قرية لفتا وقد بيعت إلى الروس من عائلة نصر وعائلة سلامة وعائلة خلف من أهالي لفتا.

• وإن الدار التي كانت مقامة خلف المخازن الخشبية وهي ملك دائرة البلدية وقسيمة المنتزه البلدي من الجهة الشرقية كانت تسكن برسفون خليلة حسين أفندي الحسيني صفحة ٢٨ من هذا الكتاب.

• إن معنى المعمول والكعك والبيض الأحمر الذي يعمل عادة بمناسبة عيد الفصح المجيد لدى الطوائف الأرثوذكسيه وخصوصا بالقدس هو:

الكعكه: رمز عن إكليل الشوك الذي وضع على رأس سيدنا يسوع المسيح عند الصلب

المعموله: رمز عن طبعة المسمار الذي ضرب في أيدي ورجلين سيدنا يسوع المسيح

البيضة الحمراء: رمز عن نقط الدم الذي فدانا به سيدنا يسوع المسيح عند الصلب ولم تعرف الروس باللون الأحمر لون الدم ولا يهمها الألوان المبتكرة عند مختلف الشعوب.

رأسه إلى قدمه، وكان رجل طويل القامة، ذو لحية سوداء، مجسماً، يرتدي جاكيتاً من الجلد الأسود فوق بنطلون سفري وفي رجليه جزمة أنيقة، وعلى عيونه النظارات السوداء وعلى رأسه كلبكاً أسوداً أنيقاً. ورجعت لوالدي في الحال وأبديت وصفه وقلت ماذا؟ من هو هذا الشخص يا ترى؟.. أجاب "ولك أنا بقول أنه نيازي باشا.. القائم بثورة الحرية.." قلت له ومن قال لك؟".. قال (لا أحد) إنما شبهته بالصور الذين نراهم في الجرائد..

وبعد يومين فقط على ما أذكر إذ قرأنا خبراً في جريدة القدس يقول "أن نيازي باشا كان بالقدس وقضى ليلته في فندق فاست باب الخليل" وكانت رحلته بالكتمان الشديد وقد حضر إلى أريحا وسافر راكباً فرس خليل بك الداودي واصطحب المذكور في مَعيته إلى القدس وقد جاء أريحا عن طريق الأردن. (وكان خليل بك آنذاك مدير ناحية أريحا). قال والدي "كيفك يا واصف؟".. فدهشت وإخواني وأصدقائنا من فرط ذكائه رحمه الله.

خليل في سلك الجندرمة

أعطيت فكرة صغيرة عن حوادث الأخ خليل منذ نشأته تلك الحوادث التي أزعجت أفكار والدي وأدخلت عليه الكدر وعكرت صفوه ولم يستطع الصبر ففكر في أمر عسى أن يريح خليل ويرتاح هو من تصرفاته الشاذة. وعندما أوشك خليل على قرب سن العسكرية تقدم والدي بطلب رسمي وعرض على الحكومة رغبته في تقديم ولده ومهجة كبده خليل المدلل والذي ولد بعد أربعة بنات أن يخدم الجندرمة في بيروت وذلك منذ الآن وقبل أن يطلب رسميا من طرف الحكومة. وهكذا كان وقبل خليل وسافر إلى بيروت وبقي فيها وقضى مدة الحرب العظمى [التي] في أثناءها توفي والدي ولم ير خليل ويا للأسف.

لو رغب والدي لكان خلص خليل من خدمة الجيش وزوجه من إبنة غريبة كما كانت العادة عند المسيحيين آنذاك، أو جعله بعمل صناعي ولا يتكبد حمل السلاح وخدمة الجيش التركي وهو في أول صباه، ولكن حبه للوطن وإخلاصه لبلاده ووجود خليل الشاب المثالي لحمل السلاح فقد وافق على خدمته الجيش بكل طيبة خاطر. وهكذا كانت فترة شقاوة الأخ خليل في زمن وحياة والده.

دخولي مدرسة السان جورج الإنكليزية بالقدس

رغب حسين أفندي الحسيني وهو ولا شك بصفته والدي الثاني رغب بأن أترك المدرسة الوطنية الدستورية فأدخلني مدرسة السان جورج الإنكليزية بالقدس وذلك لأن أتقوى في اللغة الإنكليزية والتي تكون أساسا منيعا لكسب المستقبل فدخلت أول سنة ١٩١٢ وثابرت على العلم فيها إلى أن دخل تركيا الحرب العظمى الأولى فأغلقت هذه المدرسة في أوائل سنة ١٩١٤ عندما كنت في الصف الرابع ثانوي، وهكذا في مناسبة إغلاق هذه المدرسة أنهيت العلم نهائيا ويا للأسف ولم يساعدني الحظ على تكميل العلم حتى ولا الحصول على شهادة هذه المدرسة.



صورة خليل جوهرية في اللباس العسكري العثماني أبان خدمته في العسكرية في بيروت. المجموعة الجوهرية اليوم رقم ٥. من محفوظات مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

رحلتي مع حسين أفندي ووالدي

إختصني رحمة الوالد وكان حظي عظيما عندما ذهبت معه وبمعية السيد حسين أفندي الحسيني وكان آنذاك رئيس بلدية القدس. بعدما قضينا ثلاثة أيام في خربة ديرعمر وكان صيفا أخذنا الطنبورة رقم ٢ فسافرنا إلى بيت سوسين فأقمنا خمسة أيام تعب فيها حسين أفندي في القضاء ما بين فلاحين قرية سريس[1] وبيت محسير[2] وأخيرا بيت [غير واضحة في الاصل] فكانت تنصب المحكمة في البيارة هناك منذ الصباح إلى بعد الظهر فحل مشاكل كانت معقدة بين الفلاحين والتي لا يمكن حلها في محاكم الدولة، وعلى أثر هذه المشاكل أذكر بأننا إضطررنا إلى الذهاب إلى قرية بيت محسير.

قرية بيت محسير

وصلنا هذه القرية من قضاء القدس وكان حسين أفندي راكبا دراجة هوائية [!] ذات اللون الأزرق الرمادي أما والدي فكان يركب حماره، وأنا كنت راكبا حمارا من حمير الفلاحين في بيت سوسين [. . .] أتعبني جدا في هذه السفرة.

بعدما وصلنا إلى القرية إستقبلنا الأهالي بكل حفاوة ولكن أبوا أن نقضي أوقاتنا في القرية إنما بعد إستراحة قليلة واصلنا السير إلى قمة جبل القرية وحقيقة دهشنا جدا لما تمكنا من مشاهدة جميع القرى المجاورة حتى والبعيدة منها بالنظر لعلو الموقع وهو ولا شك موقع إستراتيجي ومن المواقع النادرة في جميع قرى قضاء القدس. وإني ألفت نظر القارئ أن قمة هذا الجبل مزروعة بأشجار الصنوبر والقريش القديم مما زاد بجلسنا روعة وجمال وخصوصا ونحن في أيام الصيف على ما أذكر سنة ١٩١٢ . والجدير بالذكر أن قبور أهل القرية كانت منثورة تحت ظل هذه الأشجار والشيء الذي لفت أنظارنا هو كبر حجم القبر وإرتفاعه عن مستوى الأرض والقبر مقام وكأنه بيت صغير لا يستطيع الزائر أن يعرف بأنه قبر حقيقي وهكذا يدخل الأنس وعدم الخوف والرعب في نفوسنا وعليه لا تعجب أيها القارئ بأننا قضينا أربعة أيام ولياليها وكانوا يمدوا لنا الفراش فوق هذه القبور وما أحلاها من نوم والجميع من خيار أهالي القرية المحيطة بنا يهرجون ويدبكون ويغنون الأهازيج على صوت الناي وكانت ليالي مقمرة بين ١٢-١٦ من القمر الأمر الذي لن أنسى هذه الرحلة ما دمت حيا .

أما شيخ هذه القرية وكان رحمه الله مشهورا في كرمه وجوده فهو المرحوم الشيخ علي صالح وكان رجلا كبيرا من عمره يبلغ ربما الثمانين، وكان يود حسين أفندي ومن رجال الحاج سليم والد حسين أفندي فتواصلت هذه المودة والألفة وكنا في الصباح والمساء نأكل المنسف الشهي وكان منسفا محترما لما كانت هذه القرية عليه من بذخ ورخاء بالنسبة إلى باقي قرى قضاء القدس. وفي هذه الحالة لم أجد مجالا آنذاك من الغناء على الطنبورة التي كانت معي لكثرة مواصلة الأهازيج من أهالي القرية وقد شاركتهم في الدبكة بأغنية "وأسمعوا ياناس وإيش قال الليب- في بلدنا حللوا ذبح الخطيب" .

[1] سريس (ساريس) قرية في غربي القدس قرب طريق يافا - القدس إحتلت في ١٣ نيسان عام ١٩٤٨ من قبل الهاغاناة في عملية نخشون وهجر سكانها وأقيمت مستعمرة مشوريش عام ١٩٤٨ على مقربة من القرية.

[2] بيت محسير قرية في شمال غربي القدس هجر سكانها في أيار عام ١٩٤٨ وأقيمت في موقعها مستعمرة بيت مئير.

أما الوالد فكان ومعه طبعا وفي داخل الشنطة المشهورة في داخل الخرج والتي كانت لا تفارقه ولا يفارقها في مثل هذه الرحلات وفي داخلها قليلا من : ماء الزهر ، ماء الورد ، بعض رؤوس من البصل والثوم ، قليلا من القرشلة ، قطعة من البسطرمة ، قطعة من الجيناري[؟] الناشف ، خيطان ، سلة ، إبر ، دبابيس ، زردية ، كماشة ، قضامة موشحة ، ملبس نعنع ، رب السوس ، ملح إنكليزي ، قطن ، بوريك ، قطرة حمرا ، علبة داخلها إبريق القهوة والسبيرتيرية ، بن ، سكر ، حب الهان[الهال] ، أركيلة صغيرة داخل العلبة وأدواتها ، أقراص فحم ، وخصوصا بطحة كبيرة من العرق ، وبطحة صغيرة لصب العرق ! وهكذا كان في هذا المحل يشرب ويناول حسين أفندي وكثيرا بواسطتي الكاس سرا قبل العشاء وكثيرا عند العصيرة من كل يوم . وإني والحق يقال لا أنسى هذه القرية وخصوصا الشيخ الأكبر في ذلك الوقت أحمد صالح فهو رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه من خيار فلاحين القضاء بأسره . وبعد مدة الأربعة أيام عندما غيرت وأبدلت حماري إلى حمار أحسن وعليه سرج متواضع صنع القدس توجهنا إلى السنابرة وأم البرج .

السنابرة وأم برج

دخلنا هذه القرى ودهشنا من مناظر أحراش شجر البلوط المحيطة بها ، ثم نزلنا ضيوفا بلسب (من أهل البيت) على المرحوم محمد خليل طوقان الحسيني المالك لهذه القرى العظيمة وأقمنا عنده في دار وكأنك في بيوت القدس وعشنا عيشة مدنية [نسبة إلى المدينة] كما يقولون ، وكان عنده سيدة على ما أذكر من قرية الطور ، وكان لها الأمر والنهي وكأنها ربة البيت وشريحة الحياة وقد قدمت لي هدية غزالة صغيرة جميلة جدا أخذتها ولكن مع الأسف ماتت بعد شهر ونصف في بيت سوسين بسبب قرصة عقرب . كان المرحوم محمد خليل طوقان الحسيني يحب الإستماع إلى صوتي وعزفي على الطنبورة وكانت بمثابة العود الصغير وهكذا قضينا ستة أيام على الكاس والطرب ولكن أنا لصغري كنت لم أزل محروم العدالة ولا يسمح لي بالشرب آنذاك .

قرية بيت نتيف

قرية بيت نتيف من قضاء الخليل كان يملكها المرحوم الشيخ أحمد خميس فنزلنا في الخربة الأثرية القديمة وقضينا فيها مدة خمسة أيام على الرحب والسعة فكان كرم وجود المرحوم الشيخ أحمد خميس لا يوصف فكان الأكل كما كانت العادة عندهم هناك يقدمون اللحوم بقطعة كبيرة عبارة عن أربع قطع لكل خروف صغير مقلي بالسمن ويصبح لونه أحمر مثل الدبور وليس مناسف كعادة الفلاحين في أغلب قرى البلاد ، وبعد أكل اللحم تجي البواطي الصغيرة المعروفة بالكرمية وفيها الهيطلية البلدية ومن فوقها السمن عبارة عن قيراط ونصف القيراط ونمنا في الخيام .

أما أحمد خميس فقد كان عمره ما ينوف المائة (ربما مائة وعشرة سنين) قوي البنية وقد تزوج أربع نساء وقد صادف بأنه تزوج العروس الخامسة قبل زيارتنا بمدة الأربعة شهور وعمرها ١٧ سنة عذراء . كان ضعيف النظر والسمع معا

فقط إنما قوته عظيمة فقد كان يمسك بيده اللحم المعروف (بالشذاة) ويأكلها ثم يرمش العظم ويمصمص بأسنانه الطبيعية الكاملة في فمه وكأنه شاب في عز صباه، ثم وبعد الأكل يتناول ما يكفيه من أكل الحلوى (الهيطلية) وإني لا أبالغ فكان رحمه الله يشد بيديه الكرمية، ويضعها على فمه حتى يشرب ما عليها من السمن والله يشهد وكنا والحالة هذه نعجب ونحلق في عيون بعضنا البعض من الدهشة والعجب. وكان حسين أفندي يداعبه لأنه صديق والده الحاج سليم ويتكلم معه مرات بواسطة نربيج الأركيلة يضعه في أذنه. كان هذا الشيخ أكول معروف وكانت جميع سكان تلك الخربة (بيت تيف) عائلته أولاده وأحفاده وأنسبائه من تزوجوا من بناته فكنت ترى شيوخا يجلسون معنا والشيب في لحاهم ويقولون يا يابا. أخذونا إلى محل أثري في هذه الخربة وشاهدنا قاعة كنيسة بيزنطية كبيرة والهيكل من جهة الشرق، وكل أرضها بالفسيفساء الملونة الأشكال والألوان بطريقة هندسية جميلة ويتخللها النقوش والطيور وفي صدر قاعة هذه الكنيسة المهدومة حيطانها تماما كتابات مفسرة باللغة اليونانية وقد أعطاني والدي الورق الشفاف (الذي جاء به خصيصا لهذا الأمر كما فهمت منه) فكنت أضع الورق فوق الكتابة المكتوبة بالفسيفساء أيضا حتى تمكنت من أخذ صورة طبق الأصل.

وكانت كما عرفت مؤخرا أن هذه الرحلة كانت بطلب من غبطة البطريرك ذميانوس الذي كانت له رغبة بشراء الكنيسة الأثرية هذا وما حولها من الأراضي بواسطة حسين أفندي الحسيني لأجل أن يقيم ديرا خاصا يكون ملكا للبطريركية الأرثوذكسية لزيارة الحجاج، وقد قدمت هذه الصورة بخط يدي إلى البطريرك وجرت المداولة إنما مع الأسف صادف دخول الحرب العظمى الأولى ولم تتم الصفقة. وكانت فكرة غبطة البطريرك بأن يحتفظ بمحل ما للبطريركية الأرثوذكسية في قضاء الخليل الذي هو خال من أي أثر للمسيحيين عدا عن عمارة الروس في مدينة الخليل. رجعنا من هذه الرحلة الميمونة إلى بيت سوسين وأما حسين أفندي فقد رجع القدس لعظم مسؤوليته في رياسة البلدية.

شطحة أريحا

بمناسبة عيد الغطاس للروم الأرثوذكس سنة ١٩١١ إتفقت أختي عفيفة زوجة قسطندي عبد النور مع ما يقرب من سبعة عشر عائلة من المعارف والأصدقاء على حضور هذا الإحتفال المقدس في نهر الأردن. [ألغيت أسماء العائلات من شطحة أريحا]، ولما كنت نجحت على عزف العود في ذلك الوقت سمح والدي بالذهاب مع الأخت عفيفة وعائلتها، وهكذا ركبنا جميعا من رجال ونساء وأولاد على البغال والحمير وخرجنا من باب الأسباط ولم أنس هذه الرحلة فكم من المرات نجد بأن هذه السيدة وقعت من على الحمار وهذه وقع الحمار وهي راكبة عليه وأخرى قطعت ربطة السرج، والكل في شوباش وأغاني على طول الطريق يتخللها صوت أزيز الرصاص من بنادق الصيد والمسدسات التي كانت مع أكثر رجال الركب وقد استرحنا أولا في عمارة الحوض وأكلنا ما كان معنا من الطعام (النواشف) وبعدما أكلت وشربت الحيوانات عدنا ركبنا إلى أن وصلنا خان الأحمر وبعدها المرازي فاسترحنا أيضا وأخيرا

نزل الركب عن طريق عقبة جبر لأنها أقرب من طريق النبي موسى ولسوء الحظ وكانت العصيرة تغير الجو فأرعدت وأبرقت فأمطرت مطرا شديدا وذقنا فيه الموت خصوصا النساء والصغار همي الوحيد المحافظة على العود الذي أحمله وغطيته بالمشمع.

وصلنا عند الغروب بعدما تحسن الطقس واتفقنا على إيجار فندق (الجلجال) من أبو نمر الشمالي وصاحبه أبي صاحب الفندق عريقات آنذاك. هذا الفندق هو المقابل الآن إلى دير اللاتين من الجهة الشرقية وقد بيع من عائلة عريقات إلى دير الروم وضم إلى أراضي الدير والكنيسة الملاصقة له الآن. وبعدما تعبئت غرف هذا الفندق القليلة العدد من بعض الأشخاص إضطررنا على النوم على فراش في إيوان الفندق الفسيح ونحن نبلغ ربما ستون شخصا فتأمل يا أخي كيف كانت تلك الليلة والواحد ينام بجانب الآخر من العائلات على طول وعرض الإيوان.

إبتدأنا بالسهرة وانتصب الكاس والطاس وجلست بجانب متري المنى (أبو قسطة) وبجانبي عيسى الصوص على الدربكة ومتري الزاير على الفلوت فألفنا فرقة خاصة وبدأنا بالأغاني ولا تسأل عن صوت المرحوم أبو قسطة العالي خصوصا في الغناء البلدي والمواويل، وكان جميع الحضور يرددوا ترديدات الطقاطيق من الأغاني الشعبية الجميلة الدارجة في ذلك العهد وأصبح كل منا على جانب عظيم من الحظ والكيف والسرور وفي هذه السهرة أذكر أنني بدأت لأول مرة فشربت كاسين من العرق بالقوة من يد العم الياس القزاز، وقد زارنا في أول سهرة المرحوم رشيد عريقات وكان رجل وقور وسيفه على جنبه ومعه العم أبو نمر الشمالي وأبو جميلة الشمالي أي بعد منتصف الليل ثم بدأت النساء بفرش الفرشات وكان منظرا جميلا وبعدما أخذ كل منا مكانه وفي ثياب النوم وطفينا لامبات الكاز إلا واحدا صغيرا جلست في الفرشة ومسكت العود الذي كان فوق رأسي على الأرض الخشبية وبدأت بالعزف ولما كان الرجال وأكثرهم سكارى رجعنا وبلشنا بالغناء إلى مطلع الفجر. والجدير بالذكر بأنه نظرا لشدة الأمطار بصورة فظيعة لم نتمكن من السفر إلى نهر الأردن خصوصا من رداءة الطريق في ذلك الزمن بجوار النهر وبقينا على هذا الحال مدة ثلاثة أيام في الفندق.

بعدما تحسن الطقس نوعا قدم لي العم أبو نمر الذي جن جنونه عندما سمعني أغني وأعزف على العود قدم لي غصنا كبيرا من البرتقال قطعة واحدة من بستانه هدية منه إلى والدي صديقه الحميم فرجعنا بذات الصورة التي كنا نزلنا فيها إلى أريحا، وهكذا كانت زيارتي لأريحا لأول مرة ولكن لم أرى في هذه الرحلة سوى الفندق والعائلات التي معنا ثلاثة أيام.

الحمام في بيت المقدس

لم يكن حمامين (أو بانيات أو كيزر) في أي من بيوت أهل مدينة القدس سوى عند بعض العائلات المعروفة فتجد غرفة صغيرة وفيها جرن صغير من الحجم وفي أرضها مصرف للمياه القذرة كما رأيتها في بيت الحاج سليم الحسيني منذ حداثتي.

أما الطريقة التي كانت تغتسل فيها الناس هي بواسطة الحمامين العمومية في البلد. فكان حمام العين في محلة الواد المشهور ليومنا هذا وفيه الحمامجي نعمان غنام طويل القامة أسمر اللون قوي البنية فكان موصوفا بمشاكل الجبر والكسر يضاري الأطباء وله حوادث طريفة في هذا الفن.

ثم حمام البطرك الواقع في محلة حارة النصارى والتابع إلى الأوقاف الإسلامية بالقدس كان يأخذ اللازم من المياه من بركة البطرك التي لم تزل واقعة بجوار هذا الحمام ومن حولها بنايات عديدة مثل قهوة أبي عبدالله، خان الأقباط، إلى أن تصل فندق أمدورسكي جهة سويقة علون. وإني علمت بأن بركة مأمن الله الواقعة في مقبرة مأمن الله خارج باب الخليل عندما تمتلي من مياه الأمطار لها قناة خاصة قديمة تتصل إلى بركة البطرك ولم تزل موجودة هذه القناة ليومنا هذا وقد شاهدتها بأم عيني. أما الحمامجي لحمام البطرك فكان الحاج سليم البيطار من أهالي القدس المسلمين وقد هدم مؤخرا هذا الحمام وأصبح محلا للتجارة. إن سليم البيطار هو والد عمران ومحمود وعرفات أصدقائنا.

ثم أقامت البطريركية الأرثوذكسية حماما حديثا ملاصقا لدير وكنيسة القديسين يواكيم وحنة وبجانب باب الأسباط من داخل السور وسمي بحمام ستنا مريم العذراء، وأصبح الأول بين حمامين القدس من حيث التنظيم والنظافة وكبر الغرف. كانت ولم تزل العادة المتبعة عند أهالي بيت المقدس أن للرجال الحق بالذهاب إلى الحمام عند المساء وطول الليل ثم في الصباح إلى الظهر من كل يوم، وكثيرا ما كانت الرجال تقضي الليالي وحتى النوم في الحمام. واعتبارا من بعد ظهر كل يوم يكون الحق للنساء فقط وهناك العقائد فكانوا عندما يذهبون ليغسلوا أجسامهم يأخذون معهم ما هب ودب من أنواع الأكل والحلوى والفاكهة والخضار والنقرشة وكأنهم في منتزه أو شطحة.

مع أمي في الحمام

وهكذا أذكر وأنا صغير ذهبت ووالدتي إلى حمام العين أو حمام الواد كما كانوا يسمونه. وعندما دخلت فقبلتني صاحبة الحمام بعدما دفعت والدتي عني متليكين أجرة، ولكن حدث ويا للأسف ثورة مع الزبائن من النساء اللواتي كن شبيها بالعراء بأنني كبير ولا يسمح لي بأن أستحم مع النساء وهكذا البعض يقول يوه أطيشه ما هو صغير! والبعض الآخر يقول إسم الله ياستهزاء شو صغير والله كبير ونتفه! وأنا واقفا مكسوفا لم أستطع الهرب لأن والدتي قابضة على يدي بقوه، وأخيرا نجحت في الإمتحان وعفي عني.. وبقيت (ويا ليتني ما نجحت) لأنه عندما جاء دور إغتسالي وحيث أن مياه القدس شحيحة في الآبار فكانت النساء عندما يدخلون الحمام يتكارمون بصب الماء على أجسامنا

بصورة فظيعة وكأنها أصبحت مكبسا وهكذا بدأت الوالدة تحت جسمي نحتا ثم فركا ولم أنس ما صبت على جسمي من الماء الساخن خصوصا على رأسي وأنا مقفل عيناي ولم أستطع على التنفس وهي تقول رحمها الله ولك إهدأ بس هالتم هالتم يعني هذه الكمية من المياه، إلى أن كاد يغمى علي وفضلت أن أبقى قذرا وسخا ولعنت الحمام وكثرة مياهه التي حمست الوالدة بهذا الكرم فوفرت ما كانت تمتنه من ماء آبار الدار .

وقد لاحظت بأن عادة السيدات هم اللواتي يخدمن نفوسهم ونظافتهم بأنفسهم ويستعملون ما أحضروه من بيوتهم من مناشف وصابون وغيره عدا عن المأكول والمشروب والتفرشة .

مع والدي في الحمام

وبعد مدة ليست بقصيرة، ساعدني الحظ بأن أرافق وإخواني المرحوم والوالد في الإستحمام في حمام سيدتنا مريم وكان لم يزل منشأ حديثًا فلاقيت الفرق العظيم بعد المقارنة لإستحمامي مع الوالدة وإليك لمحة عن ذلك :

عندما دخلنا الحمام كان إستقبال المسؤول الأول عظيما فقدم لنا مقصورة خاصة تشرف على الساحة العمومية وفي وسطها النافورة، وبعدما إسترحنا قليلا شلحنا الثياب وقدم لكل منا وزره ربطناها على وسطنا وجاء آخر ووضع على أكتافنا فوطة جميلة وقدم لكل منا القبقاب وهكذا سرنا إلى داخل الحمام الدافئ ومن ثم إلى غرفة أكثر حرارة وكان يقود كل واحد منا شخص مسؤول خوفا من تزلق أرجلنا ونقع فجلسنا في هذه الغرفة حتى جهدنا العرق فكان يصب من أجسامنا صبا ، ثم جاء الحمامجي وأخذني فطرحني أرضا وبدأ يفرك جسمي كل طرف منه على حده بواسطة كيس أسود على كف يده اليمنى إلى أن أزال الأوساخ من على الجسم كله وشعرت بأن جميع مسام الجسم فتحت تماما وأصبحت منشرح الصدر . وبعد راحة قليلة أحالني إلى شخص مسؤول بجانب جرن الماء الساخن والبارد بواسطة الحنفية، ورغى الصابون في لكن نحاسي أشبه بطاسة كبيرة فأصبح وكأنه تل من الصابون بطريقة فنية يصعب علينا عملها . ثم بدأ يصوبن الجسم رويدا رويدا بهذا الصابون بواسطة ليفة كبيرة وبعدما غسل رأسي مرتين وعاد وصب الماء بكثرة حتى أصبحت مثل الفل فجاء شخص آخر وقدم لي وزرة جديدة مع الفوطة على الأكتاف وقادني إلى الغرفة الخارجية الثانية وحرارتها أبرد من الأولى ثم جاء لي بقماز جديد من الوزرة والفوطة والرأس وقادني إلى الإيوان الرئيسي وألبسني في رجلي القبقاب فصعدنا إلى الطابق الأعلى وأدخلني غرفة النوم وألقاني على السرير وعاد وغير لي هذه الفوط والبشاكير وألقى علي منها خوفا من البرد وبقينا في السرير مع والدي مدة تقرب من الساعتين براحة ما بعدها راحة، وبعدها جاء بشراب الليمون الطازج مع السكر وماء الزهر فشربنا وأخيرا القهوة .

والشيء الذي لفت نظري بأن طريقة نشر الوزارات والفوط كان الخادم في الحمام (يعصر الوزرة من الماء ثم يطويها ويلفها لفا ثم يرمي بها إلى أعلى سقف الحمام فتعلق على بوصة طويلة مربوط طرفيها ، ثم يجي ببوصة طويلة خاصة فيعدل الفوطة إلى أن تستوي على البوصة المربوطة، وبهذه الطريقة تنشف بمدة ليس أكثر من العشر دقائق . والجدير بالذكر أنه

كان دائما يصيب الهدف عندما يرمي الفوط إلى أعلى، وكان ولا شك خبيرا في هذا الفن. ثم من المعلوم بأنه كانت العادة خصوصا عند الرجال أن يدفع الزبون ما تجود به نفسه من النقود أجرة الحمام إلى الحمامجي وكان الأخير يضع ما قبضه من نقود في جيبه أو في جارور طاولته بدون أن يعدها ولا يوجد عنده فيئة مربوطة للأجرة.

هذه صورة واضحة أقدمها للقارئ لكي يتأمل ما كان الفرق بين حمام الرجال والنساء ثم أرجو بأن تكون هذه اللمحة كافية لأخذ فكرة عن حمامات ذلك العهد في تركيا بالقدس.

عمر وزيارة الرملة

والذي كان يزيد رؤية هذا الرجل ضحكا طريقة مشيه فقد عرفت القارئ أعلاه فقد كان يمشي ويتمايل على الجهتين بالنظر لإعوجاج وتشويه رجليه وقد صادف وحدث معه هذا الحادث الطريف والذي كان معروفا أهالي القدس.

عندما كان عمر شابا وقبل معرفتنا للعربات بالقدس (وكان طبعا هذا في عهد والدي) سرق عمر من والدته بعض نحاس البيت وباعها وقبض ثمنها واشترى الخبز والجبن والحلاوة وذهب مشيا على الأقدام إلى أن وصل قرية قالونية ونام فيها. وعند الصباح أخذ ما يلزمه من أكل فمشى رويدا رويدا إلى أن وصل باب الواد فنام في بيت أسعد قطينة، وفي صباح اليوم الثالث مشى فوصل الرملة في المساء وهو منهوك القوى من التعب. ولحسن الحظ وجد (ما كان يسمونه "التخت روان" كانت صندوقين من الخشب القوي الملفوف بالحديد أشبه بسرير صغير وله سقف من المطر يحمل على بغل ويسافروا به إلى البلاد البعيدة). فدخل سرا في إحدى هذا التختروان. ونام من شدة التعب دون أن تعلم به القافلة والمكارية.

ويظهر بعد العشاء مشيت القافلة ليلا بجد ومعها السياح فوصلت القدس عند الضحى، وكانت القافلة تتخذ مكانا لها خارج باب الخليل فلما أنزلوا التختروانات من على ظهور الخيل والبغال تحرك عمر وصحي من نومه وخرج من التختروان وفرك عينه ظانا بأنه لم يزل في الرملة وبدا يسائل نفسه قائلا:

شوف هالعكاريت أهل الرملة، قال عندهم سور مثل سورنا! تماما. يا سلام يلعن أبوهم والله مثل باب الخليل يا سلام ومشى قليلا ثم وقف أمام السبيل وقال "شوف قال كمان عاملين سبيل مثلنا!!" ثم مشى ونزل سويقة علون فوجد السمان حب رمان فقال له "والله يوجد عندنا واحد في القدس إسمه حب رمان يشبهك تماما"! فأجابه حب رمان "الله لا يصبحك بخير ويسود وجهك بيظهر يا تيه السكرة معك لهذا الوقت"؟ ثم تركه ومشى فجلس على قهوة صرصر في عقبة خان الأقباط فخاطب صاحب المقهى صرصر، والله عندنا واحد بالقدس إسمه صرصر كأنك إنت هو نفسه سبحان الله! فأجاب صرصر يا عمر مالك ما هو صرصر بذاتي. فقال عمر وإي متى جئت الرملة؟ فضحك صرصر وقال "العما في قلبك ما أنا بالقدس شو الرملة". وبعد الجدال إقتنع العم عمر بأنه بالقدس حقيقيا فجن جنونه ورجع إلى القافلة وتخاصم مع المكارية معاتبا إياهم:

وتلك ثلاثة أيام مشـي وأنا في الحالة أفكح وأعرج حتّى تمكنت من وصولي الرملة، فكيف بكم أرجعتموني إلى القدس؟ ومن قال لكم ذلك؟ أما الرجل المسـؤول فكان لبقًا وطالبه بدفع أجرة التختروان، وهكذا كانت قصة مشهورة لدى المجتمع بالقدس. والجدير بالذكر بأن أحمد جاموس تلميذ العم عمر، وهـو لم يزل حي يرزق كان يمثل هذا الفصل في سهراتنا تماما ويمشي مثل عمر ويتقن مشيه وكلامه في سهرات عديدة في أيامنا بالقدس. [. . .]

الموسيقيون المحترفون في القدس في العهد العثماني

بصفتي من هواة فن الموسيقى من أهالي بلدي بيت المقدس فإني أعتقد بأن هذا البلد الأمين لم يكن شاملا على الموسيقيين المحترفين بصورة واسعة في العهد العثماني خصوصا من الموسيقيين الرجال منهم. بل كانت القدس تستقبل من حين إلى آخر بعض الموسيقيين من عازفين ومنشدين معروفين من القطر المصري أو من سوريا. وفي الفترة ما بين سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩١٤ كنت أستمع إلى:

فرقة أولاد أبو السباع فكانت الجوقة الممتازة تطرب أهالي القدس من مسلمين ومسيحيين وحتّى اليهود وترفه عنهم إما في المقاهي أو في الأفراح. كانت هذه الجوقة مؤلفة من عبد الله عازف القانون ثم عمر من ذات العائلة ضابط الإيقاع وإبراهيم أبو خليل من عائلة من قضاء حيفا عازف العود الأول على ما أعهد في القدس. ثم ولدهم عارف أبو السباع والذي كان موهوب ذو صوت لا بأس فيه ومحافظ على تقليد مغنيين المصريين خصوصا من الأدوار والمواويل. أما العواد العم أبو خليل فكان جارا لنا مقابل دار الجوهرية في محلة السعدية وكنت دائما أستمع إليه وهو يقوم بالتمارين على العزف على عوده من شباك الدار فاكتسبت منه ما يسمونها بنقرة الريشة وزخامتها عند اللزوم.

ثم كان عبد السلام الأقرع ينشد بعض التواشيح ويضرب الإيقاع ويرافق الحاج محمود الكراكوزاتي في ليالي رمضان. أما الجناكي، المحترفين من العرب واللواتي كانوا يقومون بحفلات الأفراح من العرب فإني أذكر:

أسمى القرعة زوجة فياض، وكانت مشهورة برفع الصوت وكانت وزوجها مقابل دارنا في السعدية، ثم المغنية خيزران عازفة القانون فأبدعت في السهرات وقد خلفت إبنة وسارت في هذا الفن الرفيع ولكن لم تفلح مع الأسف لأنني استمعت للإثنتين كثيرا وفي إستطاعتي أن أعطي هذه الشهادة. ثم جاءت أمينة العموية وهي من عائلة العماوي بالقدس وكانت ترقص بخفة ورشاقة وكان الإقبال عليها عظيما خصوصا من الرجال لأنها كانت تتلعثم في لفظ حرف (ش) فتغني مثلا (لازم ما أكشه هالعصفور) وعندها تتحمس الرجال وهم طبعا على جانب عظيم من الحظ سكارى.

وبعدها نبغت ثريا قدورة وأبوها الشاويش محمد للحبس جارنا في محلة السعدية فأبدعت بالغناء وكان صوتها جهور ومطرب. وإني ألفت نظر القارئ الكريم أن جوقات مما كانوا يسمونها بالآلاتية كانت في القدس من اليهود الشرقيين من أهالي حلب اليهود وهؤلاء يتفانون في حب الموسيقى العربية ويحافظون على التواشيح المحافظة الكبيرة ولكن كانوا

يعرفون اللغة ومعنى الأغنية وكثيرا ما كنا نحضرهم وتستمع إليهم في قومبانية الحلبية وشارع حبسه وقومبانية أبو البصل والمتفوري . وكانت العرب في إحتفالاتهم في الأعراس يدعونهم فيقومون في الأفراح على الوجه الأكمل ومنهم :
حايم عازف الكمان ثم العود وقد اشتهر به ، ثم زاكي الحلبي ضابط الإيقاع والمغني الذي كان لا يكل ولا يمل بصوت مشبع ولكن ليس به الحنو وكنت أكره منظره خصوصا عندما يغني ويفتح شفتيه الكبيرتين ويحلق بعيونه ، أما الجناكي من اليهود فكانت سوليكة المعروفة لدى أهالي القدس رئيسة الفرقة ومعها الراقصة فريحة وغيرها فكانت سوليكة لا تترك دار من العرب مسلمين أو مسيحيين إلا ما تزعمت أفراحها وقد إعتنقت الدين الإسلامي مؤخرا .
ملاحظة : كانت المغنية خيزران عبده وقد تزوجت بالقدس رجل من عائلة العسلي .
وأخيرا جاء دور فروسو زهران فأبدعت بالعزف على العود والغناء ولها ليالي مشهورة بالقدس خصوصا في حفلات الأعراس لدى فلاحين قضاء القدس المثريين منهم في أبوديس والعيزرية والطور كذلك بيت لحم . وقد لعبت دورا هاما في الجيش التركي بواسطة الغناء والعزف وأذاعت بإذاعة القدس بإسم رجاء الفلسطينية كانت تغني وتطرب وجميلة المنظر والإبتسامة وقد تزوجت من حسين الفتياني بوليس سواري وقبضاي رئيسة جناكي من الطبقة الثالثة ، وكان يرافقها بالعزف على العود أو الكمان الياس السلفيتي الملقب (بالكرشة) .
هذا كل ما أستطيع أن أدونه بصورة مختصرة عن الموسيقيين المحترفين ولكن بعد الخبرة إنني أؤكد للقارئ بأن أهل مدينة القدس كانت تقضي مسراتها وترفه عنها بواسطة هواة هذا الفن من خيار أهالي المدينة المقدسين وإليك وصفا عنهم .

هواة الموسيقيين من أبناء القدس في العهد العثماني

محمد السباسي : إن العم محمد السباسي كان الفنان الممتاز من هواة الموسيقى بالقدس فأوهبه الله سبحانه وتعالى حلاوة الصوت وحسن الأداء وأصبح مفخرة لأهل بيت المقدس في هذا الفن الرفيع يضاهي موسيقى مصر فعندما كان يتجلى وهو ينشد الأدوار والقصائد لأشهر الملحنين والمغنيين القدماء في سهراته يتخايل للحضور وكأنهم في السماء وليس على الأرض . وأعتقد بأن صوته من نوع [ناقص في الاصل] . وكان قد سجل بعض الإسطوانات في بعض الشركات في مصر ولكن مع الأسف لم ينجح هذا التسجيل وقضى على أغلب إسطواناته كان والده موسى السباسي يضرب الرق كما عرفني والدي في زمنه ، أما أنا فقد عرفته في آخر حياته كونه صديق لوالدي واستمع إلى غنائي وعزفي وأعجب بي أيما إعجاب . إن العم محمد من ملاكين القدس وعمله تاجر بتجارة مطاحن الطحين في البلاد ، وعمره يقارب الثمانين إنما ترك الغناء عند الكبر وكان لا يتقيد بالإيقاع مطلقا .
حمادة العفيفي : حمادة العفيفي من عائلة العفيفي المعروفة بالقدس حسبا ونسبا منذ القدم ، وهو موظف حكومة قديم اشتغل في مناصب راقية في العدل والإدارة ثم في البلدية .

يعزف على العود بمهارة فيطرب السامع لما كانت نقرة ريشته على الأوتار بخفة ونعومة وكان أنيقا في مشيته حتى قال حسين أفندي عنه في إحدى حفلاتنا بأن "مشيه على الأرض يشبه نقرة على الوتر" ! ! كان يغني بصوت حنون وله ميل خاص في إلقاء القصائد الغرامية الراقية ثم الموشح الغير موزون في الإيقاع فكان ينشده على الواحدة بجلسه كله أنس وطرب وسأذكر عنه الكثير في الفصل الثاني والثالث من كتابي هذا وقد اكتسبت عنه الكثير في فن الموسيقى الرفيع وكان يحسن اللغة التركية قراءة وكتابة ومات عن ثمانين سنة في القدس تقريبا .

عبد الحميد قطينة : أما عبد الحميد قطينة هو إبن المرحوم أسعد قطينة المشهور في مجموعة الصيني القديم في بيته وبعض الإثارات النادرة من صنع الشرق . كان يعزف العود بمهارة وريشته مشبعة قوية . لم يكن له صوت البتة إنما كان ماهرا بترجمة ما ينشد أمامه من غناء على مختلف أنواعه فيعطي الشجاعة ويدخل الطرب على المنشد فيزيد من فنه . عمله كان يصف الحروف في المطبعة وكان أنيقا في لباسه وهندامه حتى يخال إليك أنه وزيرا في الدولة . قوامه فتان ولون بشرته أسمراني قاتم . وهو أول من علمني على العزف على العود ومات عن ٧٠ سنة في القدس .

حسين النشاشيبي : إبن الحاج خليل النشاشيبي الأول ومن المعروفين ممن أوهبوا أنفسهم للكيف وشمة الهواء في القدس . لم يشتغل إلا عندما كبر في العمر وفتح مخزنا لتجارة المؤن . كان أنيقا في زيه ولباسه وجميل الصورة ويعيش على إيجارات أملاكه . وهو أبرع من عزف على العود خصوصا في التقاسم الذي تعلمها قطعة قطعة من العواد المشهور الطنجي عندما زار القدس على الطريقة القديمة أي قبل معرفة النوتة الإفرنجية فإذا ما سمعته وهو يعزف هذه التقاسيم يدهشك ولكن بقي عليها ، ولم يحول عنها لم يكن له صوت للغناء ولم يفلح في ترجمة من غنى معه على عوده .

نعمان بك عقل : موظف حكومي وهو من عائلة عقل المقدسيين وكان في قلم المالية . يعزف العود بدون علم أساسي للعزف ، ولكنه كان يطرب السامع لأنه ذو ذوق سليم . وليس له صوت للغناء ومات عن ٦٥ سنة تقريبا في يافا وزوجته إبنة عاطف درويش من القدس أيضا .

كامل يونس : من عائلة يونس الحسيني بالقدس المعروفة وكان في سلك البوليس البيادة بالقدس في العهد العثماني . كان يعزف العود الشيء القليل إنما كان ينشد بصوت رخيم حنون من بعض الأدوار والقصائد الغرامية .

طاهر يونس : من عائلة يونس الحسيني بالقدس المعروفة أيضا . وكان موظفا له قيمته في العهد العثماني . له أذن موسيقية عظيما وحافظا لأحسن أدوار وقصائد عهد عبده الحمولي في مصر . وقد جالس عبده مرارا واستمع إليه عندما زار عبده استانبول ، ومات عن خمس وثمانين سنة .

فايز طوقان : من عازفين العود في يومنا هذا ، وقد مال إلى العزف على العود على الطريقة التركية فأبدع . يعمل موظفا وكان في الإستانة وهو من عائلة طوقان الحسيني بالقدس المعروفة ، يجيد الغناء بصورة محددة .

علي عباس الجعوني: من عائلة الجعوني المقدسية المعروفة، وهو موظفا في قلم المالية بالقدس. لم يعزف آلة طرب إنما كان له صوت حنون وحافظ لطائفة كبيرة من أغاني عبده والشيخ يوسف المنيلاوي فكان يحسن غنائها بإتقان فائق عجيب وقد اكتسبت منه الكثير في هذا الفن. ومات عن حوالي الثمانين سنة بالقدس، وكان الخبير الأول بين أهالي القدس عندما يزورنا الفنانين من الأقطار المصرية والسورية فيترأس أول حفلة لهذا الفنان ويعطي لنا أفكاره من حيث المقدرة وكان الجميع يثقوا به وبشهادته عن أي فنان كان.

حسن الأزهري: كان موظفا، دمث الأخلاق مثقفا، يميل إلى الشعر والموسيقى وخبير في أصول الفن فله نظرة صحيحة في الموسيقيين وإذنه لا تستطيع سماع النشاذ في آخر حياته كان موظفا في دائرة بلدية القدس على زمن المرحوم حسين أفندي الحسيني وقد اشتغلت معه واستفدت الإفادة الكبرى من حيث إنشادي للقصائد لم يعزف آلة طرب ولم يغني وليس له صوت للغناء إلا القليل جدا ومات عن أربع وثمانين سنة بالقدس وكان مرجعا في أصول الغناء العربي القديم والخالي من الغش.

عبد الرحيم المهتدي: هو إبن محمد رشدي المهتدي من أهالي القدس وكان موظفا في القضاء، قصير القامة أبيض اللون دمث الأخلاق كريم النفس أبي خجول. لم يعزف على آلة طرب بل قد وهبه الله صوتا لم أستطع تدوين الوصف الصحيح له ولا التكلم عنه لما كان هذا الصوت من سحر في نفوس مستمعيه. وإني لا أبالغ إذا قلت والله يشهد بأنني لم أستمع لصوت منشد لغاية يومنا هذا أجمل من صوت أخي وصديقي عبد الرحيم. إني أقولها صراحة بأنني أفضل صوته عن المرحوم الشيخ سلامة حجازي من حيث الرنة والقرار فله صوت حنون مشبع مطرب وفيه ما يسمونها بحة، ولكن مع كل أسف لم يستطع أحدا على تشجيع عبد الرحيم على السير في الغناء ولو سلك المومى إليه في علم الموسيقى لأصبح من الأعلام في الشرق، كان يرفض أن يغني ولو طلب منه السلطان وهو عنيد في رأيه وكان ويا للأسف يعتبر أن الغناء للناس هو عيب وعار، وهكذا خسر نعمة الله وخسرنا هذا الصوت الملائكي ويا للخسارة. كثيرا ما كان يجالسنا إلى بعد منتصف الليل ويستمع إلى غنائنا وعزفنا ولكن لا يغارمنا حتى إني أذكر مرة كنا في بيت سعيد بك الحسيني ولكثرة إلحاح الأصدقاء عليه ورفضه طلبهم إضطروا إلى إغلاق باب الدار من الداخل أبوا أن يفتحوا الباب إلا عندما يسمعوا منه قطعة من صوته ولكن بدون جدوى، وأخيرا غنى إرتجاليا هذه الكلمات (يا جماعة إفتحوا الباب) على نغم من الخانه الإرتجالية فكانت الفوغاء بعد هذه الكلمات وكان المجتمع أصبح في ثورة، وإني لم أزل أذكر هذه الجملة والطريقة التي خرجت من فمه فأطرب عليها عندما أذكرها سامحه الله، ولله في خلقه شؤون.

الياس رزق شهلا : هو من عائلات طائفة الروم الأرثوذكس المعروفين بالقدس ، صنعته نجار ماهر ، وترجمان السياح خصوصا من الألمان بصفته عالم اللغة الألمانية ومتخرج من مدرسة شنللر بالقدس . يعزف العود بمهارة ويغني الأدوار المصرية القديمة من مدرسة داود حسني ومحمد عثمان . صوته طروب ومشبع إنما لغته العربية ركيكة .

قسطندي الصوص : من طائفة الروم الأرثوذكس بالقدس ، قد نبغ بين هواة الموسيقى بالقدس وهكذا يعتبر الممتاز فيهم . كان عازف عود قدير وله صوت ممتاز بالعلو tenor وكان مغرما بإنشاد أغاني الشيخ سلامة حجازي فيلقيها بإتقان وبروح حية أمثال "روميو وجوليت ، سمحت بإرسال الدموع محاجري ، إن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم وغيرها" كان مدمن على الخمر وقد ترك البلاد وذهب الديار الأميركية .

عيسى الصوص : شقيق قسطندي الصوص ضارب الرق وخصوصا الدربكة ، صنعته كوي طرابيش ، وكان يساعد أخيه قسطندي في حفلاته العائلية ، وقد أعدم شنقا بالقدس بحكم من أحمد جمال باشا السفاح لأنه فر من خدمة الجيش التركي عن خمسين سنة .

متري قسطندي المنى : كان مشهورا في غناء الموال البلدي ، صوته صافيا وعاليا tenor وقد ورث فن الغناء عن والده قسطندي المنى الهاوي لهذا الفن في زمنه ، صنعة متري نجار وكان خفيف الروح وكريم جدا بالغناء بين العائلات ، ومات عن سبعين سنة . كان سريع الحفظ لكثير من ألوان الغناء على إختلاف أنواعها وكان يلقي القصائد إرتجاليا إنما لغته ركيكة نسبة لمعلوماته . وهو من عائلات طائفة الروم الأرثوذكس بالقدس المعروفة ، وكان عظيما وعجيبا عندما "يصفر بفمه تقاسيم" وأنا أقوم بضرب الواحدة على العود فقط فيبدع .

حنا إبراهيم فاشة : من طائفة الروم الأرثوذكس بالقدس ، صنعته نجار ، يعزف على العود بقوة وقد إقتبس مهارة العزف في مصر الذي أقام فيها مدة عشر سنوات . لا صوت له على الإطلاق إنما كان قدير على ترجمة اللحن الذي يغنى أمامه وهكذا يرافق المغني بسرعة وقد شجعني على الغناء وأنا صغير فكان يعزف ما كنت أغنيه له . توفي عن حول السبعين سنة بالقدس ، وكان مطلع العود وشغله بإتقان .

سمعان عمار : من طائفة الروم الأرثوذكس بالقدس ، صنعته نجار ، يعزف العود وأشبه تماما بحنا فاشة ومن نوعه في هذا الفن ومات عن [ناقص في الاصل] سنة بالقدس ، نجار أعواد .

متري الزائر : أصله يوناني قد زار القدس مع والده قديما وترعرع وعاش طيلة حياته مع أهله ، كان عمله حداد بل ميكانيكي قدير وله الميل في الصيد . وكان يلعب بمهارة على الناي "الفلوت" ومن فرقة متري قسطندي المنى العائلية ، ومات في القدس عن الخمس وثمانين سنة أعزبا .

يعقوب أندريا : من طائفة اللاتين العرب بالقدس ، صنعته نجار أعواد وكان يعزف العود ببساطة وأنامله خفيفة لطيفة على الوتر . أما صوته فكان مقبولا في بعض الطقاطيق .

جورج عرنيطة : من طائفة الروم الأرثوذكس بالقدس ، صنعته صاحب خمارة وفي مكبره كان يبيع المازة وخصوصا الطحالات المفلفلة ويدور على الحانات ليلا ويغني بأعلى صوته بعض المواويل للمرحوم الشيخ عبد الحي حلمي المصري فيطعن غناءه تماما في كثير من القطع . وقد قيل لي بأن أخيه المدعو [ناقص في الاصل] كان له صوتا أحسن منه أيضا ، وأن صوته من الجنس الذي يعرف ب tenor وقد مات عن ٧٥ سنة بالقدس .

صانعي الأعواد وآلات الطرب من أهالي القدس

حنا فاشة من طائفة الروم الأرثوذكس

سمعان عمار من طائفة الروم الأرثوذكس

يعقوب أندريا من طائفة اللاتين العرب

فرح القرعة من طائفة الروم الأرثوذكس

كان يعمل حنا فاشة في دكان في حي المصرارة وكانت صنعته بقوة فائقة ولم يزل بعض الأعواد من صنعه عند أهالي مدينة القدس . أما سمعان عمار فكان مخزنه لعمل الأعواد في محلة المصرارة وصنعته كانت تتفوق عن صنع حنا فاشة فيكسب العود روعة وجمالا .

وإني كنت أفضل صنع المرحوم يعقوب أندريا عن جميع من عمل العود عندنا وكان يتفنن في طاسة العود ويكسبها ذوقا فنيا حتى أنه كان يعمل العود أشبه بطاسة القيثارة ، وكانت من إبتكارة فكان الإقبال على هذا الشكل عظيما خصوصا من السيدات اللواتي يرغبن العزف على العود فعندما يضعونه على صدورهم النافرة يرتحن إلى هذا النوع لعدم وجود حجم طاسة العود العادية الفظة .

وأخيرا بقي المرحوم فرح القرعة الشهير بعمل الأعواد في الدكان بجانب باب القيامة الصغير على الطريق المؤدية إلى محلة خان الزيت . إن فرح أبدع في صنع الأعواد وباع الكثير منها ولكنه كان فعله محدودا في العود فالقديم على قدمه فلا إبتكار ولا ما يحزنون .

الوالد في الرملة – وصفة الطرشة

أصاب والدي في كبره إلتهاب الحنجرة لمدة طويلة وقد أثر هذا المرض الذي قضى عليه (كما سيجيء البحث عنه في حينه) أثر على صوته وأصبح لا يستطيع التكلم بصوت مسموع لسنين طوال . فأشار عليه الطبيب بأن يقضي فصل الشتاء في الرملة وهكذا نزل في دير الروم بواسطة غبطة البطريرك ذميانوس وذلك سنة ١٩١٢ وكنت أنا ووالدتي معه وكان المرحوم الياس تماري العم أبو عبدالله وأم عبدالله في ذات الدير قضينا وقتا جميلا أعزف وأغني على عودي على أسطحة الدير في فيء العمر .

وقد صادف يوما حارا عندما رجعنا من سوق الرملة إلى الدير قبل الغذاء وكنت على ما أذكر حاملا محلبة لبن من الفخار ماشيا بجانب والدي وإذ إلتقى بصديق له كبيرا في العمر وإسمه فرنسيس الطرشة من أهالي الرملة فسلم عليه وتأثر عندما سمع صوت والدي المبحوح. وبعد حديث طويل فهم الطرشة من والدي بأنه راجع جملة أطباء لهذا الإلتهاب ولكن مع الأسف لم يستفد بشيء، وعندها تحمس العم الطرشة وأبدى رأيه بإتباع الوصفة التالية مؤكدا لوالدي بأنها تشفيه وترجع صوته تماما ولو أنها دنسة! (وكان الكثيرين في ذلك العهد يستعملون الوصفات النجسة لأمراض كثيرة ووصفة بول النساء إلى الأولاد المحصبين لهي أكبر برهان ومثال في هذا الصدد)

وقفت ووالدي في حر الشمس نستمع إلى العم الطرشة تفاصيل وصفته فقال:

شوف يا أبو خليل بتجيب جرو عمره يوم أو يومين فاهم يا أبو خليل؟

الوالد فاهم

بتسقيه حليب لمدة أسبوع، فاهم يا أبو خليل؟

الوالد فاهم

بصير وسخه أجلك الله أبيض فاهم أبو خليل؟

الوالد فاهم

بعدين بتنشف الوسخ في الشمس لما ينشف تماما فاهم أبو خليل؟

الوالد فاهم

بعدين بتجيب هاون وتمسحه تماما لأنه نحاس فاهم أبو خليل؟

الوالد فاهم

بتجيب الوسخ وبدقه في الهاون لما يصير ناعم فاهم أبو خليل؟

الوالد فاهم

بتجيب شاشية وبتنخل ناعم هذا الوسخ فاهم أبو خليل؟

الوالد فاهم

وبعدين بتجيب بوصة وتشطرها شطرتين وتضع قليلا من ناعم الوسخ المنخل، في رأس شطره احده من البوصة. فاهم أبو خليل؟

الوالد فاهم

وبعدين بتفتح فمك وبتخلي واحد ينفخ الناعم من البوصه تماما إلى داخل الحلق. فاهم أبو خليل؟ لم يجيب والدي بل سار غضب ونرفزة، وقال له "يلعنك ويلعن هيك وصفة" قولـــ لي من الأول كول خرا بدال ما أنشف وأحمص وأدق وأنفخ!

ملاحظة: أؤكد للقارئ بأن هذا البحث أخذ وقت ليس أقل من ربع الســاعة لأن العم الطرشة كان معه الأزمة فتصور هذا الرجل الطاعن في السن وهو يلقي هذه المحاضرة الطريفة في حر الشــمس. ثم كلمة فاهم؟ فكانت العادة المتبعة عند كثيرين من الأشخاص في ذلك العهد يستعملون بعض هذه الإصطلاحات أمثال: فاهم علي؟ طلع في إسمع (فرضنا سننت أي بمعنى فرضنا يا سيدي أنت) وغير جمل في أثناء الحديث حتى كان البعض وهو يتكلم في الطريق مع صديق له يسير بجانبه يمسكه من كتفه ويوقفه ويلقي عليه بعض الجمل ثم يسير ثاني ويرجع فيمسكه ثاني مرة على طول الطريق!

حلاق الوالد

كثيرا ما كان والدي يحضر حلاقه الخاص المدعو سلامة من محلة خان الزيت إلى دارنا في السعدية وبعدما يحلق الحلاق لكل مني ومن إخوتي وكان رجلا كما يسمونه درويشا مخلص أمين طاعن في السن وكان يلقي على والدي الحوادث التي حدثت له فكنا نضحك خصوصا على الطريقة التي كان يحدث بها رحمه الله يقول مثلا

إسمع يا أبو خليل: لما كنت عسكري في الجيش التركي [إطلع فيّ] أخذونا أسراء في حرب المسكوب [إطلع في] وصلنا على حدود باطوم إطلع في (وكان بذات الوقت يقص ذقن الوالد ويزيل بعض الشعر على رقبته ولا يتوقف على نطق كلمة طلع في) إلى أن ينرفز الوالد ويفتح أعينه بواسطة يديه ويقول له يابا ها ما أنا مطلع بل مبحلق فيك)

يضحك العم سلامة ثم يكمل: أعطونا جوز جزمات [طلع في] أبو خليل. قلت شو بدك يا ولد بجوز جزم طلع في، وبعدين رحت على السوق لأبيع جوز منها [طلع في] ما لقيتلك إلا وها الضابط طلع في أبوخليل سفقني كف من هون وكف من هون طلع في وقال لي "ولان همشري دلال مسن؟ أي عسكري وتبيع ثيابك؟ [طلع في] ونحن لا نتمالك من الضحك ووالدي رحمه الله يداعبه ثم يلفت أنظاره إلينا بدهشة.

والدي والمؤذن

كان شباك ليوان [أي غرفة الجلوس] دار الجوهرية في محلة السعدية يطل على المأذنة الحمراء ، وهكذا كنا نستمع بشغف إلى المؤذنين [ذو] الأصوات الحسنة وقد جاء الشيخ محمد السلواني متخرج من الأزهر الشريف بمصر وله إلماما واسعا في إداء الأذان يتحكم بإبقاء النغم واللحن كأعظم الموسيقيين وقد أوهبه الله صوتا جميلا فكان والدي رحمه الله يوقظني من النوم حتى أستمع وإياه لصوت هذا المؤذن في الضحى عندما يرتل . وقد شاء القدر فأحيل الشيخ محمد السلواني لمأذنة أخرى من مآذن الحرم وحل محله الشيخ عمر وهبة وكان صوته من أنكر الأصوات فعكر صفونا ولم يستطع والدي على الإستماع إليه خصوصا بعد صوت الشيخ محمد الملاتكي .

قام والدي المرحوم بطلب مشفوعا بمظبطة موقعه من خيار ساكني حي السعدية ونزل إلى دائرة الأوقاف الإسلامية وقدم هذا الطلب مستنكرا صوت المؤذن الجديد وطالبا رجوع الشيخ محمد السلواني وقد أدهش موظفي الأوقاف آنذاك بصفته مسيحيا وقد قال إلى مدير الأوقاف هذه الأبيات من الشعر بحق الشيخ وهبة :

سمعت مؤذنا يؤذي بصوت لسامعه وقد أذن الآذانا
فقلت وقد أذت منه أذني آذان تقصد أنت أم أذانا؟

فسر جميع موظفي الأوقاف وقالوا " إعلم يا أبا خليل أن هذا الشيخ قد قتل أباه في طريق يافا القدس عندما إعتدت قطاع الطرق على البريد ومن الواجب مساعدته شفقة بأولاده" . فأجاب والدي أننا لا نرغب قطع رزقه ولكن في الإمكان تعيينه مؤذنا على مأذنة محلة سعد وسعيد فهناك لا يوجد منازل سكن بعد بل خيم النور ودير الدومونيكان ، فضحكوا وأخيرا انتصر والدي وأرجع الشيخ محمد إلى مأذنة الحمراء وكان يوما بهيجا .

السراي في القدس في العهد العثماني

كانت سراي الحكومة في العهد العثماني واقعة في الملك العائد لأوقاف المسلمين بالقدس ، الذي يستعمل الآن لدار الأيتام الإسلامية تحت رئاسة جميل وهبة ، على طريق المؤدية من موقع باب سوق العطارين الشمالي إلى الواد . ويوجد لهذه الدار بابا آخر يطل على عقبة التكية .

لا تعجب أيها القارئ الكريم إذا قلت لك بأن هذه الدار كانت تحوي جميع قوى الدولة بكامل دوائرها وأجهزتها وأقلامها فإذا ما دخلتها تجد :

المتصرف ، ومجلس الإدارة ، ومجلس الأنجمة ، وقلم التحريرات ، ثم دائرة الطابو ، ودائرة الوركو والمالية ، ودائرة النفوس ، ودائرة العدلية ، ودائرة البنك العقاري ، ودائرة النافعة ، والصندوق أميني ، وقوة البوليس ، وقوة الجندرمة ،

والسجن وكان في ذلك الزمن القفص ، ثم ساحة محاطة بسور خشبي للصلاة ، وأخيرا إسطبل كبير لخيل الجندرمة والبوليس السواري بصورة منتظمة . ثم وبواسطة سلم خشبي ومن نافذة أحيلت إلى باب يصل إلى دائرة البلدية .

السجن

أما السجن الذي أقصد منه الذي كان داخل هذه الدار (السراي) فهو ما كانوا يسمونه بالقفص واقفا مقابل العدلية والطابو والنفوس في الطابق الأرضي وبجانب هذا القفص القهوة مقهى عام تحت شجرة التوتة فيجلسون الناس اللذين لهم المصالح على الكراسي البلدية القصيرة بإنتظار معاملاتهم . وكان القفص سجن مؤقتا يوضع فيه المتهم الموقوف إلى أن يدان إما بالحكم أو بالبراءة .

الخيل

وكانت خيول البوليس السواري والجندرمة تربط في الدهليز من هذه الدار وكان وسيعا مظلما مقابل المدخل الرئيسي للدار وله باب خاص يطل على طريق أخرى تعرف بعقبة التكية وكان يتسع لعدد كبير من الخيل تنتظر أصحابها للذهاب إلى وظيفة ما خارج المدينة .

البلدية

أما دائرة البلدية فكانت ملاصقة لهذه الدار ويوصل إليها من شباك بواسطة سلم خشبي من ساحة السراي العليا في الطابق الثاني ثم لها مدخلا خاصا من عقبة التكية أيضا وكنت كثيرا ما أصعد هذا السلم لمقابلة والدي عندما كان عضوا في البلدية سنة ١٩٠٧ . وكان رئيس البلدية الأخير في هذه الدار المرحوم حسين أفندي سليم الحسيني الذي تعين سنة ١٩٠٨ ثم بعدما عمل التصليحات اللازمة في فندق الجمل خارج باب الخليل الواقع في المنعطف ما بين شارع يافا وشارع مأمن الله وهو من أملاك البلدية إنتقلت دائرة البلدية لأول مرة من داخل السور وأقامت هناك إلى ما بعد الإحتلال البريطاني .

لمحة وجيزة عن المرحوم يعقوب أبو شاكر

كان المرحوم يعقوب أبو شاكر من أغنياء القدس المعروفين زمن العهد العثماني فكان يدعى بملك العربيات والخيل في البلاد عندما كانت القدس وهي مدينة هاجعة وقبل وجود القطار والأتوموبيلات طبعا . فكان العم أبو شاكر وبواسطة عربات الخيل على مختلف أنواعها منها كما كانوا يسمونها :

الأميركية عربة مرتفعة العجلات تستوعب لركوب ١٢ شخصا ويربط عليها ثلاث رؤوس من الخيل تسير ليلا ما بين القدس ويافا .

البوسطة	عربة قوية ولها سقف مربعا تستوعب لخمسة أو ستة أشخاص وتحمي الراكب من حرارة الشمس والأمطار في الرحلات البعيدة وكانت تستعمل من قبل عربجية السريان ما بين القدس وبيت لحم.
الكلش	عربة قوية التركيب أيضا وإنما سقفها عملي يغلق ويفتح تماما بالنسبة إلى الطقس وتستوعب إلى خمسة أو ستة من الركاب ومقاعدها متساوية الحجم ومريحة.
الحنطور	عربة أنيقة ولها كبود يستعمل بالفتح والإغلاق حسب مزاج الراكب وفي صدره مقعدا مريحا يتسع إلى شخصين وأمامه مقعدا خشبيا يرفع عند اللزوم ونسبة إلى عدد الركاب يجر برأسين من الخيل ويسير بسرعة.
التك	عربة خاصة لأعيان المدينة وتساق من قبل صاحبها ولا لزوم إلى العربجي وتتسع إلى شخصين وتكون عجلاتها مغطاة بالكوتشوك أحيانا للخفة.
لندون	عربة ضخمة قوية الصنع ومحاطة بشبابيك من البلور وبطيئة السرعة لثقلها وعادة تجرها ثلاث رؤوس من الخيل الأقوياء. كانت تستعمل لمن لهم المراكز العالية في الدولة وإني لم أزل أذكر لندون المرحوم الحاج سليم الحسيني عندما كان يستعمله من سكنه في الشيخ جراح إلى الحرم الشريف والسراي من طريق باب العامود إلى الداخل وكان من خلفه مقعدا مرفوعا خاصا لجلوس العبد من خلفه، والعربجي وإسمه عبدالله وإني رأيت هذا اللندون ويا للأسف في بيت سليل (مدرسة الأليانص) بالقدس حصلوا عليه بعد وفاته من أحد الورثة.

جميع هذه الأنواع من العربات كانت ملكا لأبي شاكر وكان هو الذي أحضر فيها الإمبراطور غليوم الألماني من يافا إلى القدس ثم تجول وحاشيته في المدن الفلسطينية بهذه العربات وحصل أبو شاكر منه على نيشان ثم منحته الحكومة آنذاك لقب آغا وإني أذكر بأن والدي حدثني بأنه عندما شحت آبار مدينة القدس من الماء لقلة الشتاء أحضر العم أبو شاكر على نفقته المياه لأهل المدينة بواسطة القطار الذي كان حديثا في القدس وذلك من قرية بتير ووزعها على السكان خصوصا الفقراء منهم. وكانت طائفة من العائلات من مختلف أهالي القدس يشتغلون عنده في العربات والخيل والسفر مع السياح من القدس إلى الشام. ثم صار النسب وهو في أوج علاه مع عائلة عويضة.

عارف عويضة

كان المرحوم الشيخ عويضة يعتبر قومسيون للعربات والخيل في العهد العثماني بواسطة كلارك الأميركاني وكوك (شركة كوك) الإنجليزية المختصين للسياحة بالقدس. أما أساس نعمة عائلة عويضة كما قيلت لي بالحرف والواحد فكانت كما يلي:

كان المدعو فلويت الأميركاني بالواسطة إختلس أموال كوك وشركته. ولما كان المرحوم خليل عويضة قوي البنية وهو والد إبراهيم وفهمي صادف أن وقعت سيدة ثرية في النهر ولحسن حظه نشلها وحماها من الغرق ولذلك أكرمته فدفعت ألفين ليرة ذهبية إلى خليل عويضة بواسطة كوك ولكن كوك بدلا من أن يعطيه هذا المبلغ أعطاه البناء المقام على المنعطف ما بين بركة مأمن الله وعقبة راهبات المحبة والذي [يسمى] على وقتنا با (بيكاديللي) مع الدار بجانب هذه العمارة وكانت سكن القاطرجي وعليه أصبح المرحوم خليل عويضة الأساس في نعمة آل عويضة آنذاك.

[...][1]

آخر شطحة للمرحوم الوالد في دير المصلبة في أواخر شهر شباط سنة ١٩١٤

جاءني الوالد مساء السبت وقال لي "غدا الأحد وأنت بدون مدرسة حوالي الساعة التاسعة شد على الحمار واركبه وتعال إلى المنشية فأنا أكون بإنتظارك هناك ثم إياك أن تعلم أخيك توفيق بذلك. "قلت" قالوا في السماء ولمة قلت أين السلام"؟ وفي الصباح بعدما نزل أخي توفيق من البيت وامتثلت بأمر الوالد نظمت الحمار وركبته وذهبت إلى المنشية[2] فوجدته يشرب الأركيلة. وما هي إلا بعض الدقائق مسكت الحمار وأوقفته بجانب المصطبة فركبه وأركبني من خلفه وذهبنا إلى حرش دير المصلبة وإذ وجدت هناك عددا كبيرا من أصدقائه. عندما نزلنا عن الحمار حذرني بأن لا أغني أو أعزف على العود إلا متى طلب مني ذلك فأطعته. وبالحال حضر الأركيلة السفرية التي كانت ترافقه في شنطة خاصة من عين الخرج فكانت شطحة من العمر وكان الهاوي الياس رزق شهلة من طائفة الروم الأرثوذكس العرب يعزف العود ويغني بأعلى صوته تحت ظل أشجار الصنوبر فيدوي صوته في الوادي الساكن الطبيعي الجذاب وكأنه صوت ملائكي ففي دور الله يصلح الحال ويعدلك يا مايل فطربت لإتقانه هذا الدور وهو من مقام حجاز دوكاه تلحين إبراهيم القباني الموسيقار وكان مسجلا من الشيخ الصفتي شركة جراموفون.

أما أصدقاء الوالد فكانت مجموعة من ظرفاء ذلك العهد أذكر منهم، عارف العلمي، حسن الأزهري، عمر بوجه، مصطفى الجبشة، مصطفى السرية الموقت، داود الراغب، طاهر يونس، موسى الباسي وكان يدعى الآلاتي في ذلك الوقت، مصطفى الزروق، عمر الأفكح زيادة، يعقوب عنصرة، الخوري سوتيري حنانيا، خليل السنونو،

١ حذفت من هذا القسم البنود التالية: اسماء عريجية القدس، اسماء أدلاء السياحة إبان الحكم العثماني، وقسم عنوانه شخصية بارزة لكل من العائلات المعروفة في العهد العثماني.

٢ المنشية هي المنطقة الواقعة شمال غربي بلدة القدس القديمة.

عيسى القسيسية العم أبوإبراهيم، نعمان الجاعوني، جودت النشاشيبي، الشيخ جلال أبو غوش، عبد الحميد أبو غوش وغيرهم.

كان الوقت كله صفاء ومرح وطرب فعندما يقف الياس رزق عن عزف عوده يقوم العم عمر فيضحك الجميع بما يمثله بينهم وبما يلقي نوادره النادرة حقًا حتى كنت أشاهد أن بعضهم وكانوا في سن الكبر يقومون ويرقصون على العود فقط. كانت هذه الشطحة بدون كحول البتة وبقينا على هذا الحال إلى الظهر عندما جاءت القدرة. على حمار خاص من القدس فأكلنا هذه الأكلة المشهورة الخالية من أي تزييف أو غش ثم جاء صدر الكنافة من صنع المرحوم عمر بوجه وكان مشهورا في عملها وقد عملها بجانبنا في الشطحة. وبعد قيلولة بعد الظهر عاد الحظ والطرب وأخذ منهم كل مأخذ وبعد العصر نادى والدي علي وقال "يا واصف هات العود ودق" فأخذت العود وعزفت فجن جنون جميع الحاضرين فصاحوا ماهذا يا أبو خليل؟ صحيح فرخ البط عوام واصف ما شاء الله ثم طرب العم الياس رزق وبعد هيصة أمرني والدي بأن أغني وهكذا بدأت في الغناء قصيدة سمحت بإرسال الدموع محاجري من مقام العراق وكنت أحسن غناء الشيخ سلامة تماما كما عودني والدي عندما كنت أتعلم غنائه بواسطة الفونوغراف. فطار الجميع فرحا ومنهم من قام وداعب الياس رزق خصوصا عمر الأفكح ومصطفى الجبشة قائلين "هيك الغناء وإلا بلاش". وبقينا على هذا المنوال لعند الغروب فرجعنا وكنت في السادس عشر من عمري.

القدس في حالة مضطربة في أوائل سنة ١٩١٤

هذا البلد الأمين أصبح مرتعا خصبا لبعض ضباط الجيش العثماني بصورة أدخلت بعض القلق على الأهلين وذلك بعدما اشتبك الحرب في أوروبا بين الألمان وفرنسا وتضاربت الإشاعات بين الشعب بوجوب دخول الدولة العثمانية في هذه الحرب قريبا. وهكذا قد لاحظنا حتى في أحياء المدينة القديمة تسربت ضباطا من الجيش العثماني يستأجرون بعض المساكن وقد سكن في حي السعدية محمد القولاغاصي وعبد الرحمن بك اللذين أصبحا بعد دخول تركيا الحرب أصحاب الأمر والنهي في القدس، سكنا في دار إزحيمان المرحوم مصطفى الزروق الواقعة في قنطرة المملوك وكانا مرارا يداعبوننا ويمسكوا حمار الوالد عندما كنا نلتقي بهم في طريقنا إلى الدار دار الجوهرية وأصبحت ألفة ما بيننا.

ولما كان مصطفى الجبشة مختارا لحلة باب العامود والسعدية إتفق أن دعاهم إلى سهرة في بيته الواقع في محلة السعدية المقابل لفرن الحاج عبد ربه وقد كان والدي من المدعوين وفي تلك السهرة وكان بيننا مصطفى السرية الموقت وإبراهيم العلمي وحسين الأرناؤوط ومحمد السباسي وغيرهم وأصبحت معرفة قوية ما بيننا وبين هذا القولاغاصي وعبد الرحمن بك.

غنى وأبدع العم محمد السباسي وأذكر أن الدور "فؤادي أمره عجيب في العشق ما له مثال" من مقام الكروان، هو تلحين داود حسني وغناء الشيخ يوسف المنيلاوي والشيخ الصفتي حمل وقتا أكثر من الساعة والنصف ساعة

خصوصا عندما غنى لما منعت الواد ، وبعدها الآهات ونحن نردد ما وجب ترديده من الكلام والآهات حتى أقر هؤلاء الضباط رغما عن عدم معرفتهم اللغة العربية بأن الموسيقى العربية هي أطرب وأرقى من التركية فكلها عواطف تهز المستمع هزا . وهكذا عزفت على العود وغنيت في هذه السهرة ساعات مما لفت أنظار القولاغاصي فأصبح سندا لي في طيلة مدة الحرب العظمى كما سيجيء البحث في هذا الموضوع في حينه من هذا الكتاب .

وكانت أسطحة وشبابيك البيوت المجاورة لدار العم أبو العبد وساحات الدار الخارجية يعج بعشرات السيدات المحجبات يستمعن إلى هذا الفرح وكان ويا للأسف الأخير من نوعه بين أهل القدس لأنه كان عند إبتداء دخول الحرب العظمى التي قضت خصوصا على الشعب العربي وحياته .

أنا وعودي في بيت العم أبو العبد

بعد أسبوع واحد من هذه السهرة مر المرحوم العم أبو العبد (مصطفى الجبشة) ورجا والدي بأنه يرغب العود وطلب منه أن أوصله له في البيت فسمح والدي لي بذلك وكانت ليلا . رافقت العم أبو العبد ومعي العود ولم يتركني أبدا بل دخلت إلى بيته وشربنا على أمل أن أدوزن له العود ، فأخذ الطرب منا جانبا وقلت حقا من قال "وعند صفو الليالي يحدث الكدر ."جاء والدي إلى بيت العم أبو العبد غاضبا وعاتبني على ما عاقني هناك فأبديت له المعاذير ولكن بدون جدوى لأنه كان لا يحب أن أذهب والعود لوحدي مطلقا .

دق الطبول وإعلان دخول الدولة العثمانية في الحرب العظمى سنة ١٩١٤ تموز

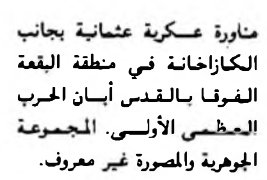
إزدادت الحالة سوءا بالقدس وانتشر الرعب بين الشعب لماذا؟ لأن الدولة قد وزعت مكاتيب مغلقة مختومة في الشمع الأحمر إلى جميع مختاري المدن والقرى في البلاد بواسطة متصرف لواء القدس وحذروهم بعدم فتح أو فض هذه الظروف المغلقة إلا عندما تقرع الطبول تنبئ بالغرض الذي بموجبه وزعت هذه المكاتيب ووزعت هذه المكاتيب في نيسان سنة ١٩١٤ . وهكذا قلقت الأفكار وتخوف الشعب خصوصا الطوائف المسيحية في البلاد من هذه المكاتيب وماذا يكون مضمونها يا ترى؟ هل لا سمح الله تصبح البلاد في فوضى ويصير التعدي على المسيحيين والأقليات في البلاد ، وكان الشيء الذي زاد تخوف الأهلين بأن هذه المراسيم المغلقة بقيت لمدة تنوف عن الشهرين محفوظة لدى مختاري المدن والقرى لم يستطع أحد من معرفة مغزاها وما نص داخلها .

وأخيرا وفي ظهر نهار الجمعة عند الصلاة في المسجد الأقصى قرعت الطبول ، وصدرت الأوامر بفتح هذه المراسيم المغلقة كما جاء من أولي الأمر في البلاد وإذ هو :

صفحة طولها ربما يبلغ السبعين سنتمتر متر بعرض ٥٥ سنتمتر لونها أحمر فاتح ومرسوم عليها بألوان بارزه العلم الأخضر ومقابله العلم الأحمر وبين هذه الأعلام من الأسفل رسم مدفعا لونه أسود ومكتوب تحته "سفر برلك برنجي






مناورة عسكرية عثمانية بجانب الكازاخانة في منطقة البقعة الفوقا بالقدس أبان الحرب العظمى الأولى. المجموعة الجوهرية والمصورة غير معروف.

كوني تموز سنة ١٩١٤" ، وقد إحتفظت بواحد من هذه المراسيم التذكارية ضمن المجموعة الجوهرية وحصلت عليها من العم مصطفى الجشة مختار محلة باب العامود للذكرى سلمها إلى والدي آنذاك.[١] هذا المرسوم بمعنى أن الحكومة العثمانية دخلت فعلا من هذا اليوم في الحرب العظمى مع ألمانيا وهكذا أصبحت البلاد في حالة حرب ولكن لم يحدث في هذا اليوم أي يوم قرع الطبول في المسجد الأقصى شيء يوجب التخوف من الأهالي إنما كان والحق يقال يوم شؤم لدخول بلادنا في هذه المعارك التي لا يعرف مصيرها إلا الله والتي كنا في غنى عنها لو أمعنت الحكومة العثمانية في النتائج الوخيمة.

١ لم نجد هذا المرسوم ضمن المجموعة الجوهرية.

أول مشنوق علنا باب العامود

وهكذا بين عشية وضحاها أصبحت البلاد ضمن مجموعة المحاربين وانكمشت صدور الأهلين خصوصا في البلاد العربية التي كانت ولها الأمل العظيم في التحرر من نير الإستعمار وتألفت الجمعية المعروفة آنذاك وبعد الإنقلاب العثماني المعروفة بإسم الجمعية اللامركزية وكنا نشاهد أعضاء هذه الجمعية من أحرار العرب في القدس ومن أبناء القدس أمثال بطرس علي النشاشيبي بدأوا فعلا بالتحرك فلبسوا اللباس العربي من الثوب أو القنباز والعباة وعلى رؤوسهم الكوفية والعقال بصورة تبعث الأمل وتجلي الصدور لظهورهم بالكوفية العربية وأزالوا عن أجسامهم اللباس التركي والأجنبي بما فيه الطربوش. هؤلاء الأشخاص منهم من كان يعد الأفكار ومنهم من كان يهيء الأسباب للقيام وراء نزع بلاد العرب وفكها عن الإدارة العثمانية لأجل تأسيس خلافة عربية تابعة لمصر تحت سلطة الإنكليز العسكرية وقد فروا من الحكومة التركية إلى بلاد أخرى تخوفوا ثم تخوف الشعب العربي كله الموجود في كافة البلاد العربية وتحت الحكم العثماني. ومنذ سمعهم دخول الدولة العثمانية في الحرب حسبوا ألف حساب وكان حسابهم في محله فقد ظهر حب الإنتقام وبعد إعلان الحرب أذكر بعد بضعة أيام كنت ذاهبا من دارنا في محلة السعدية فخرجت من باب العامود في الصباح الباكر وإذ شاهدنا أول عربي مشنوق على خشبة المشنقة العالية والواقعة في الزاوية على الجهة اليمنى من خارج باب العامود بصورة تقشعر لها الأبدان فكان لابسا الثوب الأبيض وعلى صدره إعلانا طويلا مكتوبا ربما عن جريمته التي أودت به إلى المشنقة وكان من قرية [ناقص في الاصل] ، ومن إحدى سجناء القدس وهكذا شهدت القدس أول مشنوق من العرب علنا الأمر الذي أدخل الرعب في قلوبهم وتتابع تعليق العدد الكبير من العرب على أعواد المشانق.

إحتلال المعاهد والمؤسسات الأجنبية ومن ضمنها مدرسة السان جورج

باشرت الحكومة بقلب الإدارة المدنية فتحولت في الحال إلى عسكرية فأغلقت المؤسسات الأجنبية العائدة إلى الأعداء وهم الإنكليز والفرنسيين والروس وأخرجت سفراء هذه الدول من البلاد وإغلقت البنوك ثم احتلت المؤسسات

الأجنبية جميعها في البلاد ومن ضمن هذه المؤسسات مدرسة السان جورج وهكذا سد تكميل العلم في وجهي ويا للأسف عندما كنت على وشك إتمام هذه المدرسة علم الثاني ثانوي فأغلقت بل إحتلت من الجيش العثماني وتشتت التلامذة في البلاد .

التكاليف الحربية

إرتفعت أسعار المواد الغذائية إرتفاعا محسوسا في الأسواق نظرا لبطش الجيش واستبداده ومصادرة المواد الغذائية المخزونة أولا في المؤسسات الأجنبية التي أحتلوها ثم مصادرة الأغذية من حبوب وزيوت وحتى الأقمشة في الأسواق ومن التجار العرب المعروفين بالقدس بصورة فظيعة وكانوا يسمون هذه المصادرة لأنها بدون دفع ثمنها كمساعدة للجيش (تكاليف حربية) .

آخر رحلة لوالدي لخربة دير عمرو

وعلى أثر هذه الحوادث والمفاجئات المخيفة ، وبالنظر لإنشغال حسين أفندي الحسيني في بلدية القدس وما ترتب عليه من مسؤوليات جسيمة بعد إعلان الحرب إضطر والدي للذهاب إلى خربة ديرعمرو لقضاء بعض المشاكل هناك وخصوصا لحفظ ما أمكن حفظه من الحبوب ومن محصولات الخربة فذهبت معه وبقينا مدة ما تقرب من الأربعين يوما .

بدا والدي ونحن في راحة هناك يبدي إعجابه بي لأول مرة في حياته ومما قاله لي خصوصا مما أنا عليه من ميل فطري في فن الموسيقى "ولك يا واصف ياليتك ولدت قبل إخواتك البنات منهم حتى أتمتع بفنك بدلا من أن نحضر المغنين والعازفين على الآلات وأصواتهم مثل لعنة الله على الكافرين" ! كنت كثيرا في سهراتنا وشطحاتنا المشهورة ومع أكبر شخصيات هذه البلاد أمثال المرحوم رباح الحسيني وعاصم بك وغيرهم أفتش على من يرافقنا ويطربنا وكنا جميعا نعمل كل ما بوسعنا حتى ندهش ذلك العازف أو المغني في المأكل والمشرب والمال ولكن هيهات يسرنا ! إلى ما هنالك من حوادث ومجالس أنس يصعب علي تدونها مفصلا .

وفي هذه الرحلة قد حدثني جليا عن كثير من حياته ومعاشه وأشغاله وعائلته ووالده وأمه وعن حالة البلاد والقدس خاصة جلست ودونت بعضها للذكرى وإني سأقدمها للقارئ وذلك في الفصل الثاني من كتابي هذا بإذن الله وقد تأكدت منه أنه خصني رحمه الله بكل هذه المعلومات القيمة دون إخواني وبالفعل اكتسبت منه أشياء لم تكن في الحسبان وإني فخور بها دائما .

الخريطة

ونظرا لعدم معرفة والدي اللغة الأجنبية وسمعنا لأخبار الحرب في أوروبا وآسيا رسمت له خريطة مكبرة تبين جميع الدول في قارة أوروبا وآسيا وكتبت التفصيلات اللازمة بالخط العربي وأصبح والدي وكأنه القائد الأعلى في الحرب يضع هذه الخريطة أمامه ويتعقب الزحف لكل دولة حول ألمانيا بالنسبة إلى الأخبار اليومية التي كانت ترد علينا رسميا وتنشر على الشعب وكان سروره عظيما لوجود هذه الخريطة العربية بين يديه .

إغماء الوالد

كنت ذكرت للقارئ فيما سبق بأن والدي أصابه إلتهابا قويا في حنجرته مما أدى إلى ضياع صوته . وقد صادف عندما كنت معه بجوار الدار في ديرعمرو عند عصيرة ذات يوم وكان يصطاد العصافير بواسطة بارودة الصيد فعندما رجعنا وكانت مسافة قريبة جدا لمدخل الدار إذ وقع على الأرض فأغمي عليه ولم يستطع أن يأخذ النفس فقد تبين لي وأنا بجانبه بأن حلقه قد أغلق بتاتا ولسوء الحظ لم يكن أحدا من الرجال هناك إلا إمرأة تدعى حليمة زوجة خليل الياسيني أحد خدمة حسين أفندي فجاءت وساعدتني حتى تمكنا من حمله وهو لا يعي مطلقا وصعدنا به إلى الدار وكنت أنا أصيح وأبكي بكل حزن لهذا المشهد شفقة عليه وأقول يابا يابا يابا يابا وجاءت حليمة وفركت منخاره بالبصل الأمر الذي أزعجه فكاد أن يتنفس وفتح عينه قليلا ثم جاءته البردية وبقي على هذه الصورة ونحن سهرانين عليه إلى الصباح . وعند الصباح أفاق وكأنه مع الأموات وبعد مدة ثلاثة أيام إلى أن إنتعش قليلا ركب الحمار ورجعنا القدس .

إلغاء الإمتيازات الأجنبية في البلاد سنة ١٩١٤ دوائر البريد للأجانب بالقدس[١]

١ . بوسطة النمسا : حارة الأرمن داخل السور وهي أول بوسطة أقيمت للأجانب بالقدس وأخيرا نقلت مركزها إلى عمارة الدكتور باسكال الأرمني تجاه قلعة النبي داود داخل باب الخليل ، بجانب مكتب كوك للسياحة آنذاك .

٢ . بوسطة ألمانيا : في دكان من عمارة وقف العنبوسي باب الخليل من الخارج تحت بنك العثماني آنذاك .

٣ . بوسطة فرنسا : دكاكين الراهب حنانيا من أملاك البطريركية الأرثوذكسية بالقدس خارج باب الخليل بجوار المصور رعد ومكتبة فلسطين لبولس سعيد .

ملاحظة : وقد فتحت بوسطة ألمانيا وفرنسا في آن واحد

٤ . بوسطة المسكوب : عمارة الأرمن مقابل المنتزه البلدي – شارع يافا بالقدس

٥ . بوسطة الطليان : دكاكين الراهب حنانيا من أملاك البطريركية الأرثوذكسية بجوار مكتبة فلسطين لصاحبها بولس سعيد مقابل فندق فاست ، شارع يافا .

١ البوسطة وهي دائرة البريد.

صورة للبريد العثماني أو
البوسطة في القدس في حارة
اليهود. الصورة من المجموعة
الجوهرية والمصور غير معروف

وقد أغلقت هذه البوسطات سنة ١٩١٤ بعدما دخلت الحكومة العثمانية الحرب العظمى الأولى مباشرة. وإني أحتفظ بصور موقع كل دائرة بريد لهذه الدول الخمس ضمن المجموعة الجوهرية، أما دائرة بريد العثماني فبقيت دائما في الطابق الثاني من عمارة البطريركية الأرثوذكسية خارج باب الخليل وهذه العمارة ملاصقة لسور المدينة من الخارج، فوق بنك كريدي ليوني وكانت دائرة الديونة العمومية ودائرة الريجي بجانبها في ذات العمارة إلى إنتهاء الإستعمار العثماني بالقدس.

بمناسبة إعلان الإدارة السنية القاضية بإلغاء الإمتيازات الأجنبية في المملكة العثمانية كتبت جريدة فلسطين الفقرة التالية عن البوستات الأجنبية في عددها المؤرخ في ١٤ تشرين أول سنة ١٩١٤:

ترجع تواريخ البوستات الأجنبية في المملكة العثمانية إلى تواريخ الإمتيازات التي نالتها كل دولة من الدول، فأول من أنشأ بوستة أجنبية في الإستانة كان أهالي نابولي وأهالي البندقية يوم كانت بلادهما مملكتين مستقلتين. ثم تبعهم النمساويون والروس حوالي سنة ١٧٢١. أما فرنسا فقد جرى الإتفاق على إنشاء بوستات في المملكة العثمانية سنة ١٨١٢، وإنكلترا سنة ١٨٣١، واليونان سنة ١٨٣٤، وألمانيا ومصر سنة ١٨٧٠، وإيطاليا سنة ١٩٠٨.

وقد جرب الباب العالي مرارا في سنى ١٨٧٤، ١٨٨٠، ١٨٨٨، ١٩٠١، ١٩٠٨، ١٩٠٩، إلغاء هذه البوستات التي كانت كعب ثقيل على المملكة وضربة على حالتها الإقتصادية فلم يتمكن في سنة ١٨٨١ من إلغاء غير البوستتين المصرية واليونانية ثم لحقتهما في سنة ١٨٨٣ البوستة الإيطالية. أما بقية الدول فقد عارضت كثيرا في مسألة إلغاء بوستاتها وتساهلت النمسا فقط في سنة ١٩٠٩ بإلغاء خمس شعب في بوستتها في البلاد العثمانية حيث لا توجد بوستات أجنبية غيرها تخشى من منازعتها النفوذ.

دخول الشريف السيد علوي بافقية القدس سنة ١٩١٤

في أوائل شهر أيلول سنة ١٩١٤ [زار القدس] الشريف السيد علوي بافقية [مفتي الشافعية في المدينة المنورة] في القدس. [وقد إستقبل] إستقبالا رائعا وإحتفالا عظيما لأن زيارته للقدس كانت بمساعي الجيش والدولة العثمانية والقصد منها كسب صداقة العرب المسلمين وإخلاصهم للدولة بحكم دخول الدولة العثمانية الحرب العظمى.

دخل الشريف العربي من الجهة الشمالية للقدس عن طريق الشيخ جراح وكان بمعيته ولديه هما أبوبكر وحامد وكنت وأخي توفيق نتفرج على هذا الإستقبال التاريخي فكانت رجال الدولة والجيش والشعب يكبرون ويهللون بإحتفال ومهرجان عظيم يصعب علي وصفه من حيث الروعة. وكان بوليس السواري وعلى الأخص القومسير عبد القادر العلمي يقود البوليس ويشجع الأهلين برفع أصواتهم في الأهازيج ويبعث في نفوسهم الحماس وهكذا سار الموكب ولدى وصوله قرب عمارة الألمان شميدت تجاه باب العامود ورغما عن الطقس الحار في ذلك اليوم ونحن في أول أيلول إذ تكاثفت الغيوم السوداء في الفضاء فأرعدت وأبرقت وهطلت الأمطار وكأنها تصب من قرب الماء صبا حتى تفرق الموكب فاختلط الحابل بالنابل وانتشرت الفوضى بين المستقبلين وذلك من شدة وقوة الأمطار إلى أن دخل باب العامود

وأقام في تلك الليلة ضيفا مكرما في مقام النبي داود . وإني أذكر الترتيبات التي نظمت لضيافة هذه هناك وما جاءت الحكومة به من خدمة الفنادق المعروفة بالقدس لتحضير موائد الطعام .

والجدير بالذكر أن هذا الشريف وافته المنية في تلك الليلة من زيارته القدس فمات ليلا في النبي داود وهكذا جرت جنازة كبرى له تليق بمقامه ودفن أخيرا في مقبرة النبي داود وكتب على القبر إسمه لغاية يومنا هذا وهو منقوش على بلاطة القبر . وإني احتفظ بصورة تاريخية عندما وصل والموكب جهة الشيخ جراح وكان الطقس ملائما قبل المطر الذي بينت أوصافه أعلاه ، وذلك ضمن المجموعة الجوهرية وهذه الصورة تضم العدد الكبير من أهالي مدينة القدس في ذلك العهد .

كان والدي لم يزل حيا فعندما رجعنا من الإستقبال قال "يظهر أن الله سبحانه وتعالى ضد الأتراك ومن مشى معهم في هذا الحرب" وما علينا إلا بالدعاء بالسترة للعرب وكما قال المثل أول غزواته كسر عصاته ثم زاد تشائما عندما سمع بأن هذا الشريف قضى نحبه في أول ليلة من دخوله القدس فلا إعتراض في حكمه ! .

الوالد والخيار شنبر

ومن نوادر الوالد قد صادف إجتماع عائلي في بيتنا وكان موضوع البحث الحرب العظمى ، وبطش الحكومة إلى ما هناك من حوادث وأخبار سنة ١٩١٤ فقال الوالد "يا جماعة إني أشبه هذه السنة بالخيار شنبر أي سودة وطويلة ومعقدة وبتخري فقهقه الجميع من الضحك .

ملاحظة : إن الخيار شنبر هو عود معقد ولونه أسود يدخل عادة في إستعمال شربة المنزول وكان يباع عند العطارين وإنما يزرع في الهند .

أول طائرة بالقدس سنة١٩١٤

أذكر في فصل صيف سنة ١٩١٤ وبعد دخول الدولة العثمانية في الحرب أنتشرت الأوامر الرسمية من قبل الحكومة بأن طائرة ستهبط لأول مرة بالقدس وذلك بجوار الكازخانة في البقعة الفوقا طريق القدس بيت لحم محلة تلبيوت في وقتنا الحاضر . وقد حددت موعد هبوطها الساعة الثانية عشر من اليوم الثاني لهذا الإعلان . وقد هرعت الحكومة والجيش والشعب كافة من باكر اليوم المحدد وكان على ما أذكر طقسا حارا جدا وإني لا أبالغ إذا قلت بأنه لم يبق في مدينة القدس سوى عدد قليل . ولما كان والدي حيا فقد ركب حماره وذهب ليرى الطائرة وذهبنا معه وكانت تلبيوت وكأنها موسم وجمهور مجتمع تحت حر الشمس والبائعين المتجولين من كل أنواع الأكل والشراب حتى أنني أذكر أن الناس إضطرت إلى شراء شربة الماء الصافي نظرا لعدمه في ذلك اليوم من السقايين . وقد خلص جميع المواد الغذائية وبعت

إلى الجمهور الذي أصبح في حالة مزعجة من الجوع والعطش وهو ينتظر الطائرة التي مع كل أسف لم تصل . الأمر الذي جعلنا ووالدنا نرجع الدار من شدة الجوع والحر والتعب .

وبعد الظهر من ذلك النهار أخذنا خبر سقوط هذه الطائرة فوق سمخ [في طبريا] وقتل من فيها من الطيارين العسكريين كان إسمها كما أذكر (نوري) من خيار الشبان المتعلمين في فن الطيران الذي كان جديدا في العالم وأصبحت أيام حزن وأسى من قبل الدولة والجيش والشعب وقد ألفت ولحنت أغنية خاصة لمقتلهما وغنيت هذه الأنشودة في طول البلاد وعرضها وكان خبر وفاتهما تشاؤم لدى الأوساط السياسية في ذلك الوقت من إعلان الحرب العظمى وكان إسم الثاني إسماعيل.[1]

وصول طائرة أخرى

مضت مدة على حادث حطام الطائرة الأولى المبين أعلاه ثم وصلت بعد مدة من تلك السنة ١٩١٤ وهبطت لأول مرة في ذات الموقع في البقعة الفوقا فشاهدناها لأول مرة في حياتنا وكانت حربية وفيها ضباط من الجيش العثماني والألماني معا .

السيارة الأوتوموبيل

أما وصول أول سيارة أوتوموبيل للقدس فكان في سنة ١٩١٢ فقط . وكانت السيارة من نوع فورست وفيها أجانب وقد لفتت أنظار الشعب بدهشة وقد مرت آنذاك عن قرية العيزرية فوقفت أهالي القرية وقالوا أن عربية بدون خيل شاهدوها تسير على الطريق وعندما انتشر الخبز تجمعت أهالي القرية ومن بينهم صديقنا صبري خلف ينتظرون رجوعها وبالفعل بعدما زارت أريحا والشريعة [أي نهر الأردن] والبحر الميت رجعت ومن فيها فمرت عن العيزرية على مرأى من الجميع فدهشوا جدا لمشاهدتها . أما نحن فقد رأيناها من المنتزه البلدي تسير في شارع يافا – القدس وقد كانت رحلتها بواسطة معارف كولونية الأميركان المستر فستر .

أركيلة الوالد

إن الوالد كان يعتبر في القدس من أشهر المدمنين على شرب الأركيلة.[2] وكان له ذوق خاص فيها وقد اختص بأركيلة نادرة من جميع الوجوه ولها بيتا خاصا فترافقه في رحلاته دائما أبدا ضمن شانطة داخل عين الخرج. كانت من الفضة صنع قديم في غاية من الدقة والبنورة كانت من الصافي ولونها أبيض مما كانوا يسمونها بالحجر . وقد منعه الطبيب من إستعمال الأركيلة خصوصا بعد الحادث الذي وقع له مؤخرا في ديرعمرو بسبب إلتهاب الحنجرة والمدون سابقاً ، والذي كان قضى على حياته نهائيا رحمه الله . وهكذا صمم الوالد على تركها وقدمها هدية لأعز صديق له ، ففي

[1] هذه الطائرة وصلت بالفعل لمدينة يافا واستقبلت هناك من قبل رجالات الحكومة والضباط الأتراك واحتفل بنوري بك واسماعيل بك في فندق لورنس وبعد تناول الغذاء وتصورا في بستان الفندق ودعوا بالحفاوة والتكريم وبعدها حدثت الكارثة وتوفيا وإنني أحتفظ برسوم هذه المشاهد في يافا.

[2] كلمة الشرب بالعامية تستعمل للتدخين أيضاً.



وصول أول طائرة عسكرية تركية لمدينة يافا بتاريخ سنة ١٩١٤ بقيادة الطيار الضابط نوري بك نوري الواقف تحت ماكينة الطائرة وزميله إسماعيل بك وبعدها قتل نوري بك في رحلته المشئومة بجوار سمخ والمزيريب وكانت وفاته مأساة في المملكة العثمانية. الصورة من المجموعة الجوهرية والمصور غير معروف.



ضباط عثمانيين في سيارة في القدس من ضباط ألمان من بينهم القائد فونكرس باشا في فترة الحرب العظمى الأولى.

صبيحة ذات يوم سلمني إياها وقدمتها إلى حسين أفندي الحسيني في داره بمحلة الشيخ جراح المعروفة وهكذا سلم الوالد برفيقة حياته الوفية والتي رافقته مدة أربعة وثلاثين سنة تقريبا كما كان يقول لنا .

إعتناء الوالد بمؤونة البيت

بالنظر لدخولنا في الحرب العظمى وتخوف الشعب من غلاء أسعار المواد الغذائية في البلاد استغلت تجار المدينة الموقف وبدأت بخزن المؤن من كافة أنواعها في بيوتهم خوفا من مصادرتها من قبل الجيش بما كانوا يسمونها بتكاليف الحرب وقد أصبحت البلاد في حالة فوضى وقد حاول العائلات بشراء ما أمكن شرائه وخزنه في بيوتهم وكذلك إبتدأ والدي وبواسطة بعض الأصدقاء من التجار خزن ما أمكن شرائه على قدر المستطاع وكنت أنا وأخي توفيق ننقل ذلك على حماره السمن والزيت والأرز والعدس والحمص والصابون والسكر والبن وغيره والذي من المتوقع القضاء عليها في البلاد بعد مدة قليلة بمناسبة الحرب العظمى . لم يعرف الوالد أن جميع ما ابتاعه كان وبا للأسف لأجل إطعام الزائرين في أيام عزائه فاسمع يا أخي ما يلي :

وفاة الوالد

عند الصباح من نهار الأحد الواقع في ٢٢ أيلول سنة ١٩١٤ كان والدي جالسا في الصالون (فصفق بيده حسب عادته عندما يرغب أحدا منا) لأن صوته لم يساعده على النداء جئت وأخي توفيق وإذا هو يقدم لنا ورقة بخط يده وموقعه بإمضائه وقال : ولك خذ إقرأ ما أبدع هذا الشعر ! ! أخذنا الورقة وكانت مكتوبا فيها :

"الموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد"

وحقيقة كان بيتا من الشعر رائعا ثم وضعنا الورقة بجانبه وذهبنا . وكان شديدا عديدا ونزل السوق ورجع عند الظهيرة . وبعد الظهر (القيلولة) حاول أن يلبس كندرته [أي حذاءه] لأجل الذهاب إلى باب العامود ولكن شاء القدر أن تمنعه الوالدة وقالت بكفيك نزلت في الصباح فإبقى اليوم في الدار وخصوصا عليك سهرة عماد حنا المنى في هذه الليلة جارنا كما وعدتهم يا أبا خليل . فقبل وقال لنا خذوا الحمار أنتم (أنا وأخي توفيق) واذهبا إلى المنشية للنزهة . وهكذا ذهبت وأخي توفيق وبقي والدي في البيت وعند الخامسة تقريبا أصابه فجأة وعكة في حنجرته وكانت قوية فأغلقت رقبته تماما وبقي حول ساعة من الزمن يضرب بيده اليمنى بكل قواه على رقبته حتى فارق الحياة وكنا في هذه المدة حوله لأن دار جيراننا المنى هم توزعوا في الحال في البلد وتمكنوا من إحضارنا والأخت عفيفة والأخت جوليا والعمة أم جميل . ومع الأسف لم يحضر وفاته أخي خليل الذي كان تحت السلاح في الجندرمة في بيروت كما ذكر عنه سابقاً ، ثم أختي شفيقة لسوء حظها لم تتمكن من رؤيته لأنها كانت ساكنة في بيت جالا فوصلت في ثاني يوم وحضرت الجنازة فقط .

كانت مأساة في ذلك اليوم المشؤوم وقد حضر جميع المدعوين من العائلات لحضور عماد حنا بن متري عبد الله المنى وسهروا على جثته إلى صباح الإثنين بألبستهم البهيجة كما كانت العادة آنذاك رحمه الله . أما أنا فكان وقع وفاة والدي علي وقع الصاعقة على رأسي ، فقد أظلمت الدنيا في وجهي وهالني المصاب وفكرت بمستقبلي المظلم وأنا لم أزل في السادسة عشر من عمري وأصبحت مسؤولا بالعائلة لأن أخي توفيق لا يقدر المسؤوليات في كل أعماله ومنذ نشأته وأخي خليل في بيروت ، ثم وقد أغلقت مدرسة المطران وضاع مستقبل علمي فيها فلم أستطع تحمل كل هذه الأفكار وخصوصا فراق والدي ذلك الوالد النادر المثال والذي أعبده وأحترمه وأفتخر به كما قال الشاعر "أين للناس أب مثل أبي" وهكذا كاد يغمى علي فأخذني الجيران ونمت بدون حراك في غرفة نور المنى إلى الصباح لم أعي على شيء والله يشهد .

حضر العم بل والدي الثاني حسين أفندي الحسيني حالا في الصباح معزيا ، وبذات الوقت جامل الوالدة وطيب خاطرها ووعدها بكل ما يلزمها وأولادها منذ تاريخ وفاة الوالد وأخذني بيده واشترى لي بدلة سوداء مقلمة وشجعني على السير بالحياة ووعدني بأن أكون دائما معه في العمل فشكرته . وقد ذهب توا إلى البطريركية وهناك رتب أمور الجناز بكل دقة وأمن على مصروف الجنازة التي تليق بالوالد على نفقة البطريركية وهكذا كان .

الجنازة

تحرك موكب الجنازة في الساعة الثالثة من بعد ظهر الإثنين ٢٣ أيلول سنة ١٩١٤ من دار الجوهرية في حي السعدية تقدمها شاويشية البلدية وفريق من قوة البوليس ثم القواسة والكهنة جميعها خارقة سوق باب العامود وخان الزيت وقد أغلقت أكثرية أصحاب الدكاكين ومشت في الجنازة وفي الكنيسة كان نيافة المطران الذي أقام خدمة قداس الجنازة وبعدها كان موظفي الحكومة والبلدية والدير وجمع غفير من الشعب على إختلاف أديانه من مسلمين ومسيحيين ويهود إلى أن وصلنا إلى مقبرة صهيون. وهناك تقدم الأستاذ السكاكيني فإبن الفقيد الغالي وأذكر مما قاله في كلمته "بمناسبة وفاة الجوهرية إنقرضت دولة الظرف" ثم تبعه الشيخ علي الريماوي صديق الوالد الوفي ومما قاله "لم أصدق أن روح الجوهرية تبقى في صهيون بل تنتقل في هذه الليلة إلى مأمن الله"[1] وعندما قال هذه الكلمات بدأت عجائز الطائفة تقول "يوه يبقى هيك؟ صاير مسلم يا أختي من كثر ما يعاشر المسلمين إلا ." وهكذا إنكسفت والدتي وحاولت أن تدافع عنه .والجدير بالذكر أن الشيخ علي الريماوي المومى إليه هو الذي عمل القبر على نفقته ، وقد حفر على بلاطة القبر بيتين من شعره :

تضيء مثواك نور الشمس مشرقة	على ضريحك في فردوسك الزاهي
لا زلت جرجس فيه جوهرا أبدا	عليك في كل حين رحمة الله

[1] المقصود مقبرة الروم الارثوذكس على جبل صهيون في القدس. ومأمن الله هي موقع مقبرة المسلمين غربي البلدة القديمة في المنطقة المعروفة اليوم بـ "ماميلا."

مات والدي عن ستة وسبعين سنة. وكانت الجنازة تعتبر من أروع الجنازات بالقدس لما كان عليه الفقيد من طيبة قلب ومعشر وحسن أخلاق ثم مكانته لدى الأسرة الحسينية الكريمة وخصوصا والدي الثاني حسين أفندي الحسيني الذي كان رئيسا لبلدية القدس أثناء موته وأخيرا محبة غبطة البطريرك ذميانوس وشغله في الدير زمنا طويلا.
أما الجناز فكان على القبر في صهيون نظرا لإغلاق الكنايس على أثر النهضة من طائفة الروم الأرثوذكس العرب ضد الإكليروس سنة ١٩٠٨. بقي العزاء في دارنا ثلاث أيام وثلاث ليالي باستمرار ولم يتركنا العم حسين أفندي الحسيني ومعه الأستاذ السكاكيني ليلة. وكانت جميع المقربين تتناول الغذاء والعشاء عندنا رحمة عن روح الفقيد وهكذا وكأنه وحيا من السماء نزل على والدي عندما اهتم واشترى المؤونة التي نوهت عنها سابقاً، إشتراها بيده لكي يطعم ما واسى خلفه بعد وفاته رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه وألهمنا الصبر والسلوان وإنا لله وإن إليه راجعون.

حوادث الوالد الطريفة في القضاء

كان فرنسيس الطرشة وهو خال الأستاذ إميل الصيداوي يشتغل شبه متعهد في سفر وصلات السياح وعنده جميع اللوازم المعدة للسفر على الطريقة القديمة مثل الخيام والكنبات وأوائل المائدة السفرية التي تحمل على البغال وذلك قبل وجود العربات بالقدس. إختلف فرنسيس المومى إليه مع أحد من أصحاب الأرض بموقع كرم رصاص خارج السور ومنع عن إقامة الخيام في الأرض. وفي حالة عصبية كان ماسكا بيده وتد الخيمة فقال إلى صاحب الأرض "لا تستطيع أن تمنعني والله بدق هذا الوتد في عين السلطان" ولما كان هذا الحادث زمن الظلم والإستبداد في العهد العثماني تمسك صاحب الأرض وشهد على أقوال العم فرنسيس ورفع دعوى جزائية أمام حاكم محكمة الجزاء بالقدس المرحوم واصف بك العظم الذي كان صديقا وفيا لوالدي. أجمع أهل المدعي عليه على توكيل الوالد وأتفق معهم على ثلاثين ليرة فرنساوي ذهبا شريطة أن يتمسك المدعى عليه بأقواله الحقيقية ولا داع للأفكار وتعهد والدي ببراءته، وهكذا كان.
وعند المحاكمة راجع المدعي صاحب الأرض ما قال له فرنسيس المدعى عليه ولما ذكر إسم السلطان قام الرئيس والأعضاء ثم جميع الحضور وقوفا إجلالا وإكبارا لعظمة السلطان يقولون غاضبين "أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله" ويحلقون عيونهم في العم فرنسيس. ولما جاء دور الدفاع قام والدي وقال "إن موكلي لم يزل يقر ويعترف بما قاله وهو لم ينكر بتاتا إنما أود أن أعرض لمحكمتكم الموقرة بأن موكلي لم يقصد ولم يفكر بما تفكرون فحاشا وكلا أن يقدم موكلي على المعنى الذي إتخذه المدعي في هذا الموضوع. بل عندما منعه المدعي من ضرب الخيام في أرضه قال له سأدق الوتد في عين السلطان وهو موقع معروف وينبوع مشهور في أريحا، والجميع يعرف بأن هذا الموقع يقيم فيه السياح ويناموا في الخيام هناك مدة طويلة. تبسم رئيس المحكمة وضحك الأعضاء والحضور وخرج العم فرنسيس رافع الرأس

بعد ما صدر الحكم بالبراءة فورا . وكان الجميع يعجب من سرعة خاطر الجوهرية وأصبح هذا الحادث مثلا لدى أهالي القدس في ذلك الزمن .

حضرة الزغبي الفلاح المحترم

في حادث ما أرسل والدي مذكرة حضور بإسم [ناقص في الاصل] الزغبي : "حضرة الفلاح المحترم" فلما إستلم الزغبي هذه المذكرة وبإيعاز من عائلة الدبدوب اللذين إتخذوا كلمة فلاح كإهانة ليس للزغبي فحسب بل لجميع أهالي بيت لحم وهكذا شجعوا الزغبي على إقامة دعوى إهانة وتحقير ضد الجوهرية وقد صادف بأن رئيس المحكمة آنذاك من أصدقاء عائلة الدبدوب ومنصور وبذات الوقت خصما لوالدي في المحاكم وعلى ما أذكر بأن هذا الرئيس إسمه صبحي بك . وكان والدي بالفعل يقصد إهانة الزغبي إثرا على مشكلة إرث وقف منها الزغبي بكل وقاحة وتعصب الأمر الذي جعل والدي يترقب الفرص للتنكيت عليه .

وفي أثناء المحاكمة قرأ المدعي مذكرة الحضور التي تذكر (الفلاح المحترم) وقد رافع موكله بأن بيت لحم هي قصبة وأهلها متمدنين وليست قرية زراعية يسمح لجوهرية أفندي أن يبعث إلى موكله بكلمة فلاح وحاول أن يثبت في إدعائه بأن الجوهرية قصد الإهانة ليس إلا . فلم شبل والدي وقف وقال "يا سيادة الرئيس أن العرف والعادة في هذه البلاد ومنذ القدم بأن كلمة فلاح تطلق عادة إلى من لا يلبس السروال (اللباس) فوالحالة هذه أطلب من محكمتكم الموقرة الكشف على المدعي فإذا وجد بأنه يلبس السروال أكون أنا عندئذ مستحق العقاب ، وإذا وجد بأن لا يلبس السروال فعندها يكون فلاح وإبن فلاح. وعند إنتهاء والدي من كلامه ركض المدعي العم الزغبي إلى باب المحكمة وخرج هاربا ومن بعده رجاله من بيت لحم وكان الحاكم والأعضاء وجميع الحضور يقهقهون من الضحك .

شهادة العواد والزمار

إثر عربدة السكارى في (خمارة بابين) المعروفة بحارة النصارى تكسرت القناني والكاسات وبعض أثاث الخمارة وكانت خسارة مادية لصاحبها الخواجة نقولا ، الذي وكل والدي وأقام الدعوى لدى المحكمة الشرعية وذلك قبل فتوح المحاكم المدنية بالقدس. وكان وكيل الفريق الآخر في الدعوى المرحوم المحامي داود أفندي الراغب. وفي أثناء الدعوى قد أبرز والدي الشهود فكان عمر أبو السباع ضابط الإيقاع، ثم إبراهيم أبو خليل العواد وشخص آخر وكان يلعب على الناي .

وقف داود أفندي الراغب الحسيني واعترض بكل قواه إلى القاضي وقال "يا سيدي القاضي إن الشرع الحنيف لا يجوز قبول شهادة الطبال والزمار وهؤلاء الثلاثة هم بالفعل كذلك ،" وقف والدي ثم التفت إلى زميله داود أفندي" من يرغب

بأن يكون في خمارة باين عدا عن هذه الأشكال. هل من المعقول أن يكون عكم طاهر أفندي سماحة المفتي، " فضحك القاضي وجميع الحضور وخصوصا داود أفندي وهكذا قبلت الشهادة وكسب والدي دعواه.

إن الدين عند الله الإسلام

صادف أن شخصا من أهالي القدس المسلمين شتم دين شخص مسيحي الذي أقام الدعوى في المحكمة الشرعية وطلب مجازاة الشاتم شرعا. وكان والدي [محامي] المدعى عليه أي الشخص المسلم في هذه الدعوى. ولما كانت الدعوى ثابتة لا غبار عليها وقد أثبت الشهود ذلك فعلا، رأى والدي بأن المدعى عليه موكله على وشك الإفلاس فحاول أن يستعمل المستحيل فوقف وقال: "يا سيدنا القاضي ألفت نظر فضيلتكم إلى الآية الكريمة الشريفة إذ تقول إن الدين عند الله الإسلام" فوالحالة هذه أرى أن موكلي ليس مذنبا وأطلب رحمته" فسر القاضي لسرعة خاطر الجوهرية وصدر الحكم بالبراءة وخرج الجميع يضحكون ويثنون على دهاء الجوهرية وخفة روحه.

منكر لا بقى رايح ولا جاي

عندما كان والدي ضامنا للمقهى والمنتزه على نهر جريشة كما أشرت سابقا في كتابي هذا كان عنده خادما أمينا وإسمه سعيد التكروري وقد صادف أن سعيد المومى إليه قد قتل شخصا عندما رجع ذات يوم من يافا إلى جريشة وقص حال وصوله الحادث إلى الوالد تماما. سأله والدي عندما قتله هل رآك أحدا أجاب لا سيدي لا بقى رايح ولا جاي!! فقال له والدي إذا إنكر يا سعيد. على كل حال فقد قبض على سعيد في المقهى وأحيل إلى القضاء والتحقيق فلما سأله المستنطق "إذا قتلته يا سعيد" أجاب، نعم قتلته ولكن منكر لا بقي رايح ولا جاي، وهكذا ثبت عليه الجرم وتأكد الحاكم بأن ما قاله كان من تعليم الجوهرية مخدومه.

هل جوهرية أفندي متزوج أرنب

تزوج والدي في الأربعين من عمره وأنعم الله عليه بثلاث بنات وكان جميع أصدقائه خصوصا في دوائر الحكومة ينادون عليه بأبي خليل والجميع ينتظر مولد خليل لأن والدي كان وحيدا في العائلة. فقد صادف أن والدي إتفق مع بعض أصدقائه على قضاء نهار جمعة في شطحة في حرش القطمون وهكذا ربط حماره في المنتزه البلدي صباح يوم الجمعة الذي مسؤولا في إدارته وإذ حضر متصرف القدس آنذاك وإسمه رشاد باشا وكان ذلك في زمن رئيس البلدية الحاج سليم الحسيني وكان هذا المتصرف صديقا للحاج سليم.

جلس المتصرف ولم يستطع والدي التخلص منه وفكر بحيلة طريفة أنقذته من هذا الموقف. فبعدما جامل سعادة المتصرف إنسحب ودخل المقهى وأمر خالي بأن يحضر فجأة عندما يكون والدي جالسا مع المتصرف ويصر في أذنه ويذهب حالا، ثم رجع والدي وجلس بمعية المتصرف. وبعد مدة قليلة إذ حضر خالي وأصر بأذن والدي وهرب.

عندها سـأل المتصرف والدي عن حديث خالي لعلمه بأن خالي جاء في مهمة خاصة من بيت الجوهرية، تلعثم والدي بالإجابة وقال لا شيء يا مولاي بسـيطة. قالــ المتصرف ممكن لازم شي جد في البيت.. وأخيرا أجاب والدي بأن خليل قد ولد ويشره خالي بالولادة هذه. سر سعادة المتصرف لهذه البشرى ووقفــ وهنأ والدي بالمولود وأعطاه ليرة عثماني ذهب نقوط المولود الجديد وانسحبــ حالا وقال لوالدي من الواجب أن تذهب الآن إلى البيت وهذا نهار سعيد ثم ترك المنتزه حالا مع أنه كان عازما أن يبقى في المنتزه إلى الظهر!! وهكذا ركب والدي حماره بعدما استلم الليرة الذهبية وذهب إلى حرش القطمون حيث قضى الشطحة مع أصدقائه لأن خليل أو غير خليل لم يولد بعد. ولكن بعد عشرة أيام فقط إنكشفت حيلة الوالدة لسعادة المتصرف بالطريقة الآتية:

صادف أن المتصرف المومى إليه كان مرافقا للحاج سليم الحسيني في محلة باب العامود إذ حضر والدي من تلك المحلة ظهرا للذهاب إلى دارنا في حي السعدية. وكان مولد الأخ خليل الحقيقي قبل يوم واحد من هذا الإجتماع وقد عرفــ الحاج سليم بالمولود الجديد في حينه. فلما إلتقيا مع والدي إلتفت إلى سعادة المتصرف وقال له "هل باركت لجوهرية أفندي بالمولود الجديد خليل الذي ولد مساء أمس." أجابــ المتصرف متعجبا "أمس فقط؟ فقال الحاج سليم نعم أمس."

وعندها قال المتصرف "شو جوهرية أفندي متزوج أرنبــ؟ فمنذ أسبوعين جاء خليل وباركت لوالده في المنشية. سأل الحاج والدي وقال له قر واسلم. وهكذا أقر والدي واعترف بالحقيقة وكيف أنه تخلص من المتصرف ليذهب إلى الشطحة!! وعندما سمع المتصرف ضحك وقال إذا الآن جاء خليل مبروك وأعطاه ليرة ذهبية عثماني نقوط أخرى.

إذا أكلها ما بكون مسيحي

مر والدي ومعه المرحوم صالح الجمل صديقه الحميم ومات أعزب. مر عن بعض وجهاء وموظفي القدس اللذين كانوا يجلسون في غرفة خشبية خاصة ببلدية القدس واقعة مقابل الثغرة التي فتحت خصيصا لدخول إمبراطور ألمانيا خارج سور باب الخليل. بعدما طرح السلام صادف بأن كلبا كان باب الغرفة، فسأله أحدهم قائلا "بدنا نسألك يا أبو خليل هل هذا الكلب مسلم أو مسيحي." كان سؤالا حرجا جدا لأن السائل مسلما معروفا والمسؤولـــ مسيحيا ولكن بالنسبة لذكاء الوالد وكرامته أجاب بطريقة لم تجرح الجهتين وقالــ: "هذه مسألة بسيطة جدا يا سيدي، اليوم الجمعة وعندنا صيام فإرمي له عظمة إذا أكلها ما بيكون مسيحي."

عاصم بك

عاصم بك كان مدير الأمن العام في البلاد في العهد العثماني وله مواقف عظيمة جدا في القدس في مشاكل الأمن بالنظر لشخصيته الفذة وقوته. كان كردي الأصل وتزوج من عائلة القطبـــ بالقدس فخلف فخري بك وعزت بك ثم نظيرة

هانم التي تزوجت من [ناقص في الاصل] الخالدي وأنجبت راسم الخالدي. لم يزل كل من كان على زمن عاصم بك يروي القصص النادرة في حياة هذا الشهم والذي قضاها بالقدس ومع أهل القدس فكانت شطحاته وسهراته تعبّر وتشبه بمجالس الرشيد. وكان والدي يكون غالبا في هذه المجالس من مجالس الحظ والسمر ولم يجرأ أحدا على مداعبته إلا القليل ومن ضمنهم الوالد لما كان عليه من خفة روح وسرعة النكتة وها أنا أذكر للقارئ حادثتين طريفتين:

خلي العما يصيبني

كانت شطحة في قرية إرطاس من قضاء بيت لحم فأخذ الحظ والسرور كل مأخذ لمن حضر هذه الشطحة التي كان يترأسها عاصم بك. كانت فرقة أبو السباع واستمر الشرب والأكل والغناء والرقص إلى قريب الغروب من ذلك النهار. وكان والدي كما كانت العادة المتبعة في ذلك الزمن الساقي وفي يده قنينة الخمر يملأ الكاس الصغير ويقدمه أولا إلى عاصم بك ثم إلى الحضور من بعد عاصم بك وبذات الكاس.

وقد لاحظ والدي بأن الخمر كان قريبا من الخلاص ولم يبق إلا القليل في قاع القنينة التي كانت في يده فأحب أن يخص نفسه بكمية أكثر من الموجودين واستعمل هذه الحيلة.

ملأ كاس العرق حتى طفح، وقال العما ثم شربه على مرأى من عاصم بك والحضور زاعما بأن الكاس الطافح لا يستحب تقديمه لعاصم بك فيعتبر ذلك تشاؤما، ثم أعاد إملاء الكاس وملأه تماما بالقصد وقال العما والخزى وحاول أن يشربه مرة ثانية وإذ تنبه عاصم بك للحيلة فمسك والدي، وقال له "يا أبو خليل خلي هالعما يصيبني هات القنينة."

فشفش

كان شيخ جليل في القدس ساكنا في الطور وكان يلقب بالشيخ فشفش إنما يغضب جدا على الشخص الذي يجسر ويناديه بهذا الإسم وكثيرا ما يضرب بعصا ذلك الشخص. فاتفق ذات يوم والدي مع بعض أصدقائه بأنه سيقول لهذا الشيخ فشفش وبدون أن يغضب الشيخ وإذا صح ذلك عليهم فطور مطبق لعشرة أشخاص. مر هذا الشيخ راكبا حماره من سوق الخواجات بجانب سوق العطارين عندما كان والدي يشرب الأركيلة عند صاحب دكان من أصدقائه هناك، وكان والدي جالسا وحوله الفريق الذي عقد الرهان معه وعندما رأى والدي الشيخ وقف ودق بالحمار وعزم على الشيخ بأن يكرمه بفنجان قهوة، فنزل الشيخ ولم يرفض طلب والدي لأنه كان يجله ويحترمه. فبعدما جلس الشيخ وشرب القهوة بدأ والدي مخاطبا الشيخ قائلا:

شوف مولانا أن كيت، ووالدتي كيت، وأختي كيت من الكلام الوزن الثقيل بصورة نرفزة مما جعل الشيخ بأن يهدي روعه ويقول له "لا والله فأنت جوهر حاشا وهكذا حتى انتهى والدي من خطبته، ثم قال "هذا أنا يا مولاي أما أنت ف فشفش فشفش فشفش.

فضحك سيدنا الشيخ وقال شو بدي أقول لك الله يسامحك والله ما خليت لي ولا شتيمة أقول لك" ، ثم قص والدي ما راهن عليه مع الجماعة من الأصدقاء فأخذوا سيدنا الشيخ فشفش وتناولوا طعام الإفطار مطبق عند زلاطيمو معهم .

مال النار للنار

ترك التدخين والدي وهجر الأركيلة مدة سنة كاملة . وكان يضع يوميا ما كان يصرفه على التنباك في خزانة وبعد مدة كسر الخزانة ، وإذ هو مبلغ لا يستهان به فاشترى قماش حريري مكتوب عليه ملبوس الهناء ففصله قمباز ولبسه مرة واحدة فقط . وإذ صادف أن أولاد بعض أصدقاء العائلة زارتنا في دار السعدية عندما كان القمباز معلقا بجانب سريره في الغرفة فجاءوا وأشعلوا الشمعة بجانب السرير فحرقت أطراف النموسية فالتهب وحرق القنباز ، فعندما رآه والدي وهو مشتعل قال "صحيح صدق من قال "مال النار للنار" عرص الذي يطفيك ، وهاتي الأركيلة يا أم خليل .

بلاطة والمسهل

زار والدي مرة صديقه زخر أبو فوتة زخر في الساحة حارة النصارى فوجده مريضا ، وقد صادف بأن الدكتور نقولا سبيريدون جاء لأجل تمريض زخر فدخل الغرفة بحضور والدي حسب طلب المريض وأهله . سأل الطبيب عن حالة المريض فاجابه والدي باللغة اليونانية وكان يجيدها "يا دكتور أؤكد لك بأن المريض حالته بسيطة جدا وهو أقوى مني ومنك . ولكن معلومكم حالة الطائفة التي إعتادت على الطب والحصول على الدواء بلا مقابل فهذا المريض لم يخرج منذ ستة أيام ومعه إمساك فظيع وعندما يأخذ المسهل بدون مقابل يلقي به من خارج الشبابك ولا يشربه" . فقال الدكتور والله مسألة فيها نظر وما العمل إذا؟ فقال والدي أرى من الضروري أن تكتب إلى الصيدلية بتحضير كمية وافرة من زيت الخروع وتسقيها إلى المريض بالذات فأنا آخذه معي هناك وبهذه الصورة نكون أفدنا المريض من الخطر فوافق الدكتور على أفكار الجوهرية وكتب الروشيتة بالمسهل زيت الخروع وأضاف شرحا شديد اللهجة لحشر المريض وإعطائه المسهل داخل الصيدلية بالقوة ووضع الروشيتا على الطاولة بجانب المريض وخرج .

وبعد مدة قليلة إذ جاء المرحوم حنا بلاطة وهو إبن خالة زخر المريض وكان طاعنا في السن طويل القامة (وقد كتبت عنه حادث فيما سبق من هذا الكتاب) كان يتكأ على عصاه ويلهث من التعب وصعود سلم الدار ويقول باطل يا إبن خالتي ، باطل أنا فداك يا إبن خالتي .

استقبله والدي وقال له إذا عندك عطف على إبن خالتك قم وأحضر له الدواء وأعطاه الروشيتا فقال العم حنا بلاطة ولو نحن لبعض ، وذهب إلى مستشفى دير الورم ووقف خارج باب الصيدلية ينتظر دوره . فعندما قدم الروشيتا إلى الصيدلي أخذها هذا وأطلعها على الرئيس تمتولي وكان أعرجا وهكذا في الحال حضروا كمية وافرة من زيت الخروع ،

وذهب الصيدلي وقال إلى حنا بلاطة "أوريسته ميسا" أي تفضل أدخل. فأجاب العم بلاطة لا لزوم حتى أنتظر هنا، ولكن الصيدلي أجبره على الدخول إلى الصيدلية وأجلسه على كرسي بجانب الباب ليستريح بصفته طاعنا في السن. ثم جاء الرئيس نقولي ومعه ثلاثة صيدلية من اليونان الأقوياء فمسكوا العم بلاطة بشدة وأعطوه المسهل وهو يقول مش أنا العيان، ويرد عليه نقولي "سكايسه موري" أي كول هوا وهكذا خرج العم بلاطة وأدرك أنه مقلب من الجوهرية واضطر هذا المسكين على التسبب في الشارع وعلى طول الطريق وهو يقول يعدم شبابك يا جوهرية يعدمك شبابك يا جوهرية، عملتها في.

لا إله إلا الله وكفى

كان جريس كتن من عائلات الروم الأرثوذكس العرب المقدسيين المعروفة ويعتبر من أغنيائها المشهورين ولكنه كان ممن يعدون المال ولا يصرفون إلا ما أحتاج إليه كان صديقا لوالدي فيضمن الأعشار من الحكومة. وكان من عادته عندما يكونوا في سهرة وتسهي عيونه من النعاس فإذا ما قال له أحد الأصدقاء وحد يا ابو نخلة يجيب فورا لا إله إلا الله، وأصبحت هذه الجملة عادة تعود لسانه عليها دائما أبدا. وقد صادف أن العم رافق الوالد لأول مرة في مدينة نابلس ودعيوا إلى سهرة وعندما سهت عيونه (أراد والدي أن يعمل له مقلبا ليحصل منه على بعض النقود بطريقة طريفة) قال له وحد يا أبا نخلة فأجاب المسكين حسب عادته لا إله إلا الله، وكان أغلب الحضور من المسلمين أصدقاء الوالد، قال والدي للحضور إشهدوا عليه. فاعترف الجميع بصحة إعتناقه لدين الإسلام، فجن جنون العم أبو نخلة الذي فوض والدي بأن يدبر الأمر بحكمته. وبالإختصار دفع العم أبو نخلة عدا ونقدا ليرات عثمانية ذهبية وعمل والدي بالقيمة شطحة في بستان الباشا ممتازة أكل فيها الحضور القدر والكنافة طول النهار وكان الجميع يثني على كرم العم أبو نخلة الذي بقي مسيحيا ومن ثم على دهاء الجوهرية.

لا وجود لعربة (أو سيارة خيل) بالقدس

حدثني والدي فقال "عندما كنت ربما في الثالثة عشر من عمري سنة ١٨٥٠ لم يكن سيارة تجر بواسطة الحيوانات مطلقا ولم نعرف (العجل) بل كان السفر بواسطة ركوب الحيوانات من الخيل والبغال والحمير والجمال فقط وإني أذكر أول من جاء بما كانوا يسمونه (طنبر) وهو عربة قائمة على عجلتين وتجر بواسطة بغل (فرنسا) وكانت هذه العربة تنقل القرميد القديم الصنع لكنيسة فرنسا في قرية أبو غوش فكنت وكثيرا من أولاد جيلي نسير خلف هذه العربة من باب الخليل إلى أن نصل قريبا من لفتا نتأمل في العجل الذي بواسطته تدور وتسير بسرعة ثم نرجع وكلنا إعجاب لهذا الإبتكار الغريب.

الأبناء خارج سور مدينة القدس

حدثني والدي فقال: عندما كنت صغيرا ربما في سنة ١٨٤٥ أذكر أن لا بناء كان خارج السور سوى بعض القليل جدا أذكر منه قصر أبو الهدى الخليلي طريق القدس- بيت لحم، قصر الحديدية بجوار محطة السكة الحديدية وملك البطريركية الأرثوذكسية، قصر بن يمين طريق القدس بيت لحم بما فيه دير وكنيسة مارالياس، قصر العماوي مقابل جامع الشيخ جراح، بناء في كرم رصاصي موقع متحف القدس الآن. ثم جامع الشيخ بدر طريق القدس-يافا، عكاشة جامع أيضا محلة عكاشة وبعض الأبنية الرخيصة المتفرقة.

إغلاق أبواب مدينة القدس عند الغروب من كل يوم

حدثني والدي فقال: عندما كنت صبيا ربما في سنة ١٨٤٥ كانت أبواب المدينة تغلق من قبل الدولة عند الغروب يوميا وذلك خوفا من هجوم البدو ودخول المدينة ليلا، وعندما كنت أتأخر مع بعض رفقائي من الأولاد قليلا عن الغروب ونحن نلعب خارج السور فنجد أن الأبواب مغلقة كنت أتسلق والأولاد من جهة خارج باب العامود من ثغرة وعرة حتى نصل إلى سوار المدينة وننزل من جهة عمارة الجبشة.

الأرض خارج باب العامود

كانت الأرض الموجودة في يومنا هذا والواقعة مقابل باب العامود من الخارج شبه واد فكنا (كما قال والدي) كنا نمشي ونطلع طلوعا إلى أن ندخل باب العامود كما هي الحالة الآن من خارج باب الخليل وباب النبي داود وباب الإسباط لأنه كان من المفروض به عندما أنشأ هذا السور والأبواب بأن يشرف باب المدينة على منحدر يكون أوطى من موقع الباب كي يتمكن المحاصر من صد العدو ولا يمكنه من الإشراف فوق السور. وأن الأرض الواقعة خارج باب العامود هي طمم إصطناعي كان ينقل من داخل المدينة عندما أنشأت عمارات ومعاهد شبيهة بفندق مرقص وعمارة الروس مقابل كنيسة الألمان "الدباغة" ثم سوق أفتيموس وعمارة وكنيسة الدباغة وراهبات صهيون الإفرنسية وغيرها فكانوا يحذفون الأنقاذ القديمة من على فوق سور باب العامود. وإثباتا لقول والدي الذكور كان رحمه الله يطلعنا على عتبة باب لمن يبق منها سوى أقل من علو عشرين سنتمتر مقامة في سور أرض المسكوب [أي الروس] خارج السور والواقعة على الطريق بين نوتردام دي فرانس وباب العامود.

ملاحظة صاحب الكتاب

وإني أنا صاحب هذا الكتاب أضيف ما أعلمه عن هذه الأرض مما يزيد في صحة ما قاله والدي فأقول:

عندما كنت وأخي ربما في العاشرة من عمري كنا نتفرج على العمال اللذين كانوا يؤسسون البناء لعائلة مرقص المؤلف من دكاكين والواقع من الجهة اليسرى عندما تخرج من باب العامود وتتجه إلى حي المصرارة صيدلية لأنطوني الحلبي

وإخوانه ودكاكين لبائعي الحبوب على مختلف أنواعها كان الأساس عبارة عن ١٥ مترا وكله ردم من حجارة صغيرة تبين بوضوح بأن هذه الأرض ليست الأرض الطبيعية بل إنقاذ وحجارة وتراب متراكمة فوق بعضها البعض ليس إلا .

وإني أزيد القارئ علما بأن هذا البناء العائد إلى عائلة مرقص قد هدم في العهد البريطاني كما سيجيء البحث عنه لاحقا في هذا الكتاب .

رؤية والدي للقزم

حدثنا والدي هذا الحادث الطريف فقال : عندما كنت أعزبا وساكنا في دار والدي خليل جوهرية بجانب زاوية المولوية بالقدس ساكنا لوحدي وأمام دارنا كان ساكنا خليل البرامكي رسام أيقونات . في ذات ليلة وعندما قرأت ما تيسر من القرآن في فراشي ، وكنت أنام على فرشة مقابلة لباب الغرفة تماما ، طفيت الشمعة لكي أنام وإذ رأيت قزما يلبس طنطورة على رأسه ويحمل في يده سوطا يتمشى في الغرفة ذهابا وإيابا وقد لمس خاتمه الذي كان يلبسه في الإصبع ، الخزانة الخشبية الموجودة في الحائط بجانب الركسة ، وسمعت صوت لمسة الخاتم مع الخشب في أذني .

تشجعت وبدأ قلبي بالخفقان ثم لعنت الشيطان ورفعت طرف اللحاف فغطيت رأسي ، وإذ جاء القزم ورفع اللحاف من على رجلي ، وكدت أموت من الخوف ولكن تشجعت وأدخلت طرف اللحاف من تحت رأسي ومسكته بيدي اليسرى بشدة ثم تمكنت من وضع طرف اللحاف المقابل تحت رجلي اليسرى وقد رفعت رجلي اليمنى وأصبحت على إستعداد لضرب القزم برجلي فيما إذا حاول أن يرفع اللحاف من تحت قدمي . وهكذا بعدما عجز على رفع اللحاف من فوق رأسي عاد وحاول رفعه من على رجلي . فعندما شعرت مسك اللحاف رفست القزم هذا برجلي اليمنى بكل ما أوتيت من قوة فهوى على الأرض وفي عتبة الغرفة وسمعت وقعته جليا فعملت صوتا قويا مما زاد خفقان قلبي .

وبعد ذلك قام القزم من كبوته وجاءني فضربني بالسوط الذي بيده على فخذي الأيمن كدت أن أغمى علي من شدة الألم ، فمسكت فخذي بيدي اليمنى ، ونظرت في الغرفة فلم أرى أحدا ثم حاولت فأضئت الشمعة ، وهكذا لم أجد أحدا في الغرفة وزاد بي الألم . أصابني بعد هذا شيئا من الذهول فكان بجانبي كانون النار فجئت به وقذفت به على اللحاف أمامي فحرق اللحاف وأصبحت الغرفة دخان كثيف كدت أن أختنق . حاولت كل جهدي وأنا لم أزل ماسكا بفخذي الأيمن من شدة الألم وفتحت النافذة وصرخت بأعلى صوتي إلى خليل البرامكي وكان لحسن الحظ سهران ويصور الأيقونات للموسم فجاء وعائلته مبهوتين .

سألوني لم أقدر على الإجابة إنما أذكر بأنني قلت له (خذني لبيتكم ، وأطفئ النار) ، بعد يومين وجدت نفسي نائما عند جارنا خليل البرامكي الذي وأفادني بأنه حال وصولي إلى بيته جاء بالحلاق وفصدني في يدي (أي أخذ دم من العرق) وقد قضى حالا على الحريق في غرفتي وخسرنا اللحاف وقسما من الفرشة .

وإخوانه ودكاكين لبائعي الحبوب على مختلف أنواعها كان الأساس عبارة عن ١٥ مترا وكله ردم من حجارة صغيرة تبين بوضوح بأن هذه الأرض ليست الأرض الطبيعية بل إنقاذ وحجارة وتراب متراكمة فوق بعضها البعض ليس إلا .
وإني أزيد القارئ علما بأن هذا البناء العائد إلى عائلة مرقص قد هدم في العهد البريطاني كما سيجيء البحث عنه لاحقا في هذا الكتاب .

رؤية والدي للقزم

حدثنا والدي هذا الحادث الطريف فقال : عندما كنت أعزبا وساكنا في دار والدي خليل جوهرية بجانب زاوية المولوية بالقدس ساكنا لوحدي وأمام دارنا كان ساكنا خليل البرامكي رسام أيقونات . في ذات ليلة وعندما قرأت ما تيسر من القرآن في فراشي ، وكنت أنام على فرشة مقابلة لباب الغرفة تماما ، طفيت الشمعة لكي أنام وإذ رأيت قزما يلبس طنطورة على رأسه ويحمل في يده سوطا يتمشى في الغرفة ذهابا وإيابا وقد لمس خاتمه الذي كان يلبسه في الإصبع ، الخزانة الخشبية الموجودة في الحائط بجانب الركسة ، وسمعت صوت لمسة الخاتم مع الخشب في أذني .
تشجعت وبدأ قلبي بالخفقان ثم لعنت الشيطان ورفعت طرف اللحاف فغطيت رأسي ، وإذ جاء القزم ورفع اللحاف من على رجلي ، وكدت أموت من الخوف ولكن تشجعت وأدخلت طرف اللحاف من تحت رأسي ومسكته بيدي اليسرى بشدة ثم تمكنت من وضع طرف اللحاف المقابل تحت رجلي اليسرى وقد رفعت رجلي اليمنى وأصبحت على إستعداد لضرب القزم برجلي فيما إذا حاول أن يرفع اللحاف من تحت قدمي . وهكذا بعدما عجز على رفع اللحاف من فوق رأسي عاد وحاول رفعه من على رجلي . فعندما شعرت مسك اللحاف رفست القزم هذا برجلي اليمنى بكل ما أوتيت من قوة فهوى على الأرض وفي عتبة الغرفة وسمعت وقعته جليا فعملت صوتا قويا مما زاد خفقان قلبي .
وبعد ذلك قام القزم من كبوته وجاءني فضربني بالسوط الذي بيده على فخذي الأيمن كدت أن أغمى علي من شدة الألم ، فمسكت فخذي بيدي اليمنى ، ونظرت في الغرفة فلم أرى أحدا ثم حاولت فأضئت الشمعة ، وهكذا لم أجد أحدا في الغرفة وزاد بي الألم . أصابني بعد هذا شيئا من الذهول فكان بجانبي كانون النار فجئت به وقذفت به على اللحاف أمامي فحرق اللحاف وأصبحت الغرفة دخان كثيف كدت أن أختنق . حاولت كل جهدي وأنا لم أزل ماسكا بفخذي الأيمن من شدة الألم وفتحت النافذة وصرخت بأعلى صوتي إلى خليل البرامكي وكان لحسن الحظ سهران ويصور الأيقونات للموسم فجاء وعائلته مهرولين .
سألوني لم أقدر على الإجابة إنما أذكر بأنني قلت له (خذني لبيتكم ، وأطفئ النار) ، بعد يومين وجدت نفسي نائما عند جارنا خليل البرامكي الذي وأفادني بأنه حال وصولي إلى بيته جاء بالحلاق وفصدني في يدي (أي أخذ دم من العرق) وقد قضى حالا على الحريق في غرفتي وخسرنا اللحاف وقسما من الفرشة .

ثم حدثته ما أصابني مفصلا وأطلعتهم على ضربة السوط في فخذي، ودهشوا جدا، وكان رحمه الله عندما يقص هذه الرواية يطلعنا ويطلع كل من حدثه عنها ضربة السوط التي بقيت في جسمه لآخر يوم من حياته وأصبحت معروفة لكل من العائلة والجيران والأصدقاء.

كما مرارا نقول له يابا إذا هذا هو الرصد، وهذا من الجن، ولكنه كان ينفي وجود ذلك وكان لا يعترف بهذه السخافات وقال: كل ما هنالك أن زيادة في الدم وبدورة الدم حصلت معي فحدثت هذه الصور أمامي فألفت رواية ليس إلا. قلنا وما قولك بضربة السوط التي لم تزل معك لغاية الآن؟ قال هذا أثر ضغط الدم كما قلت لكم فظهر في الفخذ ليس إلا فكان رحمه الله لا يعرف معنى للخوف إلا من الله سبحانه وتعالى فكان رجلا حديثا وواقعي بكل ما في هذا الكلمات من معنى.

رؤية الوالد مع شخصين آخرين

حدثنا والدي عن رؤية منام صادفت معه في زمن الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٠ وإنها والحق يقال لمن أغرب ما سمعنا من الأحلام قال: "كنت والشيخ عبد الرزاق العفيفي وخليل أفندي واقفين على الميناء في يافا عندما كان القمر بدرا وكان البحر أمامنا ملآنا من المراكب الشراعية تحمل شارة الصليب على السواري. وإذ هبط القمر من السماء ما بين هذه المراكب الشراعية بسرعة فائقة فأحدث هياج بصورة مؤثرة للمراكب وكان منظرا مزعجا للغاية. سألني الشيخ عبد الرزاق شايف أبو خليل؟. ثم سأل خليل أفندي أيضا فأجبنا بالإيجاب. هذا هو الحلم أو الرؤية إذا شئنا أن ندعوها. صحيت وقلبي يخفق خوفا وإنزعاجا على الفور، ثم أضأت الشمعة وأنرتها وبعدما هدأ روعي كتبت ما رأيته على الورقة وذكرت إسم الله ونمت ثاني.

ملاحظه: أن الشيخ عبد الرزاق العفيفي كان شيخ جليل وقور وتقي فكانوا يلثمون يديه في الأسواق تبركا ويثقون به كل الثقة وكان عالما معروفا في ذلك العصر وخصوصا في الدين. وأما خليل أفندي فكان بوظيفة باشكاتب الطبور ومركزه في الغرفة الأولى على يدك اليمنى عند دخولك المدخل الرئيسي للسراي داخل السور وهي مقر قومندان الجندرمة آنذاك.

وفي الصباح أخذت نص الرؤية وعزمت على فتح مكتبي للمحاماة وكنت شريكا لداود أفندي الراغب الحسيني وذلك في الدكان المقابلة تماما لباب السراي ملك وقف اليهود. وإذ رأيت الشيخ عبد الرزاق العفيفي ومعه خليل أفندي واقفين باب غرفة خليل أفندي يشيرا بأيديهم إلي فجئت في الحال. قص الشيخ عبد الرزاق ذات الرؤية بالتمام والكمال علي وقال وقد جئت فوجدت بأن خليل أفندي رآها تماما أيضا الأمر الذي يوجب الدهشة والإستغراب. ثم قال "لو لم تكن يا أبا خليل مؤمنا لما كان الله جمعنا معك في هذا الحلم الغريب.

قلت له يا مولاي "هل أثر عليكم هذا الحلم بالتفاؤل أو التشائم لا سمح الله، وما هو يا ترى معناه وتفسيره" فقال:

"إعلم يا أبا خليل أن الصليب الذي رأيناه على المراكب أعتقد بأنه دولة روسيا . ثم القمر هو ولا شك راية تركيا فوالحالة هذه يتخايل إلي أن تركيا ستخسر الحرب مع الروس ، والله أعلم ، وأخيرا قلت له لا تعجب يا مولاي إذا عرفتك بأنني كنت حقا بمعيتكم وقد شاهدت هذه الرؤية تماما معكم ثم نهضت وكتبتها بخط يدي ، وهذا هو النص أقرأه ."

دهش الشيخ عبد الرزاق وخليل أفندي وزاد تعجبهما ، وقد أعلم رجال الدولة عن هذا الحادث الغريب ونشر فعلا في النشر الرسمية التي كانت تصدر في الإستانة آنذاك . والغريب في الأمر أن حلم الثلاثة منا قد تحقق وانكسرت تركيا في تلك الحرب كما أستنتج الشيخ عبد الرزاق العفيفي تماما .

بعدهم يقولون أن تركيا خسرت الحرب

قد صادف مرة لوالدي زمن حرب روسيا وتركيا سنة ١٨٧٠ بأنه سافر إلى يافا بحادث ما وكان معه موظفا حكومي أمي لا يعرف شيئا في الدنيا وكان في الزمن السابق عطارا ، وبالواسطة تعين في وظيفة الأعشار وهكذا دخل من سن الشيخوخة ولم يترك القدس القديمة إلا في هذه المرة . ركبا مع زملاء لهما الخيل والبغال إلى أن وصلا باب الواد فناما عند عائلة قطينة وعند الصباح الباكر شاهد هذا الموظف السهل الذي يمتد إلى بحر يافا فأدهشه هذا المنظر وسأل والدي بتعجب "لمن تكون هذه الأراضي يا أبا خليل" فأجاب والدي أنها تحت حكم الدولة العثمانية . فما كان منه إلا أن فتح ورفع يديه إلى السماء قرأ الفاتحة وقال : "اللهم زد وبارك بعدهم يقولون أن تركيا خسرت الحرب؟ مع روسيا؟ شو بدنا أكثر من هيك مملكة يا أبو خليل ."

دخول كنيسة القيامة بدون حذاء

حدثني والدي فقال :

عندما كنت صغيرا رافقت والدتي للصلاة في كنيسة القيامة . ولدى وصولنا الباب شلحت من قدميها الحذاء وأوصتني به لعندما ترجع . ولكن غافلني ولد شقي من أولاد الأزقة وخطف الحذاء وهرب إلى جهة خان الزيت فلحقته راكضا إلى أن إختفى عن بصري من إزدحام الناس في حي خان الزيت ورجعت خائبا وعرفت والدتي بالأمر فغضبت جدا ورجعت إلى البيت بدون حذاء . وهذا الحادث هو أكبر برهان بأن المصلين كانوا يدخلون القيامة بدون حذاء أشبه بالحرم ، وفي هذه المناسبة ألفت نظر القارئ إلى الآتي :

زيارة البراق بدون حذاء

إني لم أزل أحتفظ بصورة فوتوغرافية قديمة تظهر بأن زائرين حائط المبكى "البراق" من اليهود يقفون على هذا الحائط المقدس يبكون ويولولون ويصلون بدون حذاء من أرجلهم كما أنه يظهر في هذه الصورة عددا كبيرا من أحذية الناس

مصفوفة بإنتظام من الجهة الأولى لدخول الزائر بجانب حائط المبكى [البراق] هذه الصورة حفظت في المجموعة الجوهرية للذكرى.

حادث المرحوم يوسف بك الدزدار

حدثني والدي فقال:

جرى إختلاف عظيم ما بين إكليروس[1] طائفة الروم الأرثوذكس وبين إكليروس طائفة اللاتين بالقدس الأمر الذي أدى إلى معركة حامية الوطيس في سطح القيامة وداخل الكنيسة بين الفريقين المتنازعين. حدث هذا بالفترة الواقعة بين دخول إمبراطور ألمانيا القدس سنة ١٨٩٨ وبين الإنقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ وذلك في جمعة الآلام نهار سبت النور العظيم.

وقد صادف أنه عندما كان الراهب اللاتيني مطروحا على الأرض وبيده اليمنى السكين، كان راكبا عليه الراهب اليوناني الرومي وقابض على معصمه الذي كان ماسكا فيه السكين خوفا من أن يقتله فيه. وإذ جاء المرحوم يوسف بك الدزدار وكان بوظيفة قوماندان في سلك الجندرمة قوي البنية طويل القامة جهامي ومن الشبان المشهورين في الجمال والبطولة وعند وصوله رفع الإثنين بقوته من على الأرض وهكذا أفلتت يد الراهب اللاتيني من قبضة الراهب اليوناني فحاول ضرب الراهب الرومي بالسكين ولكن مع الأسف أخطأ الهدف فأصابت الضربة عين يوسف بك وأتلفت العين.

كانت هذه الموقعة ما بين مدخل دير أبونا إبراهيم والباب الصغير المؤدي إلى جهة الأرمن في سطح القيامة وعلى إثر هذه المأساة دبت الفوضى بين الأهلين بصورة فظيعة حتى أنك كنت ترى الناس تدوس على أجسام بعضها البعض وبطش الجندرمة بالرهبان المتخاصمين إلى أن إستتب الأمن بحضور فرقة من العسكر الشبهاني. وقد كلف هذا الحادث المؤلم الأموال الطائلة للبطريركية الأرثوذكسية واللاتينية ودير الفرنسيسكان لما دفعوه تعويضا لعائلة الدزدار جميعها وإلى كبار موظفي الحكومة أيضا.

حدثني والدي فقال:

حدث شجار عائلي ما بين عائلتين من أهالي مدينة الخليل الرحمن عجزت الدولة عن إيقاف المتخاصمين. فتداخل محكمون من أعيان مدينة القدس المسلمين المعروفين في ذلك الزمن لفض النزاع على الطريقة بما يسمونها الحكم العشائري أو القضاء الأهلي وقد صادف أنني كنت واحدا من هذه الهيئة. فلما وصلنا مدينة الخليل وزعت الأفندية بين الأهلين هناك وكان نصيبي بأن أقضي ليلة في فندق كانت تديره يهودية إسمها حنة في المدينة. ولما دخلت الفندق مع شخصية من عائلة بدر على ما أذكر جاء يوصي حنة صاحبة الفندق براحتي فقال لها:

[1] الإكليروس هم رجال الدين.

ها يا حنة ديري بالك عالأفندي ، وإلا بلعن أبو صليبك ها يا حنة حطي للأفندي شراشف نظيفة وإلا بلعن أبو صليبك .

معتقدا بأن الصليب هو معبود حنة اليهودية ، وقد جهل بأن الصليب هو تابع للأفندي ، الذي جاء ليوصي على راحته وقد غرته ذقني فاعتقد بأنني من أفندية القدس المسلمين . فكنت صامتا لا أبدي له أي إعتراض بل أصبح هذا الفصل نكتة الصلحة بين الموظفين في تلك الرحلة ، وموضوع البحث عند أفندية القدس في هذا الزمن .

ظني بالله طنوس

حدثني والدي فقال :

كانت العادة المتبعة لموظفي الدولة في العهد العثماني إستعمال (الختم) في المعاملات الرسمية وفي السجلات والقيود النظامية . وكانوا يتفننون بحفر هذه الأختام فمثلا "من كان إسمه حسن يحفر ختما ويقول فيه "ظني بالله حسن . أو حافظ ، يحفر ختما ويقول فيه الله حافظ على كل حال . أو يوسف يحفر ختما ويقول فيه "يا يوسف أفتنا" أو إبراهيم يحفر ختما ويقول فيه سلام على إبراهيم . وكلها تشير إلى بعض الآيات الشريفة .

فقد جاءني مرة المرحوم طنوس تيودري شقيق تيودر يانكوثيودري من طائفة الروم الأرثوذكس العرب ومن عائلاتهم المعروفة وكان قومسير بوليس بالقدس جاءني وبيده خاتما في منتهى الطرافة وحسن الحظ والخط كان كان نافرا من صنع الإستانة بالفارسية ، والمعدن من الفضة الرباص فأطلعني عليه وقال "بالله عليك يا أبا خليل أنت صاحب الذوق السليم فما رأيك في هذا الختم ."

قرأته وكان مكتوبا عليه "ظني بالله طنوس" فقهقهت عاليا من الضحك وقلت له "الأحسن أن لا تطلعه على سواي وخصوصا على إخواننا المسلمين خوفا من أن يضحكون علينا ، لأن كلمة طنوس أو خنوس تقال عادة إلى الخنزير الصغير أو الجرو من الكلاب . فإن المسلمين يكتبون أختامهم ويقولون ظني بالله حسن أي أن الله سبحانه وتعالى حسن إلى ما هنالك من الإرشادات والنصائح" ولكن طنوس أفندي أبى أن يستمع إلى نصحي وإرشادي فقال : ولكن قد دفعت ثمنه غاليا في الإستانة فقلت ذلك ثمن جهلك فقد دفعته سلفا وأطلب العوض من الله .

وصفة عربية أنقذت حياة الوالدة

حدثني والدي فقال :

حصل إلتهاب قوي في رجل الوالدة اليمنى أثرا على نفاسها بعد ولادة إبننا توفيق . وقد زاد الإلتهاب فحدث "كركرينا" مما إضطر الحكيم الألماني إلى إعطاء القرار النهائي بقطع الرجل حالا . فقد عرجت يوم قرار الحكيم على [الحاج خليل الداودي العطار] والمشهور بالقدس آنذاك بالطب العربي فقد هاله منظر وجهي لما كنت عليه من تخوف وقلق الأفكار

كيف ولا والوالدة هي مسؤولة عني وعن أختي وخمسة أولاد ولها مدة طويلة مريضة وملازمة الفراش. فنصحني الحاج خليل الداودي بأن أستعمل هذه الوصفة قبل تنفيذ قرار قطع الرجل وهكذا بدون أن يكشف على المريضة جمع من علب العطارة كمية من الحشايش وأعطاني إياها. [وبذلك فقد نجت الوالدة من قرار القطع الذي اصدره الطبيب الالماني].

عبد السمان جارنا

وهذه نكتة بديهية للمرحومة الوالدة تدل على سذاجتها رحمها الله. كنت وأخي توفيق ونحن صغار بجانب الوالد والوالدة والأخوات نكتب أسماء الله الحسنى فعندما نذكر إسما نضيفة إلى القائمة فمثلا عبد الرزاق، عبد المحسن، عبد الرحمن، عبد القادر، وإذ نطقت الوالدة وقالت "ولك تنساش جارنا عبد السمان وهات يا ضحك وخصوصا الوالد الذي قال يجوز بأن الله سبحانه وتعالي أصبح سمان.

وكان بالفعل جارنا عبد من عائلة السمان من عائلات إخواننا فنرفزت الوالدة وقالت يو ولايش الضحك ما هو بيفرم لنا اللحمة، وجارنا، وليش ما بيكتبوهوش.

إستفتحت الحمد لله

في شهر رمضان المبارك قال لي والدي بأنه عرج يوما على العطارين فوجد الصنوبر الطازج وغيره من أصناف من البزورات الممتازة التي كانت تردنا من دمشق. فصح على صديقه الشيخ سحاق العسلي العطار ورجاه بأن يزن له أوقية صنوبر، ولكن الشيخ العسلي وقف صامتا برهة من الزمن ثم قال "والله يا أبا خليل ما أعزه عنك. إنما أقولها صراحة بأنني إستفتحت والحمد لله، ولكن جاري أبو محمد الدجاني العطار لم يستفتح بعد. وأشهد بالله بأن الصنوبر الذي عنده هو أحسن من هذا الصنوبر."

هذه حادثة بسيطة بحد ذاتها ولكنها عبرة لهذا الجيل وهذا الزمن الذي أصبح يعبد المال ولا يعطف على جار ولا صديق فتبا له من زمن غدار ويا حبذا لو خلقنا ومتنا في عصر المرحوم والدي.

الحرب العظمى الأولى: ١٩١٤ حتى ١٩١٧/١٢/٩

أول شغلي في الحياة

هكذا توفي الوالد، وأغلقت مدرسة السان جورج الإنكليزية، وأصبحت البلاد في حرب ولكن لحسن حظي فقد أرسل الله سبحانه وتعالى أبا ثانية ألا وهو سيدي حسين أفندي الحسيني الذي كان حقيقة أخا صادقا للمرحوم الوالد وكان يعطف علي أنا خاصة من بين إخواني وبواسطته دخلت المدرسة الدستورية ثم مدرسة سان جورج وهكذا بعد وفاة والدي وإنها أيام العز وأرسل إلي فواجهته في دائرة البلدية فقال :

"إسمع واصف : ثق بأنني إتخذتك كولد من أولادي منذ الآن لما كانت ولم تزل الرابطة القوية ما بين والدي ووالدك ثم إتصلت هذه الرابطة معي أنا وكان والدك دائما يوصيني بك في حياته وبعد مماته ولذلك فأنت منذ اليوم تكون معي أينما كنت وأين ما رحلت ولا تفكر بأي شيء يلزمك في هذه الحياة ويكون براتبك في البلدية من جيبي الخاص لأجل أن تكون مربوطا معي مباشرة وليس لأحد عليك أمرا من موظفي البلدية بل على كل حال من واجبك إحترام الجميع وتواظب على خدمتك بكل دقة وأمانة التي أعهدها فيك. وأما من جهة البيت فطمّن الوالدة بأن لا تفكر أبدا بالمؤونة وسأساعد أخيك خليل أيضا في بيروت من وقت إلى آخر." فشكرته من كل قلبي وقبلت يديه.

أخذني وعرفني على جميع الموظفين والأعضاء ثم سلمني مفتاحا صغيرا (ييل) لقاعة الصالون لأجل إستلام جميع ما يجمع من الشعب إعانة للجيش وكانوا يسمونها (التكاليف الحربية) لأكون أمينا على حفظها بعدما امتنع عن سرقات عديدة من هذا الصالون. كان العم صالح أفندي العلمي الرئيس الأول لشاويشية البلدية رئيسا للجنة جمع التكاليف الحربية بواسطة دائرة بلدية القدس وتحت إشراف أحد ضباط الجيش فكانوا يدخلون كل مخزن من مخازن الشعب في المدينة وخصوصا اليهود منهم ويجمعون الكميات الكبيرة من كل نوع يحتوي عليه هذا المخزن والجدير بالذكر أنني كنت أستلم مرات عديدة كلسات سيدات، ثم دوميات وألعاب الأولاد والأطفال وكنت أتساءل في نفسي يا إلهي هل من الواجب وجود هذه الأشياء في ساحة القتال؟، ولكن بعد مدة عندما كونت فكرة ما لدولة تركيا من إستبداد ومظالم وحب الإنتقام خصوصا للعرب وجدت بأن هذا قليل من كثير بالنسبة إلى ضياع شبان العرب المخلصين على أعواد المشانق.

لم أتهاون على المحافظة على محتويات هذا الصالون بكل دقة وأمانة. ولم أسلم مفتاحه لأحد قط في الدائرة إلا للعم أبو سليم الذي وضع ثقته في وهكذا أذكر مرة بأنه نادى علي فدخلت قاعة مجلس البلدي وكان حسين أفندي يترأس المجلس آنذاك فخجلت عندما شكرني جميع الأعضاء على أمانتي في حفظ محتويات الصالون من التكاليف الحربية بدون أي قيد ولا سجل.

الحاج علي المصري وعبد الفتاح العفيفي

كان عبد الفتاح العفيفي شويش بلدية القدس يتطفل على كل من يراه يأكل أو يشرب في دائرة البلدية بدون سؤال ولا إستئذان وكان أغلب الموظفين من أعضاء وكتبة وشاويشية (مفتشين) يتهربون منه عندما يضطرون على تناول الطعام أو الشراب في ذات الدائرة نظرا لكثرة الأشغال في زمن الحرب وهكذا صمم الحاج علي المصري على مداعبته فعمل له مقلبا ظريفا على أمل أن يرتجع عن عادته السيئة.

كان الحاج يستعمل سفوف[1] لوجع الرأس وهكذا أخذ قليلا من نجارة الخشب من [منجرة ريمر الألماني] آنذاك وبواسطة الصيدلية وضع قليلا من هذه النجارة ضمن أوراق مغلقة شبيهة بأوراق سفوف وجع الرأس التي كان يستعملها فعلا. وقف الحاج علي يعمل القهوة على الوجاق الخاص في غرفة القهوة وكانت الغرفة تضم أكثرية الشاويشية وثلاثة من الأعضاء. ثم فتح ورقة من السفوف فبلعها وشرب وراءها قليلا من الماء على مرأى من أخينا عبد الفتاح العفيفي. سأل عبد الفتاح حاجي شو هذا اللي شربته؟.

أجاب الحاج علي دواء لوجع الرأس

عبد الفتاح الله يستر بيتك أعطني سفة، والله معي وجع رأس.

الحاج علي ولك يمكن يضرك أنت يلزمك أن تستشير الطبيب أولا.

عبد الفتاح لا لا مش لزوم بس هات واحدة سفة الله يخليك

الحاج علي خذ يخرب بيتك لو سم لازم تأكله.

ثم أعطاه ورقة نجارة الخشب الناعمة [بدلا من الدواء الحقيقي] وقف عبد الفتاح وفتح الورقة وسفها في فمه، وهكذا لصقت النجارة في جوف حلقه وبدأ يصيح ويطلب الإغاثة بأعلى صوته وجميع الحضور يقهقهون بالضحك لأنهم عالمين بنوع هذا السفوف، وما نوى الحاج علي بعمله مقدما. أما الحاج علي فقد أعطاه كوبا من الماء. ولكن عندما شرب الماء وقفت النجارة تماما وزاد ألمه مما جعله أن يرفع صوته لأعلى، الأمر الذي أدى إلى حضور كل من كان في دائرة البلدية من موظفين ومراجعين بما في ذلك الرئيس حسين أفندي مذعورين. وأخيرا قص الحاج علي المصري ما عمله لعبد الفتاح العفيفي وطمن الرئيس على حياة عبد الفتاح كون السفوف هي نجارة الخشب ولا خوف منها، وإنما قصد منع عبد الفتاح العفيفي من عادته السيئة كما شهد بذلك جميع الأعضاء والموظفين والشاويشية وشكروا الحاج علي المصري على ذلك. ولكن أنى لعبد الفتاح أن يرتجع فذنب الكلب أعوج، وطول عمرك يا زبيبة.

[1] جمع سفة وهي جرعة صغيرة من مسحوق طبي (بودرة) كان يبلع عوضا عن الحبوب المستعملة هذه الايام.

طروب دنيا طروب آخرة

من عرف القدس يدرك أن لا بناء للسكن بجوار مقبرة صهيون للروم الأرثوذكس قطعيا ، إلا العمارة الكبيرة المقامة على جبل صهيون وهي ملك المطران جراسيموس رئيس كنيسة القيامة وهي شبه [دير حديث داخله كنيسة] . شاء القدر أن يحتل الجيش العثماني هذه العمارة عندما دخلت تركيا في الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ لإستعمالها كدائرة صحة وغرف لسكن ضباط الجيش. وقد صادف أن رئيس الصحة وإسمه نوري بك كان صديق لحسين أفندي الحسيني وهو رئيسا لبلدية القدس عمل [هيصة] سهرة لزملائه من الضباط وقد دعى حسين أفندي ورغب في الإستماع إلى الموسيقى العربية .

وهكذا وقبل الأربعين من وفاة المرحوم الوالد كنت أعزف وأغني بأعلى صوتي في غرفة الرئيس التي كانت نافذتها تطل على قبر المرحوم مباشرة الأمر الذي لفت نظر حسين أفندي وقص للحضور ما كان والدي عليه من حظ في حياته وكيف شاء الله أن ينعم عليه بالحظ والطرب حتى بعد مماته وقبل الأربعين ليس من فنان بعيد عنه فحسب بل ولده [صاحب هذا الكتاب] فلولا دخول الحرب وإحتلال هذه العمارة لما كان غناء أو طرب في تلك المنطقة وقال ممَا "طروب دنيا طروب آخرة" .

الجراد بالقدس

في أواخر فصل صيف سنة ١٩١٤ سنة الحرب العظمى وأثناء عملي في بلدية القدس بمعية حسين أفندي حسين وكانت تلك السنة محل وانحبست الأمطار وغزا البلاد والقدس الجراد بصورة فظيعة جدا فإني أذكر تماما والله يشهد أنني عندما كنت نازلا على سلم البلدية رفعت رأسي إلى السماء مع جميع الناس فلم نستطع رؤية الشمس قطعيا فكان الجراد الطيار شبيها بالغيوم المتكاثفة في الجو مما حجب نور الشمس عن الأرض بتاتا .

بقي الجراد بكثرة مخيفة وفقس بيضة في البلاد ثم بدأ ما يسمونه بالزحاف إلى أن قضى على جميع المزروعات والأشجار كافة حتى أنني أذكر بأنه كان يأكل قشرة الأرومة والأغصان من كافة الأشجار وكانت تصبح الشجرة في خطر ، ولم يبق عرق أخضر ولا زهرة حتى في بيوت السكن والعياذ بالله ثم أنه كان يدخل البيوت ويهجم بقوة فائقة على ما يجده أمامه وكثيرا ما يسقط في بواطي العجين ، وأواني الطعام وكانوا يخافون منها على الأطفال .

هذا بالرغم من أخذا الإجراءات العظيمة من قبل الحكومة التي أصدرت أمرا طريفا من نوعه وهو أن على كل شخص ذكر من سن إثني عشر سنة و ما فوق أن يقدم ثلاثة كيلو من بيض الجراد المزروع في أراضي البلاد وكان ذلك فكان الشخص الذي ليس في إستطاعته الحصول على هذه الكمية بيده يشتري هذه الكمية المفروضة من الغير ، ويقدمها إلى الحكومة ولكن رغما عن جميع هذه الإحتياطات فقد قضى الجراد على البلاد بأسرها وأصبحت البلاد ويا للأسف

بمجاعة زيادة عن الحرب هذا بالإضافة إلى الأمراض التي إنتشرت في البلاد بسرعة أمراض فتاكة مثل التيفوس والتفوئيد والملاريا والجدري. وغير هذه الأسماء وفتكت بالجنود وما تبقى من الشعب والعياذ بالله.

دار العم إسماعيل بك الحسيني [1]

كانت والحق يقال أن دار المرحوم إسماعيل بك الحسيني في محلة الشيخ جراح بالقدس من أرقى وأجمل وأضخم منازل السكن في البلد وهي مبنية على النمط العثماني شبيهة بعمارات إستانبول واعتقد جازما بأن التصميم من هناك ربما بواسطة أخيه شكري بك الحسيني أكبر ذات عربي كان زمن السلطان عبد الحميد ومن عرف دار إسماعيل بك يجد بأنها محاطة بمساحة كبيرة من أشجار الصنوبر والحب قريش مما زادت البناء روعة وجمال. وقد عاش إسماعيل بك فيها كملك في قصر وكان رحمه الله لا يترك شخصية رسمية وتزور القدس إلا وكان يدعوه إلى بيته فكنت تجد متصرف لواء القدس ومن حوله من موظفي الدولة على مائدته المفتخرة يتنعمون بما يقدم لهم من أصناف المأكولات والمشروبات بصورة يعجز القلم عن وصفها وقد شاهدت وحضرت الكثير من هذه الدعوات في العهدين العثماني والبريطاني على السواء. كان رحمه الله يحب عيشة الترف وكان له عربة تجرها الخيل الحمراء ولها عربجي خاص تدخل من المدخل الواقع في سور الدار الحديدي إلى مكانها. وإني لم أزل أذكر العائلات الراقية من الأجانب والتي كانت سيداتها على جانب عظيم من الجمال أمثال عائلة الدكتور ميجاراكي اليونانية المشهورة آنذاك فكانت كريمات هذا الدكتور آية في الجمال والأناقة وكان يضرب بجمالهن وأناقتهن المثل بالقدس. وهكذا كانت أهالي مدينة القدس ترفع رأسها شامخة وتفتخر بجود وكرم إسماعيل بك النادر في ذلك الزمن. ولما غزا الجراد مدينة القدس وقضى على مزروعات البلاد وأشجارها وحدائقها فلم تقع عينك على غصن أخضر في مدينة القدس سوى في حديقة إسماعيل بك فبواسطة المساعي التي بذلها وما أنفقه على هذا الموضوع من مال بقي والحمد لله هذا البستان وكأنه جنة عدن بالقدس، وإليك الطريقة:

جاء إسماعيل بك بخدمه وهم كثيرين من أهالي قرية بئر معين قضاء يافا فأوقف الفلاحين فوق كل شجرة في الحديقة يدقون على صفائح التنك مما جعل الجراد المعروف بالطيار بعدم الهبوط على الحديقة وذلك من ضجيج صوت التنك. وأما الجراد المعروف بالزحاف فقد جاء بمعلمين [سنكرية] خاصة من قولونية الأميركان اللذين يقيمون بجانب الدار المذكورة وركب عبارة عن محقل على كل أرومة من الشجرة في الحديقة فكان عندما يحاول الجراد التسلق على الأرومة يصطدم بهذا المحقل الذي يقذف به إلى أقنية من الصفيح أيضا تنزل به إلى هاوية خاصة وفيها النار فيحرق بالحال وهكذا حتى حمى هذه الحديقة الجملة.

كما نجلس تحت ظل هذه الأشجار في النهار والليل وقد أصبحت الوحيدة بالقدس والضيوف التي كانت لا تنقطع يوميا عن زيارته خصوصا في مدة الحرب العظمى من القواد وكبار الموظفين وجميعهم يثني على ذوق إسماعيل بك السليم

[1] وهي عمارة فندق الامريكان كولوني حاليا.

وكنت مرارا أعزف وأغني على عودي في هذه الحديقة بمعية حسين أفندي الحسيني إبن عم إسماعيل بك والذي كان لا يفارقه أبدا. كنا والحق يقال رغما عن مآسي الحرب نعيش في نعيم مع أن باقي الأهلين وكافة الشعب كانوا يعيشون في جحيم والمقدر يكون.

الأخ توفيق بالجندية

عندما دخل الأخ توفيق السن المعين للجيش إضطر أن يسعى ليؤمن وظيفته فوفق وعين جنديا في فرقة الموسيقى للجيش بالقدس لمعرفتنا مع مدير الفرقة المذكورة وإسمه أحمد أفندي اليوزباشي ذو الأخلاق الحميدة، وكان زملاءه شكري الحرامي وحنانيا حنانيا من القدس أيضا. وعندما نقل مع الفرقة إلى دمشق بقي بعيدا عنا ولم يرجع الوطن إلا بعد الإحتلال البريطاني وقد ذاق ألوان العذاب والمشقة فوصلنا في حالة يرثى له وكان مصابا في فخذه الأيمن أثرا على شظايا قنبلة في معركة كانت في محطة السكة الحديدية نجا منها بأعجوبة.

الأخت شفيقة تصاب بمرض التيفوس

شاء القدر أن تسكن الأخت شفيقة بيت جالا بعد زواجها لشغل زوجها نجارا هناك. ولما أصبحت البلاد في حالة حرب وأخذ زوجها لخدمة الجيش بالعمليات، وبسبب المجاعة الجراد وعدم وجود الأغذية إنتشرت الأمراض في طول البلاد وعرضها وأصيبت الأخت بمرض التيفوس وأصبحت حالتها في خطر. ولما كان زوجها في خدمة الجيش إضطررت فذهبت في الحال ونقلتها في عربة خيل خاصة وجلست بجانبها لأهدئ روعها وكانت في غيبوبة وتبلت منها ولم أدرك مدى العدوى والله سلمني. أدخلتها في مستشفى بلدية القدس بواسطة حسين أفندي الحسيني.

وبعد أسبوع من دخولها إتجهت صحتها للشفاء فذهبت بمعية حسين أفندي لزيارتها وحيث أن هذا المرض اللعين معدي فقد مسكها رجلين من ذراعيها وأطلا علينا من النافذة في الطابق العلوي وإذ هي وكأنها صبي رأسها بدون شعر فنادت بأعلى صوتها.

"واصف أنا في بيروت شوف قديش في شجر" إلى ما هناك من دردشة من شدة المرض الأمر الذي جعل حسين أفندي ينزوي تحت قوس هناك خوفا من رؤيتها له، وهي على هذا الحال. ذاقت حماتها وأولادها الصغار الآلام بعد نقلها من بيت جالا فطمرت البيت ومجاورية من البناء بالكلس خوفا من العدوى كما كانت العادة في ذلك الزمن من الدولة. كان مرضها في سنة ١٩١٥.

حالة الأخت جوليا أثناء الحرب

إشتاقت الأخت جوليا لوالدها ولإخوانها فحضرت من أميركا ومعها أولادها حنا ووليم وكانت حامل فخلفت إبنتها جنيت بالقدس ولسوء حظها وطالعها فقد توفي والدها ودخلنا في الحرب العظمى فتوقف السفر إلى الخارج

وأصبح سلفها خليل ثم صالح يشار إليهما بالبنان لدخولهم في خدمة الجيش وكان المسيحي يؤخذ للصنعة وليس لحمل السلاح فمنهم من كان نجارا أو حدادا أو حمالا أو كاسا . إختفى العم أبو يانكو عن الدولة فحشرناه في دار الجوهرية لوحده وقد تركنا فعلا هذه الدار خاوية زمن الحرب وإنتقلت والدتي وأخي فخري وعاشت مع الأخت عفيفة في دار الخوري يوسف ملك البطريركية الأرثوذكسية الواقعة بجوار جمعية الشبان المسيحية الآن . وكان الأخ خليل في بيروت في سلك الجندرمة وتوفيق عسكري في فرقة الموسيقى وأما أنا فكنت دائما بمعية حسين أفندي الحسيني فأقمت عنده في البيت .

وهكذا بقيت الأخت جوليا مع سلفتها أم يانكو بدون معين سوى الله طيلة أيام الحرب فذاقت ألوان الفقر والجوع مع أولادها لعندما أنتهت الحرب وفتحت الطرقات ورجعت إلى أميركا لزوجها سنة ١٩٢٠ تندب سوء حظها . أما العم أبو يانكو فقد قضى مدة طويلة كاسك في دار الجوهرية لوحده وكان الأخ فخري يحمل له الطعام يوميا بستر ويقظة ويرجع ومعه أخباره وإلى زوجته أم يانكو والأخت جوليا .

الموسيقار عمر البطش

في أوائل سنة ١٩١٥ كنت بمعية حسين أفندي أعزف وأغني في سهرة لضباط الجيش وذلك في دار الحاج خليل النشاشيبي على ما أذكر بجوار كنيسة الأحباش خارج السور وكان يقيم في هذه الدار الضابط المدعو [ناقص في الاصل] . وكان من بين الحضور القولاغاصي ثم أحمد أفندي اليوزباشي مدير فرقة الموسيقى للجيش بالقدس والمعروفة بإسم فرقة إزمير مؤلفة من خمسة وستين قطعة نفخ للموسيقى ومعه شاب جلس بجواري وبدأ يغني التواشيح الأندلسية بطريقة لفتت أنظاري ولم أكن أسمع لهذا اللون من الغناء وعلى هذا الأصول من قبل . تجاذبنا الأحاديث في فن الموسيقى وعرفت بأن إسمه السيد عمر البطش من أهالي حلب يعمل الآن في فرقة الموسيقى التي ذكرتها آنفا وصحبة أحمد أفندي المدير .

ونظرا لشدة ميولي لفن الموسيقى حاولت الإجتماع به في سهرات عديدة بين الضباط وكذلك بين عائلات اليهود والعرب بالقدس الأمر الذي زادني إعجابا به وبمحفوظاته القيمة وكان صوته مسموعا ويتحكم بالألحان تماما وقد سر من عزفي عندما كنت أترجم ما كان يغنيه معي لأول مرة .

شاء القدر أن يستمع مدير فرقة الموسيقى لأخي توفيق عندما كان يلعب على آلة الفلوت في ليلة ما معي وقد سر منه وشجعه بأن يدخل فرقة الموسيقى وهذا كان لحسن حظه . أما أنا وكنت لا أزال صغير السن فقد ساعدني حسين أفندي فطلب من السيد عمر البطش بأن يعلمني بعض التواشيح وضبط إيقاعها فقبل وأظهر رغبة صادقة وكان رحمه الله طيب القلب أنيس ولطيف ومتواضع فهو ولا شك فنان أصيل وهذا هو معشر الفنان .

تعليمي الموشحات

إتفقنا على أخذي الدروس في الموشحات أربعة أيام في الأسبوع من الحادية عشر حتى الواحدة بعد ظهر كل يوم من الأربعة وذلك تحت ظل الأشجار في حدائق عمارة المسكوبية والتي أصبحت ملآنة من الجيش التركي وكانت فرقة الموسيقى هذه في الطابق الثالث من العمارة الواقعة على شارع -يافا- القدس والمستعملة الآن دائرة الإستخبارات في زمن الإنتداب البريطاني.

لأول مرة في حياتي عرفت حلاوة الضروب والإيقاع في الموسيقى العربية وكل ضرب من الضروب التي هي تقارب المائة لها إسم خاص وقد أخذت عنه عددا من الأوزان التي هي أكثر ذيوعا وإنتشارا في سوريا ومصر. وإن هذه الأوزان في الموسيقى العربية مقيدة بعدد معين من حركات تسمى "الدم والتك". أما الدم فيدل على موضع النبر القوي ويوقع في وسط الدف (الرق) أي وسط الغشاء الجلدي منه. وأن التك يدل على موضع الضعف ويوقع على طرف الدف أو على الصنوج المعلقة به.

ولما كنت أتعلم هذه الأوزان وأغنيها بصوتي كنا نستعمل كف اليد الأيمن مبسوطا على الكف الأيسر فنغير به الدم، ثم يد اليمنى مقبوضة تضرب على كف اليد اليسرى فنغير التك وهكذا.

وإليك أكثر الأوزان ذيوعا :

١. الأربعة وعشرون
٢. الأوفر
٣. الدور الهندي
٤. الوهج
٥. الستة عشر
٦. السماعي أقصاص
٧. السماعي الثقيل
٨. السماعي الدارج
٩. السماعي سربند
١٠. السماعي سنكين
١١. الشنبر
١٢. المحجر
١٣. المحجر مصدر
١٤. المخمس
١٥. المدور
١٦. المربع
١٧. المصمودي
١٨. النوخت
١٩. النوخت الهندي
٢٠. الورشان
٢١. الظرافات
٢٢. الفاخت

وكان رحمه الله عند الغناء يضبط الإيقاع بمشط رجله اليمنى الدم والعقب التك. وتعلمت منه لأول مرة وزن النوخت وهو ٧/٤ (سبعة على أربعة) كما هو معروف بالنوتة الإفرنجية ويكتب بالطريقة العربية هكذا :

تك تك. دم تك. دم يا هلالا غاب عني واحتجب وهجرني لا بذنب ولا سبب. مقام راست.

ثم توشيح أحن شوقا إلى دياري إلخ ضربة مصمودي، وأفديك ظبيا مبتسم بخدك الخال رسم. ضربة سماعي دارج. وعيد الموسم أنس وشرب إلخ مقامهم الراست. ثم لما بدا يتسنى مقام نهوند ضرب سماعي ثقيل، رماني بسهم هواه ضربة مربع، فيني عز إصطباري ضربة سماعي دارج. ومن الحجاز كار شادن الألحان غنى في الحجاز كار ضربة أوفر. واسقني الراح ضربة مربع. وياغزالا زان عينيه الكحل ضربة نوخت. فتنا مطرب ألحان ضربة سماعي ثقيل. وعشق المليح الغالي فداه مالي: ضربة سماعي دارج.

ومن مقام البيات: قاتلي بفنج الكحل ضربة ورشان، وهجرني حبيبي ولا ذنب لي ضربة محجر، هل على الأستار هتك، ضربة مربع. طرز الريحان حلة الورد ضربة سماعي ثقيل، كحل السحر عيونا ضربة مصمودي. بالذي أسكر من عرف اللحا ضربة سماعي دارج، فيك كلما أرى حسن خربة [ناقص في الاصل]. يا مخجل الأقمار ضربة نوخت هندي. هات أيها الساقي ودندن بإسمها ياحي ضربة سماعي دارج، يا حلو اللمس والمبسم ضربة سماعي دارج. ياغزالا صاد قلبي جفنه ضربة مصمودي.

ومن الحجاز: ليالي الوحل عندي عيد ضربة مربع، يا نديمي دور الأقداح ضربة مربع، هجرني حبيبي ولا ذنب لي ضربة محجر، يا نسيمات الصبا روح أرض الحجاز ضربة نوخت. إملا لي يا دري من صافي الأدنا، ضربة نوخت. يا غزالا ماس[؟] عجبا بالقوام السمهري ضربة سماعي دارج.

ومن الصبا: غضي جنونك يا عيون النرجس ضربة أوفر، أهوى قمرا سهامه عيناه باللحظ يصيب قلب العشاق بلا سبب ضربة سماعي ثقيل، عيد الأكبر يوم تزورني يا رشا حلو الشيم ضربة سماعي ثقيل، أنا لا أسمع المليح في رشا سمهري القوام ضربة مصمودي. العناية صدف في خبايا الأيام ضربة سماعي دارج.

ومن مقام السيكا: إشفعوا لي يا آل ودي عند حبي باللقا، ضربة شنبر. قد حركت أيدي النسيم تلك الغصون الميسي، ضربة نوخت. هات يا أيها الساقي بالأقدام وإملالي كؤوس، ضربة مصمودي. يا وحيد الغيد يا فريد عصرك والنبي يا سيد لا تطل هجرك، ضربة سماعي ثقيل.

ومن الجهاركاة: أنت سلطان الملاح يا مليك أنت ملك، ضربة سماعي دارج. كلي يا سحب تيجان الربا بالحلي واجعلي سوارك منعطف الجدول، ضربة سماعي دارج.

ومن العجم: قم يا أمير الغزلان كي نجلي الدّرح، ضربة [ناقص في الاصل]. جل من أنشاك يا هذا الغزال فتنة للبشر ضربة سماعي دارج.

ومن العراق: يا بي باهي الجمال ماشي القد حسنة فاق الهلال آه لو يجدي، ضربة سماعي أقصاص. أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع، ضربة نوخت.[1]

١ وإني قد دونت ما كنت تعلمته في الموسيقى في كتاب خاص سميته " المنتجات الجوهرية في الموسيقى العربيه" فإنك تجد الكثير من هذه الموشحات مقابل الوزن في الخطه العربيه القديمه ثم بطريقة النوته الإفرنجيه لكل وزن من هذه الأوزان.

كان معلمي هذا عمر البطش (عالمي) في حفظ وإتقان فن الموشحات الجميل ذلك النوع الذي إختفى ويا للأسف في جميع الأقطار العربية ولم يبق محافظ عليه إلا في مدينة حلب الشهباء وكان يحدثني كثيرا على معلمه الموسيقار السيد علي درويش المرجع العالمي لهذا النوع هناك. وقد إعترفت حقا بأن الموشح هو الموسيقى الكلاسيكية في الموسيقى العربية وهو عمادها وقد حسدنا الغرب قاطبة على هذا النوع الفني في معانيه وأنغامه وألحانه وإيقاعه وهو مرغوب جدا عند الغربيين لعدم وجوده في موسيقاهم من الألحان التي يستعمل فيها أرباع أو ربع الصوت أو ربع الدرجة الصوتة بالنظر لغناء السلم الموسيقي العربي في هذه الأرباع ثم وجود الإيقاع الذي يعجب الموسيقي الأجنبي عند الإستماع إليه ويعترف بمقدرة ومهارة الأقدمين من العرب في هذا الفن الرفيع.

وهكذا وبواسطة تعليمي هذه الموشحات وأوزانها من أستاذي الأكبر عمر البطش شعرت بقوة فائقة في الموسيقى وكان لهذه الموشحات الفضل الأكيد في ترقية مواهبي الفنية عزفا وغناء وشكرت الباري عزوجل الذي أوصلني لدرجة أصبحت فيها أنتقد الكثيرين من موسيقي بيت المقدس من محترفين وهواه والذي ذكرتهم سابقاً من هذا الكتاب وأكثرهم لا يعرفون الأوزان بل كانوا ينشدون الموشح ويعزفونه على آلاتهم ببساطة وبدون نظام البتة في الإيقاع بل على ضرب الواحدة.

كنت أكاد أجن فرحا عندما كنت أتعلم الموشح وكان عندي عيدا سعيدا عندما أسمعه إلى أستاذي الأكبر فيتشجع ويعطيني سواه وكنت أكرمه بلا هوادة بواسطة حسين أفندي الحسيني وكان محتاجا إلى المساعدة ونحن في الحرب وبعيد عن بلده وأهله.

كثيرا ما كان يؤلف التواشيح الجديدة ثم يلحنها ويربطها بالأوزان وأنا أجلس معه فأدهش من أمره وفنه وكان رحمه الله يتفانى في الغناء بكل وضاعة [يبدو أن المؤلف يريد كلمة التواضع] فعندما كنت أدعوه إلى سهرة فيلبي الطلب ويحضر بلا عاقة ولا تردد وهكذا أصبح الموسيقي عمر البطش حاكم القلوب في مدينة القدس ولي معه ذكريات عديدة في بيوت أعيان مدينة القدس الكثيرة وكان لا يغني إلا متى كنت أنا أرافقه بالعزف على العود ثم يسكت وأبقى أنا أغني ذلك التوشيح وأعزفه بمفردي فيعلق عليه فيما بعد وبهذه الصورة أكتسبت منه الشيء الكثير وكان من حسن حظي وهو ولا شك كان موهوبا وكان بالنظر إلى كثرة محفوظاته من الأغاني وعلى الأخص التواشيح منها يزيد ألحان مبتكرة منه على ما كنا ننشده في الحال وبدون كلفة فيرقص المستمع إليه طربا وما أحلى تلك الليالي.

إستعمال السلام في الإيقاع

ومن عظم حبه وهوايته للموسيقى وتقديره للإيقاع في التوشيح حصل معنا حادث طريف أرغب أن أدونه للقارئ ليرى منه هواية عمر البطش الحقة وليأخذ فكرة واضحة عن علمه وفنه:

كان عمر يرتدي اللباس العسكري بصفته عسكريا في الجيش العثماني وكان من المفروض فيه طبعا بأن يضرب السلام باليد على الرأس لمن يمر عليه من الضباط كما يتطلب علم الجيش. وقد صادف وهو يغني موشح من مقام حجاز كار مطلعه يا غزالا زان عينيه الكحل إلخ، وضربه كان نوخت مر عنه الضابط في حديقة المسكوبية فما كان منه إلا أن استعمل (الدم) على رأسه وبقي مواظبا على ضرب هذا التوشيح إلى أن إنتهى منه فقهقهت عليه من الضحك، وكانت مقدرة بالفعل وبدون أن يلفت نظر الضابط إلى عمله هذا آه.

سهرة في النهار

كان لنا صديق يهودي يدعى إبرام الكرجي وله ثلاث شقيقات فاتنات كان يسكن دار تخص المرحوم محمد يوسف النشاشيبي فوق القنطرة بمحلة باب السلسلة بالقدس. إتفقنا معه ومع بعض الأصدقاء على إحياء سهرة في النهار. وهكذا حجبنا نور الشمس بواسطة الحرامات السوداء على نوافذ غرفة كبيرة في أعلى الدار وأشعلت كاز نومرو ٤٠ ونصبت مائدة الأكل والشراب في وسط الغرفة والحضور وعلى رأسهم معلمي الأكبر عمر البطش ومعه جندي آخر يدعى مصطفى شاملي أي الشامي.

كانت والحق يقال جلسة رائعة تجلى فيه الطرب والحظ والسكر والكل في فرح وهيصة نغني ما تجود به قريحتنا من التواشيح ثم المواويل ثم الطقاطيق ولكن شاء القدر كما قال المثل وعند صفو الليالي يحدث الكدر وإذ دخل علينا "القانون شاويش" معلقا برقبته هلالا نحاسي محفور عليه كلمة قانون وبموجبه إضطر الأستاذ عمر ومن معه الجندي على ترك الحفلة النادرة والذهاب مع القانون شاويش بصفتهما بألبسة الجيش.

كانت الساعة ربما الرابعة والنصف من بعد الظهر وعندها تركت عودي ورافقت معلمي عمر إلى أن وصلنا أمام قومندان الجيش في عمارة المسكوبية. شكا قانون الشاويش ما اقترفه عمر وزميله من سكر وغناء ونساء وهما بألبسة الجيش وصدر الأمر في الحال بأن يطرح مصطفى الشامي أرضا ويضرب عشرة أسواط ولما كنت بجانب معلمي عمر قال لي "ولك يا واصف شوف كيف إنقلب الدهر فهذا القومندان كنت والله أعلمه التواشيح مرارا في حلب ولكن حالة الحرب أن ينسى أو يتناسى من هو عمر".

أجبته إذا الأوفق أن تعرفه بنفسك الآن. فكتب ورقة وقدمها لهذا القومندان وكانت الغرفة ملآنة من الجيش فعندما أخذ القومندان الورقة عربد وزمجر وقال بالتركية "دها سرخوش" أي يعني لم يزل سكران عمر؟ وأمر بجلده عشرون سوطا فتألم جدا وشاطرته الألم وسيق بهما إلى السجن في مركز القومندان.

تركت معلمي مسجونا وكنت سببا بأخذه لسهرة النهار ولم أستطع النوم طيلة تلك الليلة. وعند الصباح إشتريت ما تيسر من الخبز والحلاوة وذهبت لرؤيته في الصباح الباكر. عندما رآني ضحك عاليا وقال لي ما بدك موسيقى يا

واصف ، ولك شوف العما في قلبي أعطيت للقومندان مارح الطقطوقة الجديدة اللي كنا نغنيها "طيري طيري يا حمامة بين الدمر والهامة" وبقيت الورقة اللي كتبتها له معي خذ ، ولذلك شدد على الضرب ونحن في حرب ولا بطقطوقة .

دهشت جدا وضحكت من كل قلبي ثم أخذت الورقة وذهبت توا إلى القومندان فدخلت عليه وحدثته بحادث عمر البطش ، وبعد البحث عرفه وتأثر جدا وضحك بذات الوقت وقال لي والله إنه معذور فهذا يا إبني مجنون موسيقى ، وكان هذا القومندان يجيد العربية وأتخايل أنه عربي الأصل .

ترك غرفته حالا بدون الكلبك [القبعة] وذهب إلى عمر فقبلة واعتذر وضحك الإثنين ، وعلى إثر هذا الحادث أصبح ذات القومندان واحدا من حضور سهراتنا الخاصة مع عمر خصوصا في قومبانيات اليهود الحلبية بالقدس. ويا لها من ذكريات لا تنسى .

إقالة حسين أفندي الحسيني من رئاسة بلدية القدس

دخل الحرب العظمى وأنضمت إليه الدولة العثمانية وأصبح الشعب العربي مهددا بالفناء من القائد أحمد جمال السفاح الذي مسك البلاد بأسرها ففتك برجالها المخلصين خصوصا عندما تأكد بالقومية العربية التي إنبثقت قبل دخولنا في الحرب وعلى رأسها الجمعية اللامركزية وهكذا تخوف من العرب وبدأ يبطش ويستبد الأمر الذي جعله بأن يقيل حسين أفندي الحسيني من وظيفة رئاسة بلدية القدس بصفته عربيا ومن عائلة الحسينية المعروفة في البلاد وقد أبعد عن إنتخاب رئاسة البلدية بل عين رئيسا تركيا لأول مرة في تاريخ القدس (وذلك في آخر سنة من السنة الأولى للحرب العظمى الأولى) . [وما يلي هي اسماء الرؤساء المعينين في فترة الحرب على ما يبدو] .[1]

١ . شاكر بك أرطغول — والجدير بالذكر أنه اختلس أموال الصندوق عند استلامه الوظيفة .

٢ . جميل بك الحلبي — تعين بالوكالة وكان مديرا للأوقاف والمعارف آنذاك

٣ . ضياء الدين بك تركي

٤ . صادق بك تركي

٥ . عارف باشا الدجاني

٦ . أحمد عارف الحسيني (غزة) — وشنق فيما بعد من قبل جمال باشا السفاح سياسيا .

٧ . إسحاق الشهابي — بالوكالة .

وهكذا لسوء الحظ ترك حسين أفندي دائرة البلدية في سنة ١٩١٥ وباشر بأعماله حرة بعيدة عن السياسة بل كانت فائدة كبرى إلى الدولة العثمانية الأمر الذي جعل قادة الأتراك أن يحترمونه ويحبونه طيلة أيام الحرب في البلاد كما سأبين للقارئ ذلك في صفحة خاصة من هذا الكتاب .

[1] هناك عدم وضوح في النص الأصلي.



صورة تعبيد الطرق في البلدة القديمة في القدس ويظهر في الخلفية مكتب الهلال الأحمر العثماني. من مجموعة جمعية الدراسات العربية في القدس. المصور غير معروف.

جمعية الهلال الأحمر

بعدما ترك حسين أفندي الحسيني رئاسة بلدية القدس وسوء حالة البلاد سياسيا والإستبداد الذي انتشر بسرعة ضد العرب من قبل جمال باشا السفاح إتخذ حسين أفندي طريقة محكمة لإرضاء رجال الحكم وقادة الجيش في أوائل سنة ١٩١٥ فكان رحمه الله حذرا وهكذا قبل رئاسة فخرية لجمعية دعوها بإسم جمعية الهلال الأحمر وهذه الجمعية كانت مجموعة من أظهر رجالات الشعب والأهالي بالقدس مؤلفة من :

رئيس	حسين أفندي رئيسا فخريا
سكرتير	إبراهيم غيّبي سكرتير ورئيس في حالة غياب حسين أفندي
عضو	إسحاق أليشار اليهودي
عضو	سليم الخوري
عضو	وديع كاتة وأمين الصندوق بصفته موظفا في بنك كريديت ليونية
كاتب	حمادة العفيفي

وقد إنضم من الجيش ضابط لا أذكر إسمه فكان بلحية سوداء بوظيفة سرطبيب مستشفى الجيش آنذاك ثم نوري بك ضابط من دائرة الصحة وهو عربي من دمشق. وقد عينت في هذه الجمعية كاتبا مساعدا لحمادة أفندي العفيفي (معلمي العزف على العود).

والجدير بالذكر بأن هذه الجمعية كانت تضم حسان فاتنات من سيدات اليهود أمثال المس تنبوم والمس سيما المغربية ومدموازيل كوب وغيرهن، وكان لهن بدلات رسمية من الجيش ولباسه يمثلن الهلال الأحمر ويتجولن في الإحتفالات التي كانت تقام آنذاك بالقدس ويجمعون ويستلمون الإعانات التي كانت ترد بإسم الهلال الأحمر ضمن صناديق مقفلة على جوانبهن.

كانت هذه الآنسات تخص المس لاندو التي كانت تقيم في دار المعلم عيسى اسيتان من الطور والواقعة في حي المصرارة مقابل الكنيسة العربية وقد عرفت بأنها كانت هي الوسيط ما بين قواد الجيش ورجال الحكم آنذاك وبين اليهود في العالم وكان إبراهيم غتّيي الذي أسس مدرسة الإليانص لليهود بالقدس المحرك الأيمن لحركات اليهود بالشراكة مع المس لاندو لأنني لاحظت جليا بأن اليهود وخصوصا بالقدس كان لهم الإحترام والعطف من قبل الحكومة والجيش زيادة عن العرب والسبب كان ولا شك بواسطة ما كانوا يقومون به من التداخل العميق مع الحاكمين على إختلاف أنواعهم.

وإني لم أزل أحتفظ بصورة تاريخية لهذه الجمعية تضم جميع الشخصيات المذكورة أعلاه وأنا بينهم وذلك في مقر الجمعية التي كان داخل الغرفة في الطابق الأعلى من العمارة الثانية لدى دخولك عمارة المسكوبية من مدخلها الشرقي. وإن هذه الغرفة قد إستعملت زمن الإنتداب البريطاني المحكمة المركزية.[١]

١ لم نعثر على هذه الصورة ضمن المجموعة الفوتوغرافية التي تركها المؤلف.

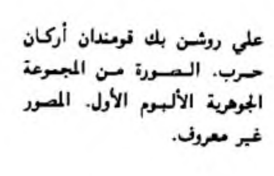
كنت أنا المحافظ على هذه الغرفة زمن لجنة الهلال الأحمر وكنا نسهر ثلاث مرات على سطح هذه الغرفة في ضي القمر بحضور جميع الأعضاء من سيدات وآنسات وسادة يستمعون إلى عزف العود مني ومن أستاذي حمادة أفندي العفيف العم أبو فؤاد ونشرب العرق والمازة، كبة مقلية من صنع عائلة المرحوم سعد الدين أفندي الخليلي من دمشق كانت تصل إلينا بواسطتي عند الغروب. وإني أذكر بعد مدة قصيرة ربما شهرين قد تفرقت هذه الآنسات من الجمعية وإذ وجدنا بأن المس تتباوم أصبحت خليلة القائد الأعلى أحمد جمال باشا والذي كان آنذاك الحاكم بأمر الله. وكانت والحق يقال على جانب عظيم من الجمال وأبدع آنسات اليهود، وهي التي أصبحت بعد الإحتلال البريطاني زوجة إبي كاريوس المحامي الشهير بالقدس.

أما سيما المغربية ذات القوام الفتان فقد أصبحت خليلة سعد الله بك أركان حرب الجيش المقيم في عمارة الكانتورا الواقعة شمالي عمارة المسكوبية ومن أملاك المسكوب أيضا وكثيرا ما كنت أسهر عنده بحضورها وكانت هاوية الفوتوغراف فكل يوم أحضر لها المصور الشهير حنا تومايان فيأخذ لها صورا مختلفة الأشكال والأنواع حتى أني أذكر أنه عمل لها حسب أمر سعد الله بك صورة شخصية طولها تماما وكانت آية في الجمال. ثم المدموازيل كوب أصبحت خليلة للمتصرف ماجد بك على ما أذكر.

هذه لمحة عن جمعية الهلال الأحمر والدور التي لعبت فيه اليهود زمن الحرب بواسطة المسن لاندو وإبراهيم عنتبي اليهودي وكان من أدهى رجالات اليهود بالقدس.

رحلة روشن بك وحسين أفندي إلى السلط

زادت صداقة حسين أفندي الحسيني مع روشن بك رئيس المنزل لضباط الجيش والذي كان مقره في عمارة نوتردام دي فرانس مقابل باب الحديد بالقدس. كان المدعو روشن بك من خيار رجالات الأتراك زمن الحرب وقد أحب مدينة القدس وعطف على أهلها كثيرا وكان الضباط اللذين يشغلون المناصب في الجيش وكلهم من أرقى وألطف عائلات الأتراك في الإستانة أمثال نهاد بك وصادق بك وسعد الله بك وغيرهم. وكانت إدارة الجيش والعملات والسفريات وما يتطلب من شؤون بيد روشن بك وكانت كلمته مسموعة لدى القيادة حتى لدى القائد الأعلى جمال باشا. وقد وجد روشن بك أن الشخص الذي يمكن الإستفادة منه هو حسين أفندي الحسيني طالما ترك رئاسة بلدية القدس وذلك لما له من إسم وشهرة بين الأهلين في البلاد عامة وإتفق معه على أن يورد الحبوب من شرقي الأردن إلى الدولة واعتمد عليه في هذه المهمة وهكذا لأول مرة ضرب حسين أفندي موعدا مع الوجيه سليمان السكر من أعيان مدينة السلط لزيارته في بيته صحبة روشن بك للبحث جليا بموضوع شراء الحبوب من كافة أنواعها وتقديمها إلى السلطة بواسطة حسين أفندي.



علي روشن بك قومندان أركان حرب. الصورة من المجموعة الجوهرية الألبوم الأول. المصور غير معروف.

ركبنا عربة خيل "حنطور" من القدس إلى أريحا وكان آنذاك الشيخ محمود الدجاني ياورا [إ] روشن بك وزميله دسكن ألتر من يهود القدس وكان معنا محافظا الحاج عثمان صيام من أهالي لفتا بصفته جنديا سواري آنذاك. وصلنا منتصف طريق واد شعيب، وكانت ضيقة وبجانبنا الوادي المخيف والطريق غير صالحة وعقبة صعبة الأمر الذي استحال على الخيول السير فوقفنا مدة تحير العربجي في أمره ولم يستطع إجبار الخيل على السير مطلقا. والجدير بالذكر أن روشن بك كان أصلع الرأس ويشبه رأس حسين أفندي الأصلع، وكانا يتبادلا وضع يد الواحد على رأس الثاني في العربة ويضحكون، وأنا جالسا أمامهما رحمهما الله. وأخيرا حل العربجي خيل العربة من قيودها فركب روشن بك حصانا وحسين أفندي الحصان الآخر وذهبا ومعهما الحاج عثمان صيام وتركونا في العربة إلى أن جاء الإسعاف من السلط فلحقنا بهم بعد مدة طويلة. أقمنا ضيوفا في بيت السيد سليمان سكر خمسة أيام وكانت الضيافة شيء يشرح الصدر من جميع النواحي المنام والفراش والمأكولات والحلوى والفاكهة من أفخر شيء يمكن عمله. وقد جاء السيد سليمان بالبدو ليلا كانوا يهزجون ويرقصون تكريما بالضيوف الكرام. وقد جيء لي بعود لا بأس به وقضينا ليلة عزفت وغنيت فيها في دار السكر لم أزل أذكرها ليومي هذا وكان روشن بك يرتاح لموسيقاي، ويحبني كثيرا حتى كنت دائما أدخل على مكتبه بدون إذن رحمه الله. جرى ما بين روشن بك وحسين أفندي وبين السيد سليمان السكر الإتفاق وتقرر في هذه الزيارة الأسس التي بموجبها تمكن حسين أفندي من نقل الحبوب من قمح وشعير إلى الجيش بالقدس بالطريقة التي أكتب عنها بعد.[1]

[1] المقصود هنا هو نقل الحبوب بواسطة القوارب في البحر الميت.

أولى غزواتي كسر عصاته

بمناسبة تعيين نوري بك مديرا عاما لبوليس القدس فقد أقام العم إسماعيل بك الحسيني على شرفه ليلة أنس فاخره وكان [من ضمن المدعوين] متصرف القدس ماجد بك وذلك في قصره العظيم الواقع في محلة الشيخ جراح بالقدس. وقد أبدع إسماعيل بك بكرمه وجوده وتجلى الحظ والسرور معنا بصورة فائقة وكان في الحضور أبناء أرقى عائلات القدس وكنت بجانب أستاذي الأكبر حمادة العفيفي نعزف على العود والجميع في نشوة من الحظ بل السكر أما أنا فنظرا لوجود حسين أفندي لم أستطع أن أشرب كرامة له وكما كنت معتادا فكنت أتحايل وأخرج إلى الإيوان وأشرب من الويسكي ما استطعت شربه وذلك بواسطة (الضابط نوري بك من ضباط الصحة من أهالي دمشق فكان هو الذي يشجعني على الشرب خارج الغرفة).

ولما طال الليل واختلط الحابل بالنابل في هذه السهرة والعيون كانت متجهة إلي خاصة أنشد بعضا من الموشحات وأعزف على العود وبواسطة نوري بك مدير البوليس سمح لي حسين أفندي بالشرب (وكان لم يدر بأنني أشرب خارج الغرفة بغيابه وربما أكثر منه هو) سمح لي بشرب كأسا من العرق فشربت، ولكن أبى نوري بك مدير البوليس فتناول

الكأس الثاني وأنا ماسكا عودي فوضعه على فمي وصبه في فمي صبا حتى كسر الكاس على أسناني [حطمتها على شفتاي].

ونظرا لتغير نوع الخمر من الويسكي إلى العرق وشدة خجلي خصوصا من حسين أفندي الذي شربت بحضوره لأول مرة في حياتي وكان عمري بين السابعة عشر والثامنة عشر شعرت بدوران قوي في دماغي فسكرت ويا للأسف وتركت العود والعيون كانت كلها متجهة إلي مما زادني قلقا. وهكذا إضطر حسين أفندي أن يساعدني فأحضر عبد الجليل قواس مطران مدرسة سان جورج سابقا والذي كان يعمل عند إسماعيل بك وسليم بك أيوب في بنكهما الذي كان آنذاك مقابل باب الخليل من الخارج، فحملني على ظهره ورافقني حسين أفندي إلى بيته مقابل قصر إسماعيل بك وقد شلحني ثيابي وفك الكرفاتة ونمت لا أصحى على شيء في غرفة هناك وكان حسين أفندي بحالة غضب وربما لام نفسه على السماح لي بالشرب فكان يشتم ويسب وأنا لا أجيب كلمة.

وقبل بزوغ الشمس تركت البيت وذهبت ولم أواجهه إلا بعد ثلاثة أيام فردعني وحذرني للمستقبل فعندها إعترفت له بأن السبب هو نوري بك ضابط الصحة الذي كان يسقني الويسكي خارج غرفة السهرة وأعلمته بأنني كنت أستعمل الخمر منذ مدة طويلة خفية عنه فقال [لا تهدي من أحببت أن الله يهدي من يشاء].

وهكذا وبواسطة هذه السهرة كانت معرفتي مع نوري بك مدير البوليس بالقدس فكان لا يترك مجلس أنس إلا وأكون أنا عنده وفي بيته شارع يافا. كان شديدا في وظيفته وكنت كثيرا ما أرافقه عندما نكون سهرانين يتجول من نقطة بوليس لنقطة بوليس أخرى بالقدس يراقب حركة مأموري البوليس ليلا وكانوا يحسبون له ألف حساب ويقضون لياليهم في الوظيفة بحذر ويقظة فائقة. وهو الذي إبتدع لباس الكلبك ذات اللون السكني رمادي بالقدس.

كانت هذه السهرة لي في قصر إسماعيل بك عبرة وأصبحت من تاريخها أتحفظ جدا ولم أقبل كاسا من أي كان من الحضور خوفا من تكرار تلك البهدلة التي لم أنساها مدى الحياة.

شطحة قرية إرطاس داخل دير اللاتين

تواصل الكيف والحظ بين هؤلاء الذوات والدنيا كانت والعياذ بالله في حرب ومجاعة فقرروا على شطحة في دير اللاتين الواقع في قرية أرطاس قضاء بيت لحم فكانت والحق يقال شطحة دولية خالدة لأن المقيمين في هذا الدير قدموا ما كان موجودا من خمور معتقة في هذا الدير وبذلوا الجهد للترفيه عن موظفي حكومة ذلك العهد العظماء حتى أني أذكر أن أغلب الحضور كان يحمل ما يسمونها (مطرة) على جوانبهم وإملائها بأنواع الخمور بدلا من الماء فتصور.

كانت عائلات محترمة ونسائها على جانب عظيم من الجمال إذ منها عائلة حلاق، عائلة ياسمينة، عائلة كتانة وخوري ونصري وحبيب ولورنس والبينا وغيرهم كثيرين فكانوا يملؤون أربع عربات خيل من نوع الأميركاني التي تسع لا أقل من إثني عشر شخصا. ثم كان متصرف لواء القدس ماجد بك وخليلة يهودية من سلونيك تحبذ الموسيقى العربية.

ثم اسماعيل بك في عربته الخاصة كذلك سليم بك أيوب وعائلته بعربته الخاصة ثم حسين أفندي وأنا وحمادة أفندي العفيفي. وإني أذكر أيضا كان أميركيا في هذا الإحتفال يدعى المستر بيل كان في إمتياز بحر الميت مع اسماعيل بك. وأخيرا المدلل نوري بك ضابط الصحة من دمشق والذي كان مرحا وزمبرك النوادر بين المجتمع بصورة يعجز القلم عن وصفه.

كان يوما بهيجا لكل من الحضور وارتفعت الكلفة بين الجميع وأصبح لا قيمة لوظيفة أو رياسة واشتغل الخمر في الرؤوس فوضح جمال السيدات والآنسات في المجتمع وأصبحت ملكات القلوب. لم نستطع إيجاد الوقت لتناول الطعام حقا وكان الجميع يشترك معي في الغناء وينشد الترديدة من كل أغنية خصوصا الطقاطيق وهكذا كان جميع الحضور وكأنهم فرقة موسيقية. وأذكر بأن طقطوقة زينو زينو زينو زينو وأسمر ومكحل عينه، عدت كلمات أسمر ومكحل عينه أكثر من عشرة مرات وذلك بطلب من المتصرف ثم لوري بك مدير البوليس لم يستطع الجلوس فتحمس وقام يرقص من شدة الطرب لوحده بين الحضور (ومن عرف رزانة نوري بك يعجب حقا لهذا الخبر، ولكن الحب ما فيش باشا ولا بيك).

أما نوري بك الدمشقي ضابط الصحة فقد أتحفنا بخفة روحه ونوادره النادرة فكان يشجع المستر بيل الأميركي على الغناء بالعربية فكان المسكين ولشدة شربه يغني بطريقة يقلب معنى الكلمة رأسا على عقب، وهناك الخفة والطرب فكان مثلا يقول لازم أكشه هالعصفور فيقول لازم أكسه، وهكذا والداهية نوري بك من خلفه يلقنه الدرس. ثم خليلة المتصرف اليهودية والتي كما قلت سابقا تعبد الغناء العربي فكانت آية في الجمال، وقد خيلت في ذهن معلمي العم أبو فؤاد (حمادة العفيفي) وأصبح عاشقا ولهانا أمامها ثم يدور وينحني علي ويمسك شعر رأسي بيده ويقول "ولك يا واصف خلقت كما اشتهت" وكان يؤلمني حقا وأنا أجيب "طيب ونا مالي حرقة تحرقك وتحرقها" وكان خبيرا يعلم الصب والجمال.

وهكذا كان يوما مشهورا ونسينا ما نحن به حقا من بؤس وشقاء بمناسبة الحرب. وكان إسماعيل بك وسليم بك أيوب في أوج علاهم فكانا لهما بنك مقابل لمدخل باب الخليل من الخارج وقد تحول هذا البنك الطابق الثاني إلى مقهى كان يدعوها الأستاذ خليل السكاكيني بقهوة الصعاليك فرجعنا القدس وكلنا طرب فسقيا لتلك الأيام ما كان أطيبها.

والجدير بالذكر في هذا الصدد إتفق حسين أفندي والمتصرف بان أقوم بتعليم خليلة المتصرف اليهودية العود، أخذني المتصرف إلى بيتها الكائن في البيوت مقابل مستشفى ولخ شارع يافا واشترينا العود من فرح القرعة وواظبت على علم هذه الغادة أربعة مرات من كل أسبوع وكانت والحق يقال موهوبة تحفظ ما تعلمته بسرعة فائقة، وعندما سمع العم أبو فؤاد بذلك جن جنونه وأكلته الغيرة وكان مغرما بها وقد ضاعت منه فرصة عملها، فمسكني مرة وقال ولك إنت تلميذي أهذا عدل من حسين أفندي بأن يتركني ويفضلك عني في هذه المهمة؟. أجبت على الفور لا يا عمي أبو

فؤاد فما كان قبولي إلا لخاطرك أنت ! ! قال لماذا ؟ . أجبت أنا المهم في الأمر أن أتحقق فيما إذا كانت هذه السيدة حقا خلقت كما اشتهيت .

فجن جنونه وقلت له لن أنسى يا أبا فؤاد شعري وألمه في الشطحة مطلقا فهذا جزائي ، وجزائك والله حرمك من تعليمها العود بالرغم من أنك أستاذي الأكبر في هذه الصناعة ، وقد حاول مرارا أن أصطحبه معي عند الدرس في بيتها ولكني رفضت خوفا من المتصرف الذي كان يعبدها وفضلني عن حمادة أفندي لصغر سني .

الشغل في أريحا

على إثر زيارة روشن بك وحسين أفندي للسيد سليمان السكر في السلط فقد رتب حسين أفندي الترتيبات اللازمة لتأمين نقل الحبوب للجيش بالقدس حسب الطريقة التالية .

المرحوم الشيخ جلال الدين العلمي مركزه البحرة لإستلام القمح من طريق البحر غور المزرعة لأنه كان يوجد لانش يسحب مركبا شراعيا عائدا إلى حسين أفندي ويوسف كينك اليهودي منذ قبل دخول الحرب ، وقد تحطم اللانش وبقي المركب الشراعي. وكان الشيخ جلال يستلم الحبوب من المرحوم محي الدين الحسيني الذي كان في غور المزرعة والكرك . كان بدوره الشيخ جلال يرسل لي :



قارب في نهر الاردن قرب البحر الميت. المصور غير معروف من مجموعة جمعية الدراسات العربية، القدس.

أقمت في أريحا في فندق الجلجال لصاحبه صليبا سعد وسلمني حسين أفندي الأربع مخازن من عمارة الميري طريق الشرق وكان الطابق الثاني تشغله الإدارة الحكومية مدير ناحية وكانت المخازن من بناء الحجر . وهكذا كنت في الصباح الباكر أستلم الحبوب من البدو العرب السواحرة من ٢٠ إلى ٢٥ حملا وبدوه قبان أحفظ هذه الحبوب في المخازن وأحتفظ بالمفاتيح ، وفي نهاية كل أسبوع أسلم هذه الحبوب إلى الجيش واستمرت هذه الشغلة خمسة شهور ، وبالها من وظيفة .

كانت ثقة المرحوم حسين أفندي بي عظيمة من حيث الأمانة ومن عرف هذه المهمة الإستلام والتسليم حتى بدون وزن وبدون حفظ قيود رسمية يعجب كل العجب فكنت أستلم مثلا عشرين حملا من القمح لا أكثر ولا أقل وكانت البدو تكب الأكياس فوق الحبوب القديمة وأنا أحفظ بعض الأكياس يوميا ليس إلا وعلى هذه الطريقة كنت أدير العمل مع المرحوم حسين أفندي الذي كان رحمه الله لم يسألني عن حساب ما إن كان بخصوص الأشغال أو المصروف الخاص لبيته فقد ترعرعت بمعيته ولم أعرف الخيانة والحمد لله .

أريحا كانت في زمن الحرب قرية صغيرة جدا فيها بعض الأبنية المتفرقة هنا وهناك فإذا ما دخلت أريحا من القدس لا تجد سوى فندق المنظر الجميل يديره نزال والشمالي وأبو جميلة ومقابل هذا الفندق بيت لورنس. ثم تجد غرفة صغيرة مقامة من الحجر عبارة عن ثلاثة أمتار في مترين في وسط الأراضي العائدة لدير اللاتين الآن وقد كان الشارع الواقع شرقي دير اللاتين زقاق ضيق يصعب عليك السير عليه تخوفا من الأفاعي والعقارب والحشرات المخيفة لما كان يحده من الأعشاب السدر التي كانت تستعمل آنذاك سورا للبساتين. وكان فندق الجلجال عائدا إلى عائلة عريقات ومؤجرا سنة ١٩١٥ إلى العم صليبا سعد. وقد كان بيت نخلة كتن وفيضي العلمي على كتف الواد خلف فندق المنظر الجميل.

وعند دخولك وسط أريحا تجد بعض الدكاكين المقامة من اللبن بصورة متواضعة جدا حتى أني أذكر أن بعض هذه المخازن كان ينزل إليها في درجة أو درجتين والأرض لجميع الدكاكين التراب لا شمنتو [أي إسمنت] ولا بلاط ولا ما يحزنون وقد كان فندق جوردان أي الأردن لصاحبه بتريدس من العمارات المعروفة في أريحا آنذاك وقد استعمل مستشفى وعيادة للجيش في زمن الحرب وإني لم أزل أذكر غرفة أخي وصديقي الدكتور يوسف حجار عندما كان ضابطا في الصحة فكنا نسهر الليالي الطوال في حديقة المستشفى النادرة آنذاك فأعزف وأغني للقادة العسكريين أذكر منهم زكي بك وصادق بك وكمال بك وغيرهم. وكثيرا ما كنت أذهب مع أخي الدكتور حجار في زمن الإنتداب البريطاني لأريحا لا لشيء سوى لدخول فندق الأردن ومشاهدة غرفة الدكتور حجار للذكرى.

وكانت المساحة الواقعة شرقي هذا الفندق لا تزيد عن عرض ثمانية أمتار فيصادفك بعدها تماما منازل أهالي أريحا القديمة بصورة بشعة للغاية وهكذا كانت أريحا تعج بالبراغيث والحشرات من عدم وجود البلاط والأوساخ من منازل أريحا القديمة. أما من جهة الشرق فتجد عمارة المسكوبية وكان لونها الأحمر مقامة من الحجر كان يسكنها في الطابق العلوي القوماندان وبعض القادة وكان الطابق الأرضي مخزنا تحفظ فيه المؤن بكافة أنواعها للتوزيع على الجيش تحت إشراف عبد الرحمن أفندي اليوزباشي من سوريا ومعه محمد شاويش نسيب زمرد من القدس ليومنا هذا.

كنا نسهر على أسطحة هذه العمارة لنرفه عن القومندان كامل بك فكان معين نفرين من الجنود لوضع الماء البارد فوق اللباد المغطى على هشة من الفخار وبهذه الواسطة تصبح المياه ضمن أو داخل الهشة وكأنها ثلج بارد. وكنا نأكل موز أريحا البلدي (والذي قضى عليه في أيامنا هذه لأمر أجهله) فكان ثخين الحب وقصيرها. وكان يترك على الشجر لعندما يستوي تماما وتفلق الحبة لوحدها فينزل منها شيء يشبه القطر الشهي المعتّر ولم أنس لذة ذلك الموز لهذا اليوم.

أما عند دخولك أريحا من باب الشرق فتجد على يمينك السراي وكانوا يسمونها دائرة الميري وإذا ما رغبت الذهاب إلى عين السلطان تمر على حديقة وعمارة المسكوبية الغربية وتسير في زقاق تسير فيه بصعوبة من الخوف من الحشرات

المؤذية لأنه ضيق وضرب مقام على جوانبه السدر الملآن من الأفاعي والحشرات إلى أن تصل مر عن دار أبو نمر الشمالي ملك إسماعيل بك في يومنا هذا ثم دار أنطون نزال وأخيرا دار راغب بك النشاشيبي وبعض الغرف المبعثرة هنا وهناك وحول عين السلطان كان منزل المرحوم إبراهيم النقيب ودار مرقص الحجرية الواقعة بجوار دار إبراهيم الحزينة في يومنا هذا.

وكان الجامع الوحيد لأريحا من الجهة الشرقية طريق بحر الميت ودير حجلا بجانب عمارة المسكوبية الحمراء قريبا من منازل أهل أريحا القديمة. ثم كنيسة الروم الأرثوذكس داخل الدير الواقع مقابل دير اللاتين الآن وقد ضمت إليه مؤخرا فندق الجلجال وبيعت من عائلة عريقات إلى البطريركية الأرثوذكسية. كذلك دير وكنيسة الأقباط التي تصل إليها من شارع الميري ليومنا هذا ولم يزل الأب فليبوس ليومنا هذا رئيسا لهذا الدير.

أما أصحاب الأملاك المعروفة آنذاك فكانوا فيض العلمي، نخلة كتن، إبراهيم النقيب، الحاج مصطفى عبد اللطيف، موسى مزراحي اليهودي، أنطون نزال، راغب بك النشاشيبي، أبو جميلة الشمالي، حنا الشمالي، بدر يونس، بطرس أفندي مدير البوسطة، عائلة البيضة، خليل بك الداودي، عائلة عريقات، عائلة الجعوني، عائلة بتريدي، أبو يواكيم كراكوز، بستان الحاج مبارك، عائلة مرقص، تيود اليوناني، والياس القزاز، وكان دير الروم وخصوصا الراهب سربيون رئيس دير حجلة يملك كثيرا من أملاك أريحا من مخازن وأراضي بكثرة ثم فنادق معروفة.

وإني أذكر بعض التجار المعروفين في العهد العثماني في أريحا وهم حنا البيضة وأولاد أخته سمعان وإخوانه، القزاز الياس، غريغوري أنسطاس، يعقوب البقلوق، ميخائيل الطبة، خميس الطبة، أبو يواكيم كراكوز، الحاج عبد السلام المغربي، متري المسكلب، ثم مقهى وبار يني وزوجته في وسط المدينة.

كانت أريحا تضم كثيرين من عائلات طائفة الروم الأرثوذكس العرب في زمن الحرب أي منذ سنة ١٩١٤ لغاية ١٩١٨ وقد كنت أتسائل كيف كانت هذه العائلات تعيش يا ترى؟ لأن أكثرية المسؤولين عن إعالتهم كانوا في خدمة الجيش ورغما عن هذا كنت ترى جميعهم يعيشون مسرورين ومستورين بالنسبة إلى بلاد أخرى[١] في البلاد كانت بركة وعطف الإنسان على أخيه الإنسان وكانت والحق يقال أريحا ملجأ لكثير من العائلات فقضوا فيها حياتهم طيلة سنين الحرب بمرح وسرور ولم ينقص عليهم شيء من الأغذية مع أن البلاد الأخرى من مدن وقرى ذاقت ولاقت ما لاقت وذاقت من الجوع والهوان والمذلة.

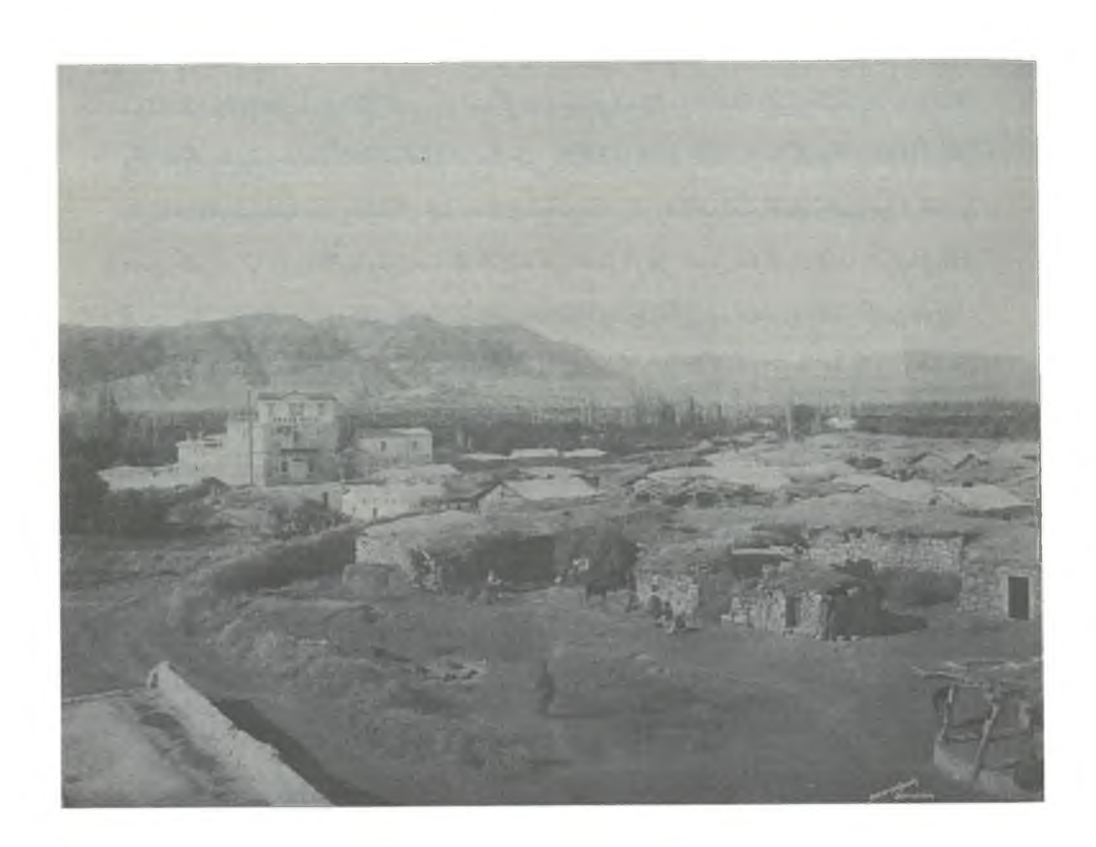
إني أذكر بعض هذه العائلات بصفتي كنت بمعية حسين أفندي الحسيني ولم أنقطع عن أريحا زمن الحرب فكنت أتردد عليها وأقمت فيها لمدة طويلة قبل بلوغي سن خدمة الجيش وكذلك تعييني في أريحا وقضيت وظيفتي كعازف على العود ومغني للحاكمين مدة لا تقل عن السبعة شهور إلى أن إنتهى العهد العثماني وقضي على تركيا نهائيا من بلادنا.

١ يقصد مدن أو بلدات أخرى.

صورة أريحا:

منظر عام لمدينة أريحا في بداية القرن العشرين ويظهر في الصورة فندق جوردان. مصورو الأمريكان كولوني. الصورة من كتاب عصام نصار تصوير القدس: صورة المدينة في القرن التاسع عشر.

Issam Nassar, *Photographing Jerusalem; The image of the City in nineteenth Century Photography* (Boulder: East European Monographs, 1997)



حياتي في أريحا مع الضابط كمال بك

تعرفت وأنا في وظيفة إستلام الحبوب في أريحا كما بينت سابقًا بضابط تركي يدعى كمال بك ملازم أحد ضباط فرقة البيطرة (أي المحافظة على الحيوانات للجيش) . كان كمال بك من أجمل شبان عصره طويل القامة باهي الطلعة أبيض اللون عيونه جذابة ولونها عسلي أنيق في لباسه وحياته يدل على أنه إبن نعمة ومن أرقى عائلات الأتراك في الإستانة . فقد كنت ألاحظ في جلساتنا أن أكثر الضباط اللذين أكبر منه سنا وقدرا بالوظيفة يطلبون رضاه ويحترمونه ويحبونه حتى إني أقولها صراحة أن روشن بك ذاته كان يعبده وزد على ذلك فإنه كان يعيش عيشة بذخ وإسراف فإذا ما دخلت غرفته ترى على سبيل المثال ليس زجاجة كنياك بل صندوق ملآن من الكنياك الممتاز (منكساس) . وهكذا وكان بحكم وظيفته وجوده وكرمه يتحكم بجميع موظفي دائرة البيطرة التابعة للجيش من كبيرها وصغيرها ، ولكن بطريقة لطيفة ومتواضعة جدا وعليه كان مجموعة تحت أمره من الخيل العربية الأصيلة ثم الجمال وخصوصا تسعة منها هجين بكامل عدتها العربية الأنيقة وفوق هذا كله كانت له عربة صغيرة وعلى العجل الكوتشوك تجرها رأسين من الخيل الموردي بما يسمونها فيتون وهو الذي كان يجلس داخل هذه العربة ويسوق الخيل بنفسه بصورة تدهش كل من رآه فيها . وكان كمال بك مدمن على الخمر وجسمه يتحمل الشرب وإذا سكر يزداد جمالا ولطفا ووضاعة وكرم. ولما تعرف علي آنسني وأحبني جدا وجعلني والله يشهد كرافقه الخاص في جلساته النادرة وفي سهراتها المشهورة في أريحا .

كان يسكن الغرفة المقامة في حديقة دير اللاتين زمن الحرب العظمى والتي أشرت عليها في مستهل حديثي (لمحة عن أريحا) و كانت هذه الغرفة والحق يقال تدعى بيت الأمة ، وقد لاقت هذه الغرفة من ليالي سمر ومجالس أنس يصعب على الكاتب وصفها بالرغم من صغرها ، ومن المواظبين على هذه الغرفة كان الأخوان إبراهيم سعيد الحسيني وعبد اللطيف الحسيني . وهكذا عندما كنت أفرغ من إستلام الحبوب من البدو وخزنها في دكاكين الميري ، أرجع إلى كمال بك ونبدأ بوضع الخطة للنزهة في ذلك النهار وعندها تسير معنا قافلة من الخيالة والهجانة عبارة عن ٩ - ١٢ شخصا دائما أبدا إما إلى نهر الأردن أو بساتين دير حجله أو النويعة فنقضي نهارا بالغناء والعزف على العود والرقص ونرجع وكأننا في زفة العريس فنخترق شوارع أريحا الضيقة ونمر من المركز الرئيسي فتخرج الناس لمشاهدة هذه القافلة. فمرة أكون وكمال بك راكبين الهجين وأخرى راكبين الخيل ومرة في الفيتون وهكذا . وعلى هذه الصورة قضيت أيام وليالي لن أنسى لذتها وحلاوتها ما دمت حيا .

ما أحلى الصبا وأيامه

وإني أذكر للقارئ هذا الحادث الغريب من نوعه الذي صدر منا في أريحا يبرز فيه منتهى الطيش والطرب. ذهبنا من بعد ظهر ذات يوم برياسة كمال بك ومعنا الحاشية المعروفة بالخيل والهجين إلى عين السلطان وقضينا ما يقرب من ثلاث ساعات على الطرب والكاس ، الأمر الذي جعل كمال بك يبتكر فكرة يلفت أنظار أهالي أريحا عند رجوعه من عين

السلطان. فقد أرسل بعض رجاله وأشاع أن جمال باشا سيزور أريحا قريبا من القدس. ثم رتب حاشيته بالصورة الآتية:

أربعة سواري في الأمام ثم خلفهم هجين، ثم عربة كمال بك راكبا فيها يسوق الخيل الخاصة وأنا بجانبه أعزف على العود، ثم ستة من الهجين خلف العربة. ولأجل ضبط الحيلة سلكنا الطريق التي كانت زقاق بعد في ذلك الزمن [ ] من دار إسماعيل بك إلى باب دير اللاتين الآن ودخلنا أريحا على هذه الصورة والجميع يشوش وأنا أغني بأعلى صوتي وأعزف العود وهكذا لنقنع أهالي بأن جمال باشا أتى عن طريق القدس. وهكذا خرجت التجار وأصحاب المنازل والمساكن إلى أن وصلنا إلى الساحة مقابل مقهى ياني وزوجته. وقد صدق من قال وعند صفو الليالي يحدث الكدر.

توقفت حالا عن العزف والغناء وجهدني العرق من الخوف والخجل، لماذا؟، وإذا شاهدت حسين أفندي الحسيني ومعه المرحوم علي النقيب الحسيني والعم أبو رباح وقد تحضرا مع من كان حاضرا بجوارهم فوقفوا إجلالا واحتراما لجمال باشا.

سألني كمال بك ما بالك تبنجت؟ أجبته أنه حسين أفندي الحسيني وهو الذي أرسلني إلى أريحا لإستلام الأغلال الخ.

نزلت حالا من الفيتون العربة ثم لحقني كمال بك بعدما صرف الحاشية، وتعرف مع حسين أفندي ودار ما بينهما من الحديث باللغة التركية وكان كما علمت كله عتاب ثم التفت حسين أفندي إلي، وقال لي هذا شغلك يا واصف؟ يا للخسارة قد ضاع أملي فيك أتريد أيضا أن تقضي على حياتنا بهذه الألاعيب السياسية فتمثل دخول الحاكم بأمره جمال باشا؟ الله الله صحيح الحق علي أنا فالولد ولد وأنا صامتا لا أبدي أي كلمة إلى أن أقنعه كمال بك ولأول معرفته به فأثر عليه لما كان عليه من شخصية بارزة فهدأ روعه وأخيرا أتدري ماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة بأن حسين أفندي وعلي أفندي النقيب كانا على رأس مائدة كمال بك في غرفته الصغيرة والكبيرة في مقامها بحضور قومندان المنطقة وسر طبيب الجيش وكثيرا من الضباط ذات المراتب العالية وبقينا لغاية الساعة الثانية ونصف صباحا. وإثرا على معرفة حسين أفندي الحسيني بكمال بك إستفاد الأول كثيرا بواسطة كمال بك هذا وفتح له أبوابا جديدة من اليسر مع القادة وخصوصا مع سعد الله بك أركان حرب الجيش بالقدس.

مشنوق أريحا

عندما كنت سنة ١٩١٥ في أريحا كانت دار عائلة البيضة من طائفة الروم الأرثوذكس العرب واقعة آنذاك من الجهة الجنوبية لساحة أريحا العمومية تماما إنما تقسمها الطريق العامة وهي ذات الموقع المقام عليه دائرة بلدية أريحا الحجرية الآن وقد بقي على ما أذكر قسما من البناء اللبن العائد لعائلة البيضة ليومنا هذا.

أخذت الدولة هذه العمارة واستعملتها دائرة الجيش المعروفة (المنزل) وقد كان فيها بلكونا من الخشب يطل على ساحة أريحا. وقد خصص هذا البلكون زمن الحرب للمجرمين فقد استعمل مشنقة بدلا من ان تنصب المشنقة على حدة

في أريحا . وصادف أن القائد الأعلى جمال باشا حكم على أحد بالشنق فشنقوه في صباح ذات يوم من على هذا البلكون على مرأى من الشعب للعبرة وكانت عملية الشنق غير محكمة علميا وطبيا وهكذا بقي المشنوق حيا ولم يفارق الحياة بل تألم جدا وكنا نرى هذا المنظر المؤذي المؤلم بحسة وشفقة ولكن ماذا الذي يجري على التكلم .
والأنكى من هذا كله أن القائد أمر بأحد الجنود [وإسمه أنطون من طائفة اللاتين بالقدس كان يخدم عاملا في الجيش نعرفه وسهر معنا في بيت العم الياس القزاز وسكر] أمر القائد فوقف أنطون على البلكون ثم صعد وقفز من على حائط البلكون الخشبي أيضا ووقف على أكتاف المشنوق المسكين متصلقا بيده بالبلكون وقد زاد الثقل على هذا المشنوق فأصبح والعياذ بالله بصورة لا يستطيع المرء أن يشاهدها فقد برزت أعينه من وجهه وهكذا كانت العرب على بلكونات المشانق بسبب ظلم وقسوة أحمد جمال باشا وتركيا بأسرها وإني أكتب هذه الحادثة الأليمة وقلبي يتقطع حسرة عندما أذكر ذلك المشهد المؤثر .

علي عباس الجاعوني

لأجل الصدف وجدت الأخ علي عباس الجاعوني موظفا في أريحا سنة ١٩١٥ فزاد سروري لأنه من أشهر متذوق لفن الموسيقى ومن هواة أهل بيت المقدس وهكذا ساعدني الحظ في هذه الفترة أن أكتسب منه مجموعة قيمة من أغاني موسيقى مصر القدماء أمثال عبده ومحمد عثمان والشيخ يوسف المنيلاوي . كان يقيم في غرفة في دير الروم الأرثوذكس بجوار الكنيسة وكنت أقضي معه الساعات الطوال وقد دخلنا في فصل الصيف فكنا نجلس في غرفة ونشلح هدومنا إلا السرّة ، ونأكل الخبز البلدي مغموسا بالسمن الصافي لوحده ، وإنها أكلة تبرد حرارة الجسم وتغذيه . من عرف أبا عباس يعلم أن هذا الشخص كان يتذوق النكتة وله إصطلاحات نادرة في طريقة كلامه فمثلا "إذا ما دخلت عليه وطرحت عليه السلام السلام عليكم" فيجيب بالحال "وعليكم السلام وبركاته شو عليه إحنا لبعضينا" وإذا ما التقى بك على الطريق يقول لك نهارك سعيد ؟ أي شبه سؤال .
كنت مرة ماشيا معه في الشارع وإذ صادف أن سائلا يسأله حسنة ، وقد صادف أن ولدا كان يأكل الكعكة بجانبه فما كان منه إلا أن أخذ الكعكة بلباقة من يد الولد وأعطاها إلى الفقير ، وكان منظرا مثيرا ومضحكا للغاية إذ حاول الولد استرجاع الكعكة من الفقير ولكن أين له أن يسترجعها بعدما وصلت إلى يده .
تعلمت منه رحمه الله موشح كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي سوارك منعطف الجدول الخ . من مقام الجهاركاة وكان من أبدع ما قيل من موشحات المرحوم عبده وعلى الطريقة المصرية وعند آخر شطرة من هذا التوشيح يقول "لأن الحبيب يا خونا في منزلي آه" والحق يقال كان هذا الموشح كما يقولون معنى ومغنى . ثم بعض القصائد أمثال "الله يعلم أن النفس هالكة باليأس منك ولكني أمنيها ، قفي يا أميمة القلب ، نقض لبانة ، أفديه أن حفظ الهوى أو ضيع للموسيقار أبو العلاء محمد كذلك غيري على السلوان قادر منه أيضا . ثم وهواه وهو [؟] وكفى به قسما أكاد أجله

كالمصحف من مقام النهوند ومن غناء الشيخ يوسف المنيلاوي. ثم بعض الغناء القديم دور يعيش ويعشق قلبي رق الدلال والية من مقام صبا ، وفي مجلس الأنس الهني طاب الصبوح وقد وفى ، ثم حبذا عصر سعيد من غناء الشيخ سلامة حجازي وغيرهم كثيرين حفظتهم منه رحمه الله قطعة فقطعة وكان يجيد غناءها . وكان يرتاح لمواهبي وكان يشجعني على السير في الموسيقى وقال لي لو ساعدني الحظ فلا أترك الفرص للسفر بعد الحرب إلى القاهرة وجعل الموسيقى لي حرفة وكان يشجعني بالمثابرة على قراءة القرآن طيلة حياتي فقراءة القرآن الصحيحة هي التي ترفعني درجات في الغناء .

سهرة عبد السلام بك قومندان فرقة حيوانات النقل للجيش العام

كان العم أبو عباس الجاعوني معي في سهرة على سطح بيت القومندان كامل بك سطح المسكوبية بجانب الجامع الشرقي في اريحا . والذي أخذني لهذه السهرة صديقي كمال بك وكان من بين الحضور قومندان طاعن في السن إسمه عبد السلام بك مغربي من مراكش وكانت وظيفته ذات أهمية كبرى في الجيش للإشراف على نقليات الجيش بواسطة الحيوانات (قول قاماندانى) وقد جاء إلى أريحا وضرب خيامه مع فرقته على كتف الواد من أراضي العم محي الدين أفندي الحسيني. وقد أعجب من عزفي وغنائي في تلك السهرة فالتمس من كمال بك أن لا يرفض طلبه بقبول دعوة لعمل سهرة على عين السلطان واتفقنا على ذلك وكانت السهرة في ليلة مقمرة ولكن لم يحضر كمال بك .
وكنت أنا والعم أبو العباس وزميلي في الدراسة ثم بالجندية ميخائيل الياس القزاز وقد نظم هذا القومندان مائدة شرب وطعام غنية فجلسنا نغني ونعزف على العود على خرير الماء في ضوء القمر الأمر الذي جعله يتمايل طربا وسكرا على المائدة وقد أحبني وأحب غنائي فأخذ بدوره صينية نحاسية ووضع خاتمه عليها وبدا يتلاعب في هذه الصينية بطريقة فنية كان الخاتم عليها يرقص ويعمل أنغاما شجية من حيث الثقل والخفة فعندما يرغب إظهار ثقل الإيقاع تجد الخاتم انتقل إلى وسطها وفي حالة العكس تجد الخاتم على الدوائر فغنى غناء مغربيا ألف كلماته في الحال أذكر المطلع "ألا يا واصف أوصفني "
وقد كان الصديق يعقوب فوتة زخريا فرارا مختبئا في بيت جورج زخريا على عين السلطان يحضر خفية يؤانسنا فنقدم له ما استطعنا من الخمر والمازة. كانت والحق يقال سهرة جميلة أخذ الطرب من الحضور بأجمعهم كل مأخذ وبقينا على هذا الحال للساعة الثانية بعد منتصف الليل .
سمح لنا هذا القومندان بالذهاب فقبل كل منا يديه وقد حاول أثناءها أن يقدم لي مبلغا من الجيديات ولكني رفضت واعتذرت فزاد حبه وإعجابه بي. ركب العم أبو عباس حمارة ميخائيل القزاز (الزاملة) وركبت من خلفه وكان ميخائيل ماشيا بجانبنا ونحن نغني بأعلى صوتنا إلى أن وصلنا مقابل دار راغب بك النشاشيبي غنى ميخائيل القزاز

موالا وتابعه عند الإنتهاء بخمسة فشكات من مسدسه في الهواء وذلك من نشوة الطرب والحظ، فعمل صوت البارود دويا في سكون الليل. ولكن أتدري ماذا أسفرت النتيجة؟ .

بعد لحظة لحق بنا القوماندان بنفسه يركض على قدميه يعربد ويزمجر بالمغربية بأعلى صوته فوقفنا مدهوشين إلا القزاز فقد هرب حالا وانزوى خلف الأثمار السدر التي كانت في ذلك الزمن تغطي جوانب الشارع وبقيت أنا والعم أبو عباس. سأل القوماندان بغضب متزايد موجها كلامه إلى العم أبو العباس فقال له: "ها أبو العبس لويش الطلاق؟ جاكوا قوم؟ جاكوا الإنكليز؟ إنك ...؟ ها أبو العبس لويش الطلاق؟" ولم أستطع أن أصور لك ذلك الموقف وخصوصا العم أبو العباس ذو الدم البارد والذي كان في حالة غيبوبة من السكر فيجيب بأبيك الله يعلي مراتبك هذا القزاز جاهل يا سيدي. ولكن كما قلت كان القوماندان مغربي معروفين بالنرفزة والحرارة ثم يلتفت إلي وقال "والله والله ثم والله لولا واصف بك لقطعتك يا أبا العبس لويش الطلاق."

ولكن أجاب نهائيا أبو العباس ما فيش لزوم تقطعني أنا يا سيدي قطع القزاز زادت نرفزة القوماندان وزاد هياجه فأمر الجندي فركب حصانه وذهب توا إلى مقر الفرقة فأعطى الأوامر السريعة لكل الفرقة فحملوا في الحال وتركوا أريحا وفي لمحة من البصر لم تبق خيمة هناك!! وهكذا قد فش غله كما يقولون بالفرقة وكانت هذه الحادثة قصة مجتمعنا في أريحا نذكرها ونذكر ذلك القوماندان ونلعن القزاز الذي سبب لنا كل هذه المشقة.

الرحلة الأولى إلى مدينة الكرك

إتفق حسين أفندي الحسيني مع روشن بك مفتش المنزل بالقدس بأن يستورد الحبوب وخاصة القمح على مجال أوسع وكميات كبيرة من الشرق فتعاقد حسين أفندي مع الشيخ جلال العلمي والعم محي الدين أفندي الحسيني وقرروا على جلب كميات القمح من قضاء الكرك عن طريق البحر الميت. عملوا مراكب شراعية إثنين من أكبر الأحجام وتسلم مقر الشاطئ الغربي إلى الشيخ جلال للإستلام والشاطئ الشرقي غور المزرعة مقر العم محي الدين أفندي للتسليم.

ذهبت لأول مرة بمعية حسين أفندي عن طريق البحر الميت وكانوا يسمون الشاطئ الغربي من البحرة [الجديدة] ولم يكن هناك إلا غرفة من اللبن[1] كبيرة وسقفها من البوص القصب حسب العادة وجميع من رغب النوم ينام فيها وقد خصص الشيخ جلال خيمة من القماش شادر بجانب هذه الغرفة. نزلنا البحر في المركب الشراعي الكبير وكان معنا البحرية ريحان الأسود وحسن الحافي بحري خبير من يافا. كان البحر هائجا وزاد هياجا بعد ركوبنا المركب فانزعجنا جدا ولم نستطع النزول إلا عند الساعة الحادية عشر ليلا وكان ظلام دامس والبحر مخيف من شدة الأمواج فقفزنا إلى الشاطئ بكل نفس زاهقة الموت ولما كان المرحوم حسين أفندي لا يعرف العيشة المتعبة أو عيشة الخشونة أذكر أنه عندما وصل الشاطئ ودعست قدميه اليابسة قال "صدق من قال "زراط البل ولا تسبيح السمك" ولكن أردف قائلا أين السمك من بحر الميت فإنه مياه خصوصا عندما تكون الأمواج متلاطمة تصبح وكأنها الزيت من الثقل والعياذ بالله.

[1] الطين المجبول بالقش.

العم محي الدين أفندي الحسيني

كان العم محي الدين الحسيني من أبسط رجالات عصره من حيث اللباس والأكل والحياة. فكان رحمه الله في منتهى الوضاعة والعطف على الفقير والغريب فتراه يلبس أرخص نوع من الأقمشة ومن فوقه الثوب البسيط وعلى كتفه الشالة البالية. كان يأكل ويعيش مع أصغر صعلوك فيحترمه ويؤانسه ويكرمه وكان يأكل مرة عند كل أربعة وعشرين ساعة. تقي وكريم النفس وكان يمشي المسافات الطويلة ولا ينقطع عن شرب القهوة السادة. كثيرا ما كان ينزل مشيا على الأقدام من القدس إلى وادي القلط وكان هذا المقر له مضافة لمن جاءه من البدو على إختلاف قبائلهم ليلا ونهارا فيستريح وينام ويأكل ويشرب مجانا ومتى شاء وبهذه الطريقة استطاع العم محي الدين أن يحبب البدو وأهل البلاد البعيدين عن المدينة فيه فهو من أحسن عائلات القدس حسبا ونسبا الأمر الذي جعله أن يصبح ثريا ومالكا لمساحة من الأراضي والمياه ليس أقل من ماية وخمسين ألف دونم ما بين القدس والبحر الميت وفي مواقع عديدة إلى يومنا هذا.

شاهدنا العم محي الدين أفندي وهو أولا إبن عم حسين أفندي وصهره متزوجا أخته أم مصطفى كان يعيش في غور المزرعة لوحده بين أهالي تلك المنطقة وقد نصب سريرا من أعواد العطب ومن فوقه خص من القصب يصعد عليه عند النوم وتبقى شر الأفاعي الحشرات هناك. وجدنا بجانب سريره عريشة من البوص فنصبنا السراير السفرية لكل منا أنا وحسين أفندي ونمنا فأقمنا في ضيافة العم محي الدين في غور المزرعة يومين.

الكرك

بعدما أقمنا يومين في غور المزرعة ضيوفا على العم محي الدين أفندي ركبنا الخيل حتى وصلنا عقبة تعرف بالخرزة ثم وصلنا إلى سيل الكرك المعروف وهو من أطيب ينابيع المياه في الشرق وأنفعها. والجدير بالذكر أن الأطباء ألمان أشارت على القائد جمال باشا أن يستعمل ماء هذا السيل فكانت تنقل الماء ضمن أوعية خاصة تعرف (بالغناطيس) وعلى ظهور البغال وترسل إلى المكان الذي كان يوجد فيه جمال باشا الكبير طيلة مدة الحرب العظمى الأولى. وقد أصبح ضفتي هذا السيل وكأنها جنة عدن بواسطة مهاجري الأرض اللذين سكنوا هناك مدة الحرب وزرعوا الأشياء النادرة من الخضروات.

وإني لم أزل أذكر تلك العقبة التي طلعناها من السيل إلى مدخل مدينة الكرك فقد كانت وعرة ومن حجر الصوان ونزلنا في الدير ضيوفا على رئيس الدير المرحوم الأرشمندريت إينخاريوس فأقمنا عنده على الرحب والسعة مدة عشر أيام فاجتمع حسين أفندي مع المعروفين من شيوخ القبائل المسلمين والمسيحيين منها وأمن شراء القمح وتسليمه إلى العم محي الدين أفندي في غور المزرعة والذي كان بدوره يستلم ويسلم القمح بواسطة المراكب الشراعية إلى العم الشيخ جلال الدين العلمي في الضفة الغربية من البحرة.

إن موقع مدينة الكرك عالـــ جدا ومحاطة بسور عظيم حصين وإني شاهدت القلعة المعروفة بقلعة الكرك من الجهة الجنوبية من المدينة وذكروا لنا ذبحة الأتراك فيها . أما بيوت ومنازل الكرك فكانت متواضعة جدا فإنك تستطيع أن تصعد إلى سطح البيت من الشارع لأنه واطي جدا ثم بمكنك السير من سطح إلى سطح بمسافة طويلة فوق المنازل . وقد وجد بعض العمارات الحديثة في ذلك الوقت وخصصت إلى الموظفين وبعض العائلات الغريبة أمثال عائلة قطان وغيرها .

كانت مدينة الكرك تعج باللاجئين الأرمن وقد تعرفنا لبعض هؤلاء اللاجئين وكانوا من أعيان الأرمن في الإستانة وكانوا يقيمون في دير الروم بالكرك وقصوا علينا الطريقة المحزنة التي جاءوا بواسطتها وتعرفوا على بعضهم البعض وأصبحوا لأجل المعيشة يبسطون ويبيعون الثمر في الشوارع بمساعدة عائلة القطان حبيب وابراهيم وجاد الله هناك .

دار السرور بالقدس

توجد دار عائدة إلى البطريركية الأرثوذكسية بالقدس واقعة بجانب كراج بامية الآن خلف سينماركس بالقدس وتطل من جهتها الجنوبية على مقبرة مأمن الله . أخذ حسين أفندي هذه الدار بطريقة ما من البطريركية الأرثوذكسية واحتفظت بالمفتاح . زينت هذه الدار بالأثاث المتواضع واستعملت الدار كما كانوا يسمونها (أوضة) للسهر فيها والراحة البعيدة عن العائلة من قبل حسين أفندي الحسيني واسماعيل بك الحسيني وكانت والحق يقال دار السرور فعندما زار راغب بك النشاشيبي القدس أثناء وظيفته مبعوثاً في الإستانة لم ينقطع عن زيارة دار السرور وكانت أفراح وليالي ملاح فكانت طائفة من الحسان يزرن الدار ونقضي الليالي المشهورة فيها على الكاس والطاس والوتر والغناء .

كنت والعم حمادة العفيفي نجاهد جهاد الأبطال في العزف والغناء وإني أذكر ثلاث سيدات روسيات كانوا من معارف اسماعيل بك ومحمود أفندي الراغب الحسيني الواحدة تعزف على القيثار والأخرى على المندولين وأما الثالثة فكانت تجيد الرقص الروسي بمهارة وكانوا يجيئون لاستماع الغناء العربي وهكذا كانت حياة سعادة وهناء وسرور وحظ .

وقد استقل أخيرا العم اسماعيل بك بإحداهن من تعزف على القيثار وكانت أجملهن فسكنت في دار مقابل مستشفى روتشلد فكنت دائما مع العم اسماعيل بك نقضي الليالي الطوال هناك وقد كلفت بشراء ما يلزمها من لباس وطعام على نفقته الخاصة رحمه الله وأصبحت الأمين عليها زمناً طويلاً .

دير الفرنسيين في قرية أبو غوش

وفي أثناء زيارة راغب بك النشاشيبي القدس عندما كنت بمعية حسين أفندي في ديرعمر أرسل راغب بك الخيل بواسطة فلاحين من قرية أبوغوش فتوجهنا إلى دير الفرنسيين في أبوغوش ووجدنا راغب بك يرغب قضاء أيام عيد الأضحى هناك وهكذا كان العود معي وقضينا العيد وكان عيدا حقًا فكانت بعض العائلات اللاتين من القدس ونصبنا

الخيام على المرتفع تحت ظل أشجار الصنوبر وكان السيد يوسف البينا وشقيقته ومبارك مروم وقد عرج المرحوم عثمان النشاشيبي عندما كان راجعا من [غير واضحة في الأصل - الحرران] ولم يعجبه هذا الحفل فتركنا وجاء القدس.

كما نام بعد الظهر من شدة الحر في غرف الدير وأما ليلا في الخيام وقد استعدوا المسؤولين في الدير بكل ما يتطلب الترفيه لزيارة راغب بك النشاشيبي المبعوث عن قضاء القدس[1] ولم أنس لذة الخمر المعتق الذي كان مخبوءا داخل هذا الدير ولدى رجوعنا إلى ديرعمرو أحضرنا صندوق نبيذ للسيدة برسفون خليلة حسين أفندي التي كانت بالإنتظار وتبكي بكاءا مرا لترك حسين أفندي عنها في العيد.

[1] المبعوث: أي ممثل القدس في مجلس المبعوثان أو البرلمان العثماني في الاستانة.

سهرة دار البيرق

كانت دعوة من قبل محمود الراغب لحضور سهرة في دار المعروفة بالدار الكبيرة أو دار البيرق في محلة الواد داخل السور بالقدس. وكان الحضور اسماعيل بك وحسين أفندي وراغب بك وعلي النقيب، ثم الثلاث سيدات المسكوبيات.

حملت عودي من دار الجوهرية في محلة السعدية فقصدت الدار المذكورة وكانت ليلة مظلمة وعندما دخلت بهو الدار وكان دهليزا كبيرا مخيفا فوصلت منتصف هذا البهو ولم أستطع أعرف أين أنا! من شدة الظلام فبدأت أمشي رويدا رويدا وعودي معي إلى أن وصلت فلمست الحائط وكانت غير مقصورة وبقيت مدة تقرب من الربع ساعة على هذا الحال لا أرى شيئا أبدا إلى أن رأيت نورضئيلا فكان المدخل المؤدي إلى الدار وعندما وصلت وكان قلبي يخفق من شدة الخوف والفزع بدوا جميعا يضحكون!! لماذا فنظرت وإذ أنا في حالة قذرة من الشعبون والشحوار[2] فشلحت ما أمكن شلحه ونظفته بالفرشاي قدر المستطاع وكانت ليلة من الليالي المشهورة أنسجم نغم الموسيقى الروسية بالموسيقية العربية. وقد أعجبوا بموشح أحن شوقا إلى دياري.

[2] الشعبون هي الكلمة العامية لخيوط العنكبوت والشحوار هو الغبار الاسود الناجم عن احتراق الوقود.

سهرة ضباط في قومبانية اليهود الكراج في حي المصرارة

أخذني سعد الله بك كان ضابطا صغيرا عربي يسكن وعائلته في حي المصرارة في دار محمد الطاهر الخالدي (سعد وسعيد) أخذني في سهرة لضباط الجيش داخل دار من دور اليهود الكراج الواقعة في حي المصرارة بجوار دار الحايك والبظوظي وسحار [سعد الله هذا هو شقيق الأخت أم سفيان حرم أخي وصديقي عارف العارف].

كان القولاغاصي من بين الحضور وكان خمسة أشخاص يعزفون العود منهم إثنين من الأرمن وأنا كانت قاعة كبيرة ومجموعة من ضباط الجيش متفرقين بين سيدات وآنسات من اليهود في تلك القومبانية كانت هيصة وفوضى وأخذ السكر والتجلي للحضور كل مأخذ وقد عرفت إحدى الآنسات وإسمها راحيل من بين المجتمع فأكرمتني مدة طويلة عند ابتداء السهرة.

ولكن لسوء الحظ انقلبت هذه السهرة الجميلة من حظ إلى بؤس فقد تقاتلت الضباط مع بعضهم واختلط الحابل مع النابل والجدير بالذكر أن العادة كانت بين هؤلاء ضباط الجيش التركي يسارعون فيكسرون النور وهكذا بسرعة فائقة بدأ إطلاق النار من مسدسات الضباط المختلفة في داخل القاعة فأطفئت الأنوار (اللوكس الكبير واشتعل الكاز فيه) وازداد إطلاق النار بصورة فظيعة لم أستطع من الخروج من باب الغرفة ورغما على اشتعال الكاز في وسط الغرفة كانت الضباط من شدة السكر لاتعي ولا تخوف من النار فشاهدت قريبا عني خزانة في الحائط وإذ بالآنسة راحيل تسحبني من يدي فأدخلتني داخل باب هذه الخزانة وإذ وجدت أنها بابا تطل على بيت آخر ملاصقا لهذه الدار وبهذه الصورة أنقذت حياتي وقد أغلقت باب الخزانة وبقيت عند أقاربها طيلة تلك الليلة وطول النهار الثاني إلى أن انتهى التحقيق من قبل المسؤولين في الجيش، وإني أصبحت في دار ثانية منفصلة تماما.

حمدت الله على معرفتي براحيل فشكرتها وبعدما عرفت بأن عودي انكسر مع الأسف قلت الحمد لله التي جاءت بالعود وليس برأسي، وهكذا كما في زمن الحرب العظمى كما شبيها بمن يغتسل في حمام "طاسة باردة، وطاسة سخنة آه".

عائلة حسين أفندي في أريحا

إستأجر حسين أفندي الحسيني الطابق العلوي بكامله من فندق المنظر الجميل والواقع في الجهة الغربية من هذا الفندق ونزلت عائلته لقضاء فصل الشتاء في جو أريحا الدافئ ولأجل أن يكون قريبا على عائلته عند مراقبة أعمال نقل الحبوب من جهة البحر الميت والكرك.

وقد خصص لي الغرفة في الطابق السفلي من العمارة الواقعة بجانب الدرج الخشبي مباشرة المؤدي إلى الطابق العلوي. أصبحت هذه الغرفة مجمع الخلان فقد جعلنا خزانة صغيرة خاصة للمشروبات وعلقنا العود الذي هو أساس الحظ والطرب فوق السرير وهكذا كان يقضي المرحوم حسين أفندي الساعات الطوال من الليل مع أصدقاءه فيها أمثال اسماعيل بك الحسيني وعلي أفندي النقيب وصديقنا كمال بك ثم كامل بك قوماندان منطقة أريحا العسكري وخليل بك الدوادي مدير الناحية وغيرهم ويبحثون الحالة التي وصلت إليها البلاد من سوء لأسوء وكنت أثناء هذه السهرات أعزف وأغني على عودي ونحصل على ما تتطلب السهرة من المازات والطعام من عقيلته أم سليم بواسطة الصانعة[1] المعروفة سارة والبنت زردقة من قرية الطور.

قضينا أوقاتا جميلة في هذه الغرفة وقد زارنا روشن بك في ليلة ما فتحمس وقرر نقل عائلته إلى هذا الفندق من القدس واحتل الطابق الثاني ثلاث غرف من العمارة الشرقية من الفندق وهي أول عمارة لدى دخولك المدخل على يدك اليمنى.

[1] الصانعة: الخادمة.

وهكذا صدرت الإرادة السنية فنقلت من غرفتي إلى الغرفة الأولى في الطابق الأرضي من العمارة التي يسكنها روشن بك وعائلته فأصبح المومى إليه ينام في الغرفة العليا تماما فوق غرفتي فيحضر من القدس عند المساء ولدى وصوله مساء يزور غرفة الخلان فيشربوا ما تيسر من الكاسات ويستمعون إلى عزفي وغنائي وكثيرا ما كانوا يتناولون العشاء في الغرفة إلى منتصف الليل.

وإني لغاية يومنا هذا أذكر هاتين الغرفتين من فندق المنظر الجميل كلما دخلته، وكم قضينا فيهما من ليالي أنس وسمر مدة الحرب مع رجالات ذلك العصر الحاكمين.

الكاس على شرف جمال باشا

إني أذكر هذا الحادث الطريف الذي وقع ما بين حسين أفندي وروشن بك أبين للقارئ مدى المحبة وعظمها بين المذكورين:

كانت جلسة أنس في الغرفة وبحضور إخوان الصفا، وكان من بين الحضور المرحوم حنا الشمالي العم أبونمر خفيف الروح والمدمن على الخمر مما زاد السهرة رونقا وظرفا من أحاديثه الفكهة النادرة وبقينا لغاية التاسعة والنصف بمرح وسرور وطرب، وإذ وصل روشن بك من القدس وعندما نزل من سيارته وحاول الدخول ظهر لنا أنه على جانب عظيم من السكر فكان يتمايل على الجهتين ولم يقبل أحدا من حاشيته لمساعدته في السير فدخل وجلس على الكرسي ولم يستطع أن يفسر ما كان يرغب تفسيره باللغة التركية، وقد قدم حسين أفندي كاسا له فرفض واعتذر وقد نظر إليه حسين أفندي نظرة تهكم بمعنى ان روشن بك ذلك البطل يظهر عليه السكر.

وبعد استراحة قليلة إعتذر روشن بك فتركنا وصعد للراحة وقد سمعنا قدميه داخل غرفته لأن الأرض من الخشب.

كان من المفروض علينا أن نتوقف عن العزف والغناء مجاملة لروشن بك ولراحته وهو في هذه الصورة التعبة ولكن أبى حسين أفندي فأمرني بزيادة الغناء وشجع الحضور على التصفيق بأعلى صوت ممكن مما جعل روشن بك بأن يضرب بالقبقاب على أرض الغرفة بمعنى أسكتوا، ولكن زاد حسين أفندي في لعبه الأمر الذي استفز روشن بك وأقلع مضاجعه وهكذا بعد قليل وجدنا روشن بك بلباس النوم الثوب الأبيض وفي قدمه القبقاب بيننا فجلس فبهت الحاضرون ووقفوا جميعهم إجلالا وإحتراما له وسكتنا وكان على رأسنا الطير

مسك روشن بك قنينة العرق وصب كاسا كبيرا من كاسات شرب الماء وقدمه إلى حسين أفندي أرجو شرب كاس روشن بك فلم يستطع رفضه وهو الذي عطف عليه وحماه من حقد جمال باشا السفاح، فأخذ الكاس وشربه دفعة واحدة. ثم أعاد روشن بك وملأ ذات الكاس وقدمه إلى حسين أفندي وقال "حسين بك إشرب هذا الكاس على إسم وشرف جمال باشا."

فعندما نطق إسم الباشا وقف الحاضرون ووقف حسين أفندي وشرب الكاس ولكن ماذا؟ ترك روشن بك الغرفة في الحال ورجع لعائلته في الطابق الثاني من الفندق ونحن جميعا قمنا بالواجب لإسعاف حسين أفندي وكان والله جثة أشبه بالهامدة لأن جسمه لا يتحمل الخمر بكثرة فكان شربه كما قال سيدنا المسيح "قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان". وبالإختصار حملنا حسين أفندي إلى عائلته حيث لازم الفراش مدة لا تقل عن الأسبوعين والله لطف.

وقد أصبحت حادثة الكاسين موضوعا للبحث في سهراتنا المستقبلة فكان روشن بك يقهقه من شدة الضحك وينكت على حسين أفندي ويهدده بكاسات أخرى كان المرافق لروشن بك آنذاك المرحوم الشيخ محمود الدجاني والخواجة دسكن اليهودي والذي كان سببا في شدة سكر روشن بك في يوم هذا الحادث كما عرفنا فقد أخذه لحفلة عظيمة بين حسان اليهود الأمر الذي جعله أن يفقد وعيه عندما وصلنا إلى أريحا.

الرحلة الثانية لمدينة الكرك

في هذه الرحلة وهي الثانية لمدينة الكرك وجدنا كل أسباب الراحة وأصبحت الرحلة على نطاق واسع فقد أخذنا معنا حنا ياسمينه ليكون مساعدا في إدارة الأغلال وهكذا تخلص من خدمة الجيش فبقي بمعية حسين أفندي وكان ذلك بمساعدة روشن بك. ثم أخذ حسين أفندي حنا الشمالي العم أبو نمر ليشتري ما أمكنه من الحبوب ومن ثم كان المشرف على الطهي في دير الروم وخاص لراحة حسين أفندي فكنا نأكل طعامه الشهي لأنه كان من أفخر عشية ذلك الزمن. وكان يرافقنا أيضا إسحاق البشار وينام معنا في الدير إنما كان يأكل أكله الخاص الكثير لأنه كان متدينا فكان العم أبونمر يقلي له البيض بالسيرج والجدير بالذكر أنه عندما ينتهي قلي البيض بالسيرج يرش المقلى حالا بالماء البارد وهكذا وبهذه الطريقة تتلاشى رائحة وطعم السيرج وهي طريقة أخذت من إسحق البشار فالعلم بالشيء ولا الجهل به.

وجدنا أن شاطئ بحر الميت الشرقي والغربي تحسنا عن قبل فقد زيدت العمارات خصوصا في الضفة الشرقية مقر العم محي الدين أفندي الحسيني وكان المرحوم موسى الراغب ومعه الياس عيسى الخروف يقومان بخدمة العم محي الدين أفندي فموسى الراغب بعمل الطعام وكان مشهورا بالطهي وكان الياس الخروف بصفته نجارا يعمل ما يلزم من عرايش خشبية تناسب لإستقبال التجار وتؤمن راحتهم هناك.

وعندما ركبنا في مركب الشراعي الكبير من الضفة الغربية إشتد الريح وهاج البحر وماج بصورة فظيعة جدا الأمر الذي جعلنا أن ننزل إلى قعر المركب وكان وكأنه أرجوحة وبقينا لا نستطيع الوقوف على اليابسة خوفا من أن الريح تضرب المركب في الصخور خصوصا عند محل نهر الموجب فقضينا ليلتين ونهارا كاملا ونحن في البحر فكانت أسوء من الرحلة الأولى كثيرا أما أنا فقد فقدت وعي من الدوخان فبقيت نائما لا أعي على شيء مدة ليلة ونهار ولم أنس

سفن تجارية ميناء البحر الميت في الفترة العثمانية المصور خليل رعد من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.



هذه الرحلة اللعينة في حياتي. وإني أذكر أنه عندما وصلنا إلى مدينة الكرك كان حسين أفندي يقول بحضوري "كنت خائفا جدا من الخطر وهكذا قبلت صورة عقيلتي وأولادي في المركب وقلت في نفسي أنني لا أراهم بعد".

العم أبونمر على أعلى قمة في المركب

راجع حسين أفندي ما حفظه من طعام بسبب شدة النو في البحر الذي جعل المركب الشراعي يتأرجح فينا في وسط البحر وذلك عندما كنا في قعر المركب، إذ شاهد حسين أفندي منظرا مؤذيا فرأى العم أبونمر ملفوفا في عباته وجالسا على أعلى قمة من سطح المركب الأمامية وكان يحج بالنسبة لحجة المركب بصورة متعبة. فبادره حسين أفندي قائلا :

يا أبونمر إنزل إلينا حرام عليك هلاّ تدوخ .

حبكت النكتة البديهية لأبي نمر فأجاب على الفور :

"عدوات يا أبو سليم يا ريت أدوخ فأنا أشتري الدوخ بدراهم وما بدوخ في أريحا" .

وكان كما قلت عنه مدمنا على الخمر طيلة حياته فلم ينقطع عن العرق ليلا ونهارا . رحمه الله .

في الكرك

بعدما أقمنا خمسة أيام في غور المزرعة في ضيافة العم محي الدين أفندي توجهنا إلى الكرك وأقمنا في الرياسة لدير الروم الأرثوذكس وكان الرئيس الأرشمندريت أنيختاريوس الذي تعرفنا عليه في رحلتنا الأولى. كنا في هذه المرة عددا كبيرا وقد أحضرنا معنا مؤونة تكفي لمدة شهر تقريبا فعشنا في بحبوحة وكان العود معي في هذه الرحلة وقد وصل سالما بعدما عملت له صندوقا من الخشب بالقدس حفظه من العطب .

كنت في ذلك الوقت وفي كل جولاتي مع حسين أفندي الأمين على النقود وكانت كميات كبيرة من الذهب الرنان وهكذا كنت متحفظا دائما ولم أفارق هذه النقود ثم لم أجسر أن أعرف من كان معنا على وجودها مطلقا بل بتكتم شديد كنت أسلم ما يرغب مني سرا في الغرفة المغلقة إلى حسين أفندي لدفعه إلى بائعي الحبوب. وإني أذكر أن حسين أفندي كان من الأشخاص اللذين لا يحبون حمل النقود حتى ما يتطلب لعائلته يوميا لشراء الحاجة كان يأخذ ما لزم مني وكانت عقيلته تسألني عن رغبتها فأدفع أو أشتري لها المطلوب طيلة أيام الحرب وما كان رحمه الله يسألني عن تقديم أي حساب فكانت ثقته بي عظيمة والحمد لله.

كانت وفود كثيرة تزور الدير للسلام على حسين أفندي ومنهم من كان له مصلحة في بيعه الحبوب وإني أذكر بعض هذه الشخصيات من عائلات أهالي الكرك العريقة أمثال :

الزريقات، الشرايحة، المدنيات، القصوص، الصناع، الحدادين .

والجدير بالذكر أن الحبوب في تلك السنة ١٩١٥-١٩١٦ كانت خصاب فإني أذكر كما قيل لنا بأن بذار طبة القمح أنتجت أربعين طبة .

إنتقلنا من الدير إلى دار المرحوم جاد الله القطان

كان المرحوم جاد الله القطان من أهالي بيت لحم مقيما في الكرك يسكن دارا فسيحة الأرجاء وسيعة وكان المرحوم حبيب القطان وعائلته يسكنون في جهة خاصة من الدار ثم أخيه إبراهيم القطان في جهة أخرى أيضا .

كان حبيب وإبراهيم ويوسف بن حبيب يشتغلون في التجارة ولهم مخزن كبير بقّالة وأما جاد الله فكان موظفا في الحكومة على ما أظن أمين الصندوق للمالية إنما لا أبالغ إذا قلت أن وظيفته تضاهي رتبة الوزير فكان رحمه الله شخصية محبوبة جدا لدى شيوخ القبائل وكافة الموظفين على السواء ولم ينجب أولادا بل ربى عندما كنا في ذلك الزمن ولدا إسمه صليبا الصناع فتبناه وكان يعزه ويعطف عليه وكأنه الولد الحقيقي .

كان جاد الله القطان وبيته وسكناه مشاعا للموظفين والأهالي وكافة الشعب وإني لا أبالغ إذا قلت بأنه كان مفخرة بين أهل مدينة الكرك فترى في بيته صفوفا نائمين آكلين شاربين لمدة طويلة وكأنهم في فندق وكانت زوجته لا تترك المطبخ مطلقا ولم ينام جاد الله بالنظر لوجود الزائرين إلى منتصف الليل وهو يقدم لهم ما هب ودب من الأطعمة بوجه باش وكرم حاتمي .

إنتقلنا من دير الروم إلى بيته أقمنا نحن جميعا مدة تزيد عن الأربعين يوما وزادت زائريه مسلمين على حسين أفندي .

كان ينظم المائدة ويشرف عليها بنفسه ثم عند السهرة يرتب الحضور ويشجعني على إستماعهم عزفي وإنشادي في أكثر الليالي ولم يجرأ حسين أفندي على رفضه .

مزهر بك

كان جاد الله القطان يشتغل مع مدير التحريرات مزهر بك ، شخصية فذة ومحبوب من أهالي الكرك . وكان المتصرف آصف بك دائما يقضي الليالي الطويلة عند مزهر بك مرة وفي بيت جاد الله القطان مرة أخرى . كان المتصرف يحب شرب الخمر بكثرة ويطرب لإستماع الموسيقى العربية وأصبح من أعز أصدقاء حسين أفندي آنذاك وفي كثير من الليالي ينام في صالون جاد الله القطان ولا يذهب إلى بيته .

المجالي

كانت شيوخ قبيلة المجالي الكريمة تزور مزهر بك في بيته أمثال رفيفان وكان رئيسا لبلدية الكرك بلباسه الإفرنجي وعلى رأسه الطربوش ثم دليوان وأخيرا عندما رجع زعل بك وتوفيق المجالي من الإستانة وكانا مبعوثان على لواء الكرك أقاموا الحفلات والليالي على شرفهما وكانوا جميعهم يحبون الإستماع إلى إنشادي وعزفي على العود وعلى الأخص

توفيق بك فكان رحمه الله طويل القامة وله ذوق سليم في لباسه الإفرنجي خصوصا حذائه وصدريته من طراز الإستانة الحديث .

وقد كان حظي سعيدا فحضرت المرحوم الشيخ قدر المجالي في حفلات نهارية واستمع إلى الموسيقى وأحب حسين أفندي كثيرا ولكنه كان يترك مدينة الكرك عند الغروب مع حاشيته من الفرسان ولا يؤمن لغدر الأتراك وذلك كما قيل لنا لأنه هو البطل الذي ثار عليهم وذبحهم في قلعة الكرك . كان الشيخ قدر يلبس لباس الشيوخ البدوي الممتاز الجزمة الحمراء وسيفه على جنبه وكان طويل القامة نحيف الجسم وله لحية خفيفة سوداء وعيونه جاذبية سوداء تقدح الشرر . وكان يحب المزاح فكان ولو في دائرة البلدية يصدر أوامره فيحضروا له وللجميع البطيخ وكان مغرما به فيأكل القطعة ويضرب أحدث من أتباعه بالقشرة ، ثم يضحك .

أما زعل بك فقد إستمرت معرفتي له وأصبح صديقًا لي خصوصا بعد الإحتلال البريطاني لبلادنا فكان عندما يزور القدس يسلمني كثيرا ما نقوده ويبقى في مقهى قالونية عندما كانت فروسو زهران تدير ذلك المقهى فيخسر الأموال ويرسل رسولا خاصل لي لأمده بمبلغ آخر رحمه الله .

هذه ذكريات الكرك فسقيا لأيامنا ما كان أطيبها .

العم أبونمر الشمالي والعرق

كانت جلسة أنس في دار المتصرف آصف بك في الكرك ليلا وكان حسين أفندي يجلس بجانب المتصرف الذي كان يعتبر من أشهر من شرب الخمر ، وكان من بعض الحضور جاد الله القطان ومزهربك وضابط كردي وبعض من أهالي المدينة وكنت أنا أعزف وأغني وإذ صادف حضور العم أبونمر يرغب مواجهة حسين أفندي في أمر ما وعندما رآه لفت نظر سعادة المتصرف وقال له هذا الرجل زميلك في الشرب وروحه خفيفة فعند دخوله حدثه واضحك .

دخل العم أبونمر ووقف رافعا قامته بصعوبة ، ورفع يده اليمنى على رأسه مسلما سلاما وكأنه في فرقة الجيش .

وعندها سأله سعادة المتصرف قائلا :

أنت أبونمر؟ أجاب نعم مولاي .

هل تحب شرب العرق؟ أجاب أبونمر لا يا مولاي مطلقًا بس باخذ عشر إلى إثني عشر قدح عرق على الريق .

فقهقه المتصرف عاليا وأمره بالجلوس بجانبه تماما وقدم له العرق بنفسه وأصبح منذ تلك الساعة المقرب عند المتصرف ونديمه .

طاب المقام للعم أبونمر وبدأ يطلب الإستماع مني إلى ما يرغب من أغانيه المحببة فقد طلب فتكات لحظك أم سيوف أبيك الخ .

أنشدتها بإتقان وتجلي، وعندما وصلت إلى الشطرة التي تقول "يا بنت يا إم البرد البرد الطويل" طرب العم أبونمر فطلب إعادتها وهكذا (كلما تكرر يحلو) وهو يؤشر لي بيده اليمنى ويقول دخيلك يا بنت يا بنت يا بنت .

وكانت ليلة أنس إجتمع فيها الطرب والفكاهة آه .

وبقي العم أبونمر يقول لي يا بنت يا بنت كلما رآني لآخر يوم من حياته رحمه الله .

القزم حنا ياسمينة

قلت أن علم أبو داود ياسمينة كان معنا في الرحلة الثانية في الكرك وإني أدون هذا الحادث الطريف والذي كان يكاد يقضي على حياتي بسببه .

عندما كنا مقيمين من دير الروم الأرثوذكس وفي أول ليلة من وصولنا نمت والعم أبا داود في غرفة واحدة بجانب غرفة حسين أفندي والأخرى غرفة إسحاق أليشار . وأذكر أنني كنت نائما نوما لذيذا من التعب وقد صادف أن أيقظت غفلة في منتصف الليل وكانت ليلة ظلام حالك وإذ رأيت قزما يمشي في وسط الغرفة وعلى رأسه قبعة مرتفعة فصرخت بأعلى صوت من شدة الخوف واستمريت في الصراخ حتى أقبل علي فزدت صراخا (وقد تخيل في ذهني رؤية والدي إلى القزم المذكورة أعلاه) وهو يقول لي أنا أبو داود أبو داود أبو داود حتى وجدنا داخل الغرفة المرحوم حسين أفندي واسحاق أليشار فأشعلوا النور .

وإذ وجدنا أن العم أبو داود كان معتادا بأن ينام في كلسونه الأبيض ويغطي رأسه بطربوش كبير مغسول بدون كوي والقمعة من فوقه فغضب حسين أفندي وقال له والله حقا إنه شيء مخيف فجاء الريس أنيختاريوس وسقاني النبيذ والزيت حتى هدأ روعي وبقيت مدة متخوف ومهدم الأعصاب ومن تلك الليلة إنتقلت إلى غرفة حسين أفندي .

حريق عريشة غور المزرعة

تركنا أنا وحنا ياسمينة واسحاق أليشار وحنا الشمالي الكرك وبقي حسين أفندي لمدة يومين . وصلنا غور المزرعة وكان العم محي الدين أقام عريشة من القصب كبيرة ربما ٦×٦ متر على الشاطئ لإقامة التجار والزائرين فيها وهكذا كل منا إحتل زاوية من هذه العريشة وكان فيها أيضا المرحوم عبد عصعوصة والد أنضوني عطاالله وإخوانه ومعه ظروف من السمن والكشك ثم شخصين آخرين تجار .

كنت أحتفظ بماية وخمسين ليرة ذهبية مشدودة في كمر على وسطي ولم أطق النوم بها فساعدني العم أبو داود بفكرة وحفرت جورة في الرمل تحت الفراش العائدة لي تماما ووضعت كمر الذهب فيها وطمرته ثم وضعت فرشتي عليها .

ثم أخذت العود وذهبنا فقضينا سهرة على الشاطئ في ضيافة العم محي الدين أفندي الحسيني وكان عنده موسى الراغب والياس عيسى الخروف وسهرنا ولم يكن معنا الأشخاص المذكورين أعلاه ولغاية منتصف الليل ولما رجعنا إلى

العريشة كل واحد من الحضور رتب نفسه ونام في فراشه وقد تأخرت مدة خارج العريش فلما دخلت كانت ظلماء كانت بيدي شمعة مضاءة فبدلا من إطفائها والنوم على الظلام ألصقتها على حافة عريشة القصب وبسرعة أسرع من لمح البصر حرقت العريشة بكاملها والعياذ بالله . .

وهناك منظر من كان نائما في هذه العريشة فهذا يركض بدون لباس وذاك يحمل ما كان عنده من لباس وأغراض خوفا عليها من الحريق ، وآخر يصيح بأعلى صوته بصورة تضحك وتبكي في آن واحد ، وإن أنسى لا أنسى ما كان عليه إسحاق أليشار من رعب وخصوصا على الدراهم التي كان يحتفظ بها .

أما أنا عندما رأيت إشتعال النار في القصب قلبت الفرشة بكل قواي فوضعت يدي في الحال في الرمال وقبضت على كمر الذهب ، وخرجت وكنت لم أزل بلباسي الكامل وكان العم أبو داود يصرخ ويقول واصف إنكر لا تقول أنك أشعلت النار واصف ، واصف الدراهم وأنا كدت أن يغمى علي من الضحك .

وما هي إلا فترة قصيرة زالت العريشة بكاملها من الوجود وأصبح الجميع في ظلام دامس لا نرى شيء وقد هجمت على هذه الثورة كلاب أهالي غور المزرعة ، وجاء البدو وأصبح الجميع في فوضى فكنت ترى هذا يفتش على لباسه ، والآخر على أغراضه وذاك لابس فردة حذاء في رجله ولم يجد الأخرى بصورة يتعذر علي وصفها وكانت قصة .

لم يستطع أحدنا أن ينام ولكن بكل جهد قضينا ليلتنا تحت السماء فجاء العم محي الدين وموسى الراغب والياس الخروف وجميع عمال غور المزرعة الموجودين تحت إدارة العم محي الدين . ولم أبح بما كان بسببي لأحد إلا العم أبو داود الذي حذرني ونبهني على الأنكار .

جولة حول البحر الميت

جاء حسين أفندي بلانش[1] بواسطة روشن بك من الجيش وقد استعمله في البحر الميت وكان مساعدة عظمى لإدارة نقل الأغلال من غور المزرعة إلى الشاطئ الغربي المعروف بالجديدة فكان يجر وراءه المركب الشراعي الكبير مملوءا من القمح بمدة قصيرة جدا فأصبح هذا اللانش والموتور القوي يتحكم بالوقت وتخلصنا من الإتكال على الطقس وتقلباته .

وهكذا أحب حسين أفندي أن يستغل وجود اللانش وقام بجولة شيقة مع عائلته والمرحوم سعد الدين الخليلي خال عقيلته وزوجته وغيرهم فقضينا مدة خمسة عشر يوما ننتقل من محل إلى آخر ومن وادي إلى جبل وكان معنا كل أسباب الراحة للسفر من خيم وسرائر وأثاث سفري بصورة منظمة وكأننا سياح تماما .

شاهدنا مصب نهر الأردن عند مزجه مع مياه البحر الميت ثم على الشاطئ منشأ الحمارة ، ثم نصبنا خيامنا في نهر الزرقة فهناك أقمنا أسبوعا واحدا ما بين غديرين الأول الماء الساخن وبين الثاني البارد وإنني لم أزل أذكر ما أشهى العزف على العود والغناء في هذا المحل الطبيعي النادر الوجود فإنك تعجب عندما كنا نستحم في الماء الساخن الطبيعي نشرب الماء الساخن بلذة فائقة وبدون شبع ، ولا تنسى أنواع الطعام اللذيذ الذي كان يقدم لنا في هذه

[1] بلانش : هو مركب ذو محرك .

الرحلة ثم الخمر وخصوصا النبيذ ، إنتقلنا إلى واد الموجب وإنه والحق يقال منظر جميل خلاب وغور المزرعة وغور الصافي وصعدنا إلى اللسان وقضينا على سطحه ليلة في ضوء القمر إلى أن وصلنا أصدم حيث شاهدنا جبل الملح وخصوصا ذلك النوع المتبلور إلى أن جئنا على شاطئ البحر الغربي حتى وصلنا عين جدي والفشخة فكانت والحق يقال هذه الرحلة من أجمل ما شاهدناه من مناظر خلابة وراحة وحياة .

زيارة سامي بك قومندان جندرمة بيروت لأريحا

كنت في أريحا عندما زارها سامي بك قومندان الجندرمة في بيروت. فكرت جليا بإجراء ما أمكن من المساعي للبحث معه لحضور أخي خليل إلى البلاد الذي تركها قبل دخوله في السن المقرر ليكون جنديا ، فقدم نفسه ودخل في سلك الجندرمة في بيروت ، ثم كيف أن والدنا توفي بعد إعلان الحرب وحرم من رؤيته ووداعه عند الوفاة وأخيرا لا آخرا أصبحت والدتي وأخي القاصر فخري ليس لهما معينا سوى الله .

بذلت المساعي ووفقت فدخلت على غرفة نومه وكانت في الطابق العلوي من العمارة الغربية من فندق المنظر الجميل الذي كان يديره المرحوم إبراهيم نزال وحنا الشمالي وأبو جميلة .

إستقبلني وكان ملقى على سريره بقميصه النوم الأبيض فهش وبش في وجهي ، كان طويل القامة سموح الوجه جميل وقد عرضت عليه المشكلة من أولها إلى آخرها ورجوته بأن يسمح ويرسل أخي خليل حتى ولو لمدة قصيرة إجازة كي تمتع برؤيته إلى ما هناك من رجاء ، وهكذا قدمت له استدعا في هذا المعنى مترجما إلى اللغة التركية فوعدني أخيرا واستلم مني الإستدعا فسرت وقبلت يديه شاكرا .

وبعد يومين من تلك المقابلة جاءني المرحوم العم أبو أنطون وقد شاهد طلبي وهو الذي توسل رحمه الله لهذه المقابلة بصفته مدير الفندق جاءني وقال لي :

واصف اسمع يا محترم في معك خبر؟ أجبته أبدا قال :

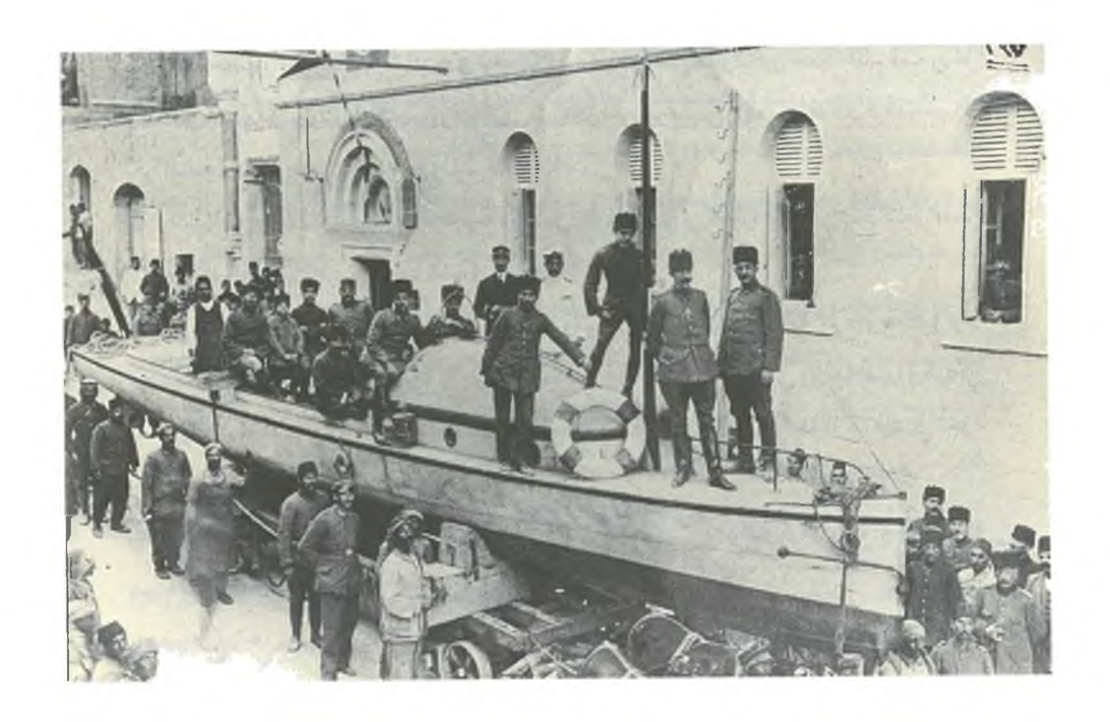
أتذكر الإستدعا الذي قدمته لسامي بك؟ قلت نعم قال

يكون معلومك قد لف فيه حذائه ، ومشي ، وكانت حقيقة ولم يحضر خليل ولا ما يحزنون .

تأسيس مينا بحر الميت على ضفة الغربية

أوعز إلى حسين أفندي الحسيني بواسطة روشن بك أنه بالنسبة إلى تمركز قوى الجيش التركي بمساعدة ألمانيا في البلاد وذلك نظرا لخطة سياسية خاصة كانت تحاك للهجوم على ترعة مصر[1] فقد جاء الجد بقوة فائقة لزيارة عمال ورفع مستوى إدارة ميناء البحر الميت وقلبه إلى مينا عسكرية عظيمة لزيادة إستيراد الأغلال التي هي الأساس في الحرب من شرقي الأردن.

[1] المقصود قناة السويس.



أول لانش بحري لميناء البحر الميت وعليه علي روشن بك ونهاد بك وبعض موظفي المنزل في القدس سنة ١٩١٥. الصورة من ضمن المجموعة الجوهرية وهي لخليل رعد.

وهكذا استطاع حسين أفندي بأن يعمل الجهد لجمع شمل عائلات بحرية يافا اللذين كانوا مشتتين ورجالهم فارين من الجيش في القرى والمدن فأعطى لهم الأمان شريطة أن يقوموا بأعمالهم وحرفهم البحرية في البحر الميت وكل بحري له الحق بإحضار عائلته وأن يسكنها معه على شاطئ البحر الميت وهكذا جاءت هذه العائلات ورجالها أذكر منها :

حسن الحافي من يافا

الحاج مصطفى الدهشان من يافا وتعين ريسا على جميع البحرية

الحاج مصطفى السري	من يافا
صالح السري	من يافا
الحاج ديب حمدته	من يافا
صبحي حمدته	من يافا
عبد حمدته	من يافا
الحاج محمد زكر	من يافا
أحمد شاكر سكر	من يافا
أحمد زرد	من يافا
عبد الله زرد	من يافا
الحاج محمد الزواوي	من يافا
أحمد صالح الزواوي	من يافا
عبد الزواوي	من يافا

ريحان

وكثير من هذه العائلات التي جاءت وسكنت في عرايش أقامها لهم حسين أفندي وقد بنى جملة غرف من اللبن والزينكو والخشب ثم رفع الخشب في داخل البحر فأصبحت مينا محترمة وقد جاءوا هؤلاء البحرية بفلايك[1] كبيرة جدا من يافا كان ينقلها لنا موسى إبن اسماعيل النجار محمولة على الكارات وتجرها البغال وقد زيدت بناء المراكب الشراعية ذات الحجم الكبير وقد أحضرت الحكومة من الإستانة ثلاث لانشات قوية وهكذا من يعرف هذا الشاطئ لن يصدق بأنه قد أصبح على هذا النجاح وقد تعين رسميا من قبل الحكومة موقتا الشيخ جلال الدين العلمي مراقبا للإدارة في الضفة الغربية وعين موسى الراغب جنديا مسؤولا مراقبا في الضفة الشرقية ومعه الياس عيسى الخروف والمرحوم فيليب جلوق فسكن هناك مع عائلته .



بحارة من يافا تنقلون البضائع في قارب من السفينة الى رصيف الميناء. المصور غير معروف.

١ جمع فلوكه وهي قوارب الصيد.

كنت لغاية الآن الأمين على صرف ما يتطلب من النقود على هذه الإنشاءات إلى أن جاء اليوم وفيه كان يوم الإفتتاح فكانت حلقة كبيرة ترأسها روشن بك وحسين أفندي وجاء ضباط البحارة بعدد كبير من تركيا وتسلمت إدارة هذا الميناء نهائيا .

أذكر أن ضباط البحرية اللذين جاءوا من تركيا واستلموا الميناء رسميا هم :

صدقي بك : وكان من أحسن رجالات الجيش العثماني دمث الأخلاق لطيف للغاية يحب العرب ويعطف عليهم وكريم النفس .

كاظم بك : وكان رجل مدمن على الخمر فكنا بعد السهرة نودعه وهو محمولا على الأكتاف من البحرية يأخذوه لينوموه على سريره في حالة قذرة

إسماعيل حقي بك : رجل من الضباط القدماء ربما زمن عبد العزيز ، يعبد المال ، شرس الأخلاق ، متعصب لقوميته التركية وكان يسيء للعرب دائما .

وقد عين إبراهيم بك طهبوب من القدس وكان ضابطا بحريا يوزباشي همزة وصل ما بين ضباط الأتراك والجنود العرب وكان ميكانيكيا للموتورات ومسؤولا عنها ولنا معه ذكريات حسنة .

سهرة إفتتاح ميناء البحر الميت

كانت حفلة عظيمة بمناسبة إفتتاح ميناء بحر الميت وتسليمها من حسين أفندي الحسيني إلى الجيش النظامي فقد حضر من القدس روشن بك مفتش المنزل بالقدس وجميع الضباط اللذين كانوا معه في المنزل أمثال نهاد بك وصادق بك ثم القولاغاصي وعبد الرحمن أفندي وغيرهم

جرى التسليم رسميا بكلمة من المرحوم حسين أفندي وقدم رئيس البحرية الحاج مصطفى الدهشان وكان معاونا إلى إبراهيم بك طهبوب في إدارة البحارة ثم خطب روشن بك ومدح حسين أفندي بما عمله من مساعدات قيمة إلى الدولة بالإضافة إلى خدماته السابقة عندما كان رئيسا لبلدية القدس وكانت ساعة تعرف الحضور على بعضهم من الزائرين وأخيرا جلس الجميع على المائدة وشربت كؤوس المدام على شرف كل من له علاقة في هذا المجهود الجبار وكانت سهرة عزفت وأنشدت قطعا كثيرة من الموسيقى العربية وكانوا أكثرهم يعرفونني وحضروني من قبل .

وهكذا وبواسطة حسين أفندي جرى تعيين كثر من أولاد بلادنا من مسلمين ومسيحيين في وظائف في خدمة الجيش التي تمتعوا بها وكانوا بأحسن حال قريبين من أهاليهم . وفي هذه الحفلة عفا روشن بك عن الفارين البحرية واللذين سلموا أنفسهم الآن لخدمة الجيش ووعدهم بإعالة عائلاتهم زمن الحرب .

إستقر الحال لبحرية يافا وعائلاتهم وتأمنت راحتهم في هذه الحرب ثم والمهم أن بعضهم ومن كان فارا من وجه الدولة حصل على العفو التام واشتغل في عمله الأصلي كبحري. ومن يعرف بحرية يافا يدرك ما لهذه البيئة من مرح فقد ضرب فيهم المثل بالبطولة والنخوة وحب الكيف والكرم. وهكذا إتفقوا فيما بينهم فخصصوا قاعة كبيرة على الشاطئ بعيدة عن عائلاتهم كانوا يقضون سهراتهم فيها يتحدثون عن مصائبهم ويشتكون أحوالهم لبعضهم ثم يغنون ويسكرون ويشربون الحشيش وقد حضرت هذه الجلسات القيمة وجميعهم كان يحن إلى فيستمعوا كثيرا إلى عزفي على العود وإنشادي خصوصا التواشيح فكانوا يطيرون فرحا ويطربون وكل منهم يطلب رضاي لما كنت وقيمتي بمعية حسين أفندي الذي كان سببا في تقرير مصيرهم على هذه الصورة السليمة زمن الحرب.

كانوا يجلسون حول القاعة كل بجانب زميله وكان يترأسهم في الصدر من يشرف على صب المدام فهذا وبيده اليمنى القنينة وباليسرى كاسا صغير كان يملؤه ويسقي الزميل بجانبه وهذا بدوره يسقي الآخر إلى نهاية الحضور وكانت المازة إما بندورة أو فقوسة لعدم الحصول على شيء آخر زمن الحرب. ثم يعود الساقي فيسقي الحضور بالطريقة الأولى مدة ساعة من الزمن وفيها كنت أنا أعزف وأغني ما تيسر من الأغاني.

ثم يجيء شخص مسؤول فيعمر الجوزة ويضع الحشيشة في التباك المبل ويسلمها إلى الريس الذي كان الساقي فيشرب منها ما يكفيه مثنى وثلاث ثم يعطها إلى زميله الذي يجلس بجانبه إلى أن يشرب الجميع ويعيد الدور ثانية وربما مرة ثالثة ويكون كاس المدام يصب ويقدم لكل منهم ثم يبدأ واحدا منهم ذو الصوت الحسن ويغني:

لما قعدنا نشرب صافي الحشيش	الجميع: آه يا ليل يا عيني
لما قعدنا نشرب صافي الحشيش	الجميع: آه يا ليل يا عيني
حشيش باللي والجوزة تحضر آه بدها حشيش	الجميع: آه يا ليل يا عيني

وهكذا غناء بإنتظام وعلى الإيقاع إلى أن يطربوا على هذه الأغنية وبعدما يقرب من النصف الساعة تقريبا تشاهد العجب العجاب من الفكاهات البديهية والأحاديث النادرة من كل واحد منهم بصورة يعجز الوصف عنها والجدير بالذكر في هذا الصدد أن الشخص الذي يؤثر معه الحشيش يصبح جبانا فإذا ما جئته وأشرت له بأصابع يدك على غفلة يجن جنونه ويميل رأسه وكأنها بندقية صوبت إلى وجهه.

ثم يتطلب إستعمال الحشيش الحلوى ونظرا للمجاعة وعدم وجود السكر طيلة أيام الحرب فكانوا يأكلون القطين بشغف زائد. وقد جربت مع هؤلاء لأول مرة إستعمال هذه المخدرات ولكن للعلم بالشيء فقط والحمد لله.

زيارة أنور باشا وجمال باشا القدس

وصل موكب أنور باشا وجمال باشا القدس عصر نهار الجمعة سنة ١٩١٦ وتناولا طعام الغذاء ثاني يوم في مقر الفيلق الثامن بدعوة من أحمد جمال باشا القائد ثم وفي ذلك اليوم زارا الحرم الشريف فخطب فيهم الشيخ أسعد الشقيري فأبان لهم فضائل الحرم المقدسي.

كنت بمعية حسين أفندي عندما قدم سماحة مفتي القدس المغفور له الشيخ كامل أفندي الحسيني قدم لأنور باشا نسخة من فتاوي الأنقروي كتبت منذ مئة وثمانين سنة كتذكار من مدينة القدس. وبعدها عرجا وزارا الكلية الصلاحية فخطب مدير الكلية المذكورة ومدير أوقاف القدس ورئيس بلديتها المدعو جميل بك النبال في الكلية ثم في فندق فاست عن بلدية القدس.

ثم زارا مقام النبي داود ثم عطفا على كنيسة القيامة فتبرع أنور إليها بمائتين ليرة ثم تبرع دولته لسنة وخدمة الحرم بخمسين. وعندما تناولا طعام العشاء في فندق فاست على حساب المجلس البلدي صعد المرحوم الشيخ علي الريماوي من أدباء مدينة القدس ومن أصدقاء والدي وقال:

"لو كنت طويلا لوجب علي أن أتقاصر أمام عظمة حضرات قوادنا العظام" وكان قصير القامة جدا فاعتلى الضحك، ثم أنشد قصيدة تناسب المقام:

يا مرحبا بحبيب الشعب (أنوره) ... (وبالجمال) جمال النصر والقضب

يا محيي الشعب من عدم ومن عدم ... ومنقذ الشعب من ضيق ومن كرب

شعب بك اليوم قد شدت عزائمه ... وكان ميتا على يأس من الأرب

جيش تألف والإسلام رايته ... من خيرة العنصرين الترك والعرب

أجاب صوتك منه كل غالية ... من النفوس إذا الأشباح لم تجب

لو مكنته العدى والدهر ذو غير ... لباك من كل صوب منه أو حدب

لبيك لبيك إن رمت الجهاد لنا ... هذه النفوس فخذ ما شئت وانتدب

وما العدى غير أخلاط مجمعة ... حول القناة وأنصاب من الخشب

موسى وأنت على رأي وعاطفة ... كلاكما عجب من أعظم العجب

هـــذاك أنـقـذ مـصـــرا مـن فـراعـنـهـا — وأنـــت تـنـقـــذهـا مــن دولـــة الـكـذب

تـه يـا جـمـال إذا مـا شـئـت مـفـتـخـرا — عـلـى الـزمـان بـمـعـنـى جـيـشـك اللجب

أذكـرتـنـا زمـن الـفـاروق مـن قـدم — كـلاكـمـا نـاصـر الإسـلام في الحـقـب

زيارة أنور وجمال أريحا

منذ أسبوع واحد قبل وصول أنور باشا وجمال باشا[1] القدس رتب حسين أفندي ما يلزم بواسطة روشن بك لدعوة هاذين القائدين لتناول طعام الغذاء في أريحا داخل فندق منظر الجميل. وقد أقمنا الزينات من أول الجسر مدخل أريحا إلى آخر السراي الميري التي كانت مقامة سنة ١٩١٦ في الحديقة المعروفة ببستان الحكومة في وقتنا الحاضر. كنت أنا بنفسي أقوم بتكليف جميع عائلات طائفة الروم الأرثوذكس العرب المقدسيين الموجودين زمن الحرب في أريحا لخياطة أعلام الزينة فأوزع عليهم القماش الأحمر والأبيض ثم الخيطان فعملت العائلة كل ما يلزمنا من هذه الأعلام نصبت على ضفتي الشارع الرئيسي في أريحا ثم داخل الفندق وخصوصا مدخله الرئيسي وقد أبدعنا بجدل فروع وأغصان الأشجار فكانت أكاليل ترفرف ما بين الأعلام.

كانت المائدة موضوعة في الساحة السماوية لفندق المنظر الجميل ما بين العمارتين المنعزلتين ثم بيت السفرة وقد عمل لي المرحوم حسين أفندي بدلة أنيقة بيطلون قصير من الكتان الأبيض فلما دخلا أنور باشا ثم جمال باشا قائد الفيلق الثامن جئت وقدمت لكل منهما باقة زهور عظيمة فقد وضعاها أمامهما على المائدة.

كانت عدة قواد معهما من ألمان وأتراك وعرب وكان يصحبهم الشيخ أسعد الشقيري وإني أذكر بأنني وبدون إذن من حسين أفندي بعدما أنهى أنور باشا طعامه على المائدة جئت أنا وقدمت له علبة السكاير الفضة التي كانت هناك على المائدة وكانت جرأة فالتفت أنور باشا علي بدهشة ثم قال "تشكر أبدرم بان الشيمام" بمعنى شكرا فأنا لا أدخن. وقد غضب علي حسين أفندي بعد عملي هذا الصبياني فاعتذرت.

وإني أذكر بأن حسين أفندي عرفني على الشيخ أسعد الشقيري فدهش عندما رآني وعرفني بأنني إبن الجوهرية وأصر على أخذي معه إلى الإستانة، ولكن بإشارة من حسين أفندي غافلته وغبت عنه بلباقة.

أول ركوبي الأتوموبيل

كانت هذه الدعوة للغذاء من قبل حسين أفندي لأنور باشا وجمال باشا بالإضافة إلى تأسيس ميناء البحر الميت وتسليمها إلى الجيش أثرا كبيرا في نفس جمال باشا الأمر الذي جعله أن يعتقد بإخلاص هذا الرجل الأمين لوطنه وقادته وهكذا قدم سيارته الخاصة (الأتوموبيل الأحمر) وسائقه الخاص ليأخذ حسين أفندي من أريحا إلى القدس وقد رافق جمال باشا قادة الألمان في سياراتهم إلى شرقي الأردن. بعدما جرى الوداع العظيم لأنور باشا وجمال باشا اللائق بهما

[1] ملاحظة المؤلف: إن جمال باشا الملقب بالسفاح كان بوظيفة درينجي أردو قوماندانى فريق. وأما جمال باشا الملقب بجمال الصغير فكان بوظيفة سكسنجي قول أردو قوماندانى مير لواء.

وذلك في الساحة الخارجية لفندق المنظر الجميل وكانت أهالي أريحا الأصليين يهزجون وينشدون الأناشيد وكانت أريحا وكأنها عروس في مجلاها تلبس حلة خضراء .

وهكذا بعد مدة قليلة ركب المرحوم حسين أفندي وركبت في معيته بجانبه وكان ركوبي لأول مرة في السيارة فدهشت جدا ولم أبدي أي كلمة بل كنت أنظر بعيوني الطريقة التي كان يسوق بها السيارة من قبل السائق وكان يدعى سليم من لبنان وقد تزوج من أخت اسكندر اللحام معروف بالقدس وما هي إلا ربما ساعة من الزمن قال لي حسين أفندي ، ولك واصف هذه هي العيزرية فضحكت معي النكتة فأجبته على الفور "سبحان الذي أسرى" .

وكانت هذه السفرة الصغيرة من أريحا إلى القدس موضوع البحث لمدة طويلة في إجتماعاتنا وسهراتنا مع الأصدقاء فكنت أقص عليهم كيفية ركب السيارة وكان حقيقة حظي عظيما أنني ركبت أشهر سيارة وجدت في البلاد آنذاك وخصوصا شخصية صاحب هذه السيارة .

والجدير بالذكر في هذا الصدد ولأجل المقارنة صادف مجيئي من أريحا إلى القدس في ذات ليلة مقمرة مع بعض أصدقاء أذكر منهم عائلة محمد شاويش كريمة علي زمرد من القدس وكانت السفرة على البغال وكان معنا ما يسمونه (طنبر] عربة ذات عجلتين قضينا بين تسع إلى عشر ساعات في الطريق حتى وأخيرا وصلنا القدس. وكانت هذه الرحلة قبل مدة ربما أسبوعين من تاريخ ركوبي سيارة جمال باشا ، الأمر الذي يوجب الدهشة والإستغراب عند المقارنة .

[...]

الرحلة الثالثة لمدينة الكرك

بعد تسليم ميناء البحر الميت رسميا إلى قوة الجيش التركية أصبح حسين أفندي حرا وتخلص نهائيا من مسؤولية إدارة نقل الأغلال من شرقي الأردن إلى القدس ولكن نظرا لتقدير خدماته الجلية في هذا الشأن زاد إحترامه وتقديره من رجال الدولة والقادة العسكريين خصوصا ضباط البحرية الموجودين في البحر الميت وهكذا بقي حسين أفندي يشتغل عن نفقته الخاصة بالشراكة مع محي الدين أفندي بشراء ونقل الحبوب من الكرك إلى فلسطين .

وهكذا سافر إلى الكرك وكنت بمعيته حسب المعتاد وقد احتفلت قادة البحرة العسكريين بزيارته وعملت سهرة وعشاء عظيم على شرفة بحضور روشن بك من القدس وفي هذا الإحتفال تعرفت بهؤلاء الضباط فاستمعوا للمزيد من عزفي وغنائي وخصوصا الموشحات .

وبعد أقامتنا ثلاثة أيام في الشاطئ الغربي من البحر الميت ركبنا اللانش فوصلنا غور المزرعة ثم وصلنا مدينة الكرك وأقمنا ضيوفا على المرحوم جاد الله القطان في بيته مدة أكثر من شهرين وأصبح جاد الله أفندي صديقا حميما لحسين أفندي وكان حسب إعتقادي يشتغل ضمنا معه في شؤون الأغلال هذه وفي أثناء هذه الزيارة للكرك أرسلت ضباط البحر الميت تدعو حسين أفندي لحضور حفلة سمر على شاطئ الشرقي من البحر المعروف بغور المزرعة ورجوه

بحضوري وعوده فلبينا الدعوة وكانت والحق يقال سهلة وليلة سعيدة تجلى فيها الطرب لجميع الحضور وأخذ الحظ منا كل مأخذ .

وقد صادف دخولي العمر أو السن المحدد لخدمة الدولة وذلك في مارس سنة ١٩١٧ فقد انتهز المرحوم حسين أفندي فرصة إندماجه مع قادة البحر الميت بعد تسليمه إياهم الميناء وبعد البحث معكم وافقوا بالإجماع وبكل سرور تعييني جنديا في ميناء البحرة بمعية صادق بك والوظيفة ضمنا العزف على العود والغناء .

تعييني جنديا في ميناء البحر الميت

وهكذا تعينت بواسطة حسين أفندي الحسيني جنديا في ميناء البحر الميت في أوائل سنة ١٩١٧ وقد قضيت مدة أسبوعين تقريبا منذ تاريخ التعيين بمعية صادق بك وخصص لي شادر صغير وهكذا نصبت سريري السفري وفراشي ووضعت صندوق العود وباقي أغراضي فيه وكنت حرا أدور من صديق إلى آخر من هؤلاء الضباط وعمال البحر الميت .

وعند المساء كنت أحيي الليالي الطوال بالعزف والغناء حول مائدة عظيمة من المدام وكان نديم السهرة كاظم بك عندما يصبح في حالة معدومة وغير واع وفاقد وعيه من شدة السكر فتجي البحرية وتحمله إلى فراشه . فيوسخ فيها من فوق وتحت والعياذ بالله .

وعلى إثر سكر كاظم بك يكون انتهاء تلك الليلة فتتوقف عن الحظ والطرب وقد ينام في مكانه . بعد أسبوعين رغبت في الذهاب إلى الكرك عند حسين أفندي فسمح لي وقضيت مدة طويلة طلبني صادق بك فيها فرفضت طلبه لأول مرة ثم ثاني مرة الأمر الذي جعل هذا الضابط وزملائه يغضبون وأرادوا الإنتقام مني وأنا أصبحت جنديا وبيدهم أمري .

راحت الأيام ولجهلي كنت أظن أن حسين أفندي هو الشخص الوحيد الذي يتحكم بكل أمر في البحر الميت ولم أعرف بعد ما هي المسؤوليات في خدمة العسكرية خصوصا ونحن في الحرب العظمى .

إهانتي من قبل الضباط

أمعن النظر أيها القارئ في قضية تعييني جنديا في ميناء البحر الميت كما هو مدون في هذه الصفحة ولما تركت الكرك نزلت إلى غور المزرعة وركبت اللانش الذي كان يجر مركبين محملين القمح إذ وجدت على ميناء الضفة الغربية جميع الضباط واقفين لإستقبالي فلما وقف اللانش وبادرت بالنزول منه إذ وبموجب أوامر رئيس القيادة البحرية صادق بك الذي كان يعطف علي ويحبني بادرني بقوله "سن عسكرمة؟" أي هل أنت جنديا ؟ أجابته بالإيجاب .

فقال الآن تعرف ما هي الجندية ثلاث مرات رفضت الحضور ولو لليلة واحدة لتغني وتعزف على العود فها نحن نعاملك معاملة الجندية الصحيحة وأمر البحرية فوضعوا ما يقرب من ثلث الشوال قمح وحكم علي لأشيله على ظهري



ضابط عثماني وحاشيته أبان الحرب العالمية الأولى. من صور المجموعة الجوهرية. المصور غير معروف.



صورة لجرحى عثمانيين من الحرب العظمى الأولى ربما قرب أريحا وأفراد من الهلال الأحمر العثماني يعتنون بهم. المصور خليل رعد من مجموعة مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

وأوصله من المركب إلى المخزن الموجود على الشاطئ وكنت أنقل مدة ربما الربع الساعة والدموع تهطل من عيوني على مرأى من جميع الضباط والبحرية والأصدقاء من القدس أمثال موسى الراغب وميناء حلبي والياس الخروف وفيليب جلوق والشيخ جلال العلمي وغيرهم حتى تداخل المرحوم الشيخ جلال بالأمر فسمح لي على الوقوف من هذه الأشغال الشاقه. ولكن حكم علي بالتوقيف مدة ثلاثة أيام وذلك في مكتب ابراهيم بك طهبوب بجانب خيمة الشيخ جلال العلمي وكانت هذه الحادثة من أصعب الحوادث التي مرت منذ مولدي والله يشهد.

عثوري على ذهب ورده إلى أصحابه

أثناء توقيفي ثلاثة أيام في مكتب ابراهيم بك طهبوب يوزباشي بحرية في الشاطئ الغربي من البحر الميت كما جاء في المقال الأخير هنا كانت ليالي مقمرة وكنت قبل النوم نقضي بعض الساعات في ضيي القمر على الشاطئ بحضور الشيخ جلال الدين العلمي والعم محي الدين الحسيني وابراهيم بك طهبوب وغيرهم. وعند الليلة الثالثة عندما كان يهودي سكاجي يدعى الأدون هرش من سكاج مياشعاريم بالقدس،[1] وابنه ينام في عريشة على الشاطئ ويرغب السفر مع والده إلى الكرك عن طريق البحرة في ثاني يوم لشراء حبوب، لاحظت والحاضرين بأن هذا اليهودي يتجادلان بلهجة عصبية باللغة السكاجية [أي اليدش] بصورة فظيعة ولدى الإستفسار عن هذه الثورة علمنا بأن ولده قد فقد النقود التي كانت معه.

فأصبح الأب وابنه كالمجاذيب لا يشعرون ما يعملون يدخلون العريشة ثم يخرجون ويذهبون إلى الشاطئ فيرجعون الأمر الذي أزعجنا وقام كل منا يفتش على النقود المفقودة ولكن بدون جدوى. أعطي الخبر لقادة البحرية آنذاك وبقي الأدون هرش وابنه قلقين الأفكار ولم يستطيعا أن يناموا.

وقريبا من منتصف الليل عندما عزمت على النوم داخل المكتب ذهبت بعيدا عن الحضور لقضاء حاجتي على الشاطئ، وعندما باشرت بتنزيل حوائجي نظرت بجانب رجلي تماما كيسا لونه أصفر قليلا فحملته وعرفت بأنه هذا هو المبلغ المفقود. وبعدما أتممت حاجتي جئت مسرعا بالكيس (وكأني طفل جاء لأمه) وأعطيته إلى الأدون هرش وقلت له أليس هذه الدراهم؟.

لا أقدر والله يشهد أن أصف الطريقة التي اندفع الأدون هرش وابنه علي فأخذ الكيس وأشبعاني قبلا من الوزن الثقيل خصوصا الأدون فكان يتفف على وجهي من اللهفه، أما المبلغ فكان فقد وقدره أربعماية ليرة عثماني ذهب لا غير فقد جمع من اليهود لشراء القمح لفقراء طائفة الشكناز التابعين لوقف تلمود توراة مياشعاريم أغودات اسرائيل بالقدس بواسطة الأدون هرش المسكين.

[1] أدون هي عبريه وتعني السيد. سكناج هي مصطلح شعبي بالعربية يعني إشكناز وهي إصطلاح يعني اليهود الغربيين. مياشعاريم: وهو حي يهودي إشكنازي يقطنه اليهود المقيمين في شمال غربي القدس يعود للنصف الثاني من القرن التاسع عشر (وتعني بالعربية مئة بوابة ولكن العرب أسموه موشيرم).

قبضت مبلغ عشر ليرات ذهبية بعدما رفضت مرارا ولكن حكم علي المرحوم العم محي الدين أفندي بأخذهم حلالا زلالا وشكرتهم، والجدير بالذكر في هذا الصدد بأنني كنت لا أملك سوى نصف ليرة ذهبية عثمانية كان قد دفعها لي حسين أفندي مؤخرا في الكرك. جن جنون الأدون هرش من شدة الفرح وأثنى على أمانتي.
وإني أعترف والحمد لله أنه لم تنقص علي من الدنيا وما فيها شيء أبدا بل توفقت بعونه وتعالى فحصلت على كل ما أبتغي من أموال وصحة وبنين ولم أعرف العسر أو الضيق في حياتي لغاية يومنا هذا فألف شكر على نعمه.
وقد كان الأدون هرش لي سندا وأكبر رعاية بين اليهود بعد الإنتداب البريطاني وقد استعدت بسببه الكثير بسبب هذه الأمانة. لم يعجب أخي توفيق ما عملته وكان يعاتبني ويقول لي والله بدك تنكة بنزين تحرق فيها، فقلت ولله في خلقه شؤون. وأخيرا أقول من كان يملك أربعماية ليرة ذهبية سنة ١٩١٧ في بلادنا فهذا يعتبر دون شك مليونير.

إسماعيل حقي بك

بعد قضاء مدة توقيفي في مكتب ابراهيم بك طهبوب، صار تعييني (قنطارجي) أي مأمور مسؤول عن وزن القمح الذي يرد من العربان على القبان. كانت والحق يقال بالنسبة لفني مأمورية شاقة فقد كنت أنام على الشاطئ فوق سريري الخاص السفري من شدة الحر واستيقظ على ضجيج العربان الذين كانوا يصلون قبل الفجر ومعهم العدد الكبير من الحمير محملة على ظهورها الحبوب وهكذا قبل ما أتمكن من غسيل وجهي أو تناول أي شيء من الطعام أو الشراب أستيقظ وفوق رأسي البدو فأبدأ بوزن أكياس الحبوب على القبان وأسجل لكل واحد منهم من ورده حسب التاريخ. وذلك تحت مراقبة المسؤول الكبير الضابط إسماعيل حقي بك يوزباشي.
أما لسوء حظي فقد حكمت في إبتداء تعييني في خدمة الجيش بهذا الضابط اسماعيل حقي بك والعياذ بالله فلم أرى له مثيلا منذ دخول البلاد في الحرب العظمى فكان عكسي تماما لا يحب الإستماع إلى الموسيقى ولا يتأثر بأي نغم ولا يحب حتى البحث في أي من الفنون والهواية الحقة التي كان مغرما بها هي جمع ما أمكن جمعه من المال ليس إلا فكان في المساء وعند النوم يحل ذلك الكمر من على وسطه الملآنا من الذهب وكثيرا ما كنت أساعده بشده.
كان ضابطا كبيرا في السن من الأتراك القدماء ربما من زمن السلطان عبد الحميد، وكان يكره كل ما هو منسوب للعرب فكان لا يتكلم كلمة إلا ونجشها بالشتائم من الوزن الثقيل بلغته التركية مثال:
"ولان ديوس عرب إجك أو عني إجك كرته بترونك" إلخ. إلى كل من كان يشتغل معه وهكذا قضيت مع هذا الضابط اللعين مدة سبعة وأربعين يوما لم أنساها ما دمت حيا لأنني لم أرى أو ألمس عودي ولم أغني ولو قطعة واحدة بل كانت حياتي مملة متعبة ليلا ونهارا بسببه.
إنني لم أتعود بأن أرافق شخصا مثل اسماعيل حقي بك وكثيرا ما كنت أضحك في نفسي وأقول ولله في خلقه شؤون كنت أضحك من شدة تأثري منه لآن بيده الأمر والحكم ونحن في أيام حرب قاسية وكنت أحاول أن أدخل ولو بعض

النكات والنواد في وظيفتي هذه ولكن دون جدوى وقد لبس مرة جزمته الجديدة وجاء يأخذ ذوقي في ذات ليلة في خيمته فقال بالتركية وكان عنده من يترجم لي :

هل هذه الجزمة جميلة أحبته جدا وأنها لايقة عليك ، وقد ضحك المترجم وهناك وقعت المشكلة وأراد معرفة سبب الضحك ، وأخيرا شكالي بأن هذه الجزمة ضيقة أجبته على الفور الأوفق يا بيك أن تنام فيها بتوسع وعندما فهم غضب وأشبعني شتائم معهودة .

كان اسماعيل حقي بك لا يتذوق المدام ، وهناك البلاء وكان نادرا بين زملاءه في ذلك الوقت وهكذا أصبحت في حالة قدرة لا ألبس ثيابا بل بقيت في ثوب النوم وكلي غبار وأقذار وأهملت نفسي من مرة ولم أجد الوقت للإعتناء بنفسي حسب العادة مطلقا .

سهرة روشن بك

وفي ذات ليلة وأنا بعيدا عن جو المدام والغناء والعزف والسحر وإذ حضر من القدس روشن بك وكانت سهرة عظيمة على الشاطئ فذكرني وسأل عني فجاء صادق بك وأخذني بعدما سمح لي اسماعيل حقي بك فحضرت السهرة وعزفت وغنيت ما تيسر لهم .

وبعد مدة قصيرة توصلت وجلست بجانب روشن بك وأفهمته بأنني على آخر رمق من حالة البحرة ورجوته بأن يسمح لي بالذهاب إلى القدس لتغيير الهواء ولو لأسبوع واحد ونظرا لحبه لي وما لاقوا مني من لياليي مع صديقه حسين أفندي كتب لي مأذونية بخط يده ووقعها وقدمها لي وكانت هذه المأذونية لمدة شهر كامل بالقدس .

وبعد إنهاء السهرة أطلعت اسماعيل حقي بك عليها لم يجيب بكلمة واحدة . وفي ثاني يوم بعدما أنجزت عملي من وزن الحبوب لبست ما يجب لباسه من بدلة أنيقة ومن على رأسي الطربوش بعدما نظفت جسمي ووجهي وأصبحت جاهزا للسفر إلى القدس معتمدا على وثيقة روشن بك وعندما دخلت خيمة اسماعيل حقي بك لأودعه . وكنت أقول في نفسي ويا ليته وداعا أخيرا إذا أخذ اسماعيل حقي بك مني ورقة المأذونية وقطعها إربا إربا وبدا غاضبا يشتم كمادته وأخيرا جانني ومسك طربوشي وقال لي بتهكم :

ولان سن تميز أي أنت نظيف وأنظف مني شوف طربوشك وقارنه بالكالبك الذي ألبسه وأنا ضابط ! ! ولان شن هيج قدس كلماس" أي أنت لا يمكن ذهابك إلى القدس ." ندبت حظي وسوء طالعي وتركته والدمع يجري من مقلتي إلى الخيمة ألعن فيها الحرب والأتراك وخصوصا هذا الداهية ، إلى أن عطف أخيرا علي بعد مدة ثلاثة أيام وذلك بواسطة الشيخ جلال الدين العلمي الذي عمل جهده وحصل لي على إذن خاص موقعا منه هو بالذات لمدة ثلاثة أسابيع .

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه عندما ودعته لآخر مرة وضعت حفنة من الغبار على طربوشي أمامه خوفا من أن يحسدني في هذه المرة أيضا ويستكثر على إعطائي الإذن فضحك وحسب العادة أشبعني شتائم تركية والحمد لله وكانت فرقة للآخرة .

المأذونية بالقدس

حال وصولي القدس عزمت أن أعمل المستحيل لعدم رجوعي إلى البحر الميت ، فنجحت .

واجهت روشن بك وحدثته عن معاملته اسماعيل حقي بك السيئة وخصوصا كيف مزق وثيقة التي كانت بخط روشن بك وتوقيعه وهذه كانت إهانة كبرى لروشن بك ثم كيف أن اسماعيل حقي بك تجرأ على تنزيل مدة الإذن من مدة شهر كامل إلى ثلاثة أسابيع ، وهكذا ساعدوني وأمر بتعييني بعد إنتهاء مدة الإذن (شهرا كاملا جنديا على العود بمعية كامل بك قومانداان أريحا) . شكرته من قلبي ورافقته في بعض سهرات بالقدس فكان والحمد لله سندا لي دائما وأبدا طيلة خدمتي في الجيش من أول سنة ١٩١٧ إلى إنتهاء حياة تركيا في بلادنا .

أركيلة المرحوم الوالد

أثناء مأذونيتي بالقدس رجع المرحوم حسين أفندي من الكرك وقضينا وقتا جميلا مع بعض قادة القدس العسكريين خصوصا مع محمد القولاغاصي وسعد الله بك أركان حرب الجيش وخصوصا ابراهيم بك رئيس العرفي بالقدس وكان الأخير هاويا ومحبا للأركيلة .

ولما كانت أركيلة المرحوم والدي في حيازة حسين أفندي وكانت هذه الأركيلة نادرة من حيث جودة بلورها وقدمه وخصوصا قالبها المصنوع من الفضية القديمة كما هو مذكور سابقا في هذا الكتاب قرر حسين أفندي بأن يقدم هذه الأركيلة هدية إلى ابراهيم بك رئيس الديوان العرفي وهكذا حملت هذه الأركيلة ضمن علبتها الخاصة النادرة وفيها كل ما يختص بها من علاوات وقدمتها إلى ابراهيم بك في بيته فسر جدا من رؤيتها وقبلها مع الشكر وكانت أركيلة الوالد المعروفة لدى جميع أصدقائه من نصيب ابراهيم بك .

كامل بك قومانداان أريحا

بعدما انتهت مدة مأذونيتي بالقدس نزلت إلى أريحا وبيدي التعيين الرسمي الموقع من روشن بك بأن أكون جنديا خاصا لكامل بك في أريحا وقومانداانها العسكري فاستقبلني بوجه باش وكان مغربيا يحب الموسيقى وأصبح بوظيفة في أريحا وتخلصت من البحرة وخصوصا من الطاغية اسماعيل حقي بك .

وقد صادف أن منيا الحلبي كان جنديا في المنزل وكان ميخائيل القزاز كذلك في عمبر الإحتلال الكبير في أريحا والذي يترأسه عبد الرحمن بك ربما من طرابلس الشام وكان رجلا عظيما وأمينا لوظيفته ويعطف على أولاد العرب كل العطف وكان الشاويش آنذاك الذي بيده توزيع المخصص للجيش محمد شاويش وهو لم يزل حيا يرزق ليومنا هذا يسكن أريحا وقد تزوج كريمته المرحوم علي زمرد من أهالي القدس.

أما كامل بك قوماندان أريحا كان يسكن في الطابق العلوي من عمارة المسكوبية بجانب جامع أريحا الشرقي وكنا نقضي الليالي على أسطحة عمارة المسكوبية خصوصا في ليالي الحر وفي فصل الصيف. وكان كامل بك متدين لا يشرب الخمر إنما كان يحب الإستماع إلى الموسيقى بلهفة زائدة ويقدر الألحان الجميلة منها. وعلى سطح هذه العمارة كان مخصصا نفرين من الجنود يعملان عنده كخدم ووظيفتهما بأن يملآ الطاسات من الماء ويصبانها على زير كبير من الفخار مجللا باللباد هذا فتصبح الماء التي تكون داخل الزير باردة جدا وكأنها مثلجة، ثم يقدم لنا موز أريحا البلدي الذي كان مزروعا في أريحا آنذاك. هذا النوع من الموز كان والحق يقال نادر المنال فقد كانت المزارعين لا تقطع قطف الموز إلا متى استوى على أمه ولونه أصفر فتسيل من حبته مادة تشبه العطر المعطر وله رائحة زكية وكأنها المسك أو العنبر وهكذا كنا نقضي ليالينا على أكل هذا النوع من الموز ونشرب الماء البارد على الطريقة التي ذكرتها آنفا. وكانت ليالي جميلة لن أنساها ليومنا هذا.

مرجان بك قومانداں أريحا

تعين المدعو مرجان بك قوماندانا لأريحا وكان هذا الرجل قزما يلبس البنطلون والجزمة ثم القميص بدون الجاكيت وكان عصبي المزاج جدا وينتقم من كل من يرفض تقبيل يده وأما من قبل يده يرضى عليه حالا ويلبي طلبه وهكذا كنا نعرف عادته ونكسب الكثير بواسطة تقبيل يده كان يجيد اللغة اليونانية وربما كان مولودا في اليونان ولكن الأصل تركيا. كان لا يفارق مقهى اليونان المعروف بمقهى ياني وزوجته في الشارع الرئيسي لأريحا بجانب فندق سربيون.

كان مدمنا على الخمر ولكنه عادل في أعماله وكان صديقا لكمال بك الذي ذكرته سابقا وهكذا رجعت بصفتي أصبحت جنديا معينا في أريحا رجعت إلى السير مع كمال بك من حيث الشطحات والسهرات بصورة فظيعة جدا وكان مرجان بك يشجع كمال بك على ما تبتغيه من حيث الحظ والسرور.

أذكر مرة بأن مينا الحلبي جاء فقبل أيادي مرجان بك في الشارع وطلب منه تصريحا لزيارة والدته بالقدس على أمل أن يحصل على ثلاثة أو أربعة أيام، ولكن تكرم مرجان بك بعدما سر من تقبيل يده فسمح له بمدة شهرية قضاها مينا في القدس.

آرتين عازف الكمان

وفي مدة تعييني جنديا في أريحا قد صادف بأن شاكر بك قوماندان بئر السبع نفى ثلاثة جنود من الأرمن كانوا في بئر السبع موسيقيين على الآلات طرب وترية فيرأسهم المدعو آرتين عازف الكمان ومعه جندي بوعوز يعزف على المندولة أي مندولين كبير الحجم والثالث يعزف على الفلوت. قد تفاهم شاكر بك من بئر السبع إلى تركيا عن طريق أريحا، ولدى وصولهم إلى أريحا كنت مع كمال بك في غرفته التي كان موقعها في بستان دير اللاتين شاهدت الكمان ثم المندولة وبعد الإستفسار إطلعت على مشكلة هؤلاء العازفين فأخبرت كمال بك واقترحت عليه السعي لإبقائهم عندنا في أريحا. تشجع كمال بك وهو كان مع شيوخ الحظ والطرب وله السلطة مع الإدارة بكاملها ليس في أريحا فحسب بل بالقدس أيضا، فقد توفق بهذه المهمة وجرى حجزهم في أريحا وانتهى الأمر.

وهكذا أصبحت في أريحا موسيقية لا بأس بها تضم هؤلاء الثلاث من الأرمن شريطة أن أتولى أنا إدارة الفن فكانت والحمد لله نعمة فعندما كنا نسهر تكون فرقة وتعزف [. . .] أمثال ثانيوس وعثمان بك وكارجهار وعاصم بك وغيرهم وذلك على العود والكمان والمندولة والفلوت وكان عندنا جنديين من طرابلس الشام الواحد إسمه حسن طرابلسي وأخيه فكان لهما صوتا حسنا مطربا حنونا ومن النوع العالي فكانا يجيدون غناء الطقاطيق خاصة وهكذا في السهرات كنا نساعد بعضنا البعض فأنا أغني التواشيح والقصائد وأعزف العود، ثم يبدأ حسن وأخيه فيدخلان في الطقطوقة تناسب ذلك المقام وقد أفلح وعلى الأخص آرتين بالعزف على كمانه ما كنا ننشده بالعربية وكان والحق يقال عازفا ماهرا اكتسبت منه الكثير من هذا الفن الرفيع.

حبة أريحا

أكتب هذا الحادث عن حبة أريحا المعروفة لدى أهالي البلاد، هذه الحبة عندما تطلع على الجسم كانت العادة المعروفة بأن لا ينصح غسلها بالماء والصابون وعادة موسم طلوعها يكون في شهر تشرين من السنة وكانوا يعتقدون بأن السبب هي لذعة الباعوضة فإذا ما كانت حبة منفردة في الوجه أو الجسم تكون اللذعة من الباعوضة الذكر وإذا طلع على الجسم عددا من حبيبات صغيرة تكون اللذعة من باعوضة أنثى.

على كل أصبت من هذا النوع الخبيث فكانت حبة كبيرة على رأس خدي الأيسر ثم أربع حبات صغيرة على ظهر اليد اليسرى أيضا.

زار أريحا السر طبيب النمساوي وكان رئيسا لعمارة راتزبون المعروفة بالقدس والتي إحتلها الجيش التركي واستعملت مستشفى للجيش بإدارة الحليفة دولة النمسا الصليب الأحمر. كانت زيارة السر طبيب إلى أريحا لمراقبة نوع هذه الحبة وللبحث عن كيفية الدواء للقضاء عليها وهكذا بواسطة أطباء الجيش التركي المقيمين آنذاك في فندق الأردن ومنهم الصديق الوفي الدكتور يوسف حجار نودي علي وشاهدني السر طبيب النمساوي وكان نصيبي حسب أمر قوماندان

أريحا أن أذهب مع السر طبيب إلى القدس فركبت معه سيارته الأتومويل وكان معنا جنديا آخرا معروف بإسم شاملي مصطفى . قيل لي أنه لدى وصولنا إلى المستشفى يجري فحص الحبة على الأشعة وأقيم في بيتنا بالقدس لمدة فسررت جدا . وصلنا القدس وعرجنا عن باب العامود وكان الطقس باردا جدا فقلت إلى السر طبيب مشيرا له بيدي "Das ist unsin hausa" أي هنا بيتنا أملا أن يسمح لي بالذهاب لآنام عند الوالدة وسأحضر لمستشفى راتزبون في الصباح التالي فقال غاضبا "Nein" . دخلنا في السيارة من مدخل مستشفى راتزبون فأغلق الباب بعدنا وبعد إنتظار قليل أنا وشاملي مصطفى في الإيوان جاء جنديا وأفهمنا أنه تقرر أن ننام في المستشفى وغدا بعدما يجري الفحص سيسمح لنا بترك المستشفى وهكذا أدخلنا الجندي إلى حمام المستشفى لأجل الإستحمام ومن ثم لباس ألبسة المستشفى قلت في قرارة نفسي أنها نعمة أن استحم الآن في الماء الساخن وأدفئ جسمي البارد وعندما قلعت ثيابي ووقفت بالحمام إذ فتح الجندي الماء البارد بل المثلج على جسمي الأمر الذي أزعجني فقفزت من الحمام بسرعة وتجادلت معه بأن مزاجي لا يتحمل الماء البارد خصوصا ونحن في فصل الشتاء فضحك علي وقهقة من ضحكة ثم قال لي "Bist Du Ein Soldat?" أي هل أنت جنديا بمعنى أنني أخاف من الماء البارد ؟ أجبته وجسمي يرتعش من شدة البرد نعم إني جنديا ولكن على العود . أما شاملي مصطفى زميلي فاستحم جيدا وكان ينظر إلي ويضحك .

دخلنا غرفة النوم للمرضاء ولحسن الحظ وجدت صديقنا الخواجة ألبرت دسكن اليهودي والذي كان مرافقا لروشن بك في زيارتنا السلط كما ذكرت عنه في سابقا وأصبح المترجم ما بيني وبين الممرضات والأطباء النمساويين في المستشفى .

وفي صباح اليوم الثاني أخذت إلى غرفة الجراحة وحضر السر طبيب رئيس المستشفى ثم جاء بطبيب آخر حاول أن يحلق شعر الذقن حول الحبة على الخد بواسطة موس الحلاقة كما طمنني ، ثم وعلى حين غرة خلع الحبة من جذورها بواسطة الموس فتألمت جدا بعدما شد الممرضات بيدي خوفا من الحركة ، ثم وبأسرع من لمح البصر ذهب السر طبيب بعيدا عني في زاوية الغرفة وبيده قنينة على بابها طلمبة .

كان يتعاين على الحبة ويرشها من الدواء الذي كان داخل القنينة عن بعد فكان الدواء يسبب غليانا في موقع جذر الحبة بألم فظيع ، ثم وضعوا على موقع الحبة التلصيق حسب العادة وبعد ذلك عملوا لي ذات العملية في الأربع حبات الصغيرة فوق يدي اليسرى ورجعت إلى سريري أتذمر ولكن ما العمل فهذه هي الأوامر العسكرية .

وأخيرا جاء الأمر فبلغت بواسطة المترجم ألبرت دسكن ما يلي :

١ . وجوب إقامتي في المستشفى مدة ثلاثين يوما .

٢ . إعطائي الطعام الكامل وكان خمس وجبات في النهار ومن ألذ وأشهى الطعام عدا عن الحلوى والقهوة .

٣ . السماح لي بالتجول في أي مكان من المستشفى حتى الحديقة وسطح المستشفى .
٤ . السماح لي بشرب النبيذ في النهار متى عطشت . . وذلك بواسطة إبريق كبير الحجم وضع فوق رأس السرير في الغرفة .
٥ . السماح لأي زائر من الأهل والأصدقاء زيارتي في أي وقت من النهار لغاية الثامنة مساء .
٦ . وعندما علم السر طبيب بأنني موسيقيا بواسطة ألبرت ديسكن سمح لي فأحضرت العود .
وهكذا قضيت شهرا كاملا وكان من أحلى الأيام والليالي فقد كان الأطباء والممرضات يستمعون إلى عزفي على العود وإلى غنائي بكل إعجاب وسرور وأصبحت وكأني واحدا من موظفي إدارة ذلك المستشفى الفخم وإني أقولها صراحة أن إحدى الممرضات الحسان من النمساويات قد أعجبت بي وكانت تحضر إلى سريري وتتكلم طويلا وتقول شونة أوكة ، بمعنى العيون الجميلة ، وما درت أن عيونها كانت أجمل مني ، فكانت تعطف علي ولا تتركني لوحدي .
أما المستشفى فكان روعة وكل شيء به نظيف وبوجه عام كان الأطباء والممرضات والخدم على جانب عظيم من اللطف والذوق السليم الأمر الذي كانوا يفضلون عن الألمان في البلاد زمن الحرب . كنت وزميلي شاملي مصطفى لنا ملء الحرية بالتجول في هذا البناء الفسيح بأركانه غرفة وخصوصا أسطحته والجميع يلاطفوننا ويداعبوننا وكانت الصحة ممتازة من جميع الوجوه وأن هذه العملية ليست بحاجة إلى الراحة وعلى كل حال بمدة الشهر زالت من وجهي ومن فوق يدي اليسرى وإني أعتقد بأن السر طبيب استفاد من هذا الإطلاع وقضى على حبة أريحا نهائيا فوجد السبب ومن ثم الدواء من حيث الطب ولكني أجهل التفصيلات . والجدير بالذكر أن محل الحبة بعد إزالتها ودوائها نبت الشعر ولم يعد يعرف محلها الأصلي على سطح خدي ليومنا هذا .

عيد الميلاد

قد صادف حلول عيد ميلاد سيدنا يسوع المسيح وأنا داخل مستشفى راتزبون وقد شاهدت العجب العجاب الطريقة الطريفة التي بموجبها تعامل الأطباء كل من حواة المستشفى من موظفين وأطباء وممرضات وخدم ومرضاء لما يحترمون الأجانب هذا العيد المجيد وخصوصا ونحن في أيام الحرب فكانوا يعملون المستحيل للترفيه على الجنود المرضاء البعيدين عن أهلهم وذويهم بل وبلادهم فأقول :
زار جنديا مسؤولا من المستشفى كل مريض وجاءني بدوري وكنت ملقى على سريري ، ما أفضل أن يكون العشاء ليلة عيد الميلاد روستو أم دجاج؟ فأجبته أني أفضل الدجاج .
وعند المساء ليلة عيد الميلاد المجيد دخلنا إيوانا كبيرا كان في صدره شجرة عيد الميلاد بحجم كبير ومزدانة بالهدايا والأنوار . وقد حضر في هذه القاعة كل من كان في تلك العمارة راتزبون . عزفت فرقة موسيقية أناشيد العيد وجثت

أن بدوري فعزفت ترنيمة هذا هو اليوم السعيد فلتفرح الشعوب وأنشدها كثير من الحاضرين بلغتهم . . ثم عزفت بعض المقطوعات الصامتة وغنيت ما تيسر من الأغاني العربية وكانت محببة للحضور .

وفي نهاية هذا الإحتفال جرى توزيع هدية العيد لكل شخص من الحضور على السواء فاستلمت ما قسم لي شاكرا وذهبت إلى سريري وفتحت تلك السرة فوجدت :

١ . الدجاجة المحشية ملفوفة بالورق المشمع جيدا .

٢ . قنينة ملآنة شوربة الدجاجة ومعها صحن جميل وملعقة

٣ . كعكة العيد خاصة وإسمي عليها

ثم : ماكنة لقص شعر الرأس ، ومقص ومشط ، وموس للحلاقة ومعه قابش للتجليخ ، ومراية ، وفرشاية حلاقة ، موس وبه ٩ أشكال لم أزل أحتفظ به ليومنا هذا . دفتر لكتابة التحارير ، قلم للكتابة ، مفكرة باللغة النمساوية . علبة سكاير ، مصاحبة سكاير أنيقة ، مع دخان وورق سكاير لف ، جيرزي صوف لون أزرق قاتم ، لفافات للرجلين ، علبة تحتوي على مجموعة نادرة من الإبر والدبابيس وخيطان متنوعة .

وهكذا كانت ليلة ساهرة وأصبح المستشفى هيصة وهياج ورقص وغناء ومزيكات بصورة لا توصف قضيناها لعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وإني أذكر أن طيلة المدة التي قضيتها في هذا المستشفى كنت لا أترك شرب النبيذ فكان مباحا بدلا عن المياه ولله في خلقه شؤون .

بعد قضاء مدة الشهر أخذني وشاملي مصطفى فدخلنا الأتومويبل وساق بنا السر طبيب ونزل بنا توا إلى أريحا وإني أذكر بمناسبة شدة الأمطار كان جسر أريحا مهدوم فمرت السيارة في الماء بصعوبة ولم يسمح لنا بأن ننزل منها إلا عندما وصلنا مستشفى أريحا فندق الأردن وهناك سلمنا إلى قوماندان أريحا رسميا . وإني لن أنس هذا الشهر في مستشفى راتزبون مطلقا وأذكره بحنان وسرور .

الإحتفال بدخول ترعة مصر

كان فصل الصيف ربما سنة ١٩١٦ وقد انتشر خبرا رسميا في البلاد وهو انتصار الجيش التركي بمساعدة حليفته ألمانيا في معركة مشهورة في مصر وقد سقطت الترعة من بريطانيا فدخلتها واحتلتها الدولة العثمانية . سرى هذا الخبر فقامت الدولة وقعدت فأقامت الحفلات والزينات والمهرجانات القومية والإحتفالات في جميع المدن في المملكة العثمانية . ولما كانت الساحة العامة الموجودة حاليا في أريحا مستعملة حديقة للحكومة ومن حولها الشوارع الرئيسية أقامت الحكومة آنذاك إحتفال عظيم في هذه الحديقة وقد كنت أنا والفرقة الموسيقية الوترية التي ذكرتها أعلاه .

كانت ليلة في أريحا مشهورة وقامت بنصبيها في الإبداع بالزينات والترفيه عن الجيش والجنود بمناسبة هذا الإنتصار . فعندما أتم آرتين الأرمني عزفه على الكمان وتبعه المندولة والفلوت جئت أنا بدوري فعزفت بعض التقاسيم على العود من مقام بيات دوكا ثم أنشدت قصيدة روميو وجوليت . . بطلب من خليل بك الداودي مدير ناحية أريحا آنذاك وكأنه كان عالما حقيقيا هذا ما يسمونه إنتصار بل كانت مهزلة وانكسار للدولة العثمانية وكان من الواجب أن نغني أنشودة مأتم روميو وجوليت حقا .

أذكر أنني كنت مصابا بشرية وحرارة فظيعة على جسمي وذلك من شدة الحر في أريحا فبدأت بأول القصيدة سلام على حسن يد الموت لم تكن إلخ . إلى أن وصلت مقطع حبيبة قلبي ، وهو أهم مقطع غنائي مؤثر وتوقفت حالا عن الإنشاد الأمر الذي أدهش جميع الحضور من ضباط وحكام . وعندما سألني القومانداان عن سبب توقفي وقفت وشمرت عن جسمي فشاهد ما كنت أقاسيه من ألم فضحك والحضور ووعدني بأن يسمح لي بإذن خاص لمدة شهر فيما إذا أتممت القصيدة ، وهكذا بعدما أكملت إنشادها وتوقفت بإيدانها كل التوفيق صفق الحضور كثيرا وحصلت على مأذونية لمدة شهر قضيتها في جو القدس البارد .

إني أذكر في هذه السهرة كانت الشوارع ملآنة من الناس خصوصا عائلات طائفة الروم العرب المقدسيين فكانوا جميعهم يستمعون إلى عزفي وغنائي فيطربون ولم يزال الكثيرين من هذه العائلات يذكروني بتلك السهرة .

يوسف كينك

كان يوسف كينك من يهود القدس الإشكناز وقد تشارك قديما مع حسين أفندي والشيخ جلال الدين العلمي في لانش كبير في البحر الميت كان يسحب المركب الملآنة من الحبوب تورد من شرقي الأردن إلى فلسطين وقد صادف أن الأحوال الجوية اشتدت بزوابع شديدة في ليلة من ليالي الشتاء فقد أصبح هذا الموتور بين عشية وضحاها كان في خبر كان فلطمته الأمواج إلى صخور الشاطئ بجوار واد الموجب فتحطم . وبقيت المعرفة بين حسين أفندي ويوسف كينك وعائلته إثر هذه التجارة . كانت عائلته يوسف كينك الوالدة لها مخزن بجانب مدخل مياشعاريم لبيع الحبوب وخصوصا النخالة وكانت زوجته سارة وشقيقاته راحيل وبشاوة وخاية وكان أخيه الأصغر وإسمه أوشر وقد أصبح محاميا معروفا زمن الإنتداب البريطاني وأصبح إسمه Mr. King .

كانت شقيقاته آية في الجمال وكانت خاية تعزف البيانو والمندولين فكنت وحسين أفندي وإسماعيل بك نذهب ليلا من محلة الشيخ جراح ومعي العود عن طريق وقف الفسيفسي والنمري شمالي محلة مياشعاريم إلى أن نصل إلى بيتهم أول قوميانية التجارلية ملك موسايوف ونقضي السهر والسمر على العود والمندولين وكانت جميع هذه العائلة ميالة إلى الموسيقى ويستمعن إلى عزفي وغنائي بانتباه تام خصوصا نوع الطقاطيق .

وقد أذكر أننا قضينا ثلاثة أيام ولياليها حول البحر الميت كنت فيها أدوزن آلة المندولين حسب دوزان العود ونغني في البحر وكانت رحلة من العمر لما كانت هذه العائلة من مرح وسرور وعدم الكلفة.

الأستاذ نخلة زريق

كان الأستاذ نخلة زريق صديق حميم إلى عائلة الحسيني خصوصا للمرحوم كامل أفندي مفتي القدس آنذاك. كان الأستاذ زريق أعزبا ساكنا وعنده جميلة الصانعة الأمينة والتي كانت تطبخ له أنواع الطعام اللذيذة. كان رحمه الله يحب الموسيقى العربية فكان حسين أفندي يزوره مع المفتي كامل أفندي ويحبذ بحضوري في اللغة والشعر وعندها يطلب من حسين أفندي بأن أحضر العود وهكذا أذهب وأحضر عودي وكنت أنتبه دائما عند غنائي خوفا من نرفزته عند الغلط فكنت أغني له الموشحات وكان يميل ويحب إلى استماعها وقد سر لبعضها:

نـبـل الـظـلام انجـلـى — مـن بـعـد مـاجـن

شـرب المـدام حـلـى — مـن إبـنـة الـدن

دور

أنـا الهـوى مـذهـبي — أخـذتـه عـن أبـي

والهـتـك مـن مـشـربـي — والـعـشـق لي فـن

إلخ..

كنت أغنيه من مقام راست نوي ضرب مصمودي وتعلمته من أستاذي عمر البطش كذلك:

يـامـن تـنـادمـني وحـبـك دمـني — منـك رأيـت العـجـب والـبـعـد تدنيـني

دور

إن جـزت أطـلال سـلمى يـا نـسيم الصبح — بلـغ سـلامي إلى تـلـك الـوجـوه الصـبح

رؤيـاك يحـيـيـني والـبـعـد يضـنـيـني — منهم ألـفـت الأدب مـن قـبـل تكويـني

فكان يطرب الأستاذ على هذا الموشح ويقوم حقيقة أنه معنى ومغنى. أما القصيدة التي كان يطلب الإستماع إليها فهي:

الحب تفضحه عيونه	وتنم عن وجد شجونه
إنا تكتمنا الهوى	والداء أقتله دفينه
يهتاجنا نوح الحمام	وكم تحركنا أنينه
ونحمل القبل النسيم	فهل يؤديها أمينه
قست القلوب فهل لقلبك	يا حبيبي من يصونه
فتروع قلبا مدنفا	أسوان لم تغف جفونه
وبي الذي بك يا ترى	سري وسرك من يصونه

هذه القصيدة قديمة التأليف إنما أنغامها من تلحين الموسيقار الملحن المعروف الشيخ علاء محمد وكنت أستفيد كثيرا منه بخصوص إنتقاء القصائد من حيث اللغة والمعنى وكان دائما يشجعني على الرجوع إلى مواصلتي قراءة القرآن رحمه الله.
ملاحظة: قد علمت مؤخرا أن هذه القصيدة، هي من تأليف شاعر الشباب أحمد رامي.

روشن بك ونعمان غنام

كان روشن بك ساكنا بالقدس في الدار ملك الشيخ محمود الدجاني الواقعة خارج باب العامود طريق حي المصرارة وكان المالك الشيخ محمود ياورا معه زمن الحرب كما ذكرت في حديث لي في السابق من هذا الكتاب. وقد حدث أن روشن بك عندما كان يركب جواده بجانب عمارة الكازخانة محلة البقعة الفوقا بالقدس جمح الجواد فوقع روشن بك أرضا وكان رجلا جهاما طويل القامة وهكذا تبين بأن وركه الأيمن من أعلى الفخذ خرج من محله بصورة مؤلمة فنقلوه إلى المستشفى وبقي سبعة وثلاثين يوما تحت التمريض من أمهر أطباء الجيش الأتراك والألمان بدون جدوى. وقد حاولوا فوضعوا الجفص وغيره ولكن كانت حادثة خطرة وهو ملقى على ظهره ورجله اليمنى مشبوحة إلى أعلى وهو يسب ويشتم وبجانبه الخمر إلى أن رجع إلى بيته محمولا وترك المستشفى كما أشير عليه.
جاءه الشيخ محمود وعرض عليه الطب العربي التجبير، وتحدث إليه عن الحمامي المعروف المرحوم نعمان غنام لحمام العين بالقدس ومدح بذكائه وخبرته في هذا الباب فجن جنون روشن بك وقال له دخيلك إئتيني بهذا الشخص. حضر المرحوم نعمان ففحص روشن بك وقال هذه بسيطة يا سيدي ولكني أنا ليس طبيبا، وأخاف من ملامة الأطباء

المشهورين اللذين يقفون عليك فأجاب روشـن بك لا يهمك فاعمل بي ما تشاء . وهكذا إبتكر العم نعمان طريقة نادرة أدهش الأطباء الأتراك والألمان من الطب العربي الذي جعل روشـن بك أن يقف على رجله بمدة يومين فقط وإليك التفصيل :

وضع السرير الذي كان روشن بك ملقى عليه في وسط الغرفة وربط كتفي روشن بك بالحبل وشد طرف الحبل في حديد الشباك الواقع خلف رأسه ، ثم جاء بحبل آخر وربط رجل روشن بك اليمنى المريضة وشد طرف الحبل في حديد الشباك الآخر المقابل للشباك الأول تماما . وكان الحبل الذي شد به رجل روشـن بك مزدوجا ، ثم جاء بعصاه الخاصة للعم نعمان (باكور من الحلب الثقيل) وأدخلها ما بين الحبل المزدوج وبدأ يدور فيها (شبه قطعة الخشب التي تكون عادة موجودة في المنشار العربي ، وتقوم بشد المنشار) إلى أن سحب الرجل المريضة رويدا رويدا من محلها وبدون أن يتألم صاحبها روشن بك فأصبح الحق مقابلا تماما إلى الحق صنوه من الدرك ثم أفلت العصا من يده فامتد الحبل وبسرعة أقل من لمح البصر جاء الحق بمكانه الأول تماما والتقى بأخيه من الورك .

ثم ساعد العم نعمان وكان طويل القامة قويا من نوع روشن بك ساعد روشن بك فوقف على رجليه لأول مرة بعد مدة ما تقرب من الأربعين يوما وأخيرا عمل له بعد التمريج بالزيت الساخن وبعد يومين كان روشـن بك معافا تماما وأنعم على نعمان بما تيسر ولكنه رفض رحمه الله وكان روشن بك لم ينقطع لسانه عن الشتائم من الوزن الثقيل لأطباء الأتراك والألمان على السواء .

دار شاكر الشاكر البقعة بالقدس

كان المرحوم شاكر سليم الشاكر الحسيني له دارا قديمة محاطة بأشجار الصنوبر الكثيفة واقعة في محلة السبع رجوم بجوار أملاك الدكتور نقولا سبيردون ما بين البقعة الفوقا والبقعة التحتا بالقدس . كان المرحوم العم أبو سليم مستعملا هذه الدار للكيف والحظ والسرور له ولأصدقائه .

فكنا نذهب في صباح نهار الجمعة من كل أسبوع إلى هذه الدار وتتجمع الخلان خلان الصفا وهم العم أبو سليم صاحب الدار وفخري بك عاصم وحمادة أفندي العفيفي معملي في عزف العود وجورجي أبو زخريا وغيرهم وكانت الوالدة فروسو زهران تترأس جلسة السمر وهناك في هذا الحرش الجميل البعيد عن القدس تقيم الأفراح والليالي الملاح ويبقى لغاية مساء الأحد من الأسبوع .

كل من الحضور كان يعمل ما استطاع من الطهي والشوي والقلي والسلطات وكان فخري عاصم الساقي ويحتفظ بقناني المدام وكان رحمه الله يعد من الشريبين الممتازين ومشروبه الخاص هو العرق صنع العم أبو عبد الله اللبناني بالقدس وكانت المازة له الخاصة لوز فريك وبس .

والجدير بالذكر أننا عندما كنا نعزف العود ونغني ما هب ودب من المواويل والقصائد والموشحات والطقاطيق تحت ظل الأشجار كانت تمر في الجو فوق رؤوسنا بعض طائرات العدو الإنجليزي، وكان ذلك في منتصف سنة ١٩١٧ فصل الصيف فيقوم العم أبو سليم بثوب النوم، وكان قصير القامة وينادي بأعلى صوته مخاطبا الطائرة فيقول "خلصونا عاد أدخلوا بلادنا وخلصونا من إستبداد واستعباد الأتراك"، وهذا دليل واضح على رغبة أهالي فلسطين الصادقة التخلص من نير بني عثمان ومادروا أن بريطانيا خانت العهد وباعت البلاد وذلك قبل احتلالها سرا إلى اليهود.

وكثيرا ما كنت أذكر العم أبو سليم بما كان يعمله ونحن شاطحين في داره وذلك بعد الإحتلال البريطاني فينكسف ويقول والله يا واصف غشونا وجبنا الأقرع ليونسنا كشف قرعته وخوفنا.. فيا حبذا لو بقينا على دينا العتيق أي تحت الحكم التركي.

كانت فروسو الوالدة في أوج صباها وكانت قادة الأتراك خصوصا بالقدس يسجدون لها وكانت تعزف على العود وتغني بصوتها الحنون الأغاني الجميلة وتدهش الحضور وقد علمتها طقطوقة عراقية وقد أبدعت بإلقائها كل الإبداع.
هذه الأغنية:

يابا يابا آه يا عبود عيني عيني آه يا عبود

وعليه ما تعلمنا ياخي دق العود وعليه ما تحرمنا من الموجود

كانت من مقام البستكار أي صبا وترتكز على درجة السيكا وقد اشتهرت هذه الأغنية بين أهالي القدس فكانت تغني في أكثر السهرات وقد حفظتها من جندي عراقي كان يجيد الغناء بدون عزف على الآله.

مشيا على الأقدام أريحا

أتممت إجازتي التي حصلت عليها من قوماندان أريحا وبقيت بالقدس من سهرة إلى شطحة بين الأصدقاء والخلان زيادة عن المدة بثلاث أسابيع وهكذا صممت النزول إلى أريحا بصفتي جنديا وقد صادقت كمال بك صديقي فأخذني وطلب من قائد ألماني كان في عمارة المسكوبية وعنده قافلة من التركات الأتوموبيلات المعدة لنقل عتاد الجيش فقبل بكل سرور.

وفي صباح ثاني يوم أخذت ثيابي وبعض الهدايا والطعام داخل خرج وركبت في التراك من عمارة المسكوبية فمشت القافلة إلى أن وصلت المفرق المؤدي إلى أريحا وإلى البحر الميت فوقف الضابط وأمرني بالنزول كي أذهب إلى أريحا وتركني وشأني كان الوقت الساعة الثانية من بعد ظهر نهار من شهر آب، وقفت مبهوتا لا أدري ماذا أعمل ولم أرى ما يمكن ركوبه وكانت أيام حرب فاضطررت على المشي على الأقدام أحمل الخرج حملا ثقيلا على كتفي ومشيت على

بركة الله في حر الشمس شمس الغور المحرقة في شهر آب حتى وصلت إلى جسر أريحا عند مدخل أريحا ورميت بنفسي تحت ظله وكدت أن لا أعي .
وجدت بجانبي زميلي وصديقي مينا الحلبي الذي جاء وبعض الناس فحملني إلى الغرفة التي كنت أقيم وإياه فيها الأولى من فندق المنظر الجميل على يدك اليمنى في الطابق الأرضي .
أثر في حر الشمس ولازمت الفراش مدة ثمانية وثلاثين يوما كنت فيها ألعن الألمان والأوتوموبيلات وقلت يا حبذا لو نزلت راكبا الحمار وأبعدت عن السيارة التي كادت تقضي على حياتي .

شاكر بك قوماندان بئر السبع

قد صادف أن شاكر بك قوماندان بئر السبع زار أريحا وكان بصحبته المرحوم عمر البيطار من أعيان مدينة يافا . كان شاكر بك صديقا لقوماندان أريحا وخصوصا لصديقي الضابط كمال بك وهكذا إحتفت قادة أريحا بقدومه فأقمنا شطحة في بستان خليل بك الداودي في النويعمة وحضر آنذاك روشن بك خصيصا من القدس ومعه عمه رجل طويل القامة ذو لحية طويلة سوداء .
وكانت والحق يقال شطحة دولية تجلى الطرب والحظ فيها وأصبح الحضور حظ وسكر خصوصا العم عمر البيطار فعربد واحمرت عيناه حتى أنه بدأ يشتم علنا الحالة التي وصلت بها البلاد ويشتم القائمين بها مما أدى إلى غضب الحضور من الأتراك ولكن حنكة روشن بك أزال الجفاء برقته وبصورة سياسية ولكن فضت الشطحة على مضض وتركنا النويعمة ورجعنا إلى أريحا وكل من الحضور ثورة .
أذكر أن شاكر بك كان يركب حنطورا يجره رأسين من خيل العرب الأصيلة اللون أحمر فاتح وكانت العجلات الأربع لهذا الحنطور من الكوتشوك . وقد تركنا العم عمر البيطار في صباح ثاني يوم وبقي شاكر بك فسهرنا سهرة قائمة في غرفة كمال بك كانت في موقع دير اللاتين تماما .
وجرى بعد الشطحة إجتماعات عديدة بين روشن بك وعمر البيطار كان الوسيط فيها حسين أفندي الحسيني الذي انتصر أخيرا وأزال سوء التفاهم ما بين الطرفين واعتبر الحادث السيء بمثابة السكر ليس إلا .

رجوع الأخ خليل من بيروت نهائيا

لم يتمكن أخي خليل من الحضور إلى القدس خصوصا بعد وفاة والدنا رغما عن ما بذله من جهد ورجوت سامي بك قوماندان الجندرمة في بيروت .
ولكن شاء القدر أن يحضر أخي خليل بوظيفة رسمية تتعلق بالجندرمة فحضر ربما في أيلول سنة ١٩١٧ بدون علم أحد منا فقد دخل بيت الأخت عفيفة وكانت ساكنة في دار الخوري يوسف العائدة إلى دير الروم والواقعة في محلة

مأمن الله دخل البيت غفلة وقبل أيادي الوالدة وقبل الجميع فأشبعوه قبلا وكان في ألبسته الجندرمة الأنيقة مدججا بالأسلحة بصورة توجب الفخر والإعتزاز .

وهكذا حصلت على مأذونية موقعة من قومانداني أريحا وحضرت القدس مسلما فقبلته وحدثته ما عملت مع سامي بك وكيف قيل لي بأنه لف حذائه بالإستدعاء . وبقينا سوية في الدار مع الأخت عفيفة وعائلتها وكان الجيران الأخ يوسف قرط وعائلته ومينا بسطولي وعائلته وعائلة الخوري من أهالي يافا كان الشباب فارين من الجندرمة وكانت الجارة المرضية عندنا المرحومة أم يوسف أرملة المرحوم عيسى زخريا فكنا نقضي الليالي أعزف وأغني للجميع على شرف رجوع الأخ خليل وسلامته مدة أربع سنين قضاها بالشقاء في بيروت والجندية .

وقد تكهرب الجو سياسيا وكانت إشاعات تسري بين الأهلين بقرب دخول بريطانيا بلادنا ، وهكذا صمم أخي خليل على البقاء في القدس وكذلك أنا وكنا ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر وكل يوم نقول اليوم. وقد دهش أخي خليل لنجاحي في الموسيقى العربية وخصوصا على التواشيح النادرة فأعجب بي أيما إعجاب وإني لن أنسى موقف الأخت عفيفة وزوجها منا جميعا وما كانا يقولانه من المساعدة وحسن الضيافة لكل منا نحن الأخوة والوالدة وإني أكتب تشكراتي القلبية بخط يدي إلى صهرنا المحترم ونسأل الله أن يوفقنا برد ولو جزءا مما عمله من خير وفضل طيلة أيام الحرب . كان الأخ خليل يتجول بالقدس بألبسته الرسمية وسلاحه وهكذا بعد إنتهاء مدة الوظيفة وكان بهذه الصورة وكأنه نظاميا بالقدس .

إنتهاء مأذونيتي بالقدس

كان تاريخ المأذونية التي كنت أحتفظ بها والموقعة من قبل قومانداني أريحا كان تاريخ إنتهائها في ١ تشرين أول سنة ١٩١٧ فقد زدت رقم ٣ فأصبح إنتهائها في ٣١ تشرين أول وكنت مقيما بالقدس ننتظر بفارغ الصبر دخول بريطانيا طالما حضر الأخ خليل من بيروت ونكون في محل واحد مجتمعين بعد التشتت الطويل ، ولكن مر التاريخ ولم يتغير الوضع فبقيت مختفيا في الدار ولا أتجول إلا عند الظلام مع أخي خليل الذي كان لباسه الجندرمة وكنا لا نترك محلة مأمن الله القريبة من بيت الأخت عفيفة . كنت أتخذ الأخبار فأذهب إلى بيت حسين أفندي وأرافقه مرارا في السهر والجميع كان متفائل وينتظر الفرج وقد ظهر للشعب الطريقة الشاذة التي أصبحت بموجبها تعامل الحكومة وقادة الجيش الأهالي والجنود فكانت تعاملهم بأشد قسوة وكانت تحاول على إستملاك أي شيء يستطيعون الحصول عليه من التجار بصورة فظيعة . وكانت القادة تجبر بنقل الجنود والعمال إلى بلاد أخرى الأمر الذي أقلق الأهالي وهز كيان القدس بصورة عامة .

الحكم علي بالإعدام إذا ما تأخرت عن الحضور لأريحا

بقيت مختفيا بالقدس بصورة أقلقت أفكار والدتي خاصة إلى أن قضيت شهر تشرين الثاني وبقي الحال كما كنا عليه وكنا نشاهد بعض المعارك في جو وفوق رؤوسنا ما بين طائرات الإنكليز من جهة وطائرة الأتراك والألمان من جهة أخرى حتى إني أذكر أن شظايا قنبلة من الطائرة وقعت قرب منزل الأخت عفيفة.

ثم بدأت المعارك الداخلية فقد نسفت تركيا محطة سكة الحديد بالقدس خوفا من إحتلالها من قبل الأعداء الإنكليز وكان يوما رهيبا بالقدس ولكن لم يطرأ شيء على المدينة وأخيرا تسلمت مذكرة من زميلي مينا الحلبي يقول فيها بأنه صدر أمرا كتابيا بأن القيادة هناك هددت بالحكم بالموت شنقا على كل من فر من الجندرية ولم يرجع إلى أريحا بمدة كذا، وكذا من الأيام، وقد نصحني الأخ مينا الحلبي بأن أحضر حالا ونغتنم فرصة محبة قومانداان أريحا لنا بصفتنا تحت حكمه المباشر بالجندرية.

عزمت على تسليم نفسي والرجوع إلى أريحا

وهكذا وبعد البحث مع العائلة وخصوصا مع الأخ خليل قررنا بالإجماع أن أترك القدس حالا وأرجع إلى مقر عملي في أريحا طالما لم يتغير الوضع ولم تدخل بريطانيا كما كان يشاع في المدينة مع أننا كنا نستمع إلى أصوات المدافع من بعيد من جهة الغرب وخصوصا قرية النبي صموئيل من قرى قضاء القدس.

مشيت مع أخي خليل بعد ظهر نهار السبت الواقع في ٨ كانون الأول سنة١٩١٧ في المدينة بصفته لابسا لباس الجندرمة ودخلت المدينة القديمة واتفقت مع أحد من قرية سلوان بأن يؤجرني حمارا في باكر الصباح التالي من السبت وقد دفعت فعلا عربونا ربع مجيدي فضة وذلك في حي باب السلسلة بالقدس. ثم جئنا إلى كريكور الأرمني الذي كان يبيع الأسلحة مقابل القلعة في باب الخليل واشتريت عددا من الفشك للمسدس الذي كنت أحتفظ به وكانت المدينة مغلقة الدكاكين والجو مكفهر ومكهرب وكانت الضباط يتجولون في الشوارع ويلقون القبض على من يروه من الرجال ويسوقوهم إلى خارج القدس عن طريق أريحا.

وكان يوما مخيفا جدا وقد حصلت على بعض الهدايا لقومانداان أريحا بكل صعوبة ثم سرنا إلى أن وصلنا الزقاق حذاء عمارة الكازانوفا وهناك يشهد الله علينا كدت أن لا أعي أحدا من شدة الفزع لماذا قد التقينا بالقولاغاصي وعبد الرحمن بك وكانا يتجولان في المدينة وكأنهما مصروعان ومن خلفهم عددا كبيرا محاط بالجنود ألقي القبض عليهم وكانوا فارين من الجيش.

كنت آنذاك ألبس ما يسمونه بالبلارين، وكانت موضة في تلك الأيام يشبه العباة وعندما رأيت القولاغاصي دب الرعب في قلبي وقلت في قرارة نفسي بأنه سيلقي القبض علي حالا وخصوصا وأن تاريخ المأذونية مضى عليه مدة تقرب من الشهرين وهكذا لم أستطع أن أحل يدي من تحت البلارين وإنك تعجب عندما أقول:

أن هذا القولاغاصي الذي كان طاغية وحاكم بأمره ومستبد كل الإستبداد بالعرب رفع يده على رأسه وبادرني بالسلام وقال "ناصل كيف أوغلوم" أي كيف حالك يا ولدي؟ ثم تابع سيره مع عبد الرحمن بك. كانت والحق يقال ساعة رضاء وربنا سبحانه وتعالى حنن قلبه في تلك اللحظة ولم يسألني عن الإذن الذي كنت بموجبه أسير في شوارع المدينة التي كانت وكأنها جهنم، وكان ذلك شدة حبه لي فلم ينس ما استمع مني من الموسيقى والطرب في كثير من السهرات التي ذكرت عنها الكثير في الفصول السابقة من هذا الكتاب. أما خليل فقد دهش وبدأ يتسائل عن انزعاجي ولم يعرف من هو قولاغاصي القدس وما عمله في الأهالي طيلة مدة الحرب فمشينا وبدأت له حديثي عنه بصورة واضحة وقلنا الله ستر.

واصلنا سيرنا إلى أن وصلنا باب الجديد ومنه إلى بيت الأخت عفيفة وفي هذا اليوم ألقي القبض على أستاذي خليل السكاكيني وجاره الدكتور الترلافين[1] اليهودي وسيقا تحت الحفظ مع عدد كبير من الفارين إلى أريحا. كانت ليلة مخيفة بالقدس وبدأ إنسحاب الجيش التركي والألماني ليلا وكانت الجنود التركية تنهب ما استطاعت ما تجد بين أيديها وقد هجم بعضهم على البيوت بصورة فظيعة والأهالي يقدمون الطعام ليتخلصوا من شرهم وقد أطعمنا جملة من هذه الجنود التركية. اشتدت أصوات ضرب المدافع على القدس وقراها وكنا نستمع إلى أصوات المدافع من باب الواد وكانت مدافع بريطانيا ولكن من كان يعلم أن هذه الليلة هي الليلة الأخيرة للأتراك؟.
بقينا سهرانين ولم يجسر أحدا على فتح الأبواب أو النوافذ وزادت الحالة سوءا لعند فجر السبت الواقع ٨ كانون الأول سنة ١٩١٧ وفي الصباح توجهت إلى بيت حسين أفندي وبقيت معاه.

[هناك إلتباس في التواريخ فهو ينتقل من بعد ظهر السبت إلى فجر السبت][2]

[...]

الإجتماع التاريخي الأخير ليلة ٨ - ٩ كانون أول سنة ١٩١٧ في عمارة السان جورج البريطانية

عندما اعتقدت القيادة العامة للجيش التركي بقيادة علي فؤاد وبالإتفاق مع الألمان بأن العدو على أبواب القدس وأنه لا مناص من إحتلالها بالقوة من قبل الجيوش التابعة للحلفاء بقيادة الجنرال اللنبي عقد إجتماع مختلط برئاسة سعادة متصرف القدس عزت بك ولن أنقطع عن البقاء بجانب حسين أفندي.
كان هذا الإجتماع التاريخي بالقدس مساء السبت الواقع ٨ كانون أول سنة ١٩١٧ بحضور أكبر موظفي دوائر الحكومة، من مختلف أنواعها ورئاسة قوة بوليس القدس بما كانت تضم عبد القادر العلمي وأحمد شرف واسحاق المسلي وغيرهم ثم أعيان ووجهاء مدينة القدس من مختلف الطوائف وكان القائم بهذا الإجتماع أستاذي داود دعدس الذي كان أمينا على العمارة بموجب تعيين رسمي من قبل نيافة المطران الإنكليزي بلايث طيلة مدة الحرب أي

١ المقصود هنا الدكتور ألتر لافين طبيب وشاعر يهودي إلتجأ إلى بيت السكاكيني حيث كان ملاحقا من السلطة العثمانيه في خلال الحرب وتم إعتقاله مع السكاكيني ونقلهما بالأغلال إلى دمشق [وليس إلى أريحا كما يقول جوهرية] عام ١٩١٧. يروي السكاكيني هذه الواقعة بتفاصيلها في مذكراته "هكذا أنا يا دنيا".

٢ توجد هنا صفحتان ٢٧٧ – ٢٧٨ ناقصات من المخطوطة.

رئيس بلدية القدس الأول في عهد الاحتلال البريطاني حسين هاشم أفندي الحسيني عندما سلم القدس للإنجليز في ١٢/٩/ ١٩١٧. في الوقت الذي يذكر واصف أسماء كل الموجودين في الصورة من عرب وأتراك (انظر النص) نجد أن الصورة قد ظهرت مراراً في كتب عدة وتحتها فقط اسم الضابط لورنس الذي يظهر في الصورة.

الصورة من المجموعة الجوهرية. المصور غير معروف.



منذ إغلاق مدرسة السان جورج في منتصف سنة ١٩١٤ وقد تكلم سعادة المتصرف مطولا عن الحالة السيئة التي أصبحت في البلاد ووجوب تسليم القدس حالا وصدر القرار التالي :

١ . إعادة تعيين حسين بك الحسيني رئيسا لبلدية القدس بعدما كان قد أقاله جمال باشا السفاح منذ سنة١٩١٥

٢ . تسليم حسين بك الحسيني تفويضا رسميا لتسليم المدينة وقد احتفظت بصورة فوتوغرافية لهذا التفويض في المجموعة الجوهرية أذكر هذا نصه

نظرا لشدة حصار المدينة وما يلقيه هذا البلد الأمين من مدافعكم الثقيلة وخوفا من تأثير هذه القنابل الفتاكة على الأماكن المقدسة نضطر مرغمين على تسلميكم البلد بواسطة حسين بك الحسيني رئيس بلدية القدس آملين أن تحافظوا على القدس كما حافظنا عليها مدة ما تقرب من الخمس ماية سنة ، .[١]

التوقيع : عزت متصرف القدس

وكان هذا الكتاب مرفوعا إلى قيادة الجيش البريطاني تسليمه حسين بك الحسيني ولدى الوداع في اللحظة الأخيرة المؤثرة سلم سعادة المتصرف عربته الخاصة "حنطور" وسائقها ومحافظ البوليس القومسير إسحاق العسلي لخدمة حسين بك ولإجراء التسليم عند الصباح.

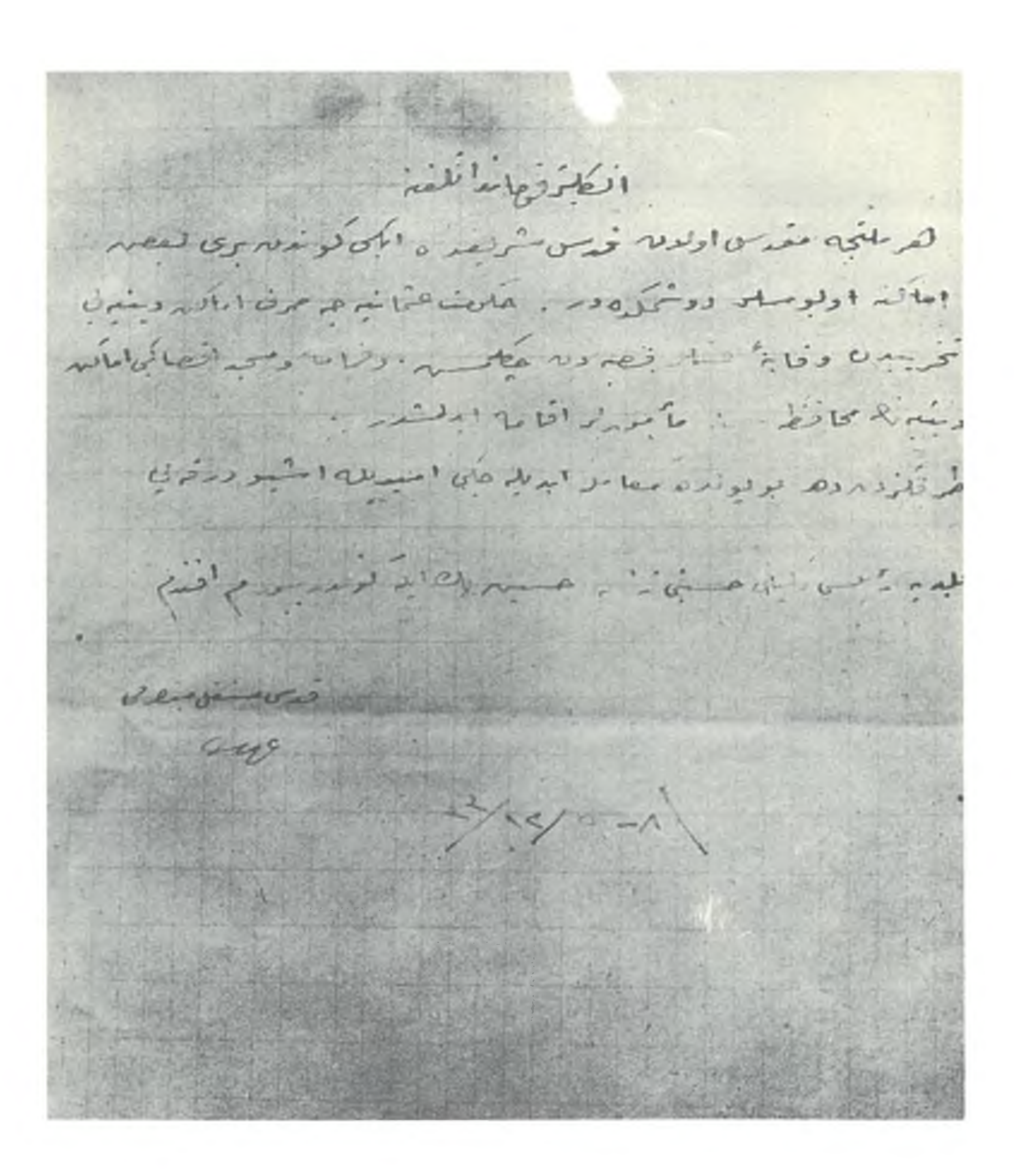
وشرعت قوة الجيش بما فيه الأتراك المدنيين في الدوائر وكذلك دائرة الويركو والطابو بما فيه القيود والسجلات الرسمية بالإنسحاب ليلا عن طريق القدس- الشيخ جراح- نابلس إلى غير رجعه .

وهكذا وبهذا الإجتماع التاريخي شاء القدر أن تتخلص القدس وأهلها من نير الأتراك الظالمين وانطبق القول "دار الظالمين خراب ولو حين بعد حين" .

[...]

١ الأتراك حكموا القدس تماما أربع مائة سنة ميلاديه وهو ما يعادل حوالي ٤١٤ سنة هجرية

صورة الكتاب بخصوص تسليم القدس المقدم بواسطة حسين أفندي رئيس البلدية ١٩١٧.





الجنرال أللنبي عشية دخوله إلى القدس على باب القلعة في باب الخليل عام ١٩١٧. المصور غير معروف الصورة من ضمن المجموعة الجوهرية.

مَلاحِق

ملحق رقم ١

رؤساء بلدية القدس منذ سنة ١٨٥٠ لغاية ابتداء الحرب العظمى سنة ١٩١٤			
الرقم	الاسم	المدة	ملاحظات
١	عبد الرحمن الدجاني		لا يوجد له رسماً
٢	دمتري استريادس		يوناني
٣	موسى فيض العلمي		لا يوجد له رسماً
٤	يوسف ضياء الدين باشا الخالدي		
٥	عبد القادر الخليلي أبو الهدى		لا يوجد له رسماً
٦	عبد السلام ابن ابو سعود والد سعد الدين وعثمان		محفوظ لدي أمر تعينه الاصل لا يوجد رسم "تاريخ التعين" ١٢٨٥هـ
٧	عبد السلام باشا الحسيني		
٨	سليم شاكر الحسيني		لا يوجد له رسماً
٩	شحادة فيض الله العلمي	١٨٧٧	والد ابراهيم فيض العلمي مأمور الوزير /يوجد له رسماً
١٠	الحاج سليم الحسيني	توفي١٣٢٢هـ	
١١	ياسين الخالدي		كان في استقبال الامبراطور غليوم في دخوله القدس سنة ١٨٩٨
١٢	الشيخ محمد يوسف العلمي بالوكالة		
١٣	سعيد الحسيني		١٩٠٠ – ١٩٠٣
١٤	محمد صالح الحسيني		
١٥	زنكي الداودي بالوكالة		
١٦	فيض الله العلمي والد مهى العلمي		١٩٠٤ – ١٩٠٧
١٧	حسين هاشم الحسيني		١٩٠٨ – ١٩١٧
١٧[١]	يوسف ضياء والدين باشا الخالدي		تعيين لمدة ٧ شهور وسلم الى سليم شاكر الحسيني

ملاحظة المؤلف: بقي حسني هاشم الحسيني سنة في مدة الحرب العظمى تقريباً وأقيل من قبل السفاح أحمد جمال باشا، كما أبين للقارئ الحالة التي وصلت إليها بعد حسني هاشم الحسيني في الفصل الثاني من المذكرات، وقد حصلت لهذه الشخصيات الرسوم الشخصية لأكثرهم، وحفظت لدى المجموعة الجوهرية للذكرى .

ملحق رقم٢

متصرفي مدينة القدس منذ سنة ١٨٨٠ لغاية الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧						
١	عطوفتلو	علي رأفت	بك			
٢	سعادتلو	عزت	بك			
٣	سعادتلو	نسيم	بك			
٤	سعادتلو	صالح فائق	بك			
٥	عطوفتلو	رؤوف	باشا			
٦	عطوفتلو	رشاد	باشا			
٧	عطوفتلو	إبراهيم حقي	بك			
٨	عطوفتلو	توفيق	بك			
٩	عطوفتلو	كاظم	بك			
١٠	عطوفتلو	جواد	بك		من	إلى
١١	عطوفتلو	رشيد	بك	كان سببا في نهوض راغب النشاشيبي	١٣٢٠/٨/١٨	١٣٢٢/١٠/٢١هـ
١٢	عطوفتلو	علي أكرم	بك		١٣٢٢/١٢/٢	١٣٢٤/٦/٣١هـ
١٣	عطوفتلو	صبحي	بك		١٣٢٤/٩/١٠	١٣٢٥/١١/٢٨هـ
١٤	عطوفتلو	راغب عزمي	بك	زمن سرقة الحرم	١٣٢٦/٤/١٩	١٣٢٧/٣/١٧هـ
١٥	عطوفتلو	جودت	بك	يقال بأنه كن بالوكالة	١٣٢٧/٦/١٩	حزيران١٣٢٨هـ
١٦	عطوفتلو	عبد الحميد	بك	قومندان بوليس ووكيل متصرف	١٣٢٨/٣/١٨	٩تموز ١٣٢٨هـ
١٧	عطوفتلو	مهدي	بك	بالوكالة	١٣٢٨/٧/٩	١٣٢٨/١١/٣٠هـ
١٨	عطوفتلو	طاهر خير الدين	بك		١٣٢٨/١١/٣٠	١٣٢٨/١٢/١٦هـ
١٩	عطوفتلو	ماجد	بك		١٣٢٩/٣/٣	١٣٣٠/١٢/٢٢هـ
٢٠	عطوفتلو	مدحت	بك		١٣٣٠/١/٢١	١٣٣٢/١١/٢٩هـ
٢١	عطوفتلو	أحمد منير	بك	بالوكالة	١٣٣٠/١/١	١٣٣٣/٣/٧هـ
٢٢	عطوفتلو	محمد جميل	بك	مدير معارف ووكيل متصرف	١٣٣٣/٣/٨	١٣٣٣/٦/٥هـ
٢٣	عطوفتلو	عزت	بك		١٣٣٣/٦/٦هـ	١٩١٧/١١/٩م

ملاحظة:

١. حصلت على تاريخ رواتب متصرفي القدس من رشيد بك من سجل المعاشات الأساسي الذي كنت محافظاً عليه عندما كنت بوظيفة مدير مالي- دائرة حاكم القدس زمن الانتداب.

٢. قد وُفقت بجميع رسوم أكثرية هذه المتصرفين وحفظتها ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى.

٣. يلاحظ القارئ أن المؤلف قد خلط هنا بين السنوات الهجرية والأشهر الميلادي.

ملحق رقم٣

الواردات ليرة عثماني	المصاريف ليرة عثماني	السنة	اسم الرئيس	ملاحظات
الواردات والمصاريف في موازنة بلدية القدس (١٨٧٧ إلى سنة ١٩١٤)				
٣١٠٠	١٣٨٣	١٨٧٧	شحادة العلمي	
٣٨٠٠	٣٧٧٤	١٨٧٩	الحاج سليم الحسيني	مع رسوم الكازخا التي أنشأت بزمانه
٨٠٧٦	٧٤١٠	١٨٩٧	الحاج سليم الحسيني	
٦٧٣٦	٦٣٦٦	١٨٩٨	يسين الخالدي	لغاية سنة ١٨٩٩
٧٥٩٨	٧١٠٨	١٩٠٣-١٩٠٠	سعيد الحسيني	
٩١٥٧	٧٩٨٩	١٩٠٧-١٩٠٤	فيض الله العلمي	
١١٩٠٩	٩٢٣٧	١٩١٤-١٩٠٨	حسني هاشم الحسيني	
١١٢١٦	٩٧٨٧	١٩١٤	شاكر بك ارطغور	

ملحق رقم٤

علماء ورجال النهضة في قائمة باسماء أدباء القدس في العهد العثماني بين ١٨٨٠- ١٩١٤	
المسلمون	المسيحيون
يوسف باشا الخالدي	نخلة زريق
روحي بك الخالدي	بندلي الجوزي
الشيخ خليل الخالدي	أفتيم المشبك
شكري بك الحسيني	خليل بيدس جريدة
الشيخ طاهر أبو السعود	توفيق زيبق
الشيخ موسى البديري	شبلي الجمل
الشيخ علي الريماوي	أمين فارس
الشيخ محمد الصالح	بندلي المشحور جريدة الانصاف
الحاج رشيد النشاشيبي	جورج حبيب حنانيا جريدة القدس
موسى بك عقل	سالم ديوان
الشيخ أسعد الامام	خليل السكاكيني
موسى المغربي صاحب مجلة المنهل	الياس الحلبي
عارف حكمت النشاشيبي	سوتيري حنانيا
اسعاف النشاشيبي	ثيودر صروف
محمد جاد الله	جورج متى من عكا وكان شاعراً
محمود جاد الله	
الشيخ سعود العوري	
أبو أمين العوري	
عبد المحسن الحسيني	
ابراهيم السلفيتي	
عادل جبر	

وإني أحتفظ برسوم هذه الشخصيات ضمن المجموعة الجوهرية للذكرى .

حصلت عليها من المربي الكبير الاستاذ أحمد سامح الخالدي بالقدس

ملحق رقم٥

محامو مدينة القدس في أواخر العهد العثماني		
الاسم/ مسلمون	الاسم/ مسيحيون	الاسم/ يهود
موسى بك الحسيني	حسن البديري	ميكائيل ماني
راغب ابو السعود	شكري بك الدجاني	هارون ماني
موسى شفيق الخالدي – شرعية	رأفت بك الدجاني	موسى فاليرو
عثمان راتب الخالدي	نجيب بك أبو صوان	
عثمان زكي الخالدي	جورج أبو زخريا	
داود الراغب الحسيني	عيسى أبو زخريا	
محمد أبو الهدى الخليلي	فرنسيس أنطون البنا	
موسى بك عقل	حنانيا حنانيا – بيت لحم	
علي شاكر الدادوي	جورج الحمصي	
اسحاق أبو السعود	جرجس جوهرية	
عبد القادر طهبوب		
ابراهيم كمال		
جميل بك الحسيني		

تأسست المحاكم النظامية بالقدس عندما حضر المرحوم واصف بك العظم المؤيد من دمشق بوظيفة رئيس محكمة الجزاء بالقدس وذلك ما بين ١٩٨٠ إلى ١٨٧٩ وقبل هذه المدة كانت المحاكم الشرعية القضائية بين الشعب فقط .

ملحق رقم ٦

أسماء الصحف التي صدرت في القدس لغاية ١٨ آذار سنة ١٩١٤				
الرقم	اسم الجريدة	اسم منشئها	تاريخ ظهورها	ملاحظات
١	القدس الشريف	رسمية	١٩٠٣/٠٩/٠١	احتجبت بعد خمسة أعوام
٢	صهيون [خطية]	مدرسة صهيون الانجليزية	١٩٠٩/٠٣/٢٧	
٣	النفير العثماني	ايليا زكا	١٩٠٨	تأسست في الأسكندرية ١٩٠٤ انتقلت الى القدس١٩٠٨ باسم [النفير] ونقلت الى حيفا١٩١٣
٤	القدس	جورج حبيب حنانيا	١٩٠٨/٠٩/١٨	
٥	الاحلام [خطية]	لم يعرف صاحبها عيسى الطبه	١٩٠٨/٠٩	
٦	الديك الصباح[خطية]	لم يعرف صاحبها نخلة كتة	١٩٠٨/١٠	
٧	بشير فلسطين	اثاناسيوس تبوفيلو باندازي	١٩٠٨/١٢/٠٥	باللغتين العربية واليونانية ثلاثة أعداد فقط
٨	منيه الاموات [خطية]	لم يعرف صاحبها جيرا يا سمينة	١٩٠٨	
٩	البلبل[هزلية]	لم يعرف صاحبها	١٩٠٨	
١٠	الطائر	لم يعرف صاحبها	١٩٠٨	
١١	الأنصاف	بندلي الياس مشحور	١٩٠٨/١٢/٢٣	
١٢	النجاح	أحمد الريماوي	١٩٠٨/١٢/٢٤	
١٣	الدستور [خطية]	المدرسة الدستورية	١٩٠٨/١٢/٠٦	
١٤	المنادي	سعيد جاد الله	١٩١٢/٠٢/٠٨	
١٥	الدستور	جميل الخالدي	١٩١٣/١١/٢٦	
١٦	القدس الشريف	رسمية	١٩١٣/١٢/١٨	ظهرت للمرة الثانية فى١٩١٣
١٧	الأعتدال	بكري السمهوري	١٩١٤/٠٣/١٨	
١٨	الباكورة الصهيونية	مدرسة صهيون الانجليزية	١٩٠٩	
١٩	الدستور	تلامذة مدرسة الدستور	١٩١٠/١٢/٠٦	
٢٠	المنهل	موسى المغربي	١٩١٣/٠٨/٠٥	
٢١	النفائس	خليل بيدس	١٩٠٨/١٠/٠١	
٢٢	النفائس المصرية	خليل بيدس	١٩٠٩	

خلال الثماني سنوات أو العشر سنوات الأولى ظهر في القدس وحدها لا أقل من أثنين وعشرين صحيفة . ثم كانت فترة الحرب الكبرى الأولى فلم يظهر في القدس صحف عربية إلا جول مصور حاجي جمال١٤/٠٩/ ١٩١٦ أنشأها جمال باشا قائد الجيش في الحرب في بئر السبع .

ملحق رقم ٧

ملليات	قرش	مجيدي	ليرة تركي	الجنس	قرش	ليرة	الجنس
أسعار بعض الحاجيات الغذائية في القدس زمن الحكم العثماني ١٩٠٠-١٩١٤							
			١	القمح الحوراني ثمن الحمل عشر طبات	٤		الكتان الالماني (الذراع)
٠	٧٠	٠	٠	الشعير ثمن الحمل عشر طبات	٠	٣	بدلة الرجل
	١,٥			العدس ثمن الرطل		١	القنباز الجوخ خالص
٠	٢	٠	٠	الحمص ثمن الرطل	٢٥	١	السروال الجوخ خالص
	٢			الفول ثمن الرطل		١	قنباز المروزة خالص
٠	٢,٥	٠	٠	الرز الرشيدي لونه أحمر ثمن الرطل	٥٠	١	قنباز المروزة والقباني
	٣			البرغل من الارمل ثمن الرطل	٤٥		كندرة الرجل اليوط
٠	٣	٠	٠	السميد الممتاز ثمن الرطل	٣٠	٠	البلغة
	١٨			كان رطل المعمول يكلف خالص	٤٥		كندرة السيدة مع الكوش
٠	٢٠	٠	٠	السمنة الرطل	٠	٢	العباة وكر الجمل
	٧			الزيت الرطل	٥٠	٢٠	العباة الجوخ
٠	٢٥	٠	٠	السيرج الجرة خمس ارطال	٤٠	٠	الابزار الاستانبولي
	١٥			الزبدة ثمن الرطل		٢	الملاية
٠	٠	٠	٠	الجبنة الحلوة ثمن الباطية ٤ رطل	٥٠	٢	الحبرة
	١٩			الجبنة المكبوسة النابلسية ثمن الرطل			
٣,٥	٠	٠	٠	المطبقة وزنها مرة وثلثين المرة من الحاط	٧,٥	٠	لحمة خروف ثمن الرطل
٦				البقلاوة لكل وقية	٤		الدجاجة
٢	٠	٠	٠	الكنافة لكل وقية	١ متليك	٠	البيض ٤ إلى ٥
	٢			القطين ثمن الرطل	١		البرتقال والليمون ٨ إلى ١٠
٠	٣	٠	٠	الزبيب ثمن الرطل	٠	١,٥٠	البطيخ الطون
٢	٠	٠	٠	العنب الدبوقي ثمن الرطل			

هذه أسعار بعض الاشياء الرئيسية التي كانت في العهد العثماني ما بين سنة ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ تقريباً، وبالنسبة إلى هذه الاسعار كان الدخل الشخصي في ذلك الوقت قليلاً فقد كان الراتب متصرف القدس حوالي الخمس إلى العشر ليرات شهرياً، وكان كاتب التحريرات مثلاً يبدأ براتب قدره ٤٠ قرشاً شهرياً والسبب في ذلك هو أن العملة العثمانية كانت ذو قيمة كبيرة وأن الليرة العثمانية كانت تصرف بماية قرش أي بأربعماية متليك، والمتليك مقسم أيضا الى كبكين ونصف الكبك، ونص الكبك الذي كان آنذاك يقسم إلى سمنوت ويمكنك شراء شيئاً ما بهذا السمنوت .

وأما في القرن أو القرنين اللذان يسبقان القرن العشرين زمن أجدادنا فقد كانت الحاجايات تباع بأسعار أقل من الاسعار المذكورة أعلاه لان دخل الرجل قليلاً جداً إن كان موظفاً تاجراً أو ملاكاً أو مزارعاً وأني أثبت قولي هذا بأني أحتفظ بحجة بيع لدار تقع في محلة باب القدس تحتوي على بيتين للسكن مع ساحة سماوية ومنافع وصهريج ماء، بحدودها الكاملة من الأربع جهات مؤرخة [منذ ٢٨٠ سنة تقريباً] وقد جرى بيع هذه الدار من فلان الفلاني إلى فلان بموجب الحجة المبينة هذه بمبلغ [مائتين وخمسة وسبعين غرشاً تركياً] ٢٧٥ غرش، وتسجل البيع رسميا لدى المحكمة الشرعية بالقدس.

العائلات المسيحية التي كانت تسكن أحياء المسلمين في الفترة العثمانية المتأخرة في القدس

ملحق رقم ٨

بصفتي مسيحياً ومن سكان محلة السعدية المعروفة بحي المسلمين داخل السور من أهالي القدس رغبت بأن أذكر للقاريء الكريم حدى الرابطة والاخوية الصادقة التي كانت في العهد العثماني بين أهل بيت المقدس، فعندما تقرأ هذه القائمة بأسماء العائلات المسيحية التي كانت تسكن بين المسلمين، يتضح لك جلياً بأنه كان لا فرق بين مسلم ومسيحي بين الاهلين رغماً عن دين الدولة آنذاك كان الدين الاسلامي، فكنا والحمدالله نتمتع بحب واحترام الجيران المسلمين لأخر يوم من العهد العثماني ولم يحدث أي فارق بيننا إلا بعدما دخل بلادنا العزيزة إبان الاحتلال البريطاني الذي حاول بكل ما أوتي من قوة بأن يعكر صفو الاهلين ليطبق عادة الاستعمار "فرق تسّد".

محلة باب العامود

يعقوب السنونو	عائلة القاطرجي
يانكو السنونو	عائلة داود نزهة
جورج السنونو	عائلة الشموط
عائلة قرط	عائلة خميس
عائلة الحرو	عائلة الضو
عائلة منصور	عائلة الخياط
عائلة ملوك	عائلة عطاالله

محلة عقبة رصاص

عائلة الشمور	عائلة الصباغ
عائلة الهوبي	عائلة فضلو
عائلة غانم	عائلة بدور
عائلة الأسي	

باب العمود الواد

عائلة الاجرب	عائلة الشماع
عائلة الجدع	عائلة الاولي
عائلة زفريا	عائلة قسطندي المنى مدخل قنطرة خضير
عائلة سليمان جوهرية جدي حذاء بابور صلاح	

محلة السعدية

حنا الجلي والد انضوني ورح واخوانهحنا الخروف والد حنا والياس واخوانه ثم كانت هذه الدار مدرسة للمسيحين

عائلة الحبش والد سبير	عائلة سليم قريطم
عائلة باسيل فتالة	عائلة الضو
عائلة الطمس	عائلة الياس غمار واخوانه سمعان

تتمة ملحق رقم ٨

عائلة وضمان
عائلة متري النصراني حكيم
عائلة يعقوب فاشه
عائلة متري قسطندي المنى
عائلة جريس اليهو
عائلة زخريا
عائلة انضوني ابو القرامي دار ملوك
عائلة سباط أبو عبد الله دار ملوك
عائلة ابو صليبا بكار
عائلة الجدع
عائلة عبد الله المنى
عائلة أبو شحادة ملوك
عائلة النعسان
عائلة اللنجي
عائلة أبو داود الحلاق دار ملوك

عقبة الاصيلة

أنا اليونانية
عائلة البلقوق
عائلة اندراوس الحويط
عائلة متري جريس المستكلب

السعدية رقم ٢ الفوقا المدخل من خلف باب العامود

عائلة جريس بشورة الدباح
عائلة فضول الملقب بكعب الموت
عائلة القندلفت ومنها جورج ابوكرش واخيه شفيق – مع عيسى الصوص في الحرب العظمى
عائلة خريستو الخياط تيرفيلة
عائلة بترو خميس والد الاستاذ جورج
عائلة الانكليزي ابو سالم
عائلة ابو جضم "أبو رزق"
عائلة شحادة الكرشة
عائلة الجرجوعي
عائلة دميان البرامكي "المولوية"
عائلة استاوري القاري
عائلة البطماني
عائلة القسيسة يوسف واخوانه
عائلة بلحة ام جريس بلجة " حنضل "
عائلة الخيو
عائلة حنا منصور طبالي
عائلة جوهرية القديمة " المولية" خليل جوهرية جدي
عائلة والدي جريس جوهرية محلة السعدية أمام الشيخ ريحان

عقبة المفتي

عائلة الملوخية
عائلة الصوص
عائلة أبوحشيش
عائلة بقيلة
عائلة بلان
عائلة بحبح

ملحق رقم ٩

سناجق [بيارق] سبت النور

وفي هذه المناسبة أقدم للقارئ قائمة قيمة بأسماء العائلات من طائفة الروم الارثوذكس العرب من أهالي القدس التي لها الحق بحمل السناجق [البيارق] في احتفال سبت النور لسيدنا المسيح، وقد حصلت عليها من سجل قديم محفوظاً لدى البطريكية الارثوذكسية بالقدس بواسطة أخي السيد عيسى الطبة مختار الطائفة. ومن المعلوم أن هذه السناجق تحفظ عادةً في كنيسة مار يعقوب هذه الكتدرائية التي لم تزل والحمد الله بيد طائفة الروم الارثوذكس العرب بالقدس.

التسلسل	العدد	اسم العائلة	اسم من يحمل السنجق	وزن الهجاء	زيادة تأكيد في الصف
الاول	١	سلمان	الياس ، اندراوس ، صليبا ، عيسى	*	التاسع
الثاني	٢	الاجرب	جبران الاجرب	*	الثاني
الثالث	٣	الحبش	نخلة متري الحبش	*	الرابع
الرابع	٤	الحرامي والبغل	جرجي الحرامي	*	الثالث
الخامس	٥	القرعة	زخريا جريس القرعة	*	الثاني عشر
السادس	٦	كتوعة	سمعان عيسى كتوعة	*	السادس
السابع	٧	شماع	موسى شماع	*	العاشر
الثامن	٨	كتن	حنا جري سكتن	*	الخامس
التاسع	٩	محشي	يعقوب محشي	**	السابع
العاشر	١٠	ابو زخريا	داود ابوشهلة	**	الثالث
الحادي عشر	١١	منصور	ميخائيل منصور	**	الثامن
الثاني عشر	١٢	علوشية	نقولا عنصرة	*	الحادي عشر
الثالث عشر	١٣	أبو زخريا	صليبا زخريا	*	الاول

ولقد حصلت على صورة شخصية لكل واحد من العائلات المذكورة أعلاه محفوظة لدي في المجموعة الجوهرية .

ملاحظة(١) :

١. إن عائلة العقروق لها الحق بدق النواقيس في كنيسة القيامة.

٢. أن عائلة سلميت لها الحق باستلام قنديل النور المقدس من شباك القبر من يد غبطة البطريرك .

٣. أن عائلة فراج طناس واخيه لها الحق بإنارة الشموع من على قبة صليب القامة فوق نصف الدنيا .

٤. عندما يفيض النور يخرج البطريرك وما شيته ويرجع الى البطريركية من الدرج داخل كتدرائية مار يعقوب .

ملاحظة(٢) : كتب أخي وصديقي السيد عارف العارف في كتابة المسيحية بالقدس :

١. سنة ١٥٠٥ زمن البطريرك مرقص الثالث أصدر السلطان أمراً جاء فيه أن مفاتيح القيامة يجب أن تكون بيد بطريرك الروم ولا يجوز لأحد أن يزور القبر إلا إذا كان يصحبه نائباً عن البطريرك المذكور .

٢. على عهد البطريرك ذوروتيوس الثاني وهو عربي ، افتتح القدس السلطان سليم فجعل البطريرك مقدماً على جميع الطوائف المسيحية الأخرى، وأقام أبوه السلطان حراساً على القيامة من

الألعاب الشائعة في مدينة القدس في العهد العثماني

الصينية " الدستور "

كانت لعبة الصينية أو الدستور مشهورة ومحببة لدى أهالي بيت المقدس وكانوا يقضون القسم الأعظم من سهراتهم وخصوصاً في ليالي فصل الشتاء الطوال بالضحك والنزهة والترفيه عن النفس بصورة يعجز القلم عن وصفها . كان عدداً كبيراً من العائلات المسيحيين يتفقون بغرض ما يسمونه بالدور أي سهرة واحدة من كل اسبوع في بيت كل من هؤلاء من الناس والذي يكون عليه الدور يقدم لمن يكون في السهرة الحلوى والشرابات الساخنة والبرازق والنقرشة طيلة الليل إلى أن تنتهي السهرة ويبقى الغالب والمغلوب على هذه الصورة يلعبون الصينية تلك اللعبة الجميلة ولا يشعرون كيف انقضى الشتاء ولياليه .

أما اللعبة فهي كما يلي:
ينقسم الحاضرون في السهرة إلى قسمين ويعين على كل قسم رئيس ويجلسون في الغرفة متقابلين لبعضهم ومن حولهم باقي العائلات وأولادهم يتفرجون، ينفرد القسم الأول فيأخذ صينية "صدر" كبير واسع ويضع عليها اثنى عشر فنجاناً من فناجين القهوة مقلوبة على بابها ويضع الخاتم أو الكشتبان تحت فنجان ما منها ، ويكون دائماً عدد الفناجين مساوي لعدد الفريق الواحد مع رئيسه، يدخل أحد هذا الفريق حاملاً الصينية وعليها الفناجين ويضعها أمام رئيس الفريق الثاني على الأرض لان جميع من حضر كان متربعاً في القاعة على الأرض، كما كانت العادة في ذلك الزمن، ومن المفروض أن يتفق رئيس الفريق وأعضائه على اكتشاف الخاتم أو الكشتبان وأن يحزر قبل ما يقلب الفنجان، فيقول الرئيس مثلاً : هذا بوش " أي أن هذا الفنجان فاضي ويقلبه " وهذا بوش، ومثلاً هذا "الي يعطينا" أو هذا الدستور بمعنى أنه الخاتم .

فإذا حزر رئيس الفرقة أين الخاتم كان موجوداً تحت أي فنجان قهوة قبل قلبه يصير التصفيق الحاد من زملائه ومن حضر في البيت " ما عدا الفريق الخصم " يُسجل للرابح علامة واحدة، ويأخذ الصينية لأنه ربحان فيعمل ذات العملية ضد الفريق الأخر وهكذا، وإذا لم يحزر يسجل له علامة خسران وتقدم له مرة واحدة الصينية مثل المرة الأولى إلى أن ينتهي الوقت المعين بين الفريقين اللاعبين، وعندها الغالب يظهر جدياً للعموم .

وهنا بيت القصيد يتحمس الفريق الغالب وبالاتفاق مع رئيسه ينشر القصاص أو العقوبة المبتكرة ضد كل من الفريق المغلوب، ثم تصدر الإرادة السنية من الرئيس بأن يخرج أحد أفراد الفريق المغلوب لخارج القاعة ليتمكن الرئيس الغالب من المذاكرة مع أعضاءه على شكل العقوبة وبعد برهة ينادي عليه وكأنها محكمة فيدخل هذا المسكين وينفذ الحكم فيه أمام الحاضرين، مثلا:
الحكم ينطق بأن هذا المغلوب يجب أن يرقص ويمثل الدب في رقصة، فتصور يا أخي حالته عندما يكون مسناً وله لحية جليلة شائبة!، يقف في الوسط ويرقص على أنغام الدربكة والتصفيق الحاد من جماعة الغالبين اللذين يكونون يمدحون " قام الدب ليرقص، وقتله سبع أنفس، أو أصله بجيبه للميدان!! وهكذا" ، فيكون المسكين مكسوفاً ولم يجرأ على الرفض مطلقاً إلى أن تنفذ الأحكام المخلفة بحق كل من الفريق المغلوب وعلى الخصوص الرئيس .

هذه لمحة وجيزة عن لعبة الصينية التي كنا نلعبها في القدس، وأما هذه اللعبة فكانت تستعمل عند المسلمين في بيوتهم بين الرجال فقط، وتكون النساء المتحجبات خارج القاعة يشاهدون ذلك من أطراف الأبواب والشبابيك وكانت العادة بأن الرجال المسلمين تلعبها في الغرف المعروفة (بالاوضة) يتجنبوا الاحتكاك مع النساء .

أكلة حلوى القيس واليمن

طهي فاكهة القراصية أو القمر الدين بالسكر، بحيث أن اللون أحمر يمثل شعار القيس، وبعدها يسكب في الصحون لعندما يبرد، وبعدها يجي ما يسمونه بالهيطلية المعمولة بنشاء القمح والسكر ويصب من فوق القراصية أو الموردية التي أشرت اليها أعلاه، ثم يرشوا قليلاً من الصنوبر والقزحا عليها، وهكذا تعرف باكلة قيس ويمن .

أما الموردية فقد تسكب في الصحون لوحدها وهي من القمر دين ونشا القمح بالإضافة إلى قليل من القرفة .

شراب السوس والخروب والتمر هندي

فهو لم يزل والحمد الله يستعملونه في الأقطار العربية، وهذه الانواع من الشرابات المنعشة مفيدة لجسم الإنسان أكثر مما تستعمله في يومنا هذا مثل السفن أب ، والكوكولا وغيره .

الكعكبان

حقاً إنه حلوى لذيذ للصغار والكبار ولونه أبيض ناصع، ينشره صانعه عندما يكون لزجاً على العصا أشبه بلفة قماش بيضاء بطول ٦٠ إلى ٦٥ سنتمتر، وبعدما يبرد يبس ويبيع كل قضيب منه عندما يكسر بإصبعه طرفه العلوي من على العصا، يبيع الكعكبان في جميع الاحتفالات والمهرجانات الشعبية التي كانت عادة تقام حول القدس .

القرقوشة

من عجين يعمله البائع فيمتد لما فيه من كاربونات عندما يقليه في السيرج، وهو خفيف الوزن وخفيف على المعدة وليس فيه سكر، ويباع عادة أيضاً للأولاد في المهرجانات .

هو كناية عن شوربة من القمح البلدي المقشر المغلي جيداً ويدخلون عليه حب الاجاص والزبيب مع قطع أعواد القرفة ويوكل بالملاعق بعدما يرشوا عليه الصنوبر وهو والحق يقال اكله حلوى بيتية لذيذة، فيأخذ رب أو ربة البيت قليلاً من القمح المقشور المنشف قليلاً ، ذلك القمح المنوه عنه بالخشانة، ويضعوا قليلاً في الصحن ويعملون الصحون بعدد الأولاد الصغار ليلة عيد البربارة، ثم يضعون عليه قليلاً من اليانسون والقضامة المطحونة وقليلاً من السكر الناعم، ويجيء الفنان في العائلة ويزين كل صحن بالملبس والكستنة المذهبة والصنوبر والزبيب وعروق الشجر رسماً من ناعم القرفة وناعم البقدونس، ويضعوا هذه الصحون في محل مرتفع في البيت وفي الصباح عندما يفيق الولد ليأكل صحنه المزوق المزركش الحلو والذي يحلم فيه ليلاً، يجد قليلاً من النقود المستعملة فكانت متليك فيزداد فرحاً وطرباً ويصح من فرحته فيحينه والده أو والدته وتقول له [شفت يا فلان، يظهر أن القديسة بربارة راضية عليك ودروسك بنجاح بناءً عليه لا تأكله لما تشوف إذا زارك ما سابا هذه الليلة فيقتنع ويبقى صحنه، وثاني يوم يجد متليك آخر على ذات الصحن فيزداد طرباً ونشاطاً واجتهاداً في دراسته، فتقول له والدته أصبر لما تشوف إذا كان مار نقولا يزورك هذه الليلة وبس، فيصبر، وبالفعل وفي صبيحة النهار الثالث يجد المتليك الثالث ويشكر القديسين ويأخذ الدراهم ويأكل الصحن .

وكثيراً ما من إخوانه [كذا] لم يجد هذا المتليك على صحنه لأنه كان شقياً معذباً في الدار والمدرسة وطبعاً تعود هذه النظريات إلى الوالدين !! الله .

صينية الحلبة

أكلة خاصة بأهل مدينة القدس ولا سيما أبناء الطائفة الارثوذكسية، يتباهون بها ويأكلونها ويقدمون إلى ضيوفهم منها في شطحة ستنا مريم اثناء الصيام، لان هذه الحلوى لا يدخلها شيء من الدسم، وهي من السميد المعجون بالسيرج، ويصب عليه القطر السكري والهم وجود الحلبة ومائها بعد الغليان مع العجن، ومن الناس من أحب وأدخل عليها حشوة جوز والسكر .

عصفورك طير

أكلة قطر جامد يتلاعب فيه البائع الفنان ويعمل منه العصافير الملونة فواق أعواد خشبية مشكوكة على ضلع حبر ونبدة يا على صونه [عصفورك طير يا صغير] وذلك في شطحات القدس والمهرجانات ولا سيما في موسم النبي موسى .

كعك ومعمول العيد

ترمز الكعكة الى اكليل الشوك فوق رأس السيد المسيح على الصليب، والمعمولة طبعة المسمار وللتأكيد كان يعملون المعمولة في الزمن السابق ذات ثلاث زواية تشبه طبعة المسمار البلدي المصنوع باليد، قبل المسامير الأجنبية، وأما البيض فالأصل كان اللون الأحمر وبس [وليس المزوق] لأنه من دمع السيد المسيح من مسامير الصليب .

أليشار: يعقوب وشاول الحاخام باشي، حزان، مرعش، عنتيبي، نافون، انجيل: ماير انجيل هاخام باشي القدس،
بانجيل: ويدال، ماني إلياهو ماني حاخام باشي الخليل ثم سليمان ماني،
وليدو حايم، حيفيظ: إسرائيل، أبو جويد[؟]، نافون، عمائيل، كوكيا، أمدورسكي، ليفي، كينيك، حسيدوف، أبو العافية.
اشكنازي: اسحاق حاخام باشي ثم بانجيل ثم أليشار ثم يعقوب ماير وكان بدون خلف، ثم بانجيل... بعده بنسيون حايم عوزئيل.
موسايدف، يوسيفوف، بنيامنيون، شاؤلوف.

تغنينا المذكرات الجوهرية بلمحة فريدة عن الحياة اليومية في القدس في بداية القرن العشرين. ان صوت واصف جوهرية المفعم بالحيوية الساخر احيانا والتعددي والمدجن احيانا اخرى والعلماني من دون ادنى شك ياتينا برؤية لطالما نحن بحاجة اليها في اطار الدراسات السائدة والتي تظهر القدس العثمانية كمدينة موجودة خارج التاريخ ذات حياة متاصلة في الهويات الدينية. في المقابل فان هذه المذكرات ليست حديثة الطابع فقط بل انها ايضا بشان مدينة دخلتها الحداثة.

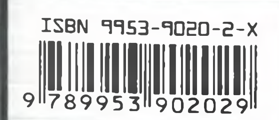
دينا رزق خوري - استاذة التاريخ والعلاقات الدولية في جامعة جورج واشنطن



واصف جوهرية ملحن وعازف عود ومؤرخ مقدسي ولد عام ١٨٩٧ في القدس وتوفي في بيروت عام ١٩٧٣.

سليم تماري استاذ علم الاجتماع ومدير موسسة الدراسات المقدسية

عصام نصار استاذ التاريخ ومدير مشارك في موسسة الدراسات المقدسية



$ 20.00